

دكتور لوبيس عوض

# ثورة الفكر

في عصر النهضة الأوروبية



Biblioteca Alejandrina

٤٣٣٤٢٦٥



مركز الأهرام  
الترجمة والنشر

ثورة الفنون  
في عصر النهضة الأوروبية

دكتور لويس عوض

**الطبعة الأولى**

**١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م**

**جميع حقوق الطبع محفوظة**

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر  
مؤسسة الأهرام — شارع الجلاء القاهرة  
تلفون ٧٤٨٢٤٨ — تلكس ٩٢٠٠١ يوان

المحتويات

صفحة

		تمهید
۰	۰	مارکو بولو
۷	۰	داننتی الیجیری
۲۷	۰	بسترارک
۵۵	۰	بوکاش یو
۶۳	۰	مکیافیلی
۷۳	۰	لورنزو دی مدیشی
۱۶۶	۰	سافونارولا
۱۲۸	۰	بیکو دیلا میراندولا
۱۷۳	۰	لیوناردو دانشی
۱۸۲	۰	رفایل
۲۰۱	۰	میکلانجا ۰
۲۰۹	۰	زارزم وس
۲۲۸	۰	جورданو برونو
۲۴۱	۰	جالیلی ۰
۲۷۳	۰	کامبانیلا
۳۰۲	۰	

## لِتْهَيْد

ليست هذه الكلمة مقدمة ، ولكنها مجرد تمهيد . ومن يتأمل هذه الدراسات يجد أنها تمثل أهم مقومات عصر الرئيسيانس المعروف بعصر النهضة الأوروبية ، ويجد من جهة أخرى أنها تمثل الدعامات الفكرية التي قادت عليها الحضارة الغربية الحديثة .

وهناك روح الاستكشاف والمخاطرة والاقتحام التي تجلت في أسفار ماركو بولو وما زالت تلهم الوجدان الأوروبيين قرونا حتى اينعت في مغامرة كولمبوس الكبري والكشف عن الأمريكتين ، والكشف عن رأس الرجاء الصالح واستراليا ونيوزيلندا والقطبين ، حتى فض مغاليق القارة العذراء ، (أفريقيا) ، في القرن التاسع عشر . وبعد أن فرغ الإنسان من كوكبنا بدا يغزو الكواكب الأخرى في نهاية القرن العشرين . وقد استغرقت رياادة الفضاء ستة قرون كاملة ، منذ حسابات كوبرنيك وجاليليو الدقيقة لمدارات الأفلام حتى وطئت أقدام الإنسان أرض القمر .

هذه الروح ، روح البحث والسطو ، ولا سطوة بغير بحث ، هي وراء ظاهرة الاستعمار التي اقترنت بالحضارة الغربية الحديثة وانتهت بنزوح ثروات العالم وكنوزه وتكميسها أو استغلالها في أوروبا في الانتاج والخدمات وفي مزيد من البحث والاقتحام .

وهناك ظهر ظاهره الدولة القومية من انتاض الجامدة الدينية التي نجد دعامتها النظرية في دانتي اليجيري وفي مكيافيلي . وهي في وجهها الناضر وراء كل حركات التحرير الوطني منذ جان دارك ، أم شهداء الوطنية في العالم الحديث ، وفي وجهها الكريه وراء العنجويات القومية والعنصرية والدينية ووراء بحار الدماء التي خضبت وجه الأرض منذ آلاف السنين ، وحالت ولا تزال تحول دون قيام مجتمع دولي تترافق عليه رايات الحرية والعدل والسلام .

وهناك انتصار اللهجات الشعبية على اللغة الفصحى (اللاتينية) ، وتحولها إلى لغات حية مزدهرة بالأدب الخصبة بثمار القلب والعقل ، بعد ألف عام من العقم الكنسي الذي قتل الأدب والفنون والعلوم ، وخرق لغة الشعب وجرم ترجمة الكتاب المقدس إليها حتى يحتكر الكهنة فهم نصوص الدين وتفسيرها للملايين من بسطاء المؤمنين ،

هذه اللغات الشعبية التي أينعت في أدب دانتي وبترارك وبوكاشيو ، ونظائرهم في الأدب الأوروبي الأخرى ، كان انتصارها على اللاتينية الفصحى مقدمة لازمة لحركة الاصلاح الديني لأنها أشركت الجماهير في قراءة نصوص دينها وفهمها ومناقشتها ، ومقدمة لازمة لاتساع قاعدة الديمocrاطية لأنها أشركت الجماهير في قراءة نصوص القانون والسياسة بعد أن كانت كالتعاونيذ لا يفهمها إلا الصنفة ، لأنها كانت محظوظة في اللغة اللاتينية الفصحى .

وهناك انتصارات الفنون التشكيلية التي بدأت بفنانى الكواتروتشنتو وبلغت قمتها في روائع ليوناردو دافنشى ورافائيل وMicelangelo ، بعد ألف عام من انقراض التصوير والنحت ، فثم يبق من الفنون التشكيلية إلا فن العمارة لحاجة الكنيسة لبناء الكاتدرائيات ، ولجاجة أمراء الأقطاع لبناء القصور والقلع . أما التصوير والنحت فقد ازدهراهما الشعور الديني لأنهما يذكران بالوثنيات الأولى .

وهناك رد اعتبار الإنسان ورد اعتبار الحياة الدنيا بعد ألف عام من العصور الوسطى ملأه أوروبا بالأديرة واقتصرت البساطة أن نصيّبهم في ميراث الأرض هو حرثها وزرعها لأمراء الأقطاع ، وأن ميراثهم الحقيقي هو ما كان الدكتور حسين فوزى يسميه « القيراط الخامس والعشرون » . الحياة ذاتها خطيئة ، فما بناه بمجده الحياة : بالعلم ، بالفن ، بالفکر ، بالمال ، بالجمال ، بالقوة ، بالسعادة ، بالحرية ، بالمساواة . مجده العالم زائل . وكل هذه الكنوز لا معنى لها إلا في العالم الآخر .

وجاء لورنزو دي مدیتشی وبيکو ديللا میراندولا وارازموس ليحضروا ذلك ، كل بمنطقة الخاص . بل جاء كامبانيللا ليتصور امكان بناء المدينة الفاضلة على الأرض .

وأجمع الجميع على رد اعتبار الحضارات « الجاهلية » ، ولاسيما حضارة اليونان والرومان ، لأنها حضارات اعترفت بالانسان والحياة وبكل ما تحت الشمس . كانوا يقولون : بكل ما تحت القمر . كلهم إلا ذلك الراهب العجيب سافونارولا . ولكن هذه قصة أخرى .

● ● ●

# ماركوبولو

MARCO POLO

١٣٩٥ - ١٤٥٤



لعل ماركو بولو كان أشهر رحالة أوربي قبل كريستوفر كولومبوس (١٤٥٤ - ١٤٥٦) في بدايات أوربا الحديثة ، فهو من أسبق الرواد الذين عبروا آسيا الوسطى واستقروا في الصين . وقد ترك لنا تجربته مدونة، أملأها في سجنه بمياء جنو بعد عودته من أسفاره على رفيق سجنه روبرتكان فالهبت خيال الأوربيين وحفزتهم إلى ارتياح اقطار العالم المجهولة شرقاً وغرباً ، وقد كانت يومئذ ثلاثة أرباع العالم .

وفي العالم القديم لم يكن سكان البحر الأبيض المتوسط يجهلون تماماً وجود الصين ، فهناك وثائق صينية ويونانية ولاتينية تدل على وجود علاقات تجارية طفيفة بين بعض دول البحر المتوسط والصين . ومع ذلك فأنقدم هذه النصوص لا يتجاوز القرن الأول ق.م.

وفي « جغرافية » استرابو (٨٥ ق.م. - ٢٥ ميلادية) أن أول من جاء إلى البحر المتوسط بأخبار الصين كان الضابط نياركوس وهو أحد قواد الاسكندر الأكبر ، وقد سار بجنوده من الخليج الفارسي إلى مصب نهر السند في القرن الرابع ق.م. وكان اليونان يعرفون الصينيين باسم « الصير » غالباً من اسم « الحرير » باللغات القديمة ، وهو « سيريكوم » ، أو ربما كان اسم الحرير على اسم « الصير » .

وجرافيو مدرسية الاسكندرية في القرنين الأول والثاني للميلاد يحدثوننا عن نشاط التجار المصريين القوي في العصرين البطلمي والروماني بين موانئ البحر المتوسط والنوبة والبحر الأحمر والهند وسيلان . ففي كل صيف كان يخرج من مصر أسطول تجاري قوامه نحو مائة سفينة قاصداً المحيط الهندي ثم يعود مع الرياح العكسية في ديسمبر - يناير . وقد وصل الملحقون المصريون إلى الهند الصينية في القرن الأول الميلادي وعند موعدتهم نقلوا أخبار الصينيين إلى علماء الاسكندرية وكانتوا يسمونهم أهل « الصين » أو

« الصينا » .. ومعنى هذا أن المصريين نقلوا إلى الرومان أخبار أمتيين هما « الصير » الذين كانوا يزودون الرومان « بالسيريكوم » أى الحرير ، و « الصين » الذين لا يمكن بلوغهم الا بعد رحلة طويلة وراء المحيط الهندي . والحقيقة أن « الصير » و « الصين » كانتا أمة واحدة .

وقد ورد ذكر حرير « الصير » في بلينيوس الأكبر ( ٢٣ - ٧٩ م ) ، وفي ديو كاسيوس ( ١٥٥ - ٢٢٥ م ) ، كما حدثنا الرحالة المؤرخ الجغرافي باوسانياس ( ق ٢ للميلاد ) عن ذلك وعن دودة القرز . وبالمثل ورد ذكر « الصير » في الشعر اللاتيني عند هوراس ( ٦٥ - ٨ ق.م ) وفرجيل ( ٧٠ - ١٩ ق.م ) ، على أنهم قوم ناعون غريبون الأطوار والعادات .

وكانت أساطير الرومان تقول ان الصينيين لا يعرفون الحرب ولا السلاح وان الفرد منهم يعمر مائتى عام . وفي بلينى الابكر أن روما كانت تستورد من الصين الحرير والمصنوعات الحديدية والفراء — أما الوثائق الصينية فتقول ان الصين كانت تستورد من البحر المتوسط الزجاج والألوان والصوف والكتان والمعادن والرصاص والأحجار الكريمة . وقد جاء في تاريخ الرومان أن « الحرير الذى كان قد امتيازه الخاص بالبلاء » ، أصبح كل الناس يلبسوه في أيامنا هذه . وكان هذا يستنزف ذهب الامبراطورية، فحاول أباطرة روما الحد من استيراده باصدار المراسيم ولكن دون جدو .

كان طريق التجارة بين الامبراطورية الرومانية والصين يمر بالعراق وفارس وبактриا وقشغر ، وهو نفس الطريق الذى سلكه ماركو بولو . وكثيرا ما كان التجار الرومان يشترون منتجات الصين من الهند في طريق الملاحة او من الفرس في طريق القوافل ، مما رفع ثمن المنتجات الصينية في روما مائة ضعف عن ثمنها الأصلى في الصين . ولما أقفل الفرس طريق التجارة مع الشرق في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادى أيام الدولة الساسانية قيل ان رطل الحرير بلغ ثمنه في روما رطلا من الذهب .

وأول مرة نسمع فيها عن بعثة دبلوماسية بين روما والصين ، كانت عام ١٦٦ ميلادية عندما أرسل امبراطور روما الفيلسوف مارك أوريليوس ( ١٢١ - ١٨٠ م ) ، وهو من أسرة الانطونيين ، سفيرا إلى تونكين يحمل هدية منه إلى امبراطور الصين مكونة من العاج وقرن الخرتبت وظهر السلحفاة ، وهى هدية هندية لا رومانية . والوثائق الصينية تتحدث عن « أندون » امبراطور روما . ويظن البعض أن هذه البعثة لم تتجاوز أن تكون زيارة مجموعة من التجار المصريين أو السوريين للصين — وفي ٢٢٦ م زار

الصين تاجر سورى عن طريق الهند الصينية ، ولكن الطريق البرى ، كان هو الطريق الأكثر أهمية .

غير أنه ابتداء من القرن الثالث والقرن الرابع سد الفرس طريق القوافل بين البحر المتوسط والصين ثم تلاهم العرب في القرن السابع فقللت القوافل وقللت السفن الساعية بين العالم اليونانى الرومانى والصين. كما أن أوروبا الاقطاعية كانت مفيرة قليلة الاحتياج إلى صادرات الشرق .. فذابت التجارة بينهما . وفي القرنين الخامس والسادس نقلت بيزنطية زراعة شجر التوت وأنشأت مصانع الحرير وأخذت تصدر الحرير إلى روما . وقد انتهى الانحطاط الشاق وعزلة أوروبا الاقطاعية ، بأن نسى الأوروبيون درجة وجود الصين .

وبتشقق الامبراطورية العربية بدأت أوروبا من جديد تحاول أن تخرج من عزلتها عن طريق الحروب الصليبية لاستعمار الشرق الأدنى ، وفي الوقت نفسه ظهرت فيها اهتمامات جديدة بالشرق الأقصى . وكانت الطلائع في هذا ماركو بولو وأسرته ، وهم من أهل البندقية التي كانت أقوى دولة بحرية في البحر المتوسط ولا منافس لها إلا دولية جنوا .

وفي الحروب الصليبية اكتشف الأوروبيون أن الشرق كان أرقى بكثير من الغرب . تدفق أمراء الاقطاع على سوريا وفلسطين ومصر وبيزنطية لنهب ما يحتلونه من بلاد . فكانوا يغتصبون القصور بما فيها من تحف ثمينة وبدا لهم الشرق كأرض سحرية ونشأت بينهم أسطورة « كنوز الشرق » وتجاهلو أن السواد الأعظم من أهل المشرق كانوا يعيشون في فقر مدقع بسبب جبروت حكامهم . كان تجار أوروبا وفرسان العالم المسيحي قد الفوا مقاعدتهم العادلة الخشنة المصنوعة من خشب الأزو أو البلوط في قلاعهم فرأوا لأول مرة أرائك أمراء المسلمين والمغول وفرسانهم وتجارهم مكسوة بالوسائل والسجاجيد متعددة الألوان ، ورأوا الخناجر والسيوف المطعمية قبضاتها بالأحجار الكريمة . وكان ماركو بولو ابن عصره فكان من الغارقين في الافتتان بالشرق وكنوزه .

وفي فترة الحروب الصليبية تسللت إلى أوروبا بضائع الشرق الأدنى ورقيقه والفاظه العربية واليونانية ، بل وتأثرت عادات الفرسان الفرنسيين والإيطاليين وملابسهم بعادات الشرقيين وملابسهم . ولطول اقامة ماركو بولو وأسرته في القسطنطينية وشبه جزيرة القرم تحولوا إلى شرقيين .

وكان المستفيد الأول من الحروب الصليبية المدن التجارية الإيطالية ، ولاسيما موانئ البندقية وجنوا وبيزا ، فقد كانت هذه المدن والموانئ تمد

الصلبيين بالسفن والسلاح والغذاء ، ومقابل هذا كانت تحصل على القسم الأكبر من الغنائم . وبعد الحملة الصليبية الثالثة حصلت جنوا وحدها على جزء من القدس وعلى انتاكية واللاذقية وعلى ثلاث بيروت وقيصرية وعكا . وبعد ذلك استولى أهل جنوا على فاما جوستا عاصمة قبرص ، وعلى طرابلس في سوريا ، وعلى بعض جزر اليونان مثل خيوس وساموس ، الخ .. وأسسوا في القرم مستعمرة خاصة بهم كانت بمنبة محطة لهم للتجارة مع فارس وآسيا الوسطى .

وفي الحملات الثلاث الأولى استولت جنوا والبندقية على صور وصيدا ، وانتهت المنافسة بينهما بحرب دامية للسيطرة على البحار وعلى طرق التجارة وعلى المستعمرات في بر الشام . وكانت أمالفي أول ضحية لهذه الصراعات . ففي القرن ١٢ حطمتها بيزا وحطمت كل أسطولها . ثم حطمت جنوا أسطول بيزا عام ١٢٨٤ واستولت جنوا منها على ٣٣ سفينة وأسرت ١٠٠٠ محارب . وفي ١٢٩٠ تعاونت جنوا وفلورنسا على تحطيم ميناء بيزا وأغلقتا بالصخور مصب نهر الإرنو .

وبدا الصراع الرهيب بين البندقية وجنوا للسيطرة على البحر المتوسط وطرق التجارة مع الشرق . فكان أهلهما يتقاولون في البحر والبر وفي أسواق التجارة وفي مدن الشرق بلا رحمة ويحرق بعضهم سفن البعض الآخر ومصانعه . وكانوا أحياناً يستأجرن المرتزقة لذلك وأحياناً يتنافسون في استرضاء عرش بيزنطة ويستغلون الخلافات بين أمراء الصليبيين .

وقد كانت النقطة الحاسمة بين البندقية وجنوا هي الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ . فقد سارت الحملة الصليبية الرابعة بناء على نصيحة البندقية ويسند من أسطولها إلى بيزنطة بدلاً من قتال المسلمين ، واستولت على القسطنطينية ودمتها وأنشأت فيها إمبراطورية لاتينية ونهبت من كنوزها غنائم بغير حصر من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والجواهر النفيسة والحرير والفراء والطنافس . واستولى أهل البندقية بالاتفاق السابق على نصف الغنائم وعلى كثير من الامتيازات : استولوا بعد الحملة الرابعة على أهم جزر الأرخبيل وعلى شواطئ بحر مرمرة وعلى كريت وعلى جزر أيونيا وعلى ساحل دالماسيا (في يوجوسلافيا الحالية ) ، وعلى الأحياء التجارية في القسطنطينية وغيرها من مدن بيزنطة . وأقاموا المصنع على سواحل بحر آزوف ، وبهذا استولت البندقية على ثلاثة أثمان الأرضي التي استولى

عليها الصليبيون وحاولت ان تتحكر الرياح في هذه الامبراطورية الرومانية الجديدة ، وبلغت البندقية قمة سلطتها .

كانت البندقية لا تزال في قمة سلطتها في ١٢٦٠ حين بدأ الاخوان نيكولو وماتيو بولو رحلتهما الى الشرق ومعهما الفتى اليافع ماركو بولو بن نيكولو بولو . وكان تجار البندقية في حماية امراء الفرنجة اللاتين وفرسانهم . وكان اهل جنوا يستعدون للثأر بجولة ثانية ، فتعاونوا مع الامراء والفرسان اليونان في دويلات آسيا الصغرى من بقايا امبراطورية بيزنطة .

وفي ١٢٦١ كانت أسرة بولو ، وهم من تجار البندقية ، قد وصلت الى نهر الفولجا عندما اسقطت اهل جنوا الحكم اللاتين في بيزنطة ، وخل اهل جنوا محل اهل البندقية في السيطرة على كل شيء من جزر البا وكورسيكا وسردينيا غربا الى آسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم والبحر الاسود وبحر آزوف وببحر قزوين شرقا .

وسماء تحت هيلمان البندقية او جنوا لم يكن التجار الاوربيون يتتجاوزون في رحلاتهم مدن نهر الفولجا وفارس وآسيا الوسطى لأن طريق الشرق الاقصى كان مسدودا بقوة المغول .

اما في الشرق الاسلامي فقد كانت الشام مجزءا الى امارات او دويلات عربية صغيرة بعضها تحت حكم الصليبيين . وكان اكثر آسيا الصغرى تحت حكم الاتراك السلجوقية . وفي فارس وآسيا الوسطى تعاظمت قوة شاهات خوارزم .اما في بغداد فقد كانت الخلافة العباسية مجرد ديكور او واجهة ، والسلطة الفعلية في ايدي الامراء والسلطانين الترك او الکرد والوزراء الفرس . وكان الفاطميون في مصر لا يعترفون بدولة بنى العباس .

وفي المدن الكبرى مثل دمشق وحلب وبغداد والموصى وتبريز وخوارزم وبخارى وسمرقند وهراء تكونت طبقة ضخمة من الحرفيين الذين كان التجار يستغلونهم بلا رحمة مما اشاع الفتنة والقلائل في هذه المناطق . وكان كبار التجار يسيطرون على القوافل ناقلة التجارة الرئيسية بين الشرق الاقصى والشرق الأوسط والشرق الادنى . ولاسيما الاقمشة والتوابيل والطيور والجلود والفراء والحرير والجواهر والرقيق . واختل الامن بسبب القلق الاقتصادي والقلق الاجتماعي وفتن الصناع وثورات العبيد ، فاختلت طرق التجارة مع الشرق الاقصى ، مما جعل كبار التجار يعملون على ظهور قوة ضاربة موحدة تؤمن لهم طرق القوافل . وفي هذه الظروف قاد جنكيزخان جحافل المغول عبر آسيا واوروبا الشرقيتين .

محتى النصف الثاني من القرن ١٢ كان النظام الاقتصادي في منغوليا نظاماً اقطاعياً يقتسم فيه أبناء منغوليا سهوب بلادهم ومراعيها وبرارتها وكانتوا يسمون أنفسهم بـ«النويون» و«البكتول». وفي أواخر القرن ١٢ قاد تيموشين هذه الاستقرارية المغولية، وفي ١٢٠٦ وحدتها ووحد بها كل منغوليا وسمى نفسه جنكيزخان. وبين ١٢١١ و ١٢١٦ اجتاحت جنكيزخان بجيشه الجرارة، وقوامها من الفرسان، الصين الشمالية، وفي ١٢١٧ اجتاحت آسيا الوسطى وهزم محمد خان الذي أسس في خوارزم دولة قوية بين ١٢٠٠ و ١٢٢٠.

وفي ١٢٢٠ أحرق جنكيزخان بخارى ثم سمرقند، وفي ١٢٢١ دمر مدينة بلخ بتركستان الأفغانية وأباد أهلها بعد أن كانت أكبر مركز تجاري في آسيا الوسطى، وهذا قضى نهائياً على دولة خوارزم. وفي ١٢٢١ أيضاً اجتاحت جيوش المغول شمال إيران وهزمت قوات جورجيا في تقليس. ومن شمال فارس والقوقاز احتل المغول سهوب نهر الدون بقيادة أحد أبناء جنكيزخان وهو طولاي خان، وسحق الروس حتى نهر الدnieper. واحتلوا القرم في الجنوب وخربوا مدن القوط والبيزنطيين.

وأجتاج المغول روسيا بين ١٢٣٧ و ١٢٤٠ بقيادة باتيات أو باطرو، وفي ١٢٤٠ خربوا مدينة كييف وفي ١٢٤١ خربوا بولندا وسيليزيا ومورافيا، وفي ١٢٤١ أيضاً سقطت في أيديهم مدينة بيشت (بودابست)، عاصمة المجر، وزحفوا إلى بحر الادرياتيك. ولكنهم انسحبوا بعد وفاة ابن جنكيزخان، وأسمه أوجوداي، وعادوا إلى منغوليا.

وفي ١٢٥٨ دمر هولاكو حفيد جنكيزخان بغداد وقتل آخر الخلفاء العباسيين. واستمر المغول بقيادة كوبلاي خان، حفيد جنكيزخان، في غزو الصين الوسطى والصين الجنوبية، وفي ١٢٧٠ صفى كوبلاي خان أمبراطورية أسرة سونج في الصين الجنوبية واستولى على التبت وبورما في زمن زيارة ماركو بولو للصين. وأصبح كوبلاي خان أول موحد للصين بعد أن ظلت قرونا طويلاً تنقسم إلى شمالية وجنوبية. وقد ساعد المغول في كل هذه الانتصارات الساحقة أن العالم من شرقيهم وغربيهم كان ينقسم إلى إمارات أو «دويلات» مفتتة متحاربة وليس فيه دولة موحدة قوية.

كانت الحروب المستمرة بين هذه الإمارات تهدد باستمرار طريق القوافل بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى فتضادر كبار التجار أولاً مع محمد خان ليبني دولة عسكرية قوية في خوارزم تؤمن طريق القوافل، وقد نجح في تأمين آسيا الوسطى، ولكن يبدو أن الامر كان بحاجة إلى قوة

ضاربة أكبر من قوته لربط الصين بشرق البحر المتوسط ومن هنا نقل التجار بعد ١٢١٨ تأييدهم للمغول ومولوا جنكيزخان حتى استطاع أن يتيم أوسع امبراطورية عرفها التاريخ وربما أقصرها عمرا .

كان جيش المغول عبارة عن حشود ضخمة من الفرسان سريعاً الحركة ، ينقضون بسرعة ويختفون بسرعة ويثيرون الرعب بحرق المدن والفتوك بالتجمعات البشرية . وكانوا يستخدمون أسرى البلاد المفتوحة جنوداً في جيوشهم ويضعونهم في الصدوف الأمامية وفي أقل من مائة عام امتدت امبراطوريتهم من الصين إلى المتوسط ومن نهر لينا إلى المحيط الهندي وشملت العراق وأرمينيا وجورجيا وأيران وأفغانستان وروسيا الموسكوفية والقرم والفلوجا وسييريا الغربية وكازاخستان وآسيا الوسطى وتركستان الشرقية ومنغوليا وبايكل ومنشوريا والصين والتبت وبورما . وفتحت هذه الامبراطورية طريق التجارة من المحيط الهادئ حتى البحر الأبيض المتوسط .

• • •

## كتاب كوبلاي خان

□ ولد ماركو بولو بن نيكولو بولو عام ١٢٥٤ في جزيرة الريالتو بالبندقية . ولا أحد يعرف شيئاً عن حياته الأولى وعن تنشئته ، ويظن البعض أنه لم يدخل مدرسة ولم يكن يعرف القراءة والكتابة بالإيطالية .

وكان أبوه نيكولو بولو وعمه ماتيو من تجار البندقية الصغار أو متوسطي الحال . وكانا يسافران إلى الشرق للتجارة . وفي سن الخامسة عشرة خرج ماركو مع أبيه وعمه إلى عكا وتوجه ثلاثة إلى القدس للحصول على زيت من سراج القبر المقدس . وكانت القدس يومئذ تحت حكم المغول ، وكان آل بولو يحملون خطاباً من البابا جريجورى التاسع في عكا إلى خان المغول الأعظم في القدس ، فزود خان المغول آل بولو بألواح ذهبية عليها خاتم كوبلاي خان لضمان الأمان في الطريق .

وكان سلطان مصر البندقدارى يهاجم أرمينيا بجيشه جرار ، ولكن آل بولو استطاعوا بلوغ أرمينيا بفضل هذه الألواح الذهبية . وكانت أرمينيا مركزاً لتجمع فرسان التتار بسبب كثرة الكلا فيها . ومن هناك وصلوا إلى أرضروم وهي الأناضول التي كانت بلاد التركمان . وفي أرمينيا يصف لنا ماركو بولو أشياء تذكرنا بحواديث « الف ليلة وليلة » وقصص السندباد . فهو يحدثنا عن جبال أرمينيا العالية وأخاديدها الفائرة التي تتتساقط فيها جداول المياه المحملة بالمايس من أعلى الجبال . وطريقة جمع الماس هي أن يلقى الناس بقطيع من اللحم في هذه الجبال والأخاديد فيلتتصق فيها الماس ، وتحجّم النسور على قطع اللحم فتحملها إلى الوديان ، وهناك يتجمع الناس ويختفون النسور بصياغهم فتطرى النسور تاركة ما قد حملت من اللحم والمايس .

ومر آل بولو بالموصل فتحدث ماركو بولو عن حرير المسلمين . ثم انطلقوا إلى تبريز « وهي مدينة كبيرة وعريقة في قطر كبير يدعى العراق » .

وهناك وجد الناس يعيشون على التجارة وعلى صناعة الحرير المطعم بخيوط الذهب وعلى تجارة اللؤلؤ . وقد ذكر رحالة آخر عن نبريز أن تجار جنوا بنوا قلعة على جبل مشرف على هذه المدينة فقال لهم الخان : هذا منوع . أنا بعثكم الجبل ، فانقلوه إلى بلادكم ، وهناك ابنوا عليه ما تشاءون . ولما بذعوا يجادلونه أمر بقطع رعوسهم جميعا .

وبعد سبعة أيام من الرحيل وصل آل بولو إلى مدينة كرمان التي كانت قد سقطت حديثا في أيدي التتار وكانت شهيرة بمناجم النحاس . وبعد سفر أيام عديدة وصل ماركو بولو وأسرته إلى ميناء هرمز على الخليج الفارسي حيث كانت الحرارة خائنة . وقرروا الرحيل إلى الصين بالطريق البري فلحقوا بالقوافل المسافرة شمالا إلى هضبة البامير شمال الهند ليصلوا إلى دولة كوبلاي خان . وكان الخان الأعظم كوبلاي قد منح هولاكو لقب خان وأطلق يده في فارس . وكان آل بولو اثناء عبورهم فارس يجمعون المعلومات لصالح كوبلاي خان عن طائفة الحشاشين التي كانت تختل بالأمن في ايران وتقطع طرق القوافل في السهوب والبراري ، وهي منطقة الحشاشين .

كان الحشاشون ينقسمون إلى سبع درجات على رأسها زعيمهم « عجوز الجبل » ، ومن تحته « الدعاة الكبار » وهم أعوانه الذين يسكنون القلاع ويلبسون ملابس بيضاء ، وتلا هؤلاء الطبقة الثالثة ، وهم « الجنود العاديون » ( بكسر النون ) ، والطبقة الرابعة ، وهم « الرفاق » ( جمع « رفيق » ) ، وهؤلاء لا يعرفون أسرار الجماعة . ثم الطبقة الخامسة ، وهم « المحكوم عليهم » ، وهؤلاء ينفذون أحكام « عجوز الجبل » ويلبسون الملابس البيضاء ولكن مع طاقية حمراء وحزام أحمر وتزلك أحمر . وأخيراً فهناك الطبقة السادسة وهم المبتدعون .

هذا ما يبدو للناس ، أما الحقيقة فغير ذلك . فالكلمة في هذا النظام يحتلها الامام « الخفي » ( الذي سيأتي في آخر الزمان ) . والطبقة الثانية يحتلها « الكوديديا » وهم طبقة تعرف بأنها « حجة اللطف الالهي » . والطبقة الثالثة هم « الصادقون » وهم الحجة بأن حجة اللطف الالهي مكلفون من الامام وأن الامام مكلف من الله . أما الطبقة الرابعة فهم « الدعاة » ، والخامسة هم « الاتباع الجدد » الذين تلقوا حديثاً أسرار الطائفة وأقسموا يمين الولاء لها ، وال السادسة هم « المسوخون كلابا » أي الباحثون عن القبول في الطائفة بحث كلاب الصيد عن الفريسة . والسابعة هم « المؤمنون » وهم الشعب . وفي ماركو بولو أن طائفة الحشاشين هي طائفة الاسماعيلية

أو متفرعة منها . وقد كان الحشاشون يحاربون المسلمين والصلبيين في آن واحد .

قال ماركو بولو ان « عجوز الجبل » كان يقيم في قصر آية في البهاء ووسط حديقة شاسعة غناه لا مثيل لها في العالم كلها جداول من خمر ولبن وشهد وحور ، وكان يلقن أتباعه أنها الفردوس الأرضي . وكان في بلاطه غلامان عمر كل منهم نحو اثنى عشرة سنة ، وكان يعطيهم مخدرا يشربونه وحين يفيقون يجدون أنفسهم بين هؤلاء الحور في الفردوس الأرضي . أما هذا المخدر فهو الحشيش ، وهذا ما لم يعرفه ماركو بولو وإنما تحدثت عنه المصادر الأخرى . وكان « عجوز الجبل » يخدر الغلامان ثم ينقلهم إلى قصره ويصحون في دهشة لخروجهم من الفردوس الأرضي . كل هذا ليس يسيطر على ارادتهم فيجعلهم يقتلون من يريد .

وذكر ماركو بولو أن هولاكو أراد أن يتخلص من شرهم في ١٢٥٢ فذر قصر « عجوز الجبل » بعد حصار دام ثلاث سنوات ، وأباد الحشاشين عن آخرهم . ولكن ماركو بولو أخطأ في روايته لأن منهم كثيرين فروا إلى جبال الباير ، وعند بعض المؤرخين أن طائفة الاسماعيلية من بقاياهم .

ثم سافر ماركو بولو وأسرته إلى قشغر في غرب الصين ، ثم عبر صحراء جرداء قليلة الواحات حتى بلغ سور الصين العظيم . وتوقف آل بولو سنة كاملة في مدينة كاششيو حيث وجدوا مسجداً وثلاث كنائس وعدها عظيمـاً من المعابد الصينية . وكان ماركو بولو قد تعلم لغة التتر .

وبعد سنوات من الرحيل استعد ماركو بولو للقاء كوبلاي خان ، خان المغول الأعظم فوصل إلى بلاطه في مايو ١٢٧٥ مع أبيه نيكولو وعمه ماتيو . وقادهم رسول الخان إلى بلاطه في تشانج تو فبلغها بعد رحلة أربعين يوماً .

ووجد ماركو بولو كوبلاي خان يجلس على عرشه كل يوم ويصدر أوامره اليومية لتصريف أمور الدولة ، ومن بين هذه الأوامر أمر يومي للشمس أن تشرق . وحين شانخ كان يخشى أن يتأخر في النوم فكان يكلف أحد رجال البلاط بتلاؤه هذا الأمر الفلكي حتى لا يختلط نظام الكون . ووجد بلاط الخان الأعظم الذي جلس على العرش منذ ١٢٥٦ ، يعج بالآجانب من نساطرة سوريا ومن العرب ومن البنادقة ومن أهل جنوا . وأبلغ ماركو بولو كوبلاي خان بكل ما رأه وسمعه في رحلته ، وكان قوى الذاكرة فاعجب به كوبلاي خان . وكان واضحاً أن مارcko بولو استثمر مواهب الرحالة الأوروبي في التجسس لحساب كوبلاي خان لينال الحظوة في بلاطه .

ووجد ماركو بولو كوبلاي خان متزوجاً من أربع زوجات شرعيات يسميهن بالامبراطورات ، وخصص لكل منهن ٣٠٠ آنسة من الوصيفات وحشداً من الرجال لخدمتهن ، فكان في بلاط الخان الأعظم نحو ١٠،٠٠٠ شخص . وكانت له محظيات عديدات يختارهن سفراً أو بعثوه ولكن ي Finch من جميع الوجوه ويعطون درجات بالقيراط ، وأخيراً تختار كل من تحصل على ٢١ قيراطاً ، ويدخلن عليه خمساً ، ويتغيرن كل ثلاثة أيام ، ثم تبدأ الدورة من جديد . أما من بلغ تقديرهن بين ١٦ و ٢٠ قيراطاً فلن يعيش في القصر الملكي ويتعلمن الخياطة والأعمال المنزلية ويتزوجن من رجال البلاط بعد أن يمنحهن كوبلاي خان الدوطة اللازم . وكان لكوبلاي خان ٢٢ ولداً ذكراً من زوجاته الأربع منهم عشرة صاروا ملوكاً . وكان له من محظياته ٢٥ ولداً آخرين .

وكان كوبلاي خان ، كما يروى ماركو بولو ، كثير السم ، وكان يبدد  
هذا السم بدعوة اليهود وال المسلمين والمسيحيين وال سحرة الوثنين ، ويجعلهم  
يتجادلون أمامه في الدين ويهب المنصر الهدايا . وكان دائم التنقل بين قصوره ،  
وكان رهيبا ومرهوبا يرتعد الناس في حضرته ، وكان يسكر بلا حساب ،  
فحذر طبيبه من أن الاسراف في تناول الكحول واكل اللحم يسببها نورم  
ساقبه .

وقد تبع ماركو بولو الخان الاعظم الى قصره الشتوي في كامبالوك او «خان بلينغ»، وهي مكان يكين الحالية، وكان بها مرصد كبير.

وقد جمع كوبلاي خان ثروة طائلة من تجارة الجملة . وجمع كنوزا مقابل عملة ورقية ابتكرها ولم تكلفه شيئا ، فكان بذلك أول ملك ابتكر العملة الورقية . وكانت العملة الورقية عبارة عن شرائط مربعة من لحاء شجر التوت وقد طبع عليها الخاتم الامبراطوري . وقد أساء خلفاء كوبلاي خان استعمال اصدار العملة الورقية فنشبت ثورة ١٣٥٩ ، وبعد عشر سنوات انتهى حكم المغول . وكان طبيب كوبلاي خان الايطالي ، واسمه ايسيا ، يشتغل بمحاولة تحويل المعادن الخصيصة الى ذهب ، فحاول ماركو بولو اقناعه بأن التجارة اوفر كسبا من تجاريته الكيميائية او السيميائية .

أوفد كوبلاي خان ماركو بولو في مهمة عبر الصين وكلفة بهمتيين : الأولى معرفة من يقبلون عملته الورقية ومن يرفضونها ، والثانية هي اعداد بيان بمصادرات المناطق المختلفة . وكانت هناك محطات لتفريغ الخيول كل منها تبعد عن الأخرى ٢٥ ميلا ، وبين هذه المحطات رجال بريد كل ثلاثة أميال مجهزون بأجراس يعلنون بها اقترابهم لتسليم الرسائل للطواوفين في

كل مرحلة تالية ، وبهذا كان الطوافون يقطعون بالرسائل في يوم واحد مسافة ١٠ أيام .

وكان كوبلاي خان يستخدم البغایا لاكرام ضيوفه ، وكان عددهن ٢٥ بفی ، وکن يقمن بهذا الواجب بدلا من دفع الضرائب للدولة . وفي مناطق من الصين كانت بكارة العذاري بلا قيمة . وكانت النساء العجائز تقدن البنات للتجار المسافرين وللرحلة في خيامهم ، وتتدوم المعاشرة حتى رحيل الرجال ، وينتهي دائمًا بهدية يقدمها الرجل للفتاة . فمن لم تجمع من الفتيات عشرين هدية كانت تعد بلا قيمة . ولكن بعد الزواج كانت الفتيات تخلصن لازواجهن .

وقد عبر ماركو بولو ثمانى مناطق من الصين حتى بلغ منطقة اعتقادت أن يقدم فيها الضيف زوجته أو اخته أو ابنته لضيوفه اكراما له . وكان رب الدار يترك بيته ولا يعود اليه قبل انصراف الضيف حتى لا يزعجه .

وبلغ ماركو بولو منطقة أخرى من الصين اسمها زار دندان ، وتعنى « ذوى الأسنان الذهبية » . وفي هذه المنطقة كان الزوج حين تلد زوجته يتظاهر بالمرض وألام الولادة ويتلقى التهانى بأنه أصبح أبا ، كل ذلك ليثبت انه بالفعل اباً حقيقياً للطفل .

وقد ساعدت اسرة ماركو بولو كوبلاي خان على فتح الصين الجنوبية التي استعصت على جنوده ، وذلك بدخول المنجنيق في أسلحته لقذف كرات حجرية زنة كل منها ٣٠٠ رطل لدمير التحصينات .

وكان كوبلاي خان لا يثق في الأمراء المغول ، فكان يتسع في استخدام الجنرالات القتر والعرب والأوروبيين في بلاطه . وكان يصف المؤامرات باعدام الخونة والقاء جثثهم ل الكلاب في الشوارع او سلخ جلودهم أحياء ، كما فعل مع قائد العربى أحمد الذى قاد متننة ليستولى على جزء من مملكة كوبلاي خان .

وبعد سقوط أحمد ازدادت ثقة كوبلاي خان في ماركو بولو ، فعينه حاكما على احدى مقاطعاته بينما انصرف أبوه نيكولو وعمه ماتيو الى التجارة . ويصف لنا ماركو بولو صناعة الخمر من الارز في الصين وعن فرض كوبلاي خان العملة الورقية على الصينيين . كذلك كانت العملة الحديدية وعملة الاصداف او « الودع » منتشرة في الصين ، فحلت محل العملة النحاسية ، حتى حرمت الدولة بيع الحديد في القرن ١٢ ، وبدأت تصهر الحديد في افران عالية الحرارة وهو ما لم تعرفه أوروبا الا في القرن ١٨ . وفي عودة ماركو بولو لوطنه من بفارس فوجد العملة الورقية تستخدمن هناك .

وفي ١٢٨٦ كان عمر كوبلاي خان ٧٦ سنة . واراد نيكولو وماتيو بولو العودة الى البندقية ، ولكن كوبلاي خان رفض الاذن لهاما في ذلك . ولكنها وافق اخيرا على سفر آل بولو الثلاثة الى فارس في ١٢٩٢ لصاحبة عروس مغولية اختارها كوبلاي خان للزواج من ارجون ملك فارس المغولي . واعطاهم الواحا ذهبية مختومة تؤمن مرورهم في كل امبراطورية المغول ، وحملهم رسائل لملك فرنسا وملك انجلترا وملك اسبانيا والبابا وغيرهم من اقيال اوروبا ، وجهزهم بثلاث عشرة سفينة كل سفينة منها بأربعة صوارى، واثنى عشر شراعا . وكانت حاشية الاميرة العروس تبلغ ٦٠٠ شخص ، وقد حملت السفن تموين عامين من الرحيل . وكان عمر ماركو بولو يومئذ ٤٢ سنة .

وكان ماركو بولو يعرف الطريق البحري .. وكان الصينيون يعرفون البوصلة التي تتجه للنجم القطبي كما يقول ماركو بولو . ومر بجزر منها جاوة وسنغافورة حيث لم تكن النقوش من الأصداف او الودع كما كانت الحال في الصين . ومر بسومطرة حيث توقفت السفن خمسة شهور ، وهناك جمع ماركو بولو حبوب التقاوى ليزرعها في البندقية عند عودته . واحتوى النجم القطبي ، وتاهت سفينتهم فترة . وفي ماركو بولو انه نشأت بينه وبين الاميرة علاقات غرامية .

وبلغت السفن سيلان ثم الهند . وفي سيلان رأى ماركو بولو صيادي المؤلؤ يفطسون طول النهار وراء المؤلؤ . وفي الهند كان الملك متزوجا من ٥٠ امراة ، وكان الهندود وثنين يعبدون آلهة من اثاث وذكور . وكانت آلهتهم سوداء اما شياطينهم فكانت بيضاء ، وهو ما عجب له ماركو بولو .

وعند ساحل مالابار تحرش بهم قرصان من ماليزيا . وعاد النجم القطبي الى الظهور ، ولكن السفن تاهت من جديد لأن الريان مات ، وكان عدد البحارة يتناقص كلما توقيعوا في ميناء . واخيرا وصلوا الى افريقيا الشرقية قبلة زنجبار . ويبدو أن ماركو بولو يصف هنا جزيرة مدغشقر لأنه يقول انها كانت أكبر جزيرة رآها في حياته .

وفي كل محطة كان أبوه وعمه يشتريان البضائع للتجارة . ثم ابحروا شمالا الى سقطرة امام ساحل جزير العرب . ووصلوا الى هرمز ولكنهم وجدوا في فارس جيوش المغول تقاتل جيوش المغول . فسلم التجار الاميرة للملك الغزنوي المنتصر . وانتهى أمر آل بولو الى تبريز ، فباعوا لالئهم ورحلوا متخفين الى تقليس في جورجيا وكانت خاسعة للتنار . وهناك رأوا آبار النفط تتفجر كالنوافير . ونزل الآب والعم في ترابيزون على البحر الاسود

ومنها ركعوا المركب حتى القسطنطينية ، ولم ينزلوا على اليابسة بعد أن عرفوا  
أن أهل جنوا أصبحوا سادة البر والبحر في كل مكان .

ومر آل بولو الثلاثة بأرخبيل بحر ايجه ، وأخيرا عادوا إلى دارهم  
في البندقية عام ١٢٩٥ وكانت خالية ليس بها إلا خادمهم العجوز الفانى فلم  
يتعرفوا عليه بعد غيبة خمسة وثلاثين سنة .

• • •

## القصر الذهبي

□ لم يكن ماركو بولو أول من زار الصين من الأوروبيين في العصور الحديثة فقد سبقه إليها سفير البابا أنوتشينتو الرابع في ١٢٤٦ وسفير لويس التاسع في ١٢٥٣ .

وفي رحلة الأخرين نيكولو وماتيو الأولي عام ١٢٦٠ كانت دولة المغول تنقسم إلى أربعة أقسام مستقلة رغم أنها كانت اسمياً يرأسها كوبلاي خان . وكانت هذه الأقسام هي :

(أ) دولة باركا خان قائد الجيش الذهبي ، وهو حفيد جنكيز خان ، وتشمل أوربا الشرقية وأمارات روسيا حتى جبال الأورال .

(ب) دولة هولاكو ، حفيد جنكيز خان وأخو الخان الأعظم كوبلاي ، وتشمل العراق وفارس وأفغانستان وأرمينيا وجورجيا .

(ج) دولة آسيا الوسطى وكازاخستان الجنوبية ومنغوليا الغربية وكان يحكمها بعض أحفاد جنكيز خان .

(د) شرق الإمبراطورية ، أي الصين وبورما وמנشوريا وأكثر منغوليا وبايkal والنسبت وتركمستان الشرقية ، وكان يحكمها الخان الأعظم كوبلاي .

وكانت طرق التجارة من الصين إلى البحر المتوسط والبحر الأسود متنوحة على الدوام الا عندما تنشب الحرب بين المغول أنفسهم ، كحرب ١٢٦٢ بين باركا وهولاكو . فكانت القوافل تسير سنوياً من آسيا الوسطى إلى الصين ومن شواطئ الفولجا إلى فارس وبخارى . وكان يلحق بها صغار التجار والحجاج .

وكان ابن بطوطة ( ١٣٧٧ - ١٣٠٤ ) معاصرًا لماركو بولو . وكان المسلمين في الصين كثيرين ، وقد قابل ماركو بولو منهم عدداً كبيراً من

الأطباء والعلماء والجنود والمديرين في الصين التي فتحها المغول . وفي الموانئ وفي المراكز التجارية بطول طريق القوافل أسس المسلمون أحياء كاملة . كذلك بدأ عهد جديد في علاقات الصين بأوروبا منذ الحروب الصليبية بعد أن ذبلت هذه العلاقات قرونا بقيام الدولة الساسانية ثم الدولة العربية .

ورغم انقطاع علاقات الصين بأوروبا طوال العصور الوسطى فقد استمرت علاقات الصين مع الهند ومع آسيا الوسطى . وقد حاولت الصين أن تستفيد من الصراع الدائر بين العرب والفرس في القرن السابع عند ظهور الإسلام ، فحاولت أن تضم بعض أقاليم آسيا الوسطى ، وتنسب في القرن الثامن صراع مسلح بين العرب والصين . وكانت البوذية قد انتشرت في الصين منذ القرن الرابع الميلادي فكثر الحاجاج الصينيون إلى الأماكن المقدسة في الهند . وفي العصر الإسلامي ترك الرحالة العرب والفرس كتابات هامة عن الصين .

وبعد أن عاد ماركو بولو إلى البندقية وجد دويلته في حرب ضروس مع دويلة جنوا فاشترك في هذه الحرب التي انتهت بهزيمة البندقية ، وأسر ماركو بولو في الحرب وقضى ست سنوات في السجن بجنوا ثم أُفرج عنه وعاد إلى البندقية .

وفي أثناء حبسه في سجن جنوا أملى ماركو بولو على زميل له في السجن يدعى رrostيكان كتابه الشهير المعروف باسم « كتاب كوبلاي خان العظيم » ، وهو مدون بالفرنسية القديمة التي كانت لغة الثقافة العالمية في تلك الأيام .

وكان رrostيكان نفسه فارسا يشتغل بتأليف الروايات الخيالية المليئة بالمغامرات . ولعل هذا هو السبب في أن قراء ماركو بولو ظلوا قرونًا لا يأخذونهأخذ الجد ، ويتصورون أن « كتاب كوبلاي خان العظيم » هو مجرد عمل من أعمال الخيال .

ولكن البحث في القرن التاسع عشر ثبت صدق تفاصيل رحلة ماركو بولو في مجموعها بغض النظر عن اعتماده على السمع في بعض الأحاديث . فهو أحياناً يروي الأساطير عن الصين وعن بعض البلاد التي زارها والقصص الشبيهة بقصص « الف ليلة وليلة » ، ومنها حكاية الطائر الجسيم أو الرخ الذي يرد في حكاية السنديbad ، ومنها وصفه لجبال الماس .

ومن المفارقات الغريبة أن فارسا رحالة اسمه جان دي مانديفييل كتب مثل ماركو بولو كتاباً بالفرنسية عن اسفاره في الشرق بين ١٣٥٧ و ١٣٧١ ، أي بعد ماركو بولو بمائة عام تقريباً ، وقال إنه ساحر أربعين سنة في تركيا

وارمينيا وسوريا وفلسطين ومصر ولibia . وفي مصر ذكر مانديفيل انه كان يعمل في جيش السلطان الذى اراد ان يزوجه من ابنته بشرط ان يعتنق الاسلام ، ولكنه رفض وهرب الى القدس ، ثم زار روسيا وبولندا ولتوانيا والهند وسومطرة والصين . ولما ترجم كتابه الى الانجليزية كان له اثر عظيم تجاوز بكثير اثر كتاب ماركو بولو .

ففى القرن الخامس عشر صدرت من كتاب مانديفيل ٢٥ طبعة بينما لم تصدر من كتاب ماركو بولو الا ٥ طبعات ، رغم انه تبين بعد ذلك ان مانديفيل كان شخصية وهمية وأن كتابه بقلم طبيب بلجيكي من مدينة لييج يدعى جيهان دى لابارب .

وقد كان ماركو بولو منحازاً للمغول لأنّه كان معجباً بهم ، فهو لا يتحدث عما أنزلوه بالبلاد المفتوحة من تدمير وقتل وحرائق ، بل لا يتوقف عن التعبير عن الاعجاب بهم وبعظيمهم كوبلاي خان على وجه الخصوص . وهو يعبر عن حزنه لما أصاب المغول من تدهور بسبب مخالطتهم لشعوب كان يراها منحطة كالصينيين والفرس والسوريين وغيرهم من الأمم التي قهرها المغول .

وبعد أن ثبت للناس أن ماركو بولو لم يكن مجرد قصاص بارع بل كان بالفعل رحاله يصف البلاد على الطبيعة ، أخذوا يجدونه تمجيدهم لمكتشف عظيم أهاط اللثام عن بلاد جديدة ، فذهبوا من التقى إلى التقى . فحقيقة الأمر أن ماركو بولو كان مجرد تاجر من تجار الجملة يعرف طرق القوافل والمسافات وموقع الكلا وموارد المياه والبراري والقفاري معرفة تامة ، كما كان يعرف أسرار بعض البيض والمصنائع ، وهي اهتمامه الأول . لقد كان اثناء مقامه في الصين وغيرها أجنبياً في بلاط ملك أجنبى . ولم يعن بأن يتعلم لغة الصين وإنما اكتفى بتعلم لغة المغول وأبجدية التتر مع ذكريات من السريانية والعربية اللتين تعلم جانبها منها في بداية رحلاته الطويلة ، وربما بعض الفارسية .

فماركو بولو اذن لم يكن مؤرخاً ولا جغرافياً ولا عالماً في علم الاجتماع ، وإنما كان اهتمامه الأكبر هو اهتمام التاجر الذي يفكر دائماً في الانتاج والاستهلاك أو على الأصح ما يمكن شراؤه وبيعه . وهو لا يطيل الحديث عن عادات الأقوام وتقلاليدهم ومعتقداتهم الا ما شد من احوالهم ، وإنما يطيل الحديث عن الأقمشة والحرير والدنبيلا والطيوب والتوابل والأحجار الكريمة ، وهي مطالب تاجر البندقية من الشرق .

فهو مثلاً في القسم ( ٣٨ ) يقول : « كوبنان مدينة كبيرة أهلها يتبعون محمدًا وفيها حديد كثيف وصلب كثيف ، وهناك يصنعون من الصلب مرايا

جسيمة الحجم . جميلة الهيئة . وهناك أيضا يصنعون التوتيا لعلاج العيون» . وهو في القسم (٢٣) يقول : « وكل المنسوجات التي تصنع من الحرير وخيوط الذهب تسمى موسلين ، ومن هذه البلاد يسافر تجار عديدون يسمون بالموصليين . وهم يصدرون كميات وافرة من التوابيل ومن الأقمشة ومن منسوجات الذهب والحرير » .

وهو في القسم (٣٤) يقول : « الرجال هنا مهرة يحسنون ببراعة صناعة كل الأدوات الالازمة للفرسان كالعقود والبرادع والمهاميز والسيوف .. والسيدات والآنسات يشتغلن بمهارة فائقة أشغال الإبرة الجميلة على الأقمشة الحريرية والبروديرى بالألوان المختلفة . فيرسمن صور الحيوانات والطيور والأشجار والزهور » .

وفي القسم (٤٦) بحدثنا ماركو بولو عن الأحجار الكريمة . أما في القسم (٢١) فيحدثنا عن بترول باكوف في أذربيجان فيقول : « اعلموا أن هناك نافورة ينبع منها النفط بغزاره لدرجة أنه يمكن لمائة سفينة أن تأخذ حمولتها منه في وقت واحد ، وهو لا يصلح للأكل ولكن يصلح للاشعال ولدهن الجمال المريض . والناس تأتى من أقصى البلاد لحمله ، ففى كل هذه البلاد لا يستخدمون الزيت في الاشعال » . وفي القرن ١٣ كان الصينيون يستخدمون النحوم للوقود وماركو بولو يخصص فصلاً لذلك .

ومن الغريب أن ماركو بولو لا يحدثنا عن الزراعة في الصين ولا عن زراعة الشتاء رغم أنه يحدثنا باستفاضة عن العملة الورقية ، كذلك لا يحدثنا ماركو بولو عن أن الصين عرفت الورق والطباعة في أيامه كما هو مأثور ، ومع ذلك فإنه يقال أنه عاد إلى البندقية بكتاب مطبوع في الصين ويقال أيضاً أن حكومة البندقية كلفت موظفاً فيها يدعى كاستالدى ( ١٣٩٨ - ١٤٩٠ ) بنسخ بعض الأوراق الرسمية ، فاستفاد من اختراع توصل إليه كبير اساقفة أكويلا ، واسمه ناتالى ، حين صنع حروفًا منفصلة من زجاج ، وكان يضغط بها على الورق وتلون باليد . وقد صنع كاستالدى هذه الحروف المنفصلة من الخشب ومن المعادن بدلاً من الزجاج ، بعد أن رأى كتاباً كان ماركو بولو قد جاء بها من الصين ، وطبع الأوراق بمساعدة الواح صغيرة من الخشب يمكن تغيير مواضعها وكان ذلك عام ١٤٢٦ . وتقول الرواية أن يوهان فاوست ، زميل جوتبروج مخترع الطباعة كان يتربّد على « منسخ » كاستالدى وإنه تعلم منه هذه الطريقة .

كذلك من الغريب أن كتاب ماركو بولو ليس فيه ذكر لأن الصينيين عرفوا البارود كما هو شائع ، ومع ذلك فنحن نعرف ذلك من مصادر أخرى

مثل قول شيلجي « ومع ذلك فانى اؤكد ان المغول كانت لديهم مدفعة في ١٢٩٣ ، وأنهم عرفوا مدفعاً الهالون منذ ١٢٣٢ . ومنذ ١٢٣٣ كان الصينيون يستعملون قوة النار في المنجنيق » .

ومن وصف ماركو بولو لثروات الشرق الأقصى وكنوزه الأسطورية التي بقيت في ذاكرة الأوروبيين وجعلتهم يلهثون وراء ذهب العالم قرناً بعد قرن ، وصفه لجزيرة اسمها زيبانجو قال إنها تقع على بعد ١٥٠٠ ميل من اليابسة في أقصى الشرق . قال :

« وسوف أروي عليكم عجيبة هائلة هي قصر سيد هذه الجزيرة — فاعلموا أذن أنه يملك قصراً عظيماً سقفاً كله من الذهب الخالص على غرار ما نكسوا نحن سقوف كنائسنا باللواح الرصاص ، بحيث تتجاوز قيمة هذا القصر كل ما يمكن أن نتصوره . وفوق هذا فإن أرصونة القصر وأرضية الحجرات مكسوة تماماً باللواح الذهب وكأنها مربعات من بلاط حجري سمكه بين أصبعين وثلاثة أصابع . وبالمثل بكل نوافذ القصر من الذهب الخالص ، حتى أن قيمة هذا القصر تتجاوز كل تصور . »

« ولديهم بوفرة أيضاً الأحجار الكريمة واللآلئ الوردية اللون وهي غالية في الجمال . وهي غالية الثمن . وهذه اللآلئ كبيرة الحجم جداً ومستديرة ويبلغ ثمنها ثمن اللآلئ البيضاء » .

وقد كان وصف قصر جزيرة زيبانجو من أكثر الأشياء التي استرعت انتباه الأوروبيين في بدايات عصر النهضة الأوروبية وحفزت مئات المغامرين إلى التجوال براً وبحراً في أركان المعمرة الأربع فيما يسمى بحركات الكشف الجغرافي ، رغم أن هذا الوصف وصف لقصر أسطوري نعرفه نحن جيداً في الخيال الشرقي الفولكلوري أو كما تقول حواديتنا هو قصر فيه طوبة من ذهب وطوبة من فضة .

وفي متحف كولبيوس باشبيلية نسخة من كتاب ماركو بولو عليهما سبعون ملاحظة بقلم كولبيوس الذي تأثر كثيراً بوصف هذا القصر الذهبي وكان يظن أنه في اليابان ، وقد كتب الجغرافي باولو توسكانييلي خطاباً مشهوراً إلى كولبيوس عام ١٤٧٤ يتحدث فيه عن هذا القصر العجيب ويستحثه للوصول إلى جزيرة زيبانجو بكنوزها الوفيرة وقد لمع هذا السراب الذهبي بعد مائتين عام ، كما لمعت لآلئ الهند التي تحدث عنها ماركو بولو وأمراض ، في خيال كولبيوس حين خرج في رحلته المشهورة غرباً في أغسطس ١٤٩٢ ليصل إلى الشرق الأقصى والهند اعتماداً على كروية

الارض . نوصل بدلا من ذلك الى جزر الهند الغربية ( سان سلفادور ) في  
١٢ اكتوبر ١٤٩٢ .

ومنذ ذلك التاريخ والاستعمار الاوربى لم يهدأ ولا يريد أن يهدأ في بحثه  
عن قصور الذهب في زيبانجو أو زاردندان أو زانادو ، جزيرة كوبلاى خان  
المسحورة . وفي هذا البحث الدائب خاص الاستعمار في بحار الدماء ، ولكنه  
أيضا اكتشف مجاهل الأرض والسماء .

● ● ●

# دانى الجييرى

## DANTE ALIGIERI

### ١٣٩١ - ١٦٦٥



□ لو أردنا أن نؤرخ لبداية عصر النهضة الأوروبية لما وجدنا تاريخاً أنساب من مطلع القرن الرابع عشر ، وهو فترة انشاء ملحمة « الكوميديا الالهية » الشهيرة — التي نظمها بين عام ١٣٠٧ وعام ١٣٢١ — « دانتى الجييرى » أبو الشعر الإيطالى كما يسمونه في تاريخ الأدب الأوروبية ( ١٢٦٥ - ١٣٢١ ) .

فإذا أردنا أن نحدد معنى عبارة « أبي الأدب الإيطالى » قلنا ان معناها هو أن دانتى الجييرى هو واسع أساس الأدب القومى في إيطاليا ، لأنه كان أول شاعر فحل يستخدم اللغة الإيطالية وهى اللهجة العامية من لهجات اللغة اللاتينية التي كانوا يتكلمون بها في إيطاليا في التعبير الأدبى العظيم . وبذلك جعل دانتى من هذه اللغة العامية الرثة القلقة الفتيرة الركيكة لغة فصحى قادرة على التعبير الأدبى البليغ .

وبذلك أيضاً مكن دانتى الإيطاليين من الاستفادة درجة درجة عن الكتابة باللغة اللاتينية ، بعد أن ظلت اللغة اللاتينية الفصحى أولاً ، ثم اللاتينية الوسطى ثانياً ، أكثر من أربعة عشر قرناً هي اللغة الرسمية في روما وكافة أرجاء الامبراطورية الرومانية ثم في إيطاليا وكافة أرجاء العالم المسيحي الغربى . فكانت لغة الدولة ولغة الكنيسة الكاثوليكية ولغة القانون ولغة الخطابة ولغة الرسائل ولغة التأليف في كل ما يتصل بالدين والدنيا .

كانت اللاتينية لغة مقدسة تستمد قداستها من ممارسات الكنيسة الكاثوليكية وشعائرها فلا صلاة إلا بها ولا قداس إلا بها ولا عظ إلا بها ولا نصوص دينية أو دنيوية إلا بها ، بل ولا نصوص من التوراة والإنجيل معتمدة من الكنيسة إلا الصيغة المترجمة إلى اللاتينية من الكتاب المقدس . وكانت الكنيسة حريصة على بقاء هذا حتى تحول الأمية وجهل العامة

باللاتينية الفصحى والوسطى دون فهم العامة لنصوص دينهم بالاطلاع المباشر فيدوم اعتمادهم على رجال الدين في كل ما يتصل بأمور دينهم .

ولم يكن هذا وضعا خاصا باليطاليا وحدها أو بفرنسا وحدها أو بإسبانيا وحدها . حيث اللهجات العامية منحدرة انحدارا مباشرا من أصول لاتينية فيقال ان لغة الكلام قريبة الشبه بلغة الكتابة . ولكن كان القاعدة أيضا في المانيا ومجموعة الشعوب الجرمانية وفي إنجلترا وفي شعوب شمال أوروبا . حيث لغة الكلام لم تنحدر من اللاتينية وحيث الفجوة بين لغة الكلام ولغة الكتابة أشد عمقا وأوسع مدى .

كانت اللاتينية الوسطى لغة منحطة من اللاتينية الفصحى شبيهة بلغة الجرائد والإذاعة والتليفزيون في بلادنا اليوم .. بالقياس إلى اللغة العربية الفصحى .

ورغم أنها سارت في طريق التبسيط . ورغم أنها كانت لغة مهجنة . إلا أنها حافظت بقدر الامكان على نحو الفصحى وصرفها واعرابها وما يكتفى من سماتها الرئيسية بما يجعلها لاتينية منحطة بعيدة عن فهم العامة وخانقة للتعبير الأدبى في وقت واحد .

بعبرة أخرى كان هناك ازدواج لغوی : فالناس تقول شيئاً وتكتب شيئاً آخر .. بما أدى إلى شلل كل ثعبير وجاذب تلقائي وكل وصف صادق للحياة والطبيعة .. وحبس العاطفة والخيال في اطارات البلاغة التقليدية القديمة . فأجهض كل ابداع أدبى أكثر من ألف عام .

وطوال هذه الأعوام الآلف لم تكن هناك مشكلة متأزمة . لأن سيطرة الدين على كل مراقب الحياة لم تترك إلا هامشا ضئيلاً للفن والأدب . بل لقد كان الفن والأدب في نظر القائمين على الدين محترمات دينوية تلهى الإنسان عن ذكر الله و تستدرجه إلى الشهوات ، و عبادة الجمال .

أما اللغات العالمية في أوروبا .. أو « المنحطة » كما كانت تسمى يومئذ .. فقد كانت في المجموعة اللاتينية وهي الإيطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والرومانيش .. لغات منحطة أو لهجات من اللاتينية الوسطى نفسها وقد اختلطت عبر القرون بلغات القبائل المتبريرة الغازية وبالتعابيرات الشعبية من مفردات وتركيب ومصطلحات وعادات خاصة في النطق والنحو والصرف والعرض .. ولأنها كانت لغات الشعوب فقد كانت تتميز بالحيوية والتلقائية والمصدق في التعبير أكثر من اللاتينية

الوسطى . رغم كل ما كان يشوبها من فوضى وعدم الخضوع دائمًا لقواعد واضحة .. بل وغلظة وجلافة في بعض الأحيان .

ولذا فقد اقترب ظهور الآداب الأوروبيية الحديثة بالثورة على تلك اللغة الجامعة ، لاتينية العصور الوسطى ، وباتخاذ اللغات العالمية في أوروبا أدوات للتعبير الأدبي في الشعر أولا ثم في النثر .. وقد اقترن هذا التحول الخطير بظهور القوميات الحديثة في أوروبا وبسيادة لغة الشعب على لغة السادة الرسمية .. ولذا فقد كان اتخاذ لغة الكلام لغة الكتابة وللتعبير الأدبي بمثابة ثورة كبرى رسخت دعائم القوميات الحديثة ومهدت للديمقراطية منذ بدايات عصر النهضة الأوروبية .

واجتاحت أوروبا بين ١٢٠٠ و ١٣٠٠ (أى طوال القرنين ١٢ و ١٣) موجة من التعبير الأدبي بالشعر العامي — الغنائي والقصصي . ففي فرنسا شاع الشعر الغنائي الذي كان ينظمه أو يرتجله الشعراء الجوالون في الجنوب (التروبادور) والشعراء الجوالون في الشمال (التروفير) . وهم أشبه ما يكونون بشعراء المواويل الشعبية .. كذلك اشتهر كريتيان دي تروا (١١٤٥ - ١١٨٣) بما نظمه من فصول ملحمية شعرية باللغة الفرنسية العالمية . وفي نفس الفترة اشتهرت ملحمة « أغنية رولان » التي نظمت بين ١١٠٠ و ١١٢٥ وهى عن مغامرات فرسان شرمان وملحمة أبطال الفرنجة مع أبطال العرب في جنوب فرنسا والبرانس . وسيرة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة ثم تلك الملحمة الروحية العجيبة « أغنية الوردة » التي بدأها جويم دى لورييس نحو ١٢٣٦ وأتمها جان دى مانج ( ١٢٤٠ - ١٣٠٥ ) . ويقال إنه أكملاها بين ( ١٢٧٥ و ١٢٨٠ ) .

هذه الأشعار العالمية أشبه شيء بأشعار المواليا أو بالمواويل الغنائية والوشحات التي ورثناها عن العصور الوسطى .. وهذه السير والملحams أشبه شيء بتغريبة بنى هلال وبسير عنترة وسيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة والزير سالم والظاهر بيبرس التي ورثناها عن نفس الفترة في العالم العربي . كانت هذه ونظائرها الأساس الذي بنى عليه الأدب القومي في فرنسا . وفي إنجلترا كانت هناك « حكايات كانتيررى » وأمثالها للشاعر تشوسر أبي الشعر الإنجليزي ( ١٣٤٠ - ١٤٠٠ ) . و « سيرة الحارث بيبرس » للشاعر لإنجلاند وموال « السير جاوين والفارس الأخضر » الخ .. هي الأساس الذي بنى عليه الأدب القومي في إنجلترا . وبهذه الأداب القومية نضجت اللغات القومية وغدت أدوات صالحة للتعبير الأدبي العظيم . وكانت الثورة على اللغة الرسمية الجامعة والاعتراف باللغات العالمية بما الأساس الذي بنيت عليه القوميات الأوروبية الحديثة .

وهذا عين ما فعله في ايطاليا الشاعر دانتي اليجيري ( ١٢٦٥ - ١٣٢١ ) ومن بعده الشاعر بترارك ( ١٣٠٤ - ١٣٧٤ ) والروائي بوكانسييو ( ١٣١٣ - ١٣٧٥ ) . هؤلاء الثلاثة تاروا على اللغة اللاتينية المقدسة الجامعة التي كانت لغة الدين والدولة في ايطاليا وفي كافة ارجاء اوروبا واتخذوا من اللغة الايطالية العالمية أداة للتعبير الادبي في الشعر والنثر .. وبذلك وضعوا اساس الادب القومي وانضجوا اللغة القومية في ايطاليا .

وقد ولد دانتي في فلورنسا عام ١٢٦٥ لأب قيل انه كان يعلم موثق عقود . وأنه كان ينتمي لأسرة من صغار النبلاء .. وأصحاب دانتي في شبابه الباكر بعض الصيّت في نظم الشعر الغنائي . وكان بين أصدقائه الشاعر كافالكانى والرسام جيوتو . وفي شبابه الباكر تعرف أيضاً على الفتاة بياتريس بورتنيري التي أحبها حب العبادة ونظم فيها ثلاثي الغرام .. ولكن حبه لها كان حباً عذرياً وكأنها طيف . أثيرى سرعان ما أصبح محظوظاً هاماً في كل أشعاره . فلما ماتت بياتريس عام ١٢٩٠ ، ودانتي لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره ، جمع قصائده فيها ونشرها مع مقدمة بعنوان « الحياة الجديدة » .

وتزوج دانتي من فتاة تدعى جيما دوناتي أنجب منها ولدين وبنتين . ويقال ان جيما كانت خطيبته منذ الصبا على عادة تلك الأيام حين كانت الأسر تربط ما بين بناتها وبيناتها وهم بعد صغار . ولا يعرف الكثير عن تعليم دانتي في شبابه ولكننا نسمع أنه قد التحق بنقابة الأطباء والصيادلة . ولم يكن في تلك الأيام ممكناً أن يستغل أحد في مهنة من المهن إلا إذا كان عضواً في نقابتها .. ولا نعرف ماذا أهل دانتي لدخول هذه النقابة إلا أن يكون قد تلقى العلم والتدريب في المهن الطبية .

كذلك نسمع عنه يعمل فارساً مقاتلاً في معركة كامبالدينيو ، وأنه كان يعمل أيضاً في المجالس البلدية قبل ١٣٠٠ وهي وظيفة مدنية أهلته لها عضويته في تلك النقابة المهنية الهامة . وكان قريبه كورسو دوناتي زعيم الحزب الارستقراطي الذي كان يسمى بالحزب الأسود ، أما صديقه الشاعر جويدو كافالكانى فقد كان زعيم الحزب الأبيض ، وهو الحزب الشعبي ، فوقع دانتي بين هذين النقيضين . ونفي الشاعر كافالكانى من فلورنسا أيام عضوية دانتي لمجلس الستة الذي كان يدير هذه الدولة ، بسبب اثارة كافالكانى لبعض الفتن في فلورنسا . ومن الوظائف التي تقلدها دانتي وظيفة السفير ووظيفة المشرف على تخطيط فلورنسا ، والعضو في اللجنة المشرفة على الانتخابات . ثم نسمع عنه وقد ثنى من فلورنسا في ١١ يناير ١٣٠٢

حين استولى الامير شارل دى فالوا ، اخو ملك فرنسا تحت جناح البابا ، على مدينة فلورنسا ، ثم عدل الحكم عليه في مارس ١٣٠٢ فصار « الموت حرقا » .

ولجا دانتى الى مدينة بولونيا عام ١٣٠٣ واشتغل بالمؤامرات مع الحزب الابيض لقلب نظام الحكم في فلورنسا والاطاحة بالحزب الاسود الحاكم ، وهو حزب الاستقرار . فلما فشل قصد الى فيرونا في شمال غربى ايطاليا وربما سافر الى باريس . والارجح أنه كتب كتابه الفلسفى « المائدة » (كونفيفيو) بين أعوام ١٣٠٤ و ١٣٠٨ ، والارجح ايضا انه بدأ كتابه الناقص « في البلاغة العامة » في تلك الفترة . أما « الكوميديا الالهية » فقد بدأها دانتى على الأرجح في فترة متأخرة من حياته ، ومعها بحثه « في النظام الملكي » (دى موناركيا) ، وان كانت هناك اشارات في نهاية ديوان « الحياة الجديدة » توحى بأن دانتى كان يفكر في نظم « الكوميديا الالهية » في تاريخ باكر هو ١٢٩٤ .

على كل فقد أصدرت حكومة فرنسا عفوا عاما عن أعدائها السياسيين في ١٣١١ ولكن دانتى بالذات قد استثنى من هذا العفو . ثم لا يلبث الحكم عليه أن يتجدد في ١٣١٥ . وقد أقام دانتى بعض الوقت في فيرونا ضيفا على آل سكاليجر ، تحت حماية الدوق الشاب كان جراندى ديللا سكالا الذى أهدى إليه قسم « الفردوس » من « الكوميديا الالهية » . ثم انتقل دانتى إلى رافينا بدعوة من أحد سادتها اسمه جويدو نوفيللا دي بولينتا . ويبعدو أن دانتى كان يحاضر في رافينا وأشترك في جدل علمي حول دعوة وجهت إليه لأن يكتب ملحمة باللغة اللاتينية وقد كان دانتى كما هو معروف من أنصار العامة . وقد رحل في سفاره إلى البندقية ليوقف الغزو عن رافينا . ثم مات دانتى في رافينا عام ١٣٢١ ودفن فيها .

وقد بدأ دانتى بالدفاع عن اللغة العامة في تاريخ باكر من حياته الأدبية ، ولكن دفاعه الباكر كان يشوبه التحفظ . ففي ديوان « الحياة الجديدة » يذكر مترجمه ، دانتى جابريل روبيتي ، أن دانتى استخدم العامة الإيطالية لكي يسهل فهم قصائده على سيدة لا تتقن اللاتينية ، وكذلك ليعبر عن مضمونه الفلسفى تعبيرا غنائيا بلغة الحب . أو كما قال دانتى نفسه ان العامة لا تصلح الا للتعبير عن الحب ، أما المعانى الأخرى فهى قاصرة عنها . ولكن دانتى لم يلبث أن خرج بعد ذلك بنظرية متكاملة في الدفاع عن اللغة العامة ، فاستفز أكثر فقهاء عصره .

وفي « المائدة » يقول دانتى : « إن اللاتينية لغة ثابتة وغير قابلة للاضمحلال ، بينما العامية لغة غير مستقرة وهى قابلة للاضمحلال ». كذلك يعترف دانتى بأن اللاتينية « أكثر جمالاً وامتيازاً ونبلاً من عاميتها الإيطالية ، ولكن اللاتينية الفصحى أقل استعمالاً من لهجتها العامية ». وهو يعتذر عن استعماله للغة العامية بقوله : « إنما اخترت هذا الطريق يدفعنى حبى الطبيعي للغة موطنى .. لكن أرفع أولاً من شأن المحبوب ، ثم لكنى أغار عليه ثانية ، ثم لكنى أدفع عنه ثالثاً ». والمحبوب هنا هو لغة الوطن (الإيطالية) التى تنبأ لها دانتى بأنها « سوف تزغ كالنور الجديد وكالشمس الجديدة التى سوف تشرق عندما تنجب الشمس القديمة » ، وسوف تستطع على من تكتنفهم الظلمة والضباب لأن الشمس القديمة لم تعد تستطع عليهم بالضياء » .

وهكذا تقدم دانتى على استحياء من مرحلة التجريب إلى مرحلة اليقين والاعتراض بلغة قومه وعصره ، فقد بدأ له اللغة اللاتينية (الفصحى) لغة شكلية مصطنعة لا تعبر عن الواقع بعد أن ماتت جذورها الحية وتضاعلت علاقتها بالحياة . وحين بدأ دانتى في إنشاء « الكوميديا الإلهية » كان متربداً حائراً بين القديم والجديد حتى أنه نظم مطلعها باللغة اللاتينية ، وكأنما كان يخشى أن تعجز اللغة العامية عن اثبات نبلها أو قدرتها على الحياة ، ولكن دانتى لم يلبث أن وثب الوثبة الكبرى فعدل عن كتابتها باللاتينية وقرر إنشاءها بالإيطالية .

وقد أورد بوكاشيو في كتابه « سيرة دانتى » الأبيات الثلاثة الأولى من « الكوميديا الإلهية » حين بدأ نظمها باللاتينية ثم أضاف : ولكن دانتى أعاد صياغتها « بلهجة فلورنسا .. لكن تعم قرأتها بين مواطنيه وبين غيرهم من الإيطاليين . فقد عرف دانتى أنه لو نظمها بالعروض اللاتيني كما فعل أسلافه من الشعراء لما انتفع منها إلا الراسخون في المعرفة » ، في حين أنه بكتابتها بالعافية يحقق شيئاً لم يتحققه أحد قبله ، دون أن يمنع هذا فهم الأدباء لشعره » .

والحق أن القضية لم تكن قضية اللغة العامية وحدها أو مولد اللغة الإيطالية كلغة صالحة للتعبير الأدبي ، وإنما كانت القضية تمتد إلى الدفاع عن الشعر والأدب البداعي بعامة . فالأكثر من الف عام ، بعد انتصار المسيحية على الوثنيات الأولى ، انقرض الشعر اليونانى واللاتينى والأدب البداعى بعامة مع ما انقرض من تراث وثني ، بل ودخل الشعر والأدب البداعى بعامة في نطاق المحظورات والسفاسف الدينوية التي لا يجوز لمؤمن زاهد في عرض الدنيا أن يهتم بها ، وشاعت في العالم المسيحي نظرية أفلاطون القائلة بيان الشعر غواية ونزيف ومجافاة للأخلاق الفاضلة والروحانية المثالية

الدائمة وابتعاد عن عالم الحقائق وتزيين للخطيئة والكفر والشرك ، ومثل الشعر بقية الفنون .

وقد كان القديس اوغسطين (٤٣٠ - ٣٥٤) من أسبق من روجوا لهذه النظرية . ولكن ذلك قاده الى نظريته في الحقيقة الرمزية للأدب ، وهى النظرية التي مكنت مفكري الرينسانس بعد ألف عام من انتقاد آداب القديماء وفنونهم ومن الدفاع عن الأداب والفنون بوجه عام .

متى كتب دانتى بحثه الهام الناخص « في البلاغة العامية » ؟ بحسب ما جاء في « سيرة دانتى » لبوكاشيو : « وعندما اقتربت منية دانتى كتب كتابا صغيرا باللاتينية اسمه ( في البلاغة العامية ) .. . ويبدو انه كان ينتوى أن ينشئ أربعة فصول في هذا الكتاب .. . الا أنه لم يبق لنا منه الا فصلان » . فإذا كان كلام بوكاشيو دقيقا من أن دانتى كتب دفاعه عن العامية قبيل وفاته ، فقد وجوب أن ننظر الى هذا البحث نظرنا الى آخر موقف اتخذه دانتى من قضية العامية والفصحي ، بل ونظرنا الى « مانييفستو » أو « بيان » أقدم أخيرا على اعلانه في هذا الموضوع، الشائك بعد أن اتم « الكوميديا الالهية » باللغة العامية فأصبحت الأساس الأدبي الحقيقي الذي بنيت عليه اللغة الإيطالية .

ومما يلفت النظر أن دانتى في « البلاغة العامية » كتب دفاعه عن اللغة الإيطالية العامية باللغة اللاتينية الفصحي . وقد دل هذا على أن اللغات الشعبية حتى ذلك التاريخ كانت قد نضجت للابداع الأدبي ، ولاسيما في الشعر ، ولكن استخدامها في النثر العلمي والتعليمي وفي نثر البحوث والدراسات لم يأت الا متاخرًا بعد أن استقر استخدامها في النثر الابداعي ( الرواية والقصة القصيرة والمسرح ) ، فظلت اللغة اللاتينية لغة التعبير القانوني والدبلوماسي والعلمى والتعليمى والفلسفى والفكري بصفة عامة أكثر من ثلاثة قرون بعد دانتى ، حتى فرانسيس بيكون ( ١٥٦١ - ١٦٢٦ ) وللينتر ( ١٦٤٦ - ١٧١٦ ) ، أو لعلها بقيت بعد ذلك الى حد ملموس .

بل ان الناقد الانجليزى الكبير صمويل جونسون ( ١٧٠٩ - ١٧٨٤ ) حين زار جامعة باريس في اواسط القرن الثامن عشر اتخاذ من اللغة اللاتينية اداة للتخطاب اليومى بينه وبين أستاذة تلك الجامعة ، حتى يتتجنب استخدام الفرنسية ويعفى أصحاب البيت من استخدام الانجليزية في بلادهم .

لن نتكلم هنا عن « الكوميديا الالهية » فهذه شرحها يطول ، وإنما نتكلم عن وجه واحد في دانتى هو الذى جعل كل حديث عن الرينسانس أو عصر النهضة الأوروبية لابد وأن يبدأ به ، وذلك هو موقفه من اللغة . فهو أول من

دعا في إيطاليا نظرياً وعملياً إلى التخلّي عن اللغة اللاتينية والى استخدام عامتها الإيطالية أداة للابداع الأدبي .

وقد كان هناك في إيطاليا قبل دانتي من الشعراء من استخدم اللغة العامية في المماويل الشعبية ، ولكن هؤلاء كانوا من صغار الشعراء والشعراء الشعبين الذين تغلب قيمتهم التاريخية على قيمتهم الفعلية . فعمرية دانتي أذن هي التي جعلت من البلاغة العامية بلاغة فصحى ووضعت أساس اللغة الإيطالية كلغة قومية استغنى بها الإيطاليون عن ذلك اللسان الجامد المتحجر العتيق أسرى قواعد النحو والصرف القديم ونقاليد الفصاحة الميتة التي لم تكن تعبّر عن الحياة بعد قرون من اندثار حضارة الرومان .

فعل دانتي كل ذلك حين نظم مقطوعات « الحياة الجديدة » آية في الرقة والسمو ، فكانت مثلاً أعلى للشعر الغنائي تأثر به كافة الشعراء من بعده في كافة الآداب الأوروبيّة ، وفعل ذلك حين نظم بالعامية الإيطالية ملحنته الخالدة « الكوميديا الالهية » (الجحيم والمطهر والفردوس ) ، فكانت مثلاً أعلى للشعر الفلسفى لا نظير له في العصر الحديث الا ملحمة « الفردوس المفقود » للشاعر الانجليزى ميلتون والا « فاوست » للشاعر الالمانى جوته .

وقد حاول دانتي أن يكتب دفاعاً نظرياً عن اللغة العامية ، فكتب بحثه عن « البلاغة العامية » ، ولكنه لأمر ما لم يكمل بحثه فكتب فيه فصلين من أربعة فصول .

يبدأ دانتي دفاعه عن اللغة العامية بتعريفها على الوجه الآتى : « اللغة العامية هي تلك اللغة التي نتعلّمها بلا قواعد بمحاكاة مرضعاتنا » . ومن هذه اللغة تخرج لغة ثانوية هي ما كان الرومان يسمونه « اللغة النحوية » ، « وهي لغة لا يتعلم استخدامها الا الألقلون لأننا لا نكتسب معرفتها الا بعد انشاق وقت طويٍ ونتيجة لدراسة مثابرة » . والحكم الذي يصدره دانتي في هذا الشأن منذ البداية هو أنه : « من بين هذين النوعين من الكلام نجد أن الكلام العامي أعظم فنلا ، من جهة لأنه الأسبق استعمالاً بين البشر ، ومن جهة أخرى لأن كل الناس يستخدمونه رغم انقسامه إلى لهجات مختلفة في النطق والمفردات . كذلك فإن اللغة العامية أعظم فنلا من اللغة النحوية لأنها طبيعية بالنسبة لنا ، بينما اللغة النحوية تدخل في باب اللغة المصطنعة » .

ثم ينتقل دانتي إلى التحليل البشري لسكان أوروبا فيفترض أنهم جاءوا أصلاً من المشرق ثم تفرقوا إلى ثلاثة مجموعات لغوية متميزة بالطريقة التي تقول بها « نعم » . فسكان شمال أوروبا يقولون « اوى » (أيه) ، وسكان

وسطها يقولون « اوک » ( آه ) ، وسكان جنوبها يقولون « سی » ، وهؤلاء هم الايطاليون والفرنسيون والاسبانيون ، وقد كانت هذه المجموعات الثلاث أصلاً تتكلم لغة واحدة ثم تعددت لغاتها رغم وحدة الأصل أو تبللت بعد تفرقها في المكان وتتطورها في الزمان كما تقول أسطورة برج بابل .

والغريب في هذا التحليل أن دانتي كتب هذا الكلام عن هجرة الأقوام الأوروبية من المشرق أكثر من ستة قرون قبل اهتمام الدراسات الأنثروبولوجية ( الجغرافيا البشرية ) والدراسات الفيلولوجية ( فقه اللغة ) إلى منبع سكان أوروبا من شمال الهند ما بين نهر سينهارا وجيحون وانائهم ، سلالات ولغات ، إلى المجموعة الهندية الأوروبية ، والهندية الإيرانية ، والهندية الجرمانية . وهي نظرية تقريبية في تقديرى لأنها تصف جزءاً من الحقيقة وليس الحقيقة كلها ، فهى تستبعد الصحراء الكبرى كأحد المصادر الأصلية لسكان أوروبا في العصور الجيولوجية .

أيا كان الأمر ، فدانتى يفسر تعدد لغات أوروبا رغم وحدة أصلها بثلاثة عوامل ( ۱ ) اختلاف الزمان . ( ۲ ) اختلاف المكان . ( ۳ ) اختلاف المناخ والبيئة ، أو ملتقى إنماهما عاملان وهما اختلاف الزمان واختلاف المكان ، وهذا العاملان يشملان اختلاف المناخ والبيئة . أما اختلاف الزمان فهو يجرى على اللغات كما يجرى على الأحياء : فكما أن الأحياء تولد وتنمو وتزدهر وتهرم وتموت كذلك اللغات تولد وتنمو وتزدهر وتهرم وتموت . وبالمثل فإن اختلاف المكان يتبعه اختلاف المناخ وما يترتب عليه من اختلاف في بعض الخصائص العضوية عند البشر متمثلة في تطور جهاز النطق ، ويتبعه اختلاف البيئة الجغرافية والمادية والاجتماعية وما يترتب عليه من اختلاف المفردات والمصطلحات وعادات التعبير عند الأقوام المختلفة .

يقول دانتى : « وما دام الانسان حيواناً كثيراً للانتقال شديد التغير ، فلا يمكن أن تكون هناك لغة بشرية دائمة أو مستمرة ، وإنما لا مناص من أن تتغير اللغة كما تتغير بقية خصائصنا ، كما يتغير سلوكنا وملبسنا على سبيل المثال بحسب بعد الزمان والمكان » . أو كما يقول دانتى ، لو عاد أهل إيطاليا القدماء من قبورهم إلى الحياة لوجدوا الإيطاليين الأحياء يتكلمون لغة مختلفة عن لغتهم . ولا عجب في ملاحظة هذا الاختلاف . فنحن حين لا نرى شاباً وهو ينمو نحس بما طرأ عليه من تغير بعد أن تقدمت به السن . أما إذا لازمه في نموه فنحن لا نلاحظ ما يطرأ عليه كل يوم أو كل سنة من تغيرات تدريجية طفيفة . « فلا نعجب إذن إذا وجدنا رأى الناس الشبيهين بالبهائم أنهم يحسبون أن سكان آية بلدة كانوا دائماً يتكلمون بلغة لا تتغير ، فتغير لغة آية بلدة يأتي تدريجياً وعبر أزمنة طويلة متعاقبة ، بينما نجد أن حياة الإنسان

قصيرة بالطبيعة » . وما يقال في اختلاف الزمان يقال أيضاً في اختلاف المكان . وبسبب هذا الاختلاف نشأ « النحو » .

يقول دانتي : « وهكذا بدأ عمل مخترع علم النحو ، فما النحو إلا نوع من تثبيت هوية الكلام في الأزمنة المختلفة وفي الأمكنة المختلفة . ولما كانت هذه الهوية مستقرة باتفاق الكثرين ، فهي لا تخضع لتحكم أحد بالذات ، ولذا فهي لا تقبل التغيير . فالنهاية أدنى اخترعوا النحو حتى لا نعجز كلياً أو جزئياً عن معرفة أنكار القدماء وأعمالهم أو معرفة أنكار وأعمال الثنائيين عنا في المكان ، بسبب اختلاف اللغة نتيجة لنزوات بعض الأفراد في التعبير » .

ودانتي يشير هنا إلى انقسام اللغات نفسها إلى لهجات معاصرة ويقول : إن العامية الإيطالية ذاتها كانت فيها أكثر من ألف لهجة ، وإن بعض هذه اللهجات أقرب إلى الروح الإيطالية من غيرها . ومع ذلك فهو يقول أن بنية العامية الإيطالية يجب أن تلتقي فيما ما هو مشترك بين كل أقاليم إيطاليا .

وقد كان من رأى دانتي أن استعمال العامية ينبغي أن يقتصر على أفضل الشعراء الموهوبين من أصحاب الفكر النبيل . فاللغة العامية لغة بليلة ولا يصلح لها إلا الفكر النبيل . أما العاجزون والتافهون من الشعراء فيمكثون أن يستقروا عجزهم وتفاهتهم بالتعبير بالفصحي ، فنان هم عبروا بالعامية بخطى قصورهم ونقصهم في الألهام .

أما أهم أغراض الشعر العامي فهي عنده ثلاثة أغراض ، وهي التعبير عن النافع والممتع والأخلاقي : « فالباحثون عن النافع لن يجدوه إلا في معانٍ (الأمان) . ثم هناك ثانياً الممتع ، وفيه يقول أنه ليس هناك أمنع لاشواق الانسان من (الحب) . وثالثاً ، بالنسبة إلى ما هو أخلاقي ، وفي هذا الصدد لا يشك أحد في أن موضوعه الأول هو (الفضيلة) . ومن هذا يتضح أن هذه الأشياء الثلاثة ، إلا وهي الأمان والحب والفضيلة ، هي فيما يبدو الأغراض الرئيسية التي ينبغي أن تكون أهم ما يعالجه الشعر العامي ، أقصد التعبير عن أهم ما يفضي إليها بطولة السلاح ونار الحب واتجاه الارادة نحو الخير . وإذا نحن تدبرنا الأمر جيداً ، وجدنا أعظم كتاب العامية قد نظموا الشعر في هذه الأغراض وحدتها دون سواها : وهؤلاء هم برتران دى بورن الذي كتب عن بطولات السلاح ، وأرندو دانييل الذي كتب عن الحب ، وجيرودى برونيل الذي كتب عن الفضيلة ، وتشينو دى بيسترو الذي كتب عن الحب ، وصاحبـه (أى دانتي نفسه) كتب عن الفضيلة . ومع ذلك فلست أجد بين الشعراء الإيطاليين من مجد بالشعر بطولة السلاح » .

ومن هذا يتضح أن دانتى يستعمل اصطلاح «الأمان» بمعنى خاص ، هو الذود عن الوطن أو القوم أو العرض أو المصلحة ، وأنه يتحدث هنا عن الشعر الملحمي الذى كان شائعاً في الأدب الفرنسي العامى في زمان دانتى وقبيل زمانه ، ونموذجه « أغنية رولان » التي تصور وقائع شر لسان وفرسانه مع الغزاة العرب ، ونظيرها في الأدب germanic « أغنية النبلونج » وفي الأدب النوردي « أغنية الفولسونج » . هذا الشعر البطولى الذى عرفه اليونان في « الإلياذة » و « الاوديسا » المنسوبتين إلى هوميروس ، وعرفه الرومان في « انيادة » فرجيل ، لم يعرفه الإيطاليون إلا حين نظم أريوسسطو ( ١٤٧٤ - ١٥٣٣ ) في العامية الإيطالية ملحمة « أورلاندو غاضبا » ثم نظم تاسو ( ١٥٤٤ - ١٥٩٥ ) ملحمة « أورشليم محررة » عن الحروب الصليبية .

ثم يتطرق دانتى بعد ذلك إلى الكلام عن مقومات البلاغة العامية في الألفاظ والترابيب والأسلوب والعرض فيحدثنا عن أوزان الشعر وعن مكان الألفاظ الرقيقة والألفاظ الفخمة والألفاظ الضخمة .. الخ .. في شعر شعراء العامية ويبين لنا وظيفة كل مصيلة على حدة في أنواع الشعر المختلفة .

هذا مجمل دفاع دانتى عن اللغة العامية في إيطاليا ودعوته إلى اتخاذها أداة للتعبير الأدبى بدلاً من اللغة اللاتينية . فهو بذلك قد وضع أساس اللغة القومية التى أمكن أن تبنى عليه فكرة القومية الإيطالية . قال الشاعر الانجليزى الكساندر بوب في القرن الثامن عشر عن الشاعر الانجليزى جون درايدن في القرن السابع عشر انه « وجَدَ اللُّغَةَ الْأَنْجِلِيزِيَّةَ طَوْبَا فَتَرَكَهَا رَحَاماً » . فإذا جاز لنا أن نستعير هذه العبارة المشهورة ونطبقها على شعر دانتى اليجيري ، فأكثر صدقنا أن نقول ان دانتى اليجيري وجَدَ اللُّغَةَ الإِيطَالِيَّةَ طَوْبَا فَتَرَكَهَا رَحَاماً .

وهكذا بالرغم من أن كثيراً من أمكار دانتى تنتهي في حقيقتها إلى العصور الوسطى ، الا أن هذه الثورة اللغوية والأدبية والقومية التي استحدثتها قد جعلته أول رائد لعصر النهضة الأوروبية في إيطاليا وربما في أوروبا بصفة عامة .

فلنذكر قول دانتى في ديوانه « فيتا نوفا » أى « الحياة الجديدة » :

« ولكن أفسر هذا الأمر على الوجه الأمثل ، لابد أن نتذكر أولاً أن من كانوا يكتبون قديماً مقصائد الحب ، لم يكتبوا باللغة العامية وإنما كتبها بعض الشعراء المعينين باللغة اللاتينية ، أقصد بين الإيطاليين . ومع أن هذا الأمر يصدق أيضاً على أبناء الشعوب الأخرى ، وهو ما ينطبق أيضاً على اليونان ، فلم يكن بيننا ولا بينهم كتاب يكتبون بلغة الكلام ، وإنما كان

ss

بينهم ادباء يعالجون هذه الاشياء باللغة الفصحي . يجب أن نذكر حقا أنه لم تمض سنوات عديدة منذ بدا نظم الشعر باللغة العامية ، وكان نظم القوافي بلغة الكلام هو ما يعادل استخدام البحور في الشعر اللاتيني وهو غير مقصى . أقول إنه لم يمض وقت طويل ، لأننا لو تأملنا اللغة البروفنسال في جنوب فرنسا واللغة الإيطالية لما وجدنا في هاتين اللغتين شيئاً مكتوباً في تاريخ أقدم من مائة وخمسين سنة . كذلك فإن بعض صعاليك الشعراء بالعامية قد اكتسبوا أولاً بعض الشهرة ، وذلك لمجرد أن أحدها لم يسبقهم إلى الكتابة بالإيطالية . ومن بين هؤلاء كان أولهم شاعر وجده دافعه إلى كتابة شعره بالعامية رغبة منه في أن تفهم محبوبته قصائد لأن الشعر اللاتيني كان مستعصياً عليها » .

فإذا ذكرنا كلام دانتي هذا أدركنا مدى الثورة التي استحدثتها دانتي في تحويل لغة ناشئة بلا تقليد ولا ضوابط ، لغة لم تعرف الانشاء الأدبي في الشعر أو في النثر قبل قرن واحد من زمانه ، إلى لغة للشعر الغنائي في ديوان « الحياة الجديدة » وللشعر الفلسفى في « الكوميديا الإلهية » تفيض عذوبة وشجوا ونبلا وعمقاً ، لغة عامية لا يدفع إلى الانشاء بها العجز عن فهم الفصحي أو عن التعبير بها ، وإنما يدفع إليه احساس شاعر مبدع بما في لغة الشعب من جمال وجلال وصدق وعمق ، خصائص لا تنتظر إلا العبقري الجبار ليجلوها ويفجرها وينشر عليها غلالة من سحر هاروت وماروت .

وهذا ما اكتشفه دانتي في اللغة الإيطالية التي سماها لغة « قومية » لأنها الأساس والقاسم المشترك الأعظم في كافة لهجات إيطاليا المطيبة . وعنه أن اللغة لا تكون قومية إلا إذا اتصفت بأربع خصائص :

١ — أن تكون مضيئة .

٢ — وأن تكون محورية .

٣ — وأن تكون نبيلة .

٤ — وأن تكون محكمة . وهذا في رأيه هو حال اللغة الإيطالية التي دفع عنها دانتي كلغة قومية تتتوفر فيها كل هذه الخصائص .

هي أولاً لغة « مضيئة » بمعنى أنها « منيرة ومنارة » ، وضياؤها يضفى الشرف والمجد على أصحابها وهو الضياء الذي استمدته من قوة أصحابها الذين أزالوا عنها جلافة اللهجات الريفية ، ووحشية التعبيرات المبتذلة

نبلغت بذلك مرتبة عالية من « الرفعه » و « الوضوح » و « التمام » و « الصقل » .

وهي ثانياً لغة « محورية » كالمصراع الذي يتحرك عليه الباب الى الداخل او الى الخارج ، وتبعاً لحركتها تتحرك بقية اللهجات المحليه . ( والاصطلاح الذي يستخدمه دانتى هو « الكردينالية » . والكاردينال هو « منصلة الباب » اي المفصل الذي يتحرك عليه الباب ، اي ان الكرادلة في الدين المسيحي الكاثوليكى هم مصاريع باب الجنة الذى يحمل القديس بطرس مفاتيحه ، وقد استعار دانتى هذا التعبير لوصف اللغة المحورية او المركزية التي تتبع حركتها كل اللهجات ) .

وهي ثالثاً لغة « نبيلة » لأنها تصلح لأن تكون لغة البلاط . والبلاط عند دانتى هو صورة الأمة ممثلة في صفوتها لأن فيه يجتمع حول الملك أو الأمير النبلاء من كل الأقاليم . ومن تجمعهم تنشأ لغة راقية تمثل خير ما في كل اللهجات .

ودانتى يأسف لأن الإيطاليين في أيامه لم يكن لهم بلاط كالفرنسيين لأنه لم يكن لهم ملك أو أمير يوحد كلمتهم ويلتفون حوله : « لهذا فان لفتنا المضيئه تتتجول هنا وهناك كعابر سبيل ولا تجد مأوى يرحب بها غير بيوت البسطاء ، فليس هناك بلاط يحميها » .

وهي رابعاً لغة « محكمة » كلفة المحاكم والقضاء والقانون والإدارة وال المجالس التي تسن الشرائع للناس ، ومتى ياس هذا الأحكام هو التوازن والدقة وضبط التعبير . واللغة الإيطالية عند دانتى تستطيع أن تباهى بهذا الأحكام بفضل « نور العقل » الذي يتميز به الإيطاليون .

إذاً كلام عاشق للغة العالمية الإيطالية أم كلام محام قدير ؟ سواء أكان الأمر هذا أو ذاك ، فهذه المراقبة التي كتبها دانتى عن اللغة الإيطالية باللغة اللاتينية لم تكن هي التي زحرت اللاتينية الوسطى وأخرجتها من الميدان واحتل محلها اللغة الإيطالية كلغة قومية للإيطاليين ، وإنما فعل كل ذلك عجز اللغة العجوز عن التعبير الأدبي ونضاراة لغة الشعب التي ضفرها دانتى حول رأسه كأكليل الغار .

• • •

## ٦

### فِي الْمَلْكِيَّةِ

□ كانت دعوة دانتى للتخلى عن الكتابة باللغة اللاتينية والى الكتابة بصيغتها العامية ( الإيطالية ) تدخل في باب التجديف الذى استوجب غضب الكنيسة ، لأن اللاتينية كانت لغة الكنيسة ولغة الدولة فى القوانين والإدارة والدبلوماسية ، الخ ..

واستخدام الإيطالية لغة للقراءة والكتابة كان سيفضى بالضرورة الى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العامية ، بعد أن كان العالم المسيحي الكاثوليكى لا يقرؤه الا فى اللاتينية التى لا يعرفها الا الفتساوسة والمشقون الذين احتكروا تفسير الكتاب المقدس واقامة الصلوات والوعظ بسبب جهل العامة باللغة اللاتينية ، مما زين لرجال الدين التحكم فى عقول الناس وكل ما يتصل بشئونهم الروحية ، وفيما بعد ذلك بقرنين ( في ١٥٢٠ ) سوف نرى أن البابوية قد أصدرت قرار الحرمان على المصلح الدينى الالمانى مارتن لوثر ( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ ) لأنه كان يهاجم صكوك الغفران ويدعو لترجمة الكتاب المقدس الى الالمانية ، لغة أهل بلاده ، حتى يكسر احتكار أصحاب اللاتينية لتعليم الدين المسيحى وتفسيره ، وأنه كان يطالب بالغاء دور الكهنوت فى الوساطة بين الإنسان والله .

دعوة دانتى للتخلى عن اللغة الفصحى ( اللاتينية ) والى استخدام اللغة العامية ( الإيطالية ) ، كانت اذن وحدتها كافية لغضب الكنيسة عليه . ومع ذلك فنحن نرى دانتى ينفى من مدینته او دويلته ، فلورنسا ، عام ١٣٠١ ، اي وهو في سن السادسة والثلاثين ، ويقضى في المنفى عشرين عاماً متصلة حتى وفاته في ١٣٢١ .

بل نرى أن الحكم ببنفيه يتحول بعد شهرين الى الحكم باحرافه حيا ثم يمتد في ١٣١٥ الى اعدام أولاده الثلاثة او الاربعة الذين كانوا لا يزالون في سن اليقاعة والصبا !

لماذا ؟ في الظاهر لأن دانتي اشتغل بالسياسة وانضم إلى الحزب الخاسر . أما في الحقيقة فلأنه كان صاحب مبادئ نورية خطيرة في السياسة والدين ، نجدها مشروحة في كتابه الشهير « دى موناركيا » ، أى في الملكية أو « في النظام الملكي » .

وقد بدأت متابعته دانتي في عام ١٣٠٠ . فقد كان في فلورنسا حزيان يتنازع عن السلطة ، هما حزب الارستقراطية الذي كان يسمى بحزب « السود » ، ويترعنه كورسو دوناتي ، قريب زوجته ، وحزب البورجوازية ، أو الأثرياء المحدثين ، وكان يسمى بحزب « البيض » ، ويترعنه أصدقائه الشاعر جوبيدو كافالكانتي .. ووقع دانتي بين هذين النقيضين . وكان قد بلغ بالانتخاب منصبا عاليا في فلورنسا ، فانتخب عضوا في المجلس الحاكم في المدينة وهو مؤلف من ستة أعضاء . فلما أثار « السود » الفتن للاستيلاء على الحكم قرر المجلس الحاكم نفي زعماء الطرفين ، ومنهم صديقه الشاعر كافالكانتي .

ولكن حزب « السود » الارستقراطي تآمر مع بابا روما ليعيده إلى الحكم . فدفع البابا شارل ، دوق فالوا في فرنسا إلى غزو فلورنسا ، وتسلل إليها للحزب الارستقراطي ، حزب « السود » . وعرف المجلس الحاكم هذا المخطط ، فأوفد دانتي مع آخرين في سفارة إلى روما ليتوسط لدى البابا بونيفاسيو الثامن ليوقف هذا الغزو . ولكن فلورنسا سقطت في يد الدوق دى فالوا ، أخو ملك فرنسا عام ١٣٠١ ، أثناء سفارة دانتي في روما ، فعاد كورسو دوناتي زعيم « السود » إلى فلورنسا واستولى على الحكم بقوة الغزاة الفرنسيين وبتأييد البابا .

وحكم على دانتي وهو في الخارج وعلى أربعة من البيض في يناير ١٣٠٢ بغرامة فادحة وبالنفي لمدة عامين وبالحرمان الدائم من المناصب العامة ، وكانت التهمة التآمر والتواطؤ لقلب نظام الحكم . ثم عدل الحكم في مارس ١٣٠٢ إلى مصادر كل أمواله واعدامه حرقاً إذا قبض عليه داخل فلورنسا أو أقليمهما . ومنذ ذلك التاريخ حتى وفاته لم تطأ قدمًا دانتي أرض وطنه ، بل عاش مشرداً ينتقل من مدينة إلى أخرى .

كان دانتي بشهادة معاصريه متعاطفا مع « البيض » أو منحازاً لمبادئهم ولكنه سرعان ما سُئم صحبة زملائه المنفيين منهم ، فتركهم وانتقل إلى فيرونا حيث أقام مع آل سكالا ، وهي أسرة الناقد الشهير سكاليجر ، وفي عام ١٣٠٦ كان يدرس في باريس بحسب رواية بوكاشيو عنه .

ثم خابت آمال دانتى من جديد ونهائياً . ففى ١٣١٠ أراد هنرى دوق لوكسمبورج ، بعد أن أصبح الإمبراطور هنرى السابع أن يوحد دوياًلات شمال إيطاليا ويدمجها في إمبراطوريته . فكتب دانتى خطاباً مفتواحاً إلى أهالى فلورنسا يدافع فيه عن هنرى السابع ويهاجم بعنف من يعدون العدة فيها لقاومته . وبالفعل حاصر هنرى السابع فلورنسا عام ١٣١٢ ، ولكنه لم يلبث أن انسحب ، ثم توفي في العام التالى ، فقضى ذلك على كل أمل عند دانتى في العودة إلى وطنه . وكانت حكومة فلورنسا قد أصدرت في ١٣١١ قراراً بالغفو العام عن جميع المنفيين ، ولكنها استثنى دانتى بالاسم بسبب صلاته بهنرى السابع دوق لوكسمبورج . وفي ١٣١٥ تجدد قرار نفيه واعدامه حرقاً إذا وطأ أراضى فلورنسا وامتد حكم الاعدام إلى أولاده .

وبعد اقامته في فيرونا في رعاية كان جراندى ديللا سكالا أمير فيرونا ، انتقل دانتى إلى رافينا في ١٣١٨ — بدعوة من الدوق جويدو نوفييلا دى بولنتا أمير رافينا ، وهناك كان يلقى المحاضرات ويرد على دعوة له أن يكتب ملحمة باللغة اللاتينية ببحث في علم اللغة وبالدراسات الأدبية . ثم قصد إلى دوق البندقية في سفاره ليحول دون قيامه بغزو رافينا . وكانت شهرته قد طبقت الآفاق كأمير لشاعراء إيطاليا فقدمت له مدينة بولونيا أكليلاً من الغار رمزاً لامارة الشعر ، ولكنه اعتذر عن قبوله لأنه كان يأمل أن يأتيه أكليلاً من الغار من موطنـه فلورنسـا . وفي طريق عودته من البندقية أصيب بالملاريا ومات في ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ ودفن في كنيسة الفرانتسيسكان في رافينا . وبعد ذلك بخمسة وسبعين عاماً حاول أهل فلورنسا وحكومتها في ١٣٩٦ أن يستردو رفات الشاعر الذى نفوه مدى الحياة وأمروا باحراته ، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح . ومن قبل أنشأت جامعة فلورنسـا ، بعد خمسين سنة من وفاته ، كرسـيا لدراسة شـعر دـانتـى ، أمـير شـعـراء إـيطـالـيا في كل العـصـور ، واحد شـعـراء خـسـنة لم يـجـدـ الزـمـانـ بـمـثـلـهـ ، هـمـ هـومـيـرـوسـ وـفـرجـيلـ وـشـكـسـبـيرـ وجـوـتهـ وـدـانتـىـ الـيجـيـرـىـ .

• • •

كانت لدانتى في الفكر السياسى معتقداته التى كانت تتوضـعـ سـلطـانـ الكـنيـسـةـ فـىـ الدـوـلـةـ وـتـحـرـرـ السـلـطـةـ الزـمـنـيـةـ (ـ الدـيـنـيـةـ ) من السـلـطـةـ الـدـيـنـيـةـ وـتـرـفـعـ وـلـاـيـةـ الـبـابـوـاتـ عـلـىـ الـمـلـوـكـ ، بـعـدـ أـنـ كـانـ الـبـابـوـاتـ فـيـ زـمـانـهـ وـطـوـالـ أـلـفـ عـامـ منـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ هـمـ الـذـيـنـ يـتـوـجـونـ الـمـلـوـكـ وـالـإـبـاطـرـةـ وـيـفـوـضـونـهـمـ فـيـ حـكـمـ شـعـوبـهـمـ بـحـقـ الـمـلـوـكـ الـالـهـىـ . وـبـهـذـاـ الـمـعـنىـ يـجـبـ أـنـ نـعـدـ فـكـرـ دـانتـىـ السـيـاسـىـ مـرـحـلـةـ هـامـةـ فـيـ تـارـيـخـ الـعـلـمـانـيـةـ .

وقد طرح دانتى قضية الحكم على الوجه التالى فى كتابه عن « الحكم الملكى » :

« (٢) وبناء عليه يجب علينا أولاً أن نتذمّر من ملكية الزمنية ، (أى الدينوية أو العلمانية ) ، وما نموذجها وما غايتها . فملكية الزمنية إذن ، وهى ما يسمى بالامبراطورية ، هى امارة واحدة يمتد سلطانها على كل الناس فى وجودهم الزمنى أو على كل شيء يقاس بالزمن أى متصل بالدنيا ومن هنا تنشأ ثلاثة مباحثات فى هذا الصدد : فيجب أولاً أن نبحث وندرس ما إذا كانت السلطة الزمنية ضرورية لسعادة العالم ، ثم نبحث ثانياً إن كان الرومان قد أصابوا بإقامة امبراطوريتهم ، ثم نبحث ثالثاً إن كانت سلطة الملك تعتمد على الله مباشرة أو تعتمد على مثل آخر لله .

« (٣) والآن علينا أن نتذمّر ما الغاية من الحضارة الإنسانية فى مجموعها . فإذا اهتدينا إلى هذه الغاية فقد قطعنا نصف الطريق كما يقول المعلم الأول أرسطو صاحب ( علم الأخلاق ، إلى نيقوماخوس ) . فاحدى غايات الحضارة هي خلق الإنسان الفرد ، وغايتها الثانية هي خلق الأسرة ، والثالثة هي خلق الحي ، والرابعة هي خلق المدينة الدولة ، والخامسة هي خلق الملكة ، وأخيراً فهناك الغاية النهائية التى يتحققها الله بيد الفنان عن طريق الطبيعة وهى جمع الجنس البشري فى مجتمع واحد . وهذه الغاية الأخيرة هي المبدأ الأول الذى نحاول الآن أن نستهدى به فى بحثنا » .

الغاية النهائية لحالة المدنية التى أرادها الله للإنسان هي عند دانتى أن وحدة الجنس البشري تحت رايات السلام . ومادامت هناك غاية واحدة للجنس الانساني فلما مناص من أن تقوده قيادة واحدة أو أمير واحد أو ملك واحد أو إمبراطور واحد ، سمه ما شئت من الأسماء . فدانتى إذن كان من أوائل من وضعوا في الفكر السياسي أساس الحكومة العالمية ، وعنه أن مجتمعات القبائل ثم الدوليات ثم القوميات ليست إلا خطوات فى طريق إقامة الحكومة العالمية .

منطق الكمال لله وكمال الطبيعة يمنعان أن يكون هناك صراع بين الكائنات ، لأن الصراع دليل التقى . وحيثما وجد الصراع فلابد من وجود حكم أو قاض يحسم هذا الصراع : « فلو وجد أميران ، فلن يخضع أحدهما للأخر ، وهنا قد ينشأ الصراع ، أما بسبب خطأ منها أو بسبب خطأ يرتكبه رعاياها ، وهذا أمر واضح فلابد عندئذ من وجود حكم يفصل بينهما . ولما كان كل منهما لا يعترف بالأخر ، فليس بينهما من يخضع للأخر لأن الانداد لا سلطان لبعضهم على بعضهم الآخر ، فلابد أن يوجد

امير ثالث يتمتع باختصاص اوسع من اختصاص كل منهما ، يستطيع بما له من حق ان يفرض امارته عليهما معا . وهذا يجعل الملكية لازمة للعالم ، وقد ادرك ارسطو هذا المنطق حين قال : ( لا شيء يحب الاعوجاج ، وتعدد الامارات أمر سيء ، ولذا فقد لزم أن يكون هناك امير واحد ) » .

ونفس هذا المنطق يفضي بنا الى أن تعدد الدول القومية يؤدي بالضرورة الى الصراعات التي لا حل لها الا قيام حكومة عالمية .

ولكن اليأس هذا هو المنطق الذي كانت تستخدمه الكنيسة الكاثوليكية طوال العصور الوسطى : اخاء البشر في الله الذي لا سبيل الى تحقيقه بقيام الدول القومية وانما يتحقق فقط اذا كانت السلطة العليا على كل الشعوب والاهراء والملوك هي سلطة البابا ، خليفة الله على الأرض بوصف أنه خليفة القديس بطرس الذي سلمه المسيح مفاتيح الفردوس؟

كلا . فهي كذلك في الظاهر فقط ، اما في الحقيقة فان دانتى يجرد السلطة الروحية من حق الولاية على السلطة الدنيوية وينزع من البابوات احتكارهم للموكلة عن الله التي يفوضون بموجبها الملوك في الحكم بالحق الالهي . فهو يؤسس نظريته على أن الملك الدنيوي يتلقى تفویضه في السيادة من الله مباشرة لا عن طريق البابا او السلطة الروحية ، وهو يتلقاه من الله مباشرة بوصف أنه آداة الله في تحقيق السلام بين البشر وأداته في تحقيق العدالة والخير والحرية بين الناس .

فهذه المبادئ عند دانتى لا تتتوفر الا بانفراد حاكم أعلى بالسلطة الدنيوية ، أميرا كان أم ملكا أم امبراطورا ، و لا يمكن ان تتحقق في ظل أمراء متعددين أنداد يحكمون امارات أو دوقيات أو ولايات مستقلة متعددة متنازعة كل منها تستمد شرعيتها وسيادتها بل وسلطانها الدنيوي وتخومها الدنيوية من البابوات الذين كانوا يتلاعبون بهم وبها لكن تتحول سلطتهم الروحية الى سلطة زمنية ويصبح ملك الدين هو ملك الدنيا .

يرى دانتى ، ما رأه ارسطو في الفصل الخامس من « علم الاخلاق » : الى نيقوماخوس » ، أن عدو « العدل » الاول هو « الطمع » ، أما صديق « العدل » الاول فهو « الخير » أو « الاحسان » . ومن تأصل غيه حب « الخير » كان « العدل » أقوى صفاته . و « الملك » او الحاكم المفرد هو عنوان « الخير » و « العدل » :

« والطمع يهدر قيمة الانسان الجوهرية لانه يبحث عن الاشياء ولا يبحث عن الانسان . اما الخير فيهدر كل شيء ما خلا الله والانسان ، وبالتالي فهو يبحث عن خير الانسان . ولما كان السلام من بين النعم التي ينعم بها الانسان ، ولما كان العمل هو اكبر محقق للسلام ، كان عمل الخير اقوى محرك للعدل ، وكلما ازداد عمل الخير ازداد تحقيق العدل .

« وحب الخير ينبغي أن يكون ملازما لطبيعة الملك .. » .

« (١٢) والجنس البشري كلما اكتملت حريته اكتملت سعادته . وهذا يتضح اذا فهمنا مبدأ الحرية على حقيقته . فلنعلم اذن ان اول مقومات الحرية هو حرية الاختيار ، وهي شيء يقرن به الكثيرون بشفاهم ولكن لا يفهمه الا القلوب » .

« وعندما نرى هذا ندرك ايضاً أن هذه الحرية هي أعظم نعمة يجدها الله للطبيعة الإنسانية . وبالحرية نبلغ سعادتنا في هذا العالم ، وبالحرية نبلغ سعادتنا في غير هذا العالم بوصفنا ملائكة . والجنس الانساني لا يوجد لذاته وليس من أجل شيء آخر الا اذا حكم الناس ملك فرد . عندئذ فقط تستقيم نظم الحكم المعوجة ، الا وهي الديمقراطيات ، والاليجاركيات ( حكم القلة ) ، والديكتاتورية الشعبية ، وهي تفرض العبودية على الناس بالقهر كما هو واضح لكل من يجريها جميماً . الجنس البشري لا يوجد لذاته الا اذا حكمه الملوك والصفوة والمحمسون لحرية الشعب . مثل هذه الحكومات تستهدف تحقيق الحرية ، اي ان الناس توجد لذاتها .. اي ان المواطنين لا يوجدون من اجل حكامهم ولا الشعوب توجد من اجل ملوكها ، وانما ، على العكس من ذلك ، يوجد الحكم من اجل مواطنיהם ويوجد الملوك من اجل شعوبهم . فكما ان المجتمع لا يؤسس لتطبيق القوانين وانما توضع القوانين لمنفعة المجتمع ، كذلك فان من يطبق عليهم القانون لا يخضعون لمنفعة المشرع وانما يخضع المشرع لمنفعة من يسرى عليهم القانون ، كما جاء ايضاً في نيلسوفنا ارسطو .. » .

و واضح من كل هذا الكلام ان دافعي ، متأثر بارسطو في كتابه « علم السياسة » ، وكان عديم الثقة في الديمقراطية ( حكم الشعب ) ، والتي كان يعدها نوعاً من حكم الرعاع ، كما انه كان عديم الثقة بحكم الأقلية وبحكومات « الطفاة » ، اي الملوك المنتخبين او « التيرانوس » كما كانت اليونان تقول ، بوصف هذه الحكومات مرادفة للدكتاتوريات الشعبية او لدكتاتورية الأقلية ، وكلاهما مناف للحرية ومرادف للقهر .

وواضح ايضا ان دانتى ، مثل ارسطو ، كان يؤمن بحكم الملكية والارستقراطية والمدافعين عن حرية الشعب . ويبدو أن دانتى لا يستخدم كلمة « الارستقراطية » بمعناها الشائع وانما يستخدمها بمعناها اليونانى القديم ، اي « حكمة الصفوه » ( الارستوى ) بمعنى « النخبة » او الطبقة الممتازة ، وليس بمعنى الطبقة التى تتمتع بالامتيازات او توارثها .

هذا الكلام قد يبدو غريبا اذا لم ندرك المعنى الخاص لمفهوم « الحرية » عند دانتى .. فالحرية عنده هي « حرية الاختيار » ، ولكن ما دمنا نتحدث عن « الاختيار » فلا اختيار الا بالقدرة على التمييز والقدرة على الحكم . وكل ما يعطل ملكة التمييز او الحكم عند الانسان ، كالخضوع كالبهائم للشهوات ، او الانبهار بالعرض البراق ، او طلب المنافع العاجلة ، او الوقوع في اسر الضرورة ، او الخضوع للقهر الخارجى أو الداخلى ، يعطل قدرة الانسان على الاختيار وبالتالي فهو سالب للحرية .

• • •

## حق الملوك الإلهي

□ انتهى دانتى من بحثه في نظم الحكم إلى أن النظام الملكي القائم على سلطان الحاكم الفرد (المونارخية) هو النظام الأمثل لسياسة الشعوب . ودرجة درجة نكتشف أنه يقصد بالنظام الملكي النظام الامبراطوري ولا سيما كما عرفته الامبراطورية الرومانية . بهذا كان دانتى أول مفكر في عصر النهضة الأوربية يدعو ضمنا ، بل تصريرا ، إلى أحياء مجد روما الامبراطوري .

وكانت هذه أيضا دعوة ثورية في الفكر السياسي أيام حكم البابوات في العالم المسيحي .

فمنذ المؤرخ المسيحي الشهير أورسيوس الذي عاش نحو عام ٤٠ ميلادية وعرفه ابن خلدون باسم هرثيوش ، قرأ الناس في مغارب الأرض ومشارقها شاهد قبر الامبراطورية الرومانية في موسوعته الشهيرة عن « تاريخ العالم » ، أو على الأصح قرأ الناس « التفسير المسيحي » لتصدع الامبراطورية الرومانية وانهيارها ، وكانت خلاصة كلام أورسيوس هي أن تصدع الامبراطورية الرومانية وانهيارها كان نتيجة للغضب الإلهي ، وأن غضب الله حل على الرومان لأنهم ضلوا وحدوا عن طريق الله بفسقهم وجبروتهم وظلمهم وطغيانهم وأشغمسهم في الشهوات ، ولذا أرسل الله عليهم البراءة من كل جانب فخربوا الامبراطورية وعاثوا فيها فسادا .

بقى هذا التفسير هو التفسير المعتمد في العالم المسيحي ألف عام او يزيد لأنه كان التفسير الرسمي الذي اعتمدته الكنيسة الكاثوليكية والبابوات قرنا بعد قرن .. وبهذا التفسير قضت الكنيسة على كل شعور قومي في نفوس الإيطاليين يجعلتهم يتذمرون لأمجاد آجدادهم الأولين أيام جاهليتهم العظيمة ويترعون من حضارتهم الورثية المجيدة السابقة على انتصار المسيحية في مختلف أرجاء الامبراطورية .

ولا شك أن نهوض آباء الكنيسة وفقهاها بداعيا بلاكتانس (٢٦٠ - ٣٢٥) والقديس أوغسطين (٤٣٠ - ٣٥٤) ، الذي تتمذ عليه المؤرخ أوروسيوس، والقديس جيروم (٣٤٧ - ٤٢٠) ، وفولجانس (٤٧٦ - ٥٢٣) ، قد حاولوا إنقاذ تراث الوثنيات اليونانية واللاتينية من الاندثار تماما أمام حماس المسيحيين الأوائل ، وأغلبهم من بسطاء الناس وجهالهم ، فأعطوا تفسيرات رمزية داخل الأطار المسيحى لأساطير اليونان والرومان وآلهتهم وابطالهم وأصنامهم .

ولكن الطابع العام الذى ساد الحضارة المسيحية طوال الف عام من العصور الوسطى كان محاولة اقتلاع كل ما كان من تراث الجاهلية اليونانية والرومانية وأمجادها التاريخية بوصفه كفرًا في كفر ومعاديا لله والمسيح ، ولم يبق من ذلك الفكر الشاھق الا بقايا مبتسرة من منطق ارسسطو لاستخدامه في السفسطة الدينية ، ومن مثالية أفلاطون لاستخدامها في الشطحات الروحانية .

والآن يأتي دانتى ليعلم الناس عكس ما كانت الكنيسة تعلمهم ، وهو أن عصر الرومان الامبراطوري الوثنى لم يكن ضلالا في ضلال ولا فسادا في فساد ، بل كان عصرًا مجيدا ازدهر فيه الإنسان وحضارة الإنسان حتى قبل ظهور أديان التوحيد ، وأن هذه الحضارة الدينوية لم تكن من عمل الشيطان وإنما صاغتها العناية الإلهية بنور العقل وبنور الإيمان .

ودانتى يعترف في الباب الثاني من كتابه « في الحكم الملكي » انه كان في البداية فريسة لهذا الاعتقاد الشائع :

« كان هناك زمن كنت أنا أيضًا أقف ذاهلاً أمام هذا التصور ، وهو أن الشعب الروماني بلغ قمة السُّؤدد على الكورة الأرضية ، لا يجد من يقاومه ، وكنت أحسب ، لأنني لم أكن أرى إلا سطح الأمور ، أن الرومان بلغوا كل هذا السُّؤدد بقوة السلاح وحدهما . ولكنني الآن وقد نفذت بعقلي إلى لب الأشياء ، ورأيت بدلائل مقنعة كل الاقناع أن العناية الإلهية هي التي حققت ذلك لم أعد أقف متعجبًا أمام هذا المجد الدِّيني » .

والمقطع الذى يستخدمه دانتى لاثبات رايته بسيط من صميم الدين ومن صميم العقل معا ، كما يقول . فمن جهة الدين فهو يقول ان كل هذا المجد الامبراطوري الذى حققه الرومان ، وهو ملك الدنيا ، ما كان ليكون لو لا ان اراد الله . وبما ان الله لا يريد الا الخير والحق ، فالامبراطورية الرومانية اذن قامت لتحقيق الخير والحق . وبمثل ما نقول ان الرومان انحطوا برذائلهم فدالت دولتهم العظمى ، يجب ايضا ان نقول ان الرومان

ارتقوا بفضائلهم حتى ملكت دولتهم كل العالم القديم . وفي رأى دانتي أن الطبيعة خلقت الشعب الروماني للسيادة والقيادة ، فتاريشه يدل على أنه لم يكن يتطلب السلطان لذاته ولكن لفعل الخير واسعامة الحضارة . فهم أولى شعب بحكم العالم . وكم من أمم نافستهم في بناء الامبراطوريات ولكنهم انتصروا على الجميع ، وهذا نطق من الله بأنهم يفضلون سواهم . وهنا تكلم دانتي وكأنه موسوليني !

هذا التطرف في الشعور القومي وهذه الدعوة لاحياء الدولة الامبراطورية كانت بمثابة ثورة على تعاليم الكنيسة التي كانت تزرى من شأن الامبراطورية الرومانية بوصفها تجسيداً للمجد الديني الذي يتعارض مع طلب ملوك الله والزهد في الدنيا انتصاراً لمجد الآخرة . قال دانتي مندداً بدعاؤى الكنيسة : لولا أن الرومان صلبوا المسيح لما كانت هناك مسيحية :

« فكيف أذن من يزعمون أنهم أبناء الكنيسة لا يكونون عن التقى  
بالامبراطورية الرومانية .. »

« يا للرومان من شعب مبارك ! يا لاوزونيا من دولة مجيدة ! ( واوزونيا هي الاسم الشاعري لـ إيطاليا ) لـ ( ع ) ليته ما ولد قط من أضعف امبراطوريتك يا روما ، أو ليت تقواه لم تقاده في سبيل الضلال ! » .

وهكذا كان دانتي بمثابة الفاصل بين عالمين : عالم وسيط يؤمن بأن الدولة الدينية الجامعية ( البابوية ) ، هي أساس التنظيم الاجتماعي ، وعالم جديد يؤمن بأن الدولة القومية الجامعية ( الامبراطورية ) ، هي أساس التنظيم الاجتماعي . وكان دانتي من أسبق دعاة الدولة القومية التي كانت الطابع المميز لعصر النهضة الأوروبية . ولم يكن الخيار عند دانتي بين قيصر والله ، فقد كان دانتي مؤمناً ولكنه كان بين قيصر والبابا . فاختار دانتي قيصر وأعرض عن البابا ، ولهذا كان انتقام البابا منه انتقاماً رهيباً : النفي المؤبد والحرق حياً إذا وطئت قدماه أرض موطنه .

● ● ●

وما دام الخيار بين قيصر والبابا فهذا ما يقوله دانتي في الموازنة : بينهما :

« أذن فالسؤال المطروح هنا ، وهو موضوع بحثنا ، يقع بين نورين عظيمين هما البابا الروماني والأمير الروماني . فنحن نتساءل : من أين تستمد سلطة الملك الروماني الذي هو بالحق ملك العالم ، كما اثبتنا في

الباب الثاني من هذا الكتاب ، اهى تستمد مباشرة من الله أم هي تستمد من خليفة الله او رسول منه . أقصد خليفة بطرس الرسول الذي يحمل بالحقيقة مفاتيح الفردوس . اي من البابا ؟

« (٤) ان كل من أسوق من الحجج التالية لاقناعهم ، يؤكدون أن سلطة الامبراطورية مستمدّة من سلطة الكنيسة ، وهي تعتمد عليها كما يعتمد الأسطى على المهندس المعماري . وهم في هذا الاعتقاد مسوقون بجملة حجج معارضة يستقونها من الكتاب المقدس ، ومن بعض أعمال الرئيس الأعلى للكنيسة والامبراطور نفسه في وقت واحد . ومع ذلك فهم يحاولون أيضاً أن يجدوا بعض السند لرأيهم في منطق العقل .

« فهم أولاً يقولون استناداً إلى قول الكتاب المقدس في سفر التكوين ، ان الله خلق جرمين مضيئين عظيمين ، أحدهما كبير والآخر أصغر ، حتى يحكم أولهما النهار والثاني الليل . وقد اعتناد هؤلاء أن يفهموا بالمجاز أن هذين النظامين إنما يعنيان العالم الروحي والعالم الزمني .. ومن هنا نجدهم يحتجون بأنه كما أن القمر .. وهو الجرم المضيء الأصغر .. ليس له نور خلاف النور الذي يتلقاه من الشمس ، كذلك فالنظام الزمني ليست له أية سلطة إلا ما يستمدّه من النظام الروحي » .

ويرد دانتى على هذه الحجة بقوله ان هذه حجة زائفة لأن القمر رغم أنه يستمد نوره من الشمس الا أن هذا لا يعني أنه يستمد من الشمس وجوده ، أو أنه يعتمد في وجوده على الشمس ، أو أنه يعتمد في حركته على الشمس ، لأن حركته من محركه الأول .

(المعروف في الفلك أن القمر قطعة انفصلت من الأرض كما أن الأرض قطعة انفصلت من الشمس ولكن هكذا كانت حال علم الفلك في زمن دانتى الذي يضيف أن القمر ليس مدينا للشمس بكل نوره إذ أن له بعض النور الذاتي ، وإنما الشمس تضيف إلى القمر ضياءه الساطع . وما دمنا نتكلّم بلغة المجاز فهو يريد أن يقول أن الملك لا يستمد وجوده ولا حركته ولا سلطنته من البابا ، وإنما الكنيسة تضيف إلى سلطته قوة ، لـ . ع . ) .

يقول دانتى :

« وهم يزعمون أيضاً استناداً إلى نفس النص أن قول المسيح لبطرس: ( وكل ما عقدته على الأرض سوف يعقد في السماء أيضاً ، وكل ما حلّت به على الأرض سوف يحل في السماء كذلك ) ، وهو ما نجده في متى وفي يوحنا ، ويستخلصون أن المسيح قال هذا الكلام لكل تلاميذه . ولهذا يستدلّون على

ان خليفة بطرس قادر على عقد كل شيء وحله ، ومنه يستخلصون ان البابا يستطيع ان يلغى قوانين الامبراطورية ومراسيمها وأنه يستطيع ان يصدر القوانين والمراسيم للسلطة الزمنية » .

وهذا عند دانتى تزييف لأنه قائم على قياس خاطئ لأنه يجعل الكلام عن الجزئى ينطبق على الكلى :

« فالمسيح يقول بطرس : ( سوف أعطيك مفاتيح الفردوس ) ( حرفياً ملوك السماء لـ عـ ) . أى أنه سيجعله بواب الجنة . ثم هو يضيف : ( وكل ما عقدته ، الخ .. وكل ما حللت .. الخ ) ، وهذا معناه : ( كل ما تعقدت وتحله في نطاق وظيفتك كحارس لباب الجنة ) ، وليس معناه كل ما تعقدت وتحله على الاطلاق . هذه العمومية المتصمنة في عبارة ( كل ما ) ، عمومية مقصورة على حدود اختصاصه كحامل مفاتيح مملكة السماء . فالقضية التي ناقشها اذن قضية صحيحة في حدودها ، فان هي أخذت على اطلاقها فواضح أنها ليست كذلك . وبناء عليه فاني أقول : ولو أن خليفة بطرس يستطيع أن يحل ويعد في نطاق ما اختص به بطرس من مهام وظيفته ، فانه لا يستخلص من ذلك أنه يستطيع أن يحل ويعد قوانين الامبراطورية وقراراتها بحسب زعمهم ، الا اذا استطاعوا ان يثبتوا ايضاً أن ذلك يدخل في اختصاص المفاتيح . وهذا عكس الحقيقة كما سنوضح فيما يلى » .

وهكذا استطاع دانتى بقوة المنطق الارسططاليسي أن يقصر سلطة الكنيسة والبابوات على الأمور الروحية وحدهما ، وأن ينفي اية سلطة للكنيسة او للبابوات على اى أمر من أمور الدنيا ، وهو ما خص دانتى به الدولة وحدها ( الامير ، الملك ، الامبراطور ) . كذلك يرد دانتى على حجة اخرى كان يستخدمها دعاة الدولة الدينية ، وهي قولهم ان الامبراطور قسطنطين حين شفى من البرص بشفاعة البابا سيلفستر ، وهب كرسى الامبراطورية وهو روما للكنيسة . ومن هذا يستخلصون أنه منذ ذلك التاريخ غدا مستحيلا على اى انسان أن يجلس على عرش الامبراطورية الا اذا تلقاه من البابا ، وهذا يجعل سلطة الامبراطور مستمدۃ من سلطة البابا و يجعل السلطة الزمنية خاضعة للسلطة الروحية . وعلى هذا يرد دانتى بقوله :

« وأنا أقول ان هذه الحجة ضعيفة ، لأن قسطنطين لم يكن يملك أن يتنازل عن الشرف الامبراطوري ، ولا كان من سلطة الكنيسة ان تتلقى هذا الشرف .

« فهذا ينقض الحق الطبيعي أن تدمر الامبراطورية نفسها ، فالامبراطورية لا تدمر نفسها . وبما أن الامبراطورية متمثلة في وحدة الملكية الجامحة والتنازل عن جزء منها تزييق لها ، فمن الواضح أن من يتقلد سلطة الامبراطورية لا يجوز له أن يمزق الامبراطورية » .

وهنا يقذف دانتى في وجه البابوات والكنيسة قول المسيح لقاضيه الرومانى عندما نسب إليه أنه يدعى الملك : « ملكتى ليست من هذا العالم » . فلو كانت ملكتى من هذا العالم لقاتل خدمى حتى لا أسلم لليهود » . وبهذا يثبت أن الدين شيء والدولة شيء آخر ، بل أكثر من ذلك ، فإن دانتى يوضح أن سلطة الدولة على الدين ثابتة من نصوص الكتاب المقدس ذاته حيث نرى القديس بولس يقبل راضياً أن يقضى قيصر في أمره كما أمره بذلك « ملاك الرب » .

كلا . ان السلطة الزمنية ليست خاضعة للسلطة الروحية ، بل على العكس من ذلك ، يرى دانتى ان السلطة الروحية يجب أن تخضع للسلطة الزمنية ، اقتداء بموقف المسيح أمام بيلاطس مثل قيصر ، واقتداء بما قاله وفعله القديس بولس في « أعمال الرسل » في الاحتکام الى قيصر ليقضى بينه وبين اليهود ولیحميه من عدوائهم . أما السلطة الزمنية فيرى دانتى أنها لا تخضع الا للله مباشرة ، لأنها تستمد من الله مباشرة تقویضها في حكم البشر . قال دانتى في الباب الثالث من كتابه « في الملكية » :

« أوضحنا كيف أن سلطة الامبراطورية ليست راجعة إلى سلطة البابا ، وهو الرئيس الأعلى للكنيسة . ولكننا لم نثبت تماماً أنها تتوقف مباشرة على الله إلا بالاستنتاج الضمني . فالاستنتاج الضمني يقول أنها اذا لم تكن تتوقف على خليفة الله فهي تتوقف على الله . ولذا فلکى ثبتت هذه القضية أثبتنا نهائياً فلا مناص من أن ثبت أن الامبراطور أو ملك العالم لابد وأن يكون على علاقة مباشرة بملك الملوك أمير الكون « وهو الله » .

.....

« فالانسان اذن بحاجة الى قوة مزدوجة تقوده الى غايتها المزدوجة ، أى أنه بحاجة الى البابا ليقود الجنس البشري وفقاً لتعاليم الوحي الى الحياة الأبدية ، والى الامبراطور ليقود الجنس البشري الى النعيم الابدى وفقاً لتعاليم الفلسفة .. بدستور تعود أعماله على الناس بتحقيق غاياتي الحرية والسلام » .

فالجديد في فكر دانتي السياسي أنه لأول مرة بعد ألف عام من انقراض الدولة الزمنية أو الدينية المتمثلة في الامبراطورية الرومانية ذكر الناس بأن تهیصر له غایته وهي اقامـة الفردوس الأرضـي في هذا العـالم ، وأن البابـا له غـایـته وهي قـيـادـة الجنس البـشـرـى لـدخـول الفـردـوـس الـأبـدـى في العـالـم الـآخـر . وبـذـلـك فـصـلـ دـانـتـى بـيـنـ الدـيـنـ وـالـدـوـلـةـ وـوـضـعـ حـدـاـ لـلـدـوـلـةـ الـدـيـنـيـةـ الـتـىـ تـحـكـمـ فـيـهاـ شـرـائـعـ الدـيـنـ وـرـجـالـ الدـيـنـ أـمـرـ الدـيـنـ .

لأول مرة منذ ألف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يقول للناس في العالم المسيحي ان للانسان الحق في السعادة والمجـد على الأرض وليس قدره أن يجعل من حياته الأولى مجرد مـعـبرـ للـحـيـاةـ الثـانـيـةـ .

ولأول مرة بعد ألف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يقول للناس في العالم المسيحي ان الملوك لا يستمدون حقهم الالهي في الحكم من البابـوـاتـ ، وإنـماـ يـسـتـمـدـونـهـ مـنـ اللهـ مـباـشـرـةـ .ـ وـرـبـبـاـ كـانـتـ هـنـاكـ فـيـ أـورـوبـاـ اـرـهـاـصـاتـ بـذـلـكـ الصـرـاعـ بـيـنـ الـكـنـيـسـةـ وـالـدـوـلـةـ فـيـ زـمـنـ هـنـرـىـ الثـانـىـ مـلـكـ انـجـلـترـاـ الـذـىـ اـنـتـهـىـ بـاغـتـيـالـ القـدـيسـ توـمـاسـ بيـكـيـتـ فـيـ كـاتـدـرـائـيـةـ وـسـتـمـنـسـتـرـ عـامـ 1170ـ ،ـ وـلـكـنـ هـذـهـ كـانـتـ أـوـلـ مـرـةـ تـطـرـحـ فـيـهاـ عـلـىـ الـمـسـتـوـىـ الـنـظـرـىـ قـضـيـةـ الـفـصـلـ بـيـنـ الدـيـنـ وـالـدـوـلـةـ وـمـسـتـوـلـيـةـ الـمـلـكـ اـمـمـ اللهـ مـباـشـرـةـ وـلـيـسـ اـمـمـ خـلـيـفـةـ اللهـ عـلـىـ الـأـرـضـ كـمـاـ كـانـ الـبـابـوـاتـ يـسـمـونـ .ـ

ولا شكـ انـتـىـ لاـ نـزـالـ بـعـيـدـينـ كـلـ الـبـعـدـ عـنـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ الـتـىـ عـرـفـهـاـ الـيـونـانـ وـيـعـرـفـهـاـ الـعـالـمـ الـحـدـيـثـ ،ـ فـنـحنـ لـاـ نـتـحـدـثـ بـيـوـمـ عـنـ اللهـ كـمـصـدرـ الـسـلـطـاتـ وـلـكـنـاـ نـتـحـدـثـ عـنـ الـأـمـةـ كـمـصـدرـ الـسـلـطـاتـ .ـ وـدـانـتـىـ قـدـ حـرـرـ الـأـمـيرـ اوـ الـمـلـكـ اوـ الـإـمـپـرـاـطـوـرـ مـنـ تـقـلـدـ الـحـقـ الـالـهـيـ فـيـ الـحـكـمـ بـتـقـوـيـضـ مـنـ الـكـنـيـسـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ أـعـطـىـ الـأـمـيرـ اوـ الـمـلـكـ اوـ الـإـمـپـرـاـطـوـرـ الـحـقـ الـالـهـيـ فـيـ الـحـكـمـ بـالـاـصـالـةـ لـاـ بـالـنـيـاـبـةـ اوـ مـنـ الـبـاطـنـ .ـ وـهـوـ مـاـ يـقـابـلـ فـيـ زـمـانـنـاـ نـظـرـيـةـ رـجـلـ الـأـقـدـارـ (ـ نـابـولـيـوـنـ )ـ اوـ الزـعـيمـ الـمـلـهـمـ (ـ الـفـوـهـرـ )ـ ..

واخـيراـ فـلـأـولـ مـرـةـ بـعـدـ الـأـلـفـ عـامـ مـنـ الـعـصـورـ الـوـسـطـىـ يـجـرـؤـ مـفـكـرـ أنـ يـدـعـوـ إـلـىـ اـقـامـةـ الـدـوـلـةـ الـقـوـمـيـةـ ،ـ بـلـ وـالـإـمـپـرـاـطـوـرـيـةـ ،ـ أـىـ الـدـوـلـةـ الـقـوـمـيـةـ الـجـامـعـةـ ،ـ عـلـىـ انـقـاضـ الـدـوـلـةـ الـدـيـنـيـةـ وـكـبـيلـ لـهـاـ .ـ

لقد وضع دانتي أساس الدولة الحديثة على القومية والعلمانية قبل مكيافيللي بقرنين ، فكان رائد الفكر السياسي الحديث في عصر النهضة الأوروبية . ورغم وضوح دعوته العلمانية ، فقد أعلن دانتي في ختام كتابه

« في الملكية » ، أن الدولة الزمنية ( الدنيوية ) لا تعنى بتنا الخروج على الدين ، أو بلغة دانتي : « فليراع قيصر اذن واجب الاحترام لبطرس ( مؤسس الكنيسة الكاثوليكية ل . ع . ) ، الاحترام الذي يجب أن يحمله الابن البكر نحو أبيه حتى يضيئه نور النعمة الابوية فيشع ضياؤه بقوة أكبر في أرجاء العالم الذي اقامه عليه حاكما حاكم كل شيء في الوجود ، روحيا كان أو زمنيا ، الله » .

• • •

# بترارك

PETRARCH

١٣٧٤ - ١٣٠٤

□ كان دانتى أباً للشعر الإيطالى في عمومه ، ولاسيما الملحمى والفلسفى والدينى منه فى « الكوميديا الالهية » ، ولكن بترارك كان أباً للشعر الإيطالى الفنائى بصفة خاصة .

ومن النقاد من يبدأ عصر النهضة الأوروبية بأدب بترارك . متجاهلين دانتى الذى يدعونه أقرب إلى العصور الوسطى منه إلى الرنسانس . ولقد كان دانتى كذلك فى أكثر أفكاره الفلسفية والدينية .

ومع ذلك فقد كان دانتى أول رائد من رواد عصر النهضة الأوروبية بدعوته نظرياً وعملياً لاتخاذ اللغة الإيطالية الدارجة أداة للأبداع الأدبى ، وبدعوته لإقامة الدولة القومية ، بل والإمبراطورية ، مكان الدولة الدينية الجامعية . وبدعوته لتحرير الدولة القومية من هيمنة البابوية ولفصل الدين عن الدولة . فكان بذلك أول من فتح الباب لظهور أوروبا الحديثة من ظلام العصور الوسطى .

أما بترارك فهناك من يسميه أول من وضع أساس المذهب الانسانى في إيطاليا . وهو في نفس الوقت أعظم شاعر غنائى نظم في اللغة الإيطالية الدارجة في زمانه وفي كل العصور . وقد كان من أوسع أهل زمانه معرفة بأداب القدماء وعملاً على احياء ثقافة الرومان . وكان دائم البحث عن المخطوطات اللاتينية وجمعها ودراستها ، فعاش في صحبة فرجيل وشيشرون وسنيكا فارتყع بعلمه وذوقه المصنفى عن كافة أهل عصره . وكان صاحب أسلوب راق في اللاتينية . ومع هذا لم يمنعه ذلك من أن يختص اللغة العامية ( الإيطالية ) بأروع ابداعه الأدبى . وابتكر ، أو على الأصح طور .. في الشعر الإيطالى قالباً غنائياً خاصاً هو « السونيتة » خلد به غرامه لصاحبه لورا . ولم يلبث هذا القالب أن انتسبته كافة الأدب الأوروبية الأخرى . ولاسيما الأدب الإيطالى والأدب الفرنسي والأدب الانجليزى .

ولد فرانشيسكو بترارك في بلدة أريتزو بإيطاليا في ٢٠ يوليو ١٣٠٤ . وكان أبوه بتراكو دي سر باريتنزو موثق عقود في مدينة فلورنسا . وكان صديقاً لدانتي وزميلا له في المفى منذ ١٣٠٢ . وقد قضى بترارك شبابه في مدينة أفينيون في جنوب فرنسا ، حيث كان مقر البابوية بين ١٣٠٩ و ١٣٧٦ ثم حيث كان مقر بابوات أفينيون بين ١٣٨٧ و ١٤١٧ بعد انشقاق الكنيسة الغربية ( الكاثوليكية ) نفسها . وفي أفينيون عرف بترارك محبوبته لورا التي خلدها في أشعاره .

وفي سن الثانية عشرة أرسله أبوه إلى جامعة مونبلية بجوار أفينيون في جنوب فرنسا لمدة أربع سنوات ليتعلم القانون المدني . وأكمل دراسته بثلاث سنوات أخرى في جامعة بولونيا . ثم عاد إلى أفينيون التي كان يمقتها . وفي هذه الفترة استولى عليه شفه العظيم بالشعراء اللاتين ، كما افتتن بـ*شعر التروبادور* ، أي الشعراء الجوالين .. الذي كان ينشئه وينشده الشعراء الجوالون في أقليم بروفانس بجنوب فرنسا باللهجة العامية الفرنسية المعروفة بالبروفنسال نسبة إلى أقليم بروفانس .. وفي تلك الفترة ذاتها افتتن بترارك أيضاً « بالأسلوب الجديد الحلو » الذي كان ينظم به دانتي وأبناء جيله في إيطاليا . وليس هذا غير اللغة الإيطالية . أو اللاتينية العامية كما كان يتحدث بها مثقفو إيطاليا .

كان بترارك قد فقد أمه . فلما مات أبوه في ١٣٢٦ عاد إلى أفينيون .. وهناك استأنف حياة الله والصبوات بل والمجون . وفي ٦ أبريل ١٣٢٧ رأى لأول مرة في كنيسة سانتا كلارا سيدة فؤاده لورا ، وكان يومئذ في الثالثة والعشرين من عمره . فكانت لورا محور كل ما نظم من شعر غنائي ، حتى ذهب شعر بترارك مثلاً في الحب « العذرى » كما ذهب من قبل شعر دانتي في محبوبته بياتريس مثلاً في الحب العذرى . وقد ماتت لورا بالطاعون في ٦ أبريل ١٣٤٨ بعد أن عرفها بترارك باحدى وعشرين سنة . وقد أخفي بترارك اسم محبوبته عن العالمين . ولكن مؤرخي الأدب يعتقدون أنها كانت بنت أحد نبلاء بروفانس ويدعى أوديريت دي نوفيس . وأنها كانت زوجة هيجوج دي صاد . أحد أشراف أفينيون .. فهجر بترارك في سن الثانية والعشرين دراسة القانون ، لا استخفافاً بالقانون ، ولكن كما يقول أسمزارا من المشتغلين به المتاجرين فيه .

وفي تلك الفترة ذاتها تعرف بترارك على آل كولونا المشهورين . وهم من أقطاب روما المشغلي بالدين والسياسة . فقضى صيفاً كاملاً مع الأسقف جياكومو كولونا على سفح جبال البرانس .. ثم خادماً للكنيسة أو قساً غير مرسوم لفترة ما لدى الكاردينال جيوفاني كولونا في المقر

البابوى بأفنيون وحصل بذلك على مرتب منتظم . ثم تعددت رحلاته فسافر الى باريس والى المانيا وهولندا وطاف بوادي نهر الراين في ١٣٣٢ .. وفي ١٣٣٧ زار روما لأول مرة في حياته فبهرته آثارها .

وفي ١٣٣٧ قرر أن يعتزل حياة المدينة في أفنيون فاعتكف في ريفها بوادي فوكلوز الساحر وسط كتبه ، على مسافة خمسة عشر ميلا شرق المدينة . وهناك أقام حتى ١٣٥٣ متفرغا للقراءة والكتابة واستلهام جمال الطبيعة نحو سبعة عشر عاما .

وفي فوكلوز أيضا بلغ بترارك أقصى مجده الأدبي . وفي يوم واحد تلقى دعوتين لتنصيبه أميرا للشعراء : جاءته احداهما من رئيس جامعة باريس ، وجاءته الأخرى من مجلس الشيوخ بروما . فقبل دعوة السناتور الرومانى . وهناك توجه في الثامن من أبريل ١٣٤١ على ظل الكابيتو بأكليل الغار ، فصارت إليه امارة الشعر من بعد دانتى اليجيري الذي رفض من قبل أن يتوج إلا في موطنه فلورنسا .

وهكذا أصبح بترارك أميرا للشعراء ايطاليا وهو لا يزال في السابعة والثلاثين من عمره . ولكنه كان أيضا فوق هذا زعيما روحيا لدعوة توحيد ايطاليا ولتجديد شبابها ولإعادة مجد روما القديمة . الم تكن هذه من قبل هي نفس أحلام دانتى اليجيري ؟

وبعد تتويجه بترارك أميرا للشعراء عاد إلى أفنيون . وهناك استأنف مرة أخرى حياة المجون التي اتسم بها شبابه .. وفي ١٣٤٣ دخل أخوه جيراردو الدير . أما هو فقد دخل في أزمة روحية عنيفة .. لقد كان في بترارك شيء كثير من القديس أوغسطين : ازدواج في الشخصية جعله ينقلب من النقيض إلى النقيض . فيسمو آنا إلى سمات الظهر والفضيلة ويتمرغ آنا في أوحال الشهوات . فلا غرابة إذن أن يتشبه بترارك بأوغسطين ويكتب في تلك الفترة ما سماه « سرى الخاص » تشبعها « باعترافات » القديس أوغسطين . كتبه باللاتينية في ١٣٤٢ وما تلاها . وفي تلك الفترة أيضا كتب « رسالة إلى الأجيال القادمة » جاء فيها : « حين اقتربت من سن الأربعين .. بينما كانت قواي لا يخامرها ضعف وبينما كانت شهواني لا تزال متأججة . تخليت فجأة عن عاداتي الذمية . بل وتخليت فوق ذلك عن كل تفكير في رذائلى . وكان عيني لم تقع قط على امرأة » . أما كتابه « سرى الخاص » ، فقد اتخذ صورة محاورة وهمية مع القديس أوغسطين ، وكأنه يريد أن يكرر تجربة « الاعترافات » الشهيرة .. اعترافات أوغسطين .

ثم قضى بترارك أكثر من عامين في ايطاليا سفيرا مبعوثا من البابا إلى بلاط نابولي ، بين سبتمبر ١٣٤٣ وأواخر ١٣٤٥ . ثم عاد بترارك مرة أخرى إلى

ایطالیا حين أعلن كولا ریینزو نفسه حاكما على روما في ١٣٤٧ . وقد اجتذب بترارك الى ایطالیا ذلك الحلم العظيم الذى كان لا يفت الا ود خيال مفكري عصر النهضة في ایطالیا منذ بدء تكون القويات الحديثة : وهو أن تتوحد دولات ایطالیا في دولة مركزية واحدة وأن يعود لروما مجدها الامبراطوري القديم . ورغم أن تجربة ریینزو لم تعم ، الا أن بترارك ظل مقينا في ایطالیا حتى عام ١٣٥١ . . يقيم آنا في بارما وآنا في فیرونا وآنا في بادوا . وفي بادوا جاءه نباء وفاة صاحبته لورا . وفي ١٣٥٠ زار بترارك روما . . وفي طريقه الى روما زار فلورنسا حيث استقبله بوکاشيو العظيم ، ثالث الثلاثة من آباء الأدب الإيطالي الحديث: دانتى وبترارك وبوكاشيو . كذلك زار بترارك اريتيزو ، مسقط رأسه ، فوجد أن الطاعون قد حصد أكثر أصدقائه ومعارفه فعاد إلى واديه المنعزل في فوكلوز يملؤه الحزن والوحشة .

ثم أقام بترارك في ميلانو ثمانى سنوات بين ١٣٥٣ و ١٣٦١ حيث نزل ضيفا على آل فييسكونتى وقام في خدمتهم ببعض السفارات إلى الملوك . فلما انتشر الطاعون في ميلانو انتقل إلى فينيسيا ( البندقية ) عام ١٣٦٢ فرارا من الطاعون . . ثم أهداء مجلس الشيوخ بفينسيا دارا يقيم فيها على أساس أن يهب المدينة مكتبه بعد وفاته . . وقد زاره بوکاشيو في هذه الدار في صيف ١٣٦٣ . ثم دعا بترارك ابنته غير الشرعية ، وأسمها فرانشيسكا . . مع زوجها لتقيم معه في هذه الدار . ثم انتقل بترارك إلى بادوا عام ١٣٦٨ . ثم انتقل أخيرا إلى أركوا عام ١٣٧٠ وفيها عاش حتى وجدوه ذات صباح في ١٩ يوليو ١٣٧٤ ميتا منكفا على كتاب كان يقرؤه في مكتبه .

وقد كتب بترارك كثيرا باللاتينية فنظم ملحمة اسمها « أفريقيا » بدأها في ١٣٣٨ تمجد بطولة البطل الروماني شبيو الأفريقي . وله باللاتينية أيضا « سير أعلام الرجال » وقد بدأها في ١٣٣٨ أيضا وهي في تاريخ روما . وله أيضا اعترافاته وعنوانها « سرى الخاص » ، وقد بدأها نحو ١٣٤٢ . و « حياة العزلة » وهي من أعمال ١٣٤٦ . وله « أغاني الرعاعة » وهي إثنتا عشرة قصيدة رمزية بدأها في ١٣٤٦ . . . وله « سلام الدير » ( ١٣٤٧ ) . وله « الواقى من الأقدار » ( ١٣٥٤ ) . كما أن له أربعة مجلدات من الرسائل .

كل هذه الأعمال اللاتينية رغم رفعه اسلوبها لا يقرأها إلا الأقلون . أما اضافته الخالدة للأدب فهي ديوان « الأغانى » ( الكانزونيرى ) أو « القوافي » ( ريم ) . . وهو عبارة عن ٣٦٦ قصيدة . . منها ٣١٧ سونيتة والباقي أشكال غنائية مختلفة كالموايل ( البلاد ) وامتالها . . نظمت كلها بالإيطالية . ومثل ديوان « الأغانى » أو « القوافي » ديوان « الانتصارات » . وهو مجموعة من الرمزيات التي بدأها بترارك عام ١٣٥٢ حول موضوعات

الحب والموت والحياة والغنة والشهرة والزمن والحياة الابدية .. وهي بالايطالية كذلك — وغرام بترارك بلورا هو المحور الذى تدور عليه قصائد « الأغانى » أو « القوافي » و « الانتصارات » . و الواقع أن بترارك لم يتوج أميرا للشعراء احتفاء بقصائده العامية ، وإنما توج احتفاء بقصائده اللاتينية ولاسيما ملحمة « أفريقيا » التى صور فيها بطولات القائد الرومانى شيبو الأفريقي ( ٢٣٥ - ١٨٣ ق.م ) . فاتح إسبانيا وقرطاجة وقاهر هانيبال العظيم . ويلاحظ أنه في أول طبعة كاملة من أعماله ( ١٥٥٤ ) تبلغ كتابات بترارك شعرا ونثرا عشرين مثلا من كتاباته باللغة العامية ( الإيطالية ) ، وهي « القوافي » و « الانتصارات » ، من حيث الحجم . بل إن بترارك نفسه كان أثناء حياته يصنف أشعار العامية بأنها « سفاسف الشبان » ، حتى أنه لم يعن بأن يختار لقصائده الغرامية في صاحبته لورا حية وميتة اسماء محددة يضعه على ديوانه . فديوانه يسمى تارة « القوافي » ( ريميا ) وتارة أخرى « الأغانى » ( كائزونيرى ) ، على خلاف ما فعله دانتى من قبل حين أطلق على ديوان غرامياته في صاحبته بياطريص اسم « الحياة الجديدة » . بل ودافع عن اللغة العامية دفاعا نظريا في كتابه « في البلاغة العامية » .

ووجه التناقض في كل هذا أن الأجيال التالية لبترارك لا تعرف من هذا الشاعر العظيم ولا تقرأ له إلا أشعاره العامية في حب لورا . وأكثر الناس في القرون المتأخرة لم يسمعوا بأعماله اللاتينية مثل ملحمة « أفريقيا » و « أغاني الرعاة » . وقل منهم من سمع بنثر بترارك اللاتيني في كتابه « سرى الخاص » و « سير أعلام الرجال » . فهو عند الناس أولا وأخيراً أمير شعراء ايطاليا في القرن الرابع عشر بعد دانتى ، وواضع أساس الشعر الإيطالي بعد دانتى بفضل دواوينه الغنائية العامية التي صقل فيها العامية الإيطالية إلى حد الاعجاز .

وليس من الضروري أن نصدق كل ما كان يقوله بترارك نفسه عن رأيه في شعره العامي . فربما كان هذا من باب التصالح مع جهابذة عصره من أساتذة الجامعات والكرادلة والمحافظين من رجالات عصره ، الذين كانوا لا يزالون على تقديرهم لللاتينية الفصحى ولم يسحرهم في انتاج بترارك الا سيطرته التامة على البيان اللاتيني الفصيح . والدليل على ذلك أن بترارك نفسه كان في كل مرحلة من مراحل حياته دائم الصقل والتنقیح لقطعاته العامية في ديوان « القوافي » ليبلغ بها حد الكمال . كما تشهد بذلك مسودة مخطوط هذا الديوان المحفوظة الآن في مكتبة الفاتيكان . فهذا المخطوط مليء بالتنقيحات وهوامش صفحاته زاخرة باللاحظات البلاغية والأسلوبية .

ولو كان بترارك يعتقد صدقًا أن شعره العامي بغیر قيمة حقيقة ..  
 أو أنه مجرد « سفاسف تافهة ومن حماقات الشباب » كما كان يقول ...  
 وأنه كان يؤمن لا يعرف أحد في العالم عنه شيئاً .. « بل وأن أنكره أنا  
 لو كان ذلك ممكناً ». لو كان بترارك صادقاً في كل هذا التبرؤ من شعره  
 العامي كما حدثنا في « رسالة إلى الأجيال القادمة » ، لما سهر الليالي ،  
 كما كتب عام ١٣٦٨ ، وهو في الرابعة والستين من عمره ... في مراجعة  
 قصيدة كتبها قبل ذلك بربع قرن وتنقيحها بما جعلها في نظره كاملة التكوين .

لقد كان بترارك يعرف ما يفعله وما يقوله . لقد عاش مثل دانتى في  
 عصر كان الاتساع فيه باللغات العالمية يتضمن عند الكنيسة وعند المحافظين  
 من أهل السلطة درجة واضحة من الزنقة لأنه كان يمثل تحدياً للغة المقدسة ،  
 وهي اللاتينية الفصحى أو شبه الفصحى ، التي ترجم إليها الكتاب المقدس  
 منذ القديس جيروم (٤٧٣ - ٤٢٠ ميلادية) وأصبحت لغة الكنيسة الرسمية  
 ولغة الشعائر الدينية في أوروبا ألف عام . والفرق الواضح بين دانتى وبترارك  
 هو الفرق بين الشاعر المفنى الأبدي والشاعر المتصالح مع السلطة .

فإذا نحن طرحنا هذا السؤال العام : فيم اذن كان بترارك يمثل عصر  
 النهضة الأوروبية ، كان الجواب كالآتى :

أولاً : وقبل كل شيء : لأنه كان بعد دانتى وقبل بوكاشيو أهم من  
 وضع أساس اللغة الإيطالية والأدب الإيطالي الحديث باضفاء النبل والصفاء  
 في المعانى وفي التعبير على اللغة العالمية التي كانت من قبل لغة سوقية في  
 إيطاليا . وبذلك أعطى للإيطاليين لغة قومية حية بدلاً من اللغة الدولية  
 الشاحبة التي لا يتكلّمها أحد (اللاتينية) ، وأدباً قومياً حياً بدلاً من الأدب اللاتيني  
 المفترض .

ثانياً : لأنه كان أعظم قطب للدراسات الإنسانية وللمذهب  
 الإنساني في عصره . فقد كان عصره لا يعترف بأن الأدب بعامة والشعر على  
 وجه الخصوص له قيمة في الوجود . بل كان يعد هذا وذلك من « السفاسف  
 التافهة » ، بلغة بترارك . كذلك كانت إيطاليا ، بل وأوروبا كلها ، لأكثر من  
 ألف عام قبله تتذكر لأدب الدنيا ولا تعترف إلا بأدب الدين بتاثير الثقافة  
 الدينية السائدة وبقوة الكنيسة .

وهكذا تذكر الأوربيون أكثر من ألف عام لحضارة أوروبا الجاهلية ،  
 أي الوثنية أيام اليونان والرومان ، وتذكر أحفاد الرومان (الإيطاليون)  
 لحضارة أجدادهم أيام الوثنية وتنكروا لثقافتهم ولأدبهم اللاتيني شعراً  
 ونثراً ولفلسفاتهم ولأمجادهم في السلم والحرب على السواء ، من جهة

لأنها كانت مؤسسة على معتقدات وثنية تتعارض مع العقيدة المسيحية ، ومن جهة أخرى لأنها كانت تحتفل بالانسان وغاياته الدنيوية اكثر مما ينبغي .

كان بترارك اذن من رواد عصر النهضة الاوروبية الذين اكتشفوا حضارة الرومان ولثقافتهم وأدبهم وتاريخهم ومجدوها وزينوها لمعاصريهم كمثل أعلى يحتجزى ، حتى أصبح أكبر داعية لاحياء الآداب القديمة في أوروبا وأكبر داعية لشرف الانسان ولنبيل الانسان ولحكمة الانسان ولبطولة الانسان . ونحن الآن لا نعرف بترارك الا شاعرا غنائيا من الطبقة الأولى ، أما معاصره في القرن الرابع عشر فقد كانوا يعرفونه كأكبر عاشق لتراث القدماء كما يقول المؤلف بوركيهارت . بل لقد كان هو بملحمته اللاتينية « أفریقيا » وبديوانه اللاتيني « أغاني الرعاعة » يتصور نفسه فرجيل صاحب « الانيادة » و « أغاني الرعاعة » ، وكان يحلم بتتويجه في روما بأكليل الغار كما جرى لفرجيل العظيم .

لقد كان الاهتمام بعلوم الدنيا وآدابها وفنونها في عصر لا يحترم الا علوم الدين وآدابه وفنونه هو القاعدة الصلبة التي بني عليها الهيومانزم او المذهب الانساني وكان البداية الحقيقة لعصر النهضة الاوروبية .

ثالثا : لأن بترارك كان من رواد الفكر الذين تأججت قلوبهم بنار الوطنية ولفحهم لهيب الشعور القومي وكانوا يحلمون ليل نهار بوحدة ايطاليا ، ويدعون لظهور الامير المخلص الذي ينقذ ايطاليا من نظام الدوليات ويقيم فيها دولة قومية مركبة واحدة : حلم راود الايطاليين منذ أيام دانتي وبترارك ومكيافيللي أيام الرئيسانس ولم يتحقق الا في القرن القاسع عشر .

ولم يكن بترارك يشتغل بالسياسة ، ومع ذلك فقد اهاب بحكم ايطاليا أن يذكروا دائما « الدم اللاتيني الشريف » وناشدهم لا يستعينوا بالجنود المرتزقة من البربرة او يستجلبوا لهم من الخارج او « يحطموا اجمل بلاد على وجه الارض » بالاعتماد على الجيوش الأجنبية لحمايتهم او توسيع سلطتهم ، فالأمل عنده هو في احياء « الفضيلة الرومانية » القديمة والشرف الروماني القديم . أما هؤلاء البربررة الاجانب الذين يتحدث عنهم فهم « الفرنسيون واللسان والسويسريون والاسبان الذين كانت جيوشهم تتدخل في السياسة الايطالية بدعة من هذا الدوق او ذاك او بالتحالف مع البابوات » . وكان بترارك لا يفتأ ينشد البابوات المنفيين او اللاجئين

الى أفينيون بجنوب فرنسا حيث أقاموا كرسى البابوية والبلاط البابوى ، أن يعودوا الى روما .

وبعد قرنين من الزمان كان مكيافيللى يؤسس دعوته لتوحيد ايطاليا واقامة الدولة القومية بدلا من الدولة المسيحية الجامعية واقامة الدولة القومية فيها على دعوة بترارك ، حتى أن مكيافيللى ختم كتابه « الأمير » بالنداء بتطهير ايطاليا من « البرابرة » الأجانب كما فعل بترارك . كما ختم الفصل الاخير من هذا الكتاب بأبيات من قصيدة بترارك الشهيرة « ايطاليا بلادى » ، التي تعد من أروع روائع شعر الوطنية في تاريخ الأداب العالمية .

بهذه الصفات الثلاث كان بترارك بعد دانتى، رائدا عظيما من رواد حركة الرنيسانس : بدوره الخطير في وضع أساس الشعر الايطالى في مواجهة الشعر اللاتينى ، وبدوره الخطير في احياء تراث القدماء الوثني بكل ما تضمنه ذلك من تمجيد الانسان والحياة في مواجهة الف عام من ثقافة روحية كانت تبشر بأن الموت باب الحياة .

• • •

# بوكاشيو

## BOCCACCIO

### ١٣٧٥ - ١٣١٣

□ وهذا ، جيوفانى بوكاشيو ، ثالث الثلاثة الذين وضعوا في القرن الرابع عشر ، أساس عصر النهضة الأوروبية ، لا في إيطاليا وحدها ولكن في أوروبا كلها ، إلا وهم دانتى وبترارك وبوكاشيو .

كان دانتى أول من ثار على اللغة اللاتينية في إيطاليا ووضع أساس التعبير الشعري في اللغة العامية الإيطالية بملحمته الفلسفية « الكوميديا الالهية » وبيديوانه الغنائى « الحياة الجديدة » الذي خلد به جبه العذري لصاحبته بيانيريس . وكان بترارك أرق وأصفى من نظم الشعر الغنائى في ديوانه « القوافي » أو « الأغانى » وفي ديوانه « الانتصارات » للذين خلد فيهما جبه العذري لصاحبته لورا . وبهذا وضع دانتى وبترارك أساس الشعر الإيطالى الحديث .

أما بوكاشيو فقد فعل أكثر من هذا . وثبت الوثبة الكبرى وكتب النثر الأدبى باللغة العامية في مجموعة القصصية المعروفة باسم « ديكاميرون » ، أي القصص العشر ، وبذلك وضع أساس النثر الفنى في الأدب الإيطالى الحديث .

وقد كان النثر من قبله لا يكتب إلا باللغة اللاتينية . حتى دعاء اللغة العامية ( الإيطالية ) ، لم يجتربوا على كتابة النثر بالعامية ووقفت ثورتهم عند نظم الشعر بهذه اللغة الشعبية .

وقد ولد جيوفانى بوكاشيو عام ١٣١٣ في باريس لأب إيطالى يدعى بوكاتشينو أو بوكاشيو من بلدة تشنرتالدو من أعمال فلورنسا . وكان جيوفانى ابنًا غير شرعى لبوكاتشينو هذا من سيدة فرنسية لا يعرف عنها إلا القليل ، ويقال أن اسمها كان جان دى لاروش وأنها كانت تنتمى لأسرة من صغار النبلاء .

كذلك نعرف ان اباء هجر امه وعاد الى ايطاليا ، وان بوكاشيو الابن تلقى تعليمه الاول في فلورنسا حيث اقام ابسوه وتزوج ، وان تعليم بوكاشيو الاول كان يعده للتجارة . فقد كان الأب نفسه يزاول مع أخيه ( عم بوكاشيو ) التجارة وربما اعمال الصيرفة في فلورنسا ، وكان على صلة ببيت باردي الشهير ، وهو بنك في فلورنسا كانت دائرة نشاطه تمتد الى نابولي ، وبارييس . ولم يكن بوكاشيو سعيدا أيام صباه بالعيش في بيت أبيه ، ولكن الحال تغيرت بعد انتقاله الى نابولي نحو عام ١٢٢٨ ، حين كان في نحو الخامسة عشرة من عمره . فقد ارسله أبوه بوكاشينو الى نابولي ليتدرّب هناك عند أحد شركائه على الأعمال التجارية والمصرفية ، وبقي بوكاشيو في هذا البيت التجارى ستة أعوام عدّها هو ضياعاً في ضياع ، ثم وافق أبوه عندئذ على أن يتجه بوكاشيو ستة أعوام أخرى الى دراسة الشريعة المسيحية أو القانون الدينى كما يسمى ، الذى كان مطبقاً في أوروبا طوال العصور الوسطى بسبب سيطرة الكنيسة على الدولة .

كان بوكاشيو في الحادية والعشرين من عمره حيث بدأ يدرس في نابولي القانون الدينى أو القانون الكنسي . وظل يدرسه حتى سن السابعة والعشرين ، أي حتى عام ١٢٤٠ . غير أن تعليمه الحقيقي في فترة شبابه كان في بلاط الملك روبير دانجو الذي كان يحكم نابولي . وكانت نابولي في عهده أزهى مدينة في ايطاليا كلها وأكثرها ترقاً وأشدّها اقبالاً على الحياة . وكذلك خالط بوكاشيو أهل العلم والأدب في جامعة نابولي ، وأخذ شيئاً من علم الفلك من منجم القصر ، وشيئاً من الدراسات القديمة ( اليونانية واللاتينية ) عن أمين مكتبة القصر بعد أن درس مبادئ اليونانية على يد راهب من أقليم كالابريا ، ولكن المعروف عن بوكاشيو أنه في الأساس ثقَ نفسه بنفسه .

وكما كان لدانتى صاحبته بياتريس ولبرارك صاحبته لورا ، كذلك كان لبوكاشيو صاحبته ماريا ، التي سماها بوكاشيو في أعماله الأدبية فiamita . كانت ماريا غرام شباب بوكاشيو ، وكانت بنتاً غير شرعية لروبير دانجو ملك نابولي ، من الكونتيسة داكويتو ، وهي سيدة من نبيلات مقاطعة بروفانس بجنوب فرنسا . وقد زوجت ماريا على كره منها من نبيل من نبلاء البلاط . أما القصة التي يرويها بوكاشيو عنها فهي تجربة حب عنيف وسعادة غامرة وجىزة الامد ، انتهت بغيرة بوكاشيو على محبوبته وفتورها نحوه ثم هجرانها اياه في نهاية الأمر عام ١٣٣٨ ، أي وهو في الخامسة والعشرين من عمره . وهنا اعتكف بوكاشيو لدراسة محول الشعراء في الأدب اللاتيني : فرجيل وأوفيد وستاتيوس .. وكان ذلك في

دار خارج المدينة بالقرب من قبر فرجيل . وهناك اقسام حتى ١٣٤٠ حين استدعى للعودة الى فلورنسا بسبب افلاس أبيه .

وقد تركت ماريا في ادب بوكاشيو ، شعرا ونثرا ، اثرا عميقا . فهى تظهر في غرام فلوريو وبيانكوفيورين في رواية « فيلوكولو » التي بدأها بوكاشيو في نابولي بناء على طلب محبوبته ماريا ، ثم أتمها في فلورنسا وهى بالعامية ( الإيطالية ) . وهى تظهر في القصيدة القصصية العامية « فيلو ستراتو » ، وهى تظهر في حكاية « ترويلوس وكريسيدا » التي كتبها ليبر عن عذابه عندما تركت ماريا مدينة نابولي ، وهى تظهر في قصيدة « ثيسيوس » القصصية التي نظمها بوكاشيو بالعامية في نابولي ليصور فيها غرام أرسينا وبالامون باميلايا . وفيما تلا ذلك من سنوات أنشأ بوكاشيو في فلورنسا ثلاثة أعمال متأثرة بفرامه بماريا ، هي « أميتو » ، وهى رواية بالشعر والنثر ، وموضوعها أثر الحب في تهذيب الطياع ، و « رؤيا الغرام » ، وهى قصيدة رمزية تمجد الحب وتمجد ماريا ، ورواية « مرثية المادونا فياميتا » ، وهى رواية تقلب الأوضاع وتصور عذاب ماريا في الحب بدلا من عذابه .

وبعد أن عاد بوكاشيو إلى أبيه في فلورنسا قضى نحو عشر سنوات لا نعرف عنها شيئا كثيرا سوى أن ابنته الصغرى فيولانت ماتت محنن لموتها حزنا شديدا . ولكننا نعرف أنه استغرق في دراسته . وفي هذه الفترة كتب بعض هذه الأعمال التي مر ذكرها . وكتب أيضا رواية « نتفالي فييزولانو » .

وفي نهاية ١٣٤٦ نسمع أنه كان في مدينة رافينا ، وفي نهاية ١٣٤٧ أو بداية ١٣٤٨ نسمع أنه كان في فورلي يعمل عند سيدة المدينة . وهذه هي السنة ( ١٣٤٨ ) التي حصد فيها الطاعون آلاف الأرواح في فلورنسا وكان يسمى « الموت الأسود » ، وقد ذكر لنا بوكاشيو في كتابه الخالد « ديكاميرون » الذي بدأه عام ١٣٤٨ ، عام انتشار الوباء ، أنه رأى « الموت الأسود » رؤية العين ، وقد ماتت فياميتا بالطاعون في نابولي . وفي ١٣٤٩ مات أبوه فتولى هو تعليم أخيه يعقوب ، وهو أخ غير شقيق .

في هذا الجو القائم ولدت « القصص العشر » أو « ديكاميرون » التي استغرقت كتابتها خمس سنوات ، بين ١٣٤٨ و ١٣٥٣ وهي باللغة العامية أو بالإيطالية .

وكانت هذه قمة عمر بوكاشيو وقمة نضوجه الثنى ، فاختفت من ادب العاطفة الملتهبة وحل محلها التصوير الموضوعى للناس ولسلوكهم في

عصره في هيئة مجموعة من الحكايات تمثلت فيها مأساة الإنسان ومهزلة الإنسان وتجلت فيها سخريات الحياة ، فكتب بوكاشيو باللغة العامية أعظم رواية في الأدب الإيطالي وهي حكايات « ديكاميون » ، فوضع بها أساس النثر الفنى في اللغة الإيطالية ووضع في الأدب العالمى غرة الأدب القصصى في الرواية والقصة القصيرة على حد سواء .

وذاع صيت بوكاشيو فتقلد عبدة وظائف تشريفية بعد انجلاء الموت الأسود . ففي ١٣٥٠ أوفد سفيرا إلى سادة إقليم روماجنا . وفي نفس العام أوفده رؤساء جماعة سان ميكيل إلى رافينا ليسلم عشرة فلورينات ذهبية إلى الاخت بياتريس بنت الشاعر العظيم دانتي اليجيرى الراهبة في دير سانتا ستيفانو ديل أوليفا في رافينا . وفي ١٣٥١ أوفد لفاوضة ملكة نابولي ، وفي مناسبة أخرى لفاوضة لويس دوق بافاريا . وفي ١٣٥٤ أوفد إلى البابا أنوشنتو السادس المنفى في أفينيون .

كان بوكاشيو مفتوناً بأشعار بترارك وكتاباته وأفكاره . فما أن عرف أنه سيمر بفلورنسا في طريقه إلى روما في خريف ١٣٥٠ حتى سعى للقاءه ، وهنا بدأت صداقة بين الرجلين امتدت نحو ربع قرن حتى وفاتهما ، بترارك في ١٣٧٤ وبوكاشيو في ١٣٧٥ .

وفي ١٣٥٧ حمل بوكاشيو إلى بترارك في بادوا الخطاب الذي دعت فيه سلطات فلورنسا بترارك لشغله منصب الأستاذية في جامعتها المنشأة حديثاً وقررت رد أملاك أبيه المصادرية إليه . وفي ١٥٦٣ قضى بوكاشيو الصيف ضيفاً على بترارك في فنيسيا ، وكان بوكاشيو قد أزمع أن يهجر الشعر بناءً على نصيحة راهب كان يحتضر ولقن بوكاشيو أن الاهتمام بالأدب فسوق وتجذيف ، وأن كل ما يصرف الإنسان عن دراسة الالهيات والتأمل فيها يصرفه عن وجه الله . ولكن بترارك بثقافته الإنسانية الواسعة استطاع اقناع بوكاشيو بفساد هذا المنطق الذي يقيم كل هذا التناقض بين الدين والدنيا ويريد أن يسحق الحياة بفلسفة الموت .

وهكذا قضى بوكاشيو الشطر الأخير من عمره بين اليونان والرومان . وفي ١٣٦٠ - ١٣٦٢ اشتغل مع أستاذ يوناني بجامعة فلورنسا بترجمة هوميروس من اليونانية إلى اللاتينية ، كذلك ألف أربعة مجلدات أكثرها في الدراسات القديمة باللغة اللاتينية هي : « أنساب آلهة الأمم » ، وهو موسوعة في الأساطير القديمة تنتهي بdeath بوكاشيو عن الشعر والشعراء ، و « سقوط أعلام الرجال » الذي ترجمه ليجحيت إلى الانجليزية تحت عنوان « سقوط النساء » ، و « مشاهير النساء في العالم القديم وما تلاه » ،

واخيرا قاموس في الجغرافيا بعنوان « في الجبال والغابات والنواhir والبحيرات » .

وكان آخر مؤلف من مؤلفات بوكاشيو كتابه « سيرة دانتي » ، وهي من أهم الترجمات التي كتبت عن هذا الشاعر العظيم لأن بوكاشيو تقصى فيها حياة الشاعر من شهادات معاصريه . وفي ١٣٧٣ دعى بوكاشيو ليحاضر عن « الكوميديا الالهية » في جامعة فلورنسا ولكنه لم يكمل محاضراته بسبب اعتلال صحته .

ولم تكن حياة بوكاشيو رخية في أواخر أيام حياته أى بعد ١٣٦٢ . ولذا كثرت تنقلاته بين فلورنسا ونابولي وروما وفينيسيا وكرتالدو في تسكانيا حيث مات في ديسمبر ١٣٧٥ . وكان يقوم بمهام تدر عليه مالا كافيا للعيش ولكن ليس فيها متسعا للترف أو للادخار . كذلك حاصرته بعد أن فرغ من كتابة « ديكاميرون » ( ١٣٤٨ - ١٣٥٣ ) ذكريات خيانة معشوقته ماريا ( فياميتا ) له أيام شبابه ففتحت المرأة في كتابه « آل كورباتشيو » ( ١٣٥٥ ) ، وتقاومت هذه المرأة مع الأيام حتى صبغت كل تفكيره عن المرأة في أواخر أيامه . وليس بمستبعد أن تكون تجاريه المتأخرة مع النساء هي التي نكأت جراح تجربته الأولى .

● ● ●

والسؤال الآن هو : لماذا يعد بوكاشيو قطبًا من أقطاب عصر الرئيسيانس أي عصر النهضة الأوروبية ؟

أولا ، لأن شأنه شأن صنويه دانتي وبترارك ، كان أسبق من اجترا في إيطاليا في القرن الرابع عشر على استخدام اللغة العامية في التعبير الأدبي ، وبهذا شارك في وضع أساس اللغة الإيطالية كلغة قومية يتفرد بها الإيطاليون عن سائر الأوروبيين ، بدلا عن اللغة اللاتينية الوسطى التي كانت لغة الدين والدولة والرسائل التي كان يتبادلها المثقفون .

غير أن اجتراء بوكاشيو كان أكبر من اجتراء صنويه ، لأن دانتي وبترارك وقعا عند حد نظم الشعر بالعامية ، والشعر مادته الوجдан والعواطف التي تصهر حرارتها الكلمات لأنها صادرة من القلب وغايتها القلب ، وحيث ترتفع الحرارة تبدأ حمى الهذيان الجميل الذي يسوغ فيه الخيال كل شيء أو حمى الحماسة التي تؤجج قلوب السامعين . والعامية هي لغة القلب لأنها لغة الأم التي نأخذها مع الرضاعة ، كما يقول دانتي ، وقبل أن تتفتح عقولنا فهي أيضا لغة الحواس والمحسوسات . ولذا كانت

بلغتها الطبيعية أقوى من البلاغة المكتسبة ، والصدق الفطري قد يكون أقرب إلى الشعر من الصدق المكتسب .

كان اجتراء بوكاشيو أكبر من اجتراء صنويه لأنه استخدم اللغة العامية في النثر الفنى مكتتب بها الرواية والقصة القصيرة وثبت أنها أقدر على التعبير الأدبى من لاتينية العصور الوسطى التي لم تكن إلا صيغة ضامرة شاحبة من اللاتينية الفصحى ، وكان ضمورها وشحوبها من اقتصارها على التعبير عن الفكرين الدينى والقانونى وعن احتياجات الدواوين ، وبسبب انصرافها عن التعبير الأدبى أكثر من الف عام . وهكذا كان بوكاشيو بحق أبا النثر الإيطالى .

ولكن بوكاشيو كان كذلك قطبًا من أقطاب حركة الرئيسانس بسبب دفاعه عن الأدب عامه وعن الشعر خاصة في زمن كانت الكنيسة لا تزال فيه تحرم كل نشاط فكري أو فنى أو علمي أو أدبى يخدم الدنيا ولا يخدم الدين وتعده منافي للإيمان المسيحى التقويم . من أجل هذا مات الفكر والفن والعلم والأدب في أوروبا المسيحية أكثر من الف عام ، ولم ينج من هذه اللعنة إلا فن العمارة بسبب حاجة الكنيسة إلى بناء الكاتدرائيات وحاجة إماء الاقطاع لبناء القلاع والحسون ، كذلك لم ينج من هذه اللعنة إلا الفكر الدينى ، لا كما نجده عند الفلاسفة ولكن كما نجده عند فقهاء الدين ومفسريه . لقد وضع الكنيسة الخيار بين الإنسان والله وبين الدنيا والآخرة وبين المادة والروح وبين العالم الطبيعي وما وراء الطبيعة وبين الوجود في الزمان والوجود في الأبدية ، وأسست العقيدة المسيحية على قيام التناقض بين الطرفين ، واختارت الله والآخرة والروح وما وراء الطبيعة والوجود في الأبدية .

أما بوكاشيو فقد شارك بترارك في الدعوة لاحياء آداب القدماء ، وآداب اليونان والرومان في جاهليتهم الوثنية وأيام أمجادهم الدنيوية ، ولذا كان بوكاشيو مثل بترارك جزءا لا يتجزأ من الدعوة الفلسفية الإنسانية أو حركة الهيومانزم كما يسمونها .

بل أكثر من هذا . فقد كتب بوكاشيو دفاعا عن الشعر ليدحض ضمنيا تعاليم الكنيسة القائلة بأن الشعر عدو الدين ، وليقول إن القدماء رغم وثنيتهم كانوا مؤمنين بالله . وهو في نهاية كتابه « أنساب الآلهة » ، وفي مقدمة ذلك الكتاب ، حاول أن يثبت أنه لا يغض من مسيحيه الشاعر المسيحي أن يستلهم تراث اليونان والرومان . ( انظر مقدمة « أنساب الآلهة » والفصلين الرابع عشر والخامس عشر من ذلك الكتاب ) .

وفي الفصل الثاني والعشرين من كتاب بوكاشيو « سيرة دانتي » يقول  
بوكاشيو :

« (٢) اذا نحن اردننا ان ننخلى عن عواطفنا وننظر الى العقل فاعتقادى اننا  
سوف نتبين بسهولة كافية ان الشعراء القدماء كانوا في الحدود المستطاعة  
للبشر يقتفيون آثار الروح القدس ، الذى يقول الكتاب المقدس انه يكشف  
للأجيال القادمة عن مكنونات أسراره الشامخة من خلال افواه كتاب عديدين  
جعلهم يقولون من وراء نقاب ما أراد الروح القدس اظهاره في الوقت المناسب  
صراحة بالأعمال وبدون نقاب . وبناء عليه فلو أتنا تأملنا كتاباتهم بامعان ،  
لرأينا هؤلاء الكتاب يصفون ما قد كان او ما حدث في زمنهم او ما كانوا  
يتمنون حدوثه مستقبلا مسربلا في رداء القصص . قاصدين الا يختلف المقلد في  
وصفه عما يقلده . ومن هنا ، فدون ان نفترض ان كل انواع الكتابة واحدة  
في الهدف .. وانما تأسيسا على منهج الكتابة ، وهو اهم ما يعنينى الان ،  
فإن ما يقال في مدح الكتاب المقدس يمكن أيضا ان يقال في مدح الكتابات  
الدنيوية وفقا لما ذكر التقديس جريجوار دى تور ( ٥٣٨ - ٥٩٤ ) .. فهو  
يقول عن الكتاب المقدس ما يمكن أن يقال أيضا عن الشعر ، وهو انه كلما  
سرد شيئا فهو يطرح في نفس الالفاظ النص والاسرار المتضمنة في النص ..  
وبذلك فهو يشغل الحكماء ويرضى البسطاء في آن واحد . ففي معناه الظاهر  
ما يقنع الاطفال ، وفي معناه الخفى هو يخبئ ما يملا حكم السامعين بالرهبة  
والاعجاب .. فهو اذن يبدو – لو جائز لى هذا المجاز – كالنهر الضحل  
العميق معا .. يعبره الحمل الصغير على اقدامه ويسبح فيه الفيل الجسيم  
بحرية تامة » .

« (٣) والكتاب المقدس الذي نسميه اللاهوت او الالهيات يقوم  
بتعريفنا في ثوب قصصي – آنا باجتلاء رؤيا ، وآنا بسماع نواح ، وآونة  
بطرق عديدة مختلفة – سر تجسد الكلمة الالهية وسيرة حياته ووقائع  
موته وبعثه المنصور وصعوده العجز وكل ما اتى من اعمال . فلو  
اتعظنا بهذه الاشياء بلغنا ذلك المجد الذى هيأه لنا بموته وقيامته بعد أن  
أوصد بابه في وجوهنا زمانا طويلا بخطيئة الانسان الأول . وبالمثل فان  
الشعراء بأعمالهم التي نسميها الشعر يبيّنون لنا – من خلال قصص الالهة  
المختلفة ومن خلال تشكيلات الناس في هيئات مختلفة وبالاقناع الجميل –  
على الاشياء ونتائج الفضائل والرذائل وما ينبغي علينا اجتنابه وما ينبغي  
عليها اتباعه ، حتى يبلغ بالفضيلة تلك الغاية التي تصورها قمة الرضوان  
أولئك القوم الذين لم يعرفوا الاله الحق تمام المعرفة .. » .

« (٤) وبالمثل فشعراؤنا عندما زعموا أن الله ساتيرن (المشتري) كان له أطفال عديدون التهمهم جميعا فيما خلا أربعة ، فاتما أرادوا أن نفهم من هذه القصة شيئا ولا شيء سواه : وهو أن الله ساتيرن هو الزمن الذي فيه يولد كل شيء .. وانه كما أن كل شيء يولد في الزمن فالزمن أيضا يدمر كل شيء ويحيله إلى عدم .. وأطفاله الأربع الذين لم يلتهمهم كان الأول هو جوبيتر ، وهو عنصر النار .. والثاني هو جونو امرأة جوبيترا وخته ، وهي عنصر الهواء الذي به تشتعل النار في الدنيا .. والثالث هو نبتون رب البحر ، وهو عنصر الماء .. أما الرابع فهو بلوتو رب العالم السفلي ، وهو عنصر التراب .. وهو أدنى عنصر من هذه العناصر . كذلك زعم شعراً علينا أن هرقل استحال من بشر إلى الله .. وأن ليكاون استحال إلى ذئب ، وقد أرادوا بذلك أن يدللوا على أن التمسك بالفضيلة — على غرار ما فعل هرقل — يجعل من الإنسان لها بالمشاركة في ملوك السموات .. وأن طريق الرذيلة الذي سلكه ليكاون يجعل من الإنسان شبيه الذئب رغم هيئته الأدمية .. ولا شك أنني لو لم أضف شيئاً إلى هذه الأمثلة لكانت هذه الأمثلة كافية لاثبات أن اللاهوت والشعر يتفقان في طريقة عملهما .. أما من حيث الموضوع فاني أقول انها ليسا مجرد شبيهين مختلفين كل الاختلاف وإنما هما من بعض الوجوه متناقضان .. فموضوع اللاهوت المقدس هو الفضيلة الالهية ، أما الشعراء القدماء فيتناولون قصص آلهة الأميّين وقصص البشر .. وهما متناقضان من حيث أن اللاهوت لا يقدم من البداية شيئاً إلا إذا كان صادقاً ، أما الشعر فيقدم بعض الأشياء العارية عن الصدق والخاطئة والمضادة للدين المسيحي على أنها أشياء صادقة .. ولكن لأن بعض الحمقى يهاجمون الشعراء بقولهم إنهم الفوا أسطoir مقرزة وشريرة ولا تستقيم مع الحق ، وانهم كان ينبغي عليهم أن يظهروا قدرتهم وأن يلقوا بتعاليمهم للناس من طريق آخر غير ابتكار الأساطير .. فاني أود أن أمضى إلى مزيد من مناقشة هذا الموضوع ولكن داخل حدود » .

« (٥) فليتأمل اذن أمثال هؤلاء المهاجمين رؤى دانيال وأشعيا وحزقيال وغيرهم في التوراة . تلك التي خطها القلم الالهي ونزل بها الوحي من عند من لا بداية له ولا نهاية .. وليتأملوا أيضاً رؤى الرسل في الانجيل .. وهي المليئة بعجائب الحق التي يدهش لها العقل .. فان وجدوا ان قصص الشعراء أبعد عن الحق وعن مشابهة الواقع من قصص الأنبياء كما تبدو في الظاهر في مواطن عديدة ، كان من حقهم القول بأن الشعراء وحدهم قد سطروا الأساطير بسبب عجزهم عن تهذيب الناس بالحقيقة أو الفائدة .. ودون أن أتعرض لما يسوقونه من اتهامات للشعراء من حيث لجوء الشعراء

لتقديم تعاليمهم بالاساطير أو تحت قناع اسطوري . أراني أستطيع أن أمضى في حديثي دون تردد . لأنني أعلم أنهم حين ينتقدون الشعراء في حماقة على هذا المنهج . فهم في طيشهم يتورطون في نقد الوحي نفسه . وما الوحي للانسان الا الطريق والحق والحياة . ومع ذلك فسوف أسعى لارضائهم » .

« (٦) من الواضح أن كل ما نكتسبه في عناي يبدو أحلى مذاقا مما نكتسبه بغير جهد . فالحقيقة الواضحة تمتغنا . ولكن سرعان ما ينساها العقل لأنه يفهمها دونها مشقة كبيرة ، غير أن الشعراء يخفون الحقيقة تحت غطاء يبدو في الظاهر على التقىض منها حتى يجعلوها أكثر امتاعا للنفس بحكم أنها مكتسبة بمثقبة ولذا فهي أقوى رسوخا في النفس . وللهذا السبب نجدهم يدعون الأسطoir من دون وسائل التعبير الأخرى . لأن جمال الأسطoir يجذب أولئك الذين يعجز العرض الفلسفى أو الاقناع المنطقى عن اجتذابهم . فماذا يكون اذن حكمنا على الشعراء ؟ أقول انهم مجانيين كما يتصورهم أعداؤهم الحمقى زاعمين أنهم لا يعرفون شيئا ؟ بالقطع لا . فالشعراء يستخدمون في انتاجهم اعمق الأفكار . وهي أشبه شيء بالباب الخبيء داخل الفاكهة . وهم يستخدمون اللغة الرائعة المثيرة للإعجاب .. وهي أشبه شيء بالقشرة والأوراق . ولنمضي في حديثنا » .

« (٧) أقول ان اللاهوت والشعر يمكن أن نسميهما شيئا واحدا على وجه التقرير اذا كان موضوعهما واحدا . بل انى لاقول ان اللاهوت ليس الا الشعر الالهى . وهل يخرج الكتاب المقدس عن الابتكار الشعري حين يصف المسيح في موضع ما بأنه أسد . وفي موضع آخر بأنه حمل . وفي موضع غيره يصف ابن الإنسان بأنه دودة ( سفر ايوب ٦/٢٥ ) . والمسيح هنا تنين وهو هناك صخرا . وأشياء أخرى كثيرة اغفلها من باب الايجاز . وهل كلمات مخلصنا في الانجيل غير ابتكار شعري اذا كانت عظاماته تتقول شيئا في الظاهر وتتصدر مغزى غير ما بدا ؟ . فلنقل إنها بالتعبير المشهور مجاز . ومن هذا يتجلى بوضوح ليس فقط أن الشعر هو اللاهوت ولكن أيضا ان اللاهوت هو الشعر . وأنا لست انزعج اذا كانت اقوالى في هذا الأمر الخطير غير اهل لثقة الناس ، لأنني اثق في قول أرسطو . وهو الحجة الساطعة في كل أمر خطير . انه وجد ان الشعراء كانوا أسبق من كتبوا عن الالهيات » .

( كما ورد في كتاب « الميتافيزيقا » ٣/٤/١٠٠٠/١/٩ ) .

كان رأى الكنيسة وأكثر فقهاء الدين المسيحي لأكثر من ألف عام طوال العصور الوسطى ادانة الشعر خاصة والأدب بعامة بوصف أنهما قائمان على سفاسف الآثياء الدنيوية التي تشغل الإنسان عن ذكر الله ويدعونا للفسق بتمجيد خطايا البشر كالحب وال الحرب وطلب النعيم في الحياة الدنيا . كذلك أدانوا منهج الشعر والأدب في التعبير بوصفه كذبا في كذب فهو يعمد إلى المجاز الذي يقول شيئاً يعني شيئاً آخر ويفتن الباب الناس بالأحادي والالغاز وترهات الخيال بدلاً من أن يخاطبهم بلغة العقل . فهو الطريق إلى الغواية والضلال .

وقد تجلى موقف الكنيسة وفقهاء الدين المسيحي من الأدب شعراً ونثراً في نظام التعليم طوال العصور الوسطى الذي استبعدت فيه دراسة الأدب اليوناني واللاتيني من برامج الدراسة بحجة حماية الناس من الوثنية والكفر والفحش .. وهكذا مات أيضاً الإنشاء الأدبي شعراً ونثراً أكثر من ألف عام في اللغة الرسمية لغة الدين والدولة . وهي اللغة اللاتينية .. ولم يبعث إلا في أواخر العصور الوسطى باللغات الشعبية في الملحم والموايل .

كان دفاع بوكاشيو عن الشعر اذن بداية عصر جديد . هذا الذي نسميه عصر الرئيسانس أو عصر النهضة الأوروبية . وقد بنى بوكاشيو دفاعه عن الشعر على حجة خطيرة هي أنه ليس هناك فرق جوهري من حيث الشكل والمنهج بين وحى الشعراء ووحى الأنبياء : كلاهما يتخذ من الخيال سبيلاً إلى بلوغ الحقيقة بالرؤى والتعبير عنها بالرمز والمجاز ودروبها التي نسميتها التشبيه والاستعارة والكتابية وكل ما جعل للكلام ظاهراً وباطناً وسريراً الحكمة بالأحادي .

وانما يدان الشعر عند بوكاشيو اذا شط موضوعه او جوهره فدعا الى الرذيلة وزين الضلال . حتى القداماء من الشعراء يكتفيهم مجدًا اجتهادهم لارتياح مكون الالهيات والتعبير عنها في زمان لم يكتمل فيه تصور الانسان للله الواحد السرمدي .

• • •

# مكيافيلى

MACHIAVELLI

١٤٦٩ - ١٥٩٧



## «الأمير»

القومية والاستعمار

□ كنا في جيلي ، كلما رأينا قصورا في الحياة المصرية ، ننظر وراعينا في غضب ونبث عن الحلول في التاريخ الأوروبي منذ عصر الثورة الفرنسية ، أي منذ عام ١٧٨٩ ، بقصد الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى .

ولكن يبدو أن حركة المجتمع العربي تدفعنا الآن إلى التراجع قرونا إلى الوراء حتى تجعلنا نقترب من العصور الوسطى ، تدفعنا إلى نحو عام ١٥٠٠ أو ربما قبل ذلك في بعض الأمور .

وهكذا غدا لزاما علينا أن نرى كيف خرجت أوروبا الحديثة من العصور الوسطى بينما كتب على عالمنا العربي أن يطول مخاضه وأن يتعرّض فيه ميلاد الحياة الجديدة ، وكلما تجدد في أوصاله أكسير الصحة والنمو حاصره جراثيم المرض والهزال .

أما كيف خرجت أوروبا الحديثة من العصور الوسطى ، فهي قصة عصر النهضة الأوروبية التي يسمونها حركة الرئيسيانس أو «الميلاد الجديد». والميلاد الجديد غير «البعث» لأن البعث لا يكون إلا للموتى ولا نظنه يتم إلا في الآخرة ، أما الميلاد الجديد فهو ملازم لدورة الأجيال .

تقول : ولماذا نبدأ بمكيافيلى ؟ وهو رجل سيئة السمعة ؟ والإجابة على هذا بسيطة : وهى أن بداية البدايات فى نشوء الحضارة الحديثة هي ظهور الهيومانزم أو المذهب الانساني ، وببداية تجلى المذهب الانساني هي ظهور الدولة القومية وحلولها محل الدولة الدينية أو ما يسمى «باليقوقراطية» كأساس للتنظيم الاجتماعي ، وقد كان مكيافيلى من أهم فلاسفة السياسة الذين وضعوا أساس الدولة القومية الحديثة أو لعله أهمهم جميعا لأنه كان أول من أرسى الأساس .

ولد نيكولو مكيافيللى ( ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ) في فلورنسا لاب محام في تلك المدينة رقيق الحال ولكنـه كان ينحدر من أسرة نبيلة ، وكذلك كانت امه من اسرة كريمة افتقرت . ولا تزال داره قائمة الى الان فيما يسمى الان ١٦ شارع جيتشياردينى على مقربة من البونتى فيكيو اى الكوبرى القديم بمدينة فلورنسا . وكان أسلافه من نبلاء نوسكانيا الذين بلغوا أعلى المناصب في جمهورية فلورنسا . ولا يعرف شيء كثير عن تعليمه الا أن كتاباته تدل على أنه درس التراث اللاتينى دراسة متنانية ولا سيما في التاريخ ، كما أنه كان مفتونا بداناتى ويتراك وبوكاشيو .

وقد قضى مكيافيللى الشطر الأول من حياته يعمل كدبلوماسي توفـده جمهوريته في سفارات متعددة إلى بلاط الملوك والأمراء . أما النصف الثاني من حياته فقد قضاه محدد الاقامة في داره الريفية ... وكان في الثالثة والعشرين حين مات أمير فلورنسا العظيم لورنزو دي ميديتشى ( الأول ) ، راعى الفنون والآداب المتوفـع عام ١٤٩٢ . وفي زمنه عاصر مأساة المصلح الدينى الثورى الخطير سافونارولا الذى اعدم حرقا في فلورنسا عام ١٤٩٨ بتهمة الزندقة لأنـه هاجم البابا اسكندر السادس ( اسكندر بورجيا ) ، وكان يبشر باقامة دستور لفلورنسا ثيوقراطى ديمقراطى . كذلك عاصر مكيافيللى غزو شارل الثامن ملك فرنسا لايطاليا وببداية انهيار ايطاليا نتيجة لذلك الفزو .

كان مكيافيللى عام اعدام سافونارولا في التاسعة والعشرين من عمره ، وعين سكرتيرا لجمهورية فلورنسا ، وهو شبيه بمنصب أمين في ديوان الأمير أو في القصر الجمهورى ، وكانت هذه الفترة هي قمة حياته العامة ، وكان يوفـد في سفارات لا حصر لها إلى بلاط الملوك والأمراء خارج ايطاليا وداخلها في مقاطعات ايطاليا المستقلة . فتعرف بذلك على أقوى رجالات عصره المشتغلين بالحكم والسياسة ، ولاسيما السياسة الدولية ، ودرسهم عن كتب مما مكنه أن يبلور أفكاره ومشاهداته فيما يمكن أن يسمى من الحكم وعلم السياسة ، وهو محور أكثر كتاباته .. وقد دامت فترة بعثاته الدبلوماسية من ١٤٩٨ إلى ١٥١٢ وقد تبلورت تجربة هذه الفترة في كتاب « الأمير » ( ١٥١٣ ) .

وفي زمان مكيافيللى تعاظمت قوة فرنسا من جهة وقوة البابوية من جهة أخرى أيام البابا اسكندر السادس ( بورجيا ) ، واستنفرت امارة فلورنسا حربها مع امارة بيزا . فاضحـلت فلورنسا وأخذـت تعتمـد في حمايتها على الجيوش الفرنسية . وكان مكيافيللى يرصد كل هذه الدسائـس الدوليـة

في سبيل السيطرة فدعا إلى انشاء جيش وطني من ابناء فلورنسا للدفاع عن دولتهم . وكان ملتب الوطنية ، ولكن سلوك الملوك والأمراء في السياسة الدولية علمه الواقعية الفظيعة التي نلمسها في كتاباته . فقد رأى الدول في عصره لا تتحرك الا بدافع المصلحة ولا تحترم اتفاقاتها الا حين تعود عليها بالنفع ، وكما وجد الدول كذلك وجد الأفراد .

وقد انتهى طرد الجيش الفرنسي من ايطاليا في ١٥١٢ الى بقاء جمهورية فلورنسا بغير حماية لوقعها تحت رحمة الاسبان . فسقطت الجمهورية في فلورنسا وعاد الى حكمها الأمراء المستبدون من آل مدیتشی . وهكذا عزل مکیافیلی من كافة المناصب التي كان يشغلها في ظل الجمهورية ونفى من مدينة فلورنسا وهو في سن الثالثة والأربعين ، ولكنه عاش في ريفها محمد الاقامة في عزبته مع زوجته وأولاده الخمسة سنوات لا عمل له الا القراءة والكتابة واجترار الذكريات في هدوء العلماء .

وهذه هي الفترة التي كتب فيها كتاب « الامير » وكتاب « أحاديث لتيتوس ليفيوس » ، وهي أهم أعماله في علم السياسة . وواضح منها أنها كتبت لترشيد لورنزو دي مدیتشی الثاني ليكون أميرا قويا ناجحا . لقد خدم مکیافیلی الجمهورية فلما سقطت فقد منصبه ونفى من بلده ، وهو الآن يحاول أن يسترد مكانته في بلاط الامير المستبد من عائلة مدیتشی ، ولم تتمر جهوده الا في ١٥٢٦ حين عاد الى الخدمة العامة في ظل آل مدیتشی . ولكن سرعان ما انهارت الامارة المطلقة في فلورنسا وعادت اليها الجمهورية فطرد آل مدیتشی من الحكم فقد مکیافیلی عمله من جديد ، ثم مات في العام التالي ( ١٥٢٧ ) ، ولم تعم بعد الجمهورية طويلا .

وقد ترك مکیافیلی أيضا كوميديا اسمها « ماندراجولا » وأخرى اسمها « كلizia » ورواية اسمها « بيلفاجور » وأخرى اسمها « سيرة کاستروتشيو کاستراکانی » وكتابا في « تاريخ فلورنسا » وأخر عن « اصلاح حکومة فلورنسا » و « رسائل شخصية منشورة » . ولكن أشهر أعماله جميعا هو كتاب « الامیر » ، الذي يعتبر بداية الطريق في الفكر السياسي الحديث بسبب واقعيته الضاربة في الوصف والتحليل . وقد اتخذ في هذا الكتاب سیزار بورجيا ( ١٤٧٥ - ١٥٠٧ ) مثلا أعلى للأمير .

في اهداء كتاب « الامیر » الى عاهل فلورنسا لورنزو دي مدیتشی الثاني ، يقول مکیافیلی انه في علم الخرائط الطبيعية يضع الجغرافي نفسه في السهول الواطئة ليرصد معلم الجبال والارتفاعات ويضع نفسه على الجبال والارتفاعات ليرصد تضاريس السهول الواطئة ، وبالمثل فعلم السياسة

يجب أن يضع نفسه مع الطبقات الشعبية ليفهم طبيعة الحكم ومع الطبقة الحاكمة ليفهم طبيعة الشعب . ومعنى هذا أن الحكم عاجزون عن الحكم على أنفسهم وأن الشعب أيضاً عاجز عن الحكم على نفسه .. والقصد من هذا أن علم السياسة أو علم الدولة لا يكون موضوعياً إلا إذا أسس على رأي الشعوب في حكمها وعلى رأي الحكم في شعوبهم .

وفي الفصل الثالث من كتاب «الأمير» يحدثنا مكيافيللي عن مشكلة الانقلابات والثورات التي يسميها مكيافيللي «الامارات الجديدة» . وعنه ان أول عقبة تواجهها إمارة جديدة عقبة طبيعية : «فالناس يتجمسون للتغيير أميرهم (أى حاكمهم أو ملتهم أو رئيس دولتهم أو ولی الأمر فيهم .. لـ عـ.) عندما يأملون في تحسين أحوالهم ، وحين يتسلط عليهم هذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضده . وهم بهذا يخدعون أنفسهم ، لأنهم فيما بعد يكتشفون بالتجربة أن أحوالهم قد ساءت ، وهذا الوضع ناجم عن حتمية أخرى طبيعية ونمطية الا وهي أن الإنسان لابد وأن ينزل الأذى دائمًا بأولئك الذين يصبح أميرهم الجديد ، ببطش الجنود وبالاضرار الأخرى التي لا حصر لها والتي تعقب الفتح الجديد . وبهذا تكتسب كأعداء لك كل من أنزلت بهم الضرر باستيلائك على تلك الإمارة . كما أنه لا تستطيع الاعتماد على من وضعوك في دست الإمارة كأصدقاء لك ، لأنك لن تستطيع ارضاءهم بالدرجة التي كانوا يأملون فيها ، ولأنك لن تستطيع أن تردعهم بنجاح الدواء باعتبارك مدیننا لهم . فالماء ، مهما بلغت قوته جيشه ، بحاجة دائمًا إلى أرضاء الأهالي حين يفتح منطقة من المناطق » .

ومن هذا الكلام ومن سياقه التاريخي نفهم أن مكيافيللي كان لا يفرق بين الانقلابات والثورات الداخلية التي تطييع بأمير أو بأسرة أو جماعة حاكمة لتضع مكانها أميراً جديداً وأسرة أو جماعة حاكمة جديدة ، وبين الغزو الخارجي الذي ينقل السيادة على البلاد إلى يد جديدة ، وهذا ما سماه مكيافيللي في الفصل الثالث «الامارات المختلطة» .

فقد كانت إيطاليا في عصره قبل الوحدة الإيطالية مؤسسة سياسياً على نظام المدينة الدولة أو «الدولة المدينة» . كان لكل من فلورنسا والبندقية وفيرارا وبيزا وروما .. الخ كيان سياسي مستقل شبيه بما كان معروفاً عند اليونان وعند الرومان قبل نشأة حركات التوحيد والامبراطوريات ، أى قبل فيليب المقدوني ويوسيوس قيصر . وكانت فلورنسا بالذات من أقوى هذه المدن ، وكانت تحكمها أسرة ميديتشي الشهيرة برعايتها للفنون والآداب ، كما كانت روما من أقوى هذه المدن ، وكانت تحكمها أسرة بورجيا الشهيرة بدسائسها وجرائمها وسيطرتها على الكنيسة لثبت طفانيها .

وكانت هذه المدن الإيطالية كثيراً ما تتحارب فيما بينها وتعقد الصلح والمعاهدات وكانت دول مستقلة ، وكانت من حين إلى حين تقوم الثورات داخل المدينة الواحدة لتنقل الحكم من يد أسرة قوية إلى يد أسرة قوية أخرى، كما يحدث في عصرنا الحالي في الصراع بين الأحزاب والتنظيمات السياسية. وفي عصر مكيافيلى أغارت فلورنسا على بعض جيرانها مثل مدينة بيزا ، كما تعرضت مدينة ميلانو لغزو الجيوش الفرنسية ، فحكمتها فترة وجيزة أيام لويس الثانى عشر . أما فلورنسا فكانت تحمى استقلالها بالتحالف مع فرنسا وبالاعتماد على الجيوش الفرنسية ، فلما هزم الأسبان الفرنسيين أيام الامبراطور شرلakan أصبحت فلورنسا تحت رحمة الأسبان .

وكانت إيطاليا في زمن مكيافيلى ، كبقية أوروبا ، تخرج من العصور الوسطى وتدخل عصر النهضة ، وتخرج من النظام الاقطاعي ، الشبيه بعصر الملاليك ، حيث كل إمارة أو دوقية أو مملكة صغيرة تتمتع بشخصيتها المستقلة وباستقلالها تحت السلطان البابوى والكنيسة الكاثوليكية الجامعة، وتدخل عصر تكون القوميات الحديثة التي تميزت بحركات التوحيد القومي في ظل ملكيات مطلقة تخضع ارادة الأمراء والدوقات والكونتات واللوردات وتجمعها لبناء الدولة العلمانية الحديثة المؤسسة على العلوم والفنون والأدب والنظم والشرائع والقوانين والقيم والمقاييس والاحكام الدينوية الوضعية المستمدة من منطق الأرض واللازمه لصلاح الدنيا وليس مجرد التمهيد للآخرة . وليس معنى هذا أن الصراع بين الدولة والكنيسة أفضى إلى تخلى الدولة عن الدين ، وإنما أفضى إلى صيغة جديدة للعلاقة بينهما وهى فصل الدين عن الدولة .

ولعل أقرب شيء نعرفه بذلك في بلادنا هو بناء الدولة الحديثة الموحدة على يد محمد على ، والقضاء على سنجقيات الملاليك ، وتأسيس قيم الدولة ونظمها وقوانينها على الأساس الدينوى الوضعى ، بما تضمنه ذلك من صراع بين محمد على ورجال الدين الرافضيين لمبدأ الدولة القومية الحديثة .

وتاريخ نشأة القوميات الحديثة مقتربن بأربع ظواهر سياسية هامة هي :

١ - الصراع على السيادة بين الدين والدولة .

٢ - حروب التحرير .

٣ - التوسيع الاستعماري .

## ٤ — الصراع الاجتماعي من أجل الديمقراطية السياسية والاقتصادية وحقوق الإنسان .

وفي الفصل الثالث من كتاب «الأمير» يحدثنا مكيافيللي عن التوسيع الاستعماري وعن حروب التحرير فيضرب لنا مثلاً : استياء لويس الثاني عشر ملك فرنسا على مدينة ميلانو وضمها إلى أملاكه بجهد ضئيل أو بمجرد استعراض العضلات ، لأن أهالي ميلانو الساخطين على أميرهم فتحوا لهذا الأمير الجديد أبواب مدinetهم . ولكن حين ثبت لهم أن أحوالهم لم تتحسن تحت حكم لويس الثاني عشر افتقوا من وهمهم وتخلصوا من الحكم الفرنسي الأجنبي في يسر شديد . فلما أعاد لويس الثاني عشر الاستياء على ميلانو استدعى طرده منها تضحيات جسمية ، لأنه اتخذ للاحتلال حيطة وأباد كل جيوب المقاومة لفتحه الأول ودعم قواته في كل مكان ، فاحتاج الأمر إلى حرب تحرير ضرورة دمرت جيوشه تماماً وإلى تأليب العالم عليه في كل مكان حتى جلا عن إيطاليا جملة .

وهذا مصدق للقانون الذي استخلصه مكيافيللي في علم السياسة ، وهو أن الشعوب تثور لاستبدال حاكم بحاكم ، وطنينا كان أو أجنبينا ، إذا أنت من المظالم وتوهمت أن حالها سوف تتحسن في ظل الأمير الجديد ، ولكنها لا تثبت أن تفيق من وهمها حين تكتشف أنها تسير من سوء إلى أسوأ فتثور من جديد لطرد الحاكم الجديد .

وهنا يضع مكيافيللي بعض القوانين السياسية التي يراها لازمة لنجاح الفتوحات وحركات التوسيع القومي بأسلوب أفضل من التوسيع الفرنسي في إيطاليا . وهذه القوانين هي بعبارة مكيافيللي :

(١) «أقول أذن أن تلك الدول عند فتحها لو وحدت مع دولة سبق أن امتلكتها الدولة الفاتحة ، فهي أما أن تكون من نفس الأقليم وتتكلّم نفس اللغة أو لا تكون . فإن كانت من نفس الأقليم واللغة كان الاحتفاظ بها أمراً يسيراً جداً ، ولاسيما إذا كانت لم تتعود على الحياة الحرة . وهنا يكفي لتأمين الاحتفاظ بها تدمير نسل الأمير الذي كان يحكمها ، ذلك لأن أهلهما ، فيما يخرج عن البيت المالك ، يعيشون في هدوء طالما أبقى الأمير الجديد على أسلوب حياتهم القديم ، وطالما لم يكن هناك عدم تجانس في العادات . ومثال ذلك ما نراه من أحوال بورغونيا وبريتانيا وجاسكونيا ونورمانديا التي بقيت متحدة مع فرنسا منذ مدة طويلة جداً . ورغم وجود عدم تجانس في اللغة إلا أن العادات متشابهة بحيث تستطيع هذه الإمارات أن تعيش في يسر بعضها مع البعض الآخر ، ومن يستولى على هذه الإمارات عليه

أن يراعى الحيطة في أمرين : الأول هو ابادة نسل الأمير السابق ، والآخر هو عدم اجراء تعديل في القوانين أو في الضرائب المفروضة على الأهالى ، وبهذا يندمجون خلال فترة وجيزة جداً في جسم دولة الأمير الفاتح .

« أما اذا جرى فتح الدول في منطقة غير متجانسة مع الدولة الفاتحة في اللغة أو في العادات أو في القوانين فهنا تنشأ الصعوبات ، وهنا يحتاج الأمير الى الكثير من حسن الحظ ومن الحكم ليحتفظ بالدول المفتوحة . ومن أهم سبل العلاج الجوهرى لهذه الحالة أن ينتقل الأمير الفاتح الى الامارة المفتوحة ليقيم فيها ، وهذا كفيل بأن يجعل املاكه لها أكثر امناً وأكثر دواماً ، وهذا ما فعله الترك في اليونان ، فقد كان يستحيل عليهم الاحتفاظ بها ، رغم كل ما مارسوه من وسائل أخرى ، لو لا انهم انتقلوا اليها ليقيموا فيها . ذلك لأنه بالحضور المباشر يمكن اكتشاف القلائل بمجرد نشأتها ويمكن علاجها على وجه السرعة ، أما بغير الحضور المباشر فهى لا تكتشف الا حين تستفحط وتمتنع على العلاج . وبالاضافة الى هذا فالحضور المباشر يمنع موظفى الأمير من نهب البلاد الخاضعة له ، والرعية تفتبط بقدرتها على مخاطبة الأمير مباشرة ودون وساطة .. وبهذا الحضور يزداد حبهم له ان كان في نيتهم حسن السلوك ويزداد خوفهم منه ان كانوا يضمرون شراً . ثم أن القوى الأجنبية تتردد كثيراً قبل ان تغزو الدولة المفتوحة اذا كان الأمير مقيناً فيها . وبوجه عام فان اقامة الأمير في الدولة المفتوحة تجعل ضياعها أمراً عسيراً .

« كذلك من وسائل الاحتفاظ بالدولة المفتوحة ارسال مستوطنين في بقعة او بقعتين منها لكي تكون بمثابة أغلال تقييد بها تلك الدولة . هذا أمر لازم فبغيره لا مناص من احتلالها بقوات كبيرة من الفرسان والمشاة أما المستعمرات فهي لا تكلف كثيراً ، ويمكن للأمير ارسالها لتستوطن هناك دون أن يتکبد شيئاً من جيشه الخاص أو قد لا يتکبد الا قليلاً .. وهو بهذا الاستعمار الاستيطاني لا يضر أنساناً الا من يستولى على حقولهم وعلى دورهم ليعطيها لسكانها الجدد ، وهم أقلية ضئيلة في الدولة المفتوحة ، أما من ينزل بهم الضرر ، فلأنهم يبقون مشتتين وفقراء ، فهم عاجزون عن ايذاء الأمير . ومن جهة أخرى فان سائر الباقيين الذين لا يمسهم الضرر في حياتهم فمن الأرجح ان يعيشوا في هدوء ، بل وفي رعب من ارتكاب اي خطأ خطيبة ان يصييهم ما أصاب المنوهين . وخلاصة القول هي أن هذه المستعمرات غير مكلفة وهي أشد ولاء واقل ايذاء للأهالى من جنود الحامية . أما الغاضبون من الأهالى فلا يملكون ضراً لأنهم مشتتون وفقراء كما سبق ان قلت .

« وفي هذا الصدد يجب أن نلاحظ أن الناس ينبغي أما تذليلهم أو سحقهم ، فهم يثأرون لما ينزل بهم من أضرار تافهة ، أما الأضرار الجسيمة فهم عاجزون عن الانتقام لها . ولذا فالتفكيل بانسان يجب أن يكون من نوع لا يخىء معه من الانتقام . فإذا احتفظ الأمير بقوات مسلحة في الدولة التي يحتلها بدلاً من إقامة المستعمرات فيها ، ازدادت نفقاته زيادة عظيمة لأنه سيستنزف كل موارد الدولة المفتوحة على حراسها وبهذا يتحول غنمته إلى غرم ، كما أنه سيثير غضباً أشد لأنه سيؤذى كل من في الدولة المفتوحة بنقل جيشه وأركانه إليها . وسوف يتأنى من كل ذلك كل الناس ويتحول الكل إلى أعداء له ، أعداء قادرين على إيذائه ، لأنهم رغم اخضاعهم باقون في بلادهم . فمن جميع الوجوه نجد أذن أن قوات الاحتلال لا جدوى منها في حين أن المستعمرات مجدية » .

وهكذا نجد أن مكيافيللي قد وضع في كتاب « الأمير » في مبادئ علم السياسة مبادئ « علم الاستعمار » إذا جاز هذا التعبير : فقد كانت أوروبا منذ فجر عصر النهضة تدخل تجربتها الكبرى في استعمار العالم منذ نشأة القوميات الحديثة فيها ، تدخلها هذه المرة على أساس « علمي » بعد تجربتها المساذجة الفاشلة أيام الحروب الصليبية .

ولكن ربما كان من الظلم لمكيافيللي أن نكتفى بتوصيفه على هذا النحو ، فهو حين كتب هذا الكلام لم يكن قد مر على اكتشاف كولمبس (1492 - 1506) لأمريكا إلا نحو عشرين عاماً (1451 - 1512)، وأميريجو فريبوتشي (1454 - 1521) الذي أطلق اسمه على أمريكا في 1507 ، وماجلان (1480 - 1521) الذي اكتشف مضيق ماجلان في 1520 وكان أول من قام ببرطة حول العالم وقتل في الفلبين ، وبارتولوميو دياز (1490 - 1500) وفاسكو دى جاما (1469 - 1524) اللذان اكتشفا رأس الرجاء الصالح في 1487 وفي 1497 على التماقib .

وبالتالي فهو لم يضع هذه القوانين في مبادئ الفتح أو مبادئ الاغتصاب ليقتنن للاستعمار الأوروبي في أفريقيا وأسيا واستراليا والأمريكتين ، وإنما وضعها ليقتنن بها حركات الوحدة القومية التي كانت تجتاح مختلف دول أوروبا ذاتها لتنشئ في كل أمة دولة مركزية واحدة ، أو إمارة واحدة بلغة مكيافيللي ، على أنقاض إمارات الانقطاع المتعذدة التي كانت تتكون منها كل قومية . كذلك وضع مكيافيللي هذه القوانين لكي يفسر بها نجاح أو فشل غزو الدول الأوروبية بعضها للبعض الآخر ، ونجاحها أو فشلها في استمرار هيمنتها .

قانون آخر يضعه مكيافيلى : الضعفاء دائمًا ينضمون إلى الفاتح القوى . وإذا أراد الفاتح القوى أن يديم سيطرته فعليه أن يحابي هؤلاء الضعفاء اللائذين به خوفاً منه أو طلباً لحمايتهم من أعدائهم أو من سادتهم القدامى ونفقاتاً ومداهنة من أجل المنافع ، ولكن حذار له من أن يسمح لأحد هم بأن يشتت عوده حتى يصبح خطراً عليه سواء في القوة العسكرية أو في السلطة . فبقوته الخاصة وبمعونة من هم أقل منه قوة يستطيع هذا الأمير الفاتح أن يديم سيطرته على ما فتحه . كذلك حذار أن يتغذى له شركاء أو حلفاء أقوىاء ليثبت قدمه أو ليوسّع ملكاً . هؤلاء الشركاء أو الحلفاء الأقوىاء كثيرون بأن ينتزعوا منه كل شيء .

كل هذه المحاذير أفشلت خطط لويس الثانى عشر ملك فرنسا حين غزا إيطاليا . . فطبع أهل البندقية في الاستيلاء على مقاطعة لومبارديا جعلتهم يهیئون له دخول إيطاليا . وحين استولى لويس الثانى عشر بقوته على لومبارديا ، استسلمت له جنوة وصادقه أهل فلورنسا ودوق فيرارا وماركيز مانتوا وسادة بيزا وسيينا وريمياني وغيرهم . . وهكذا لكي يكسب أهل البندقية مدینتين في لومبارديا جعلوا هذا الملك الأجنبي سيداً على ثلث إيطاليا . ولكن لويس الثانى عشر ما لبث أن فقد كل هذا السلطان . . لماذا ؟ لأن سياسته كسرت قواعد السلطة . فما أن دخل ميلانو حتى ساعد البابا اسكندر السادس على الاستيلاء على روماجنا ، دون أن يدرك أنه بذلك قد أضعف نفسه بالتخلي عن أصدقائه واللائذين به وبتقوية الكنيسة باضافة السلطة الزمنية (الدنيوية) إلى سلطتها الروحية الرهيبة ، ولأنه أراد أن يستولي على نابولي تحالف مع ملك قوى هو ملك أسبانيا ، الذي نازعه سلطاته في إيطاليا . وهكذا فقد لويس الثانى عشر كل شيء في إيطاليا لأنه تخلى عن أصدقائه الضعفاء وتحالف مع منافسيه الأقوىاء . قال مكيافيلى في كتاب «الأمير» :

« وقد تحدثت في هذا الأمر مع كاردينال روان في مدينة نانت بفرنسا عندما استولى فالنتينو على روماجنا ، ( وفالنتينو هو اسم الشهرة لسيزار بورجيا بن البابا اسكندر السادس ) . . . وحين قال لي كاردينال روان إن الإيطاليين لا يفهمون في الحرب ، أجبته بأن الفرنسيين لا يفهمون في السياسة أى في الدولة . فلو أنهم فهموا ما الدولة لما سمحوا للكنيسة أن تتعاظم إلى هذا الحد . وقد دلت التجربة على أن فرنسا هي سبب قوة الكنيسة في إيطاليا وأسبانيا ، وأن سبب خراب ملك فرنسا هما إيطاليا وأسبانيا » .

٦

## «الأمير» في الوطنية

□ في الفصلين السابع والثامن يحدثنا مكيافيلى عن ثلاثة نماذج من «الأمراء» الذين يصلون إلى امارة دولهم بطريق مختلفة :

١ - بقوة الفير .

٢ - بطريق الحظ .

٣ - بطريق الاجرام أو الغدر .

وهذه النماذج الثلاثة ذات صفة خاصة لأنها لا ترث السلطة .

فرد من أبناء الشعب يصبح أميرا دون جهد يذكر له ، مثل هذا الشخص لا يجد متابعا في بلوغ السلطة ولكن متابعيه تبدأ حين يبلغها ويستوى في دست الحكم . ومن الأمراء من يشتري الرئاسة بماليه أو بالرشوة أو ليكون صنيعة من يهبها اياه . ومثل هؤلاء الأمراء كمثل الأمراء الذين عينهم دارا ملك الفرس عندما غزا اليونان فولاتهم على ايونيا وعلى جزر بحر ايجه . ومثل هؤلاء ايضا مثل الأمراء الذين اشتروا جنودهم بالرشا ليضعوهم على رأس الدولة .

ومن كان مصدر سيادته من غيره عاش مقلقا في دست السلطان . ومثله لا يعرف كيف يحكم لأنه عاطل من الكفاءة الذاتية الفذة والقوة الشخصية المسيطرة ، ولأنه عاش كأحد الناس فهو عاجز عن القيادة ثم أنه لا يملك القوات التي تدين له بالولاء . وكل ما جاء على عجل انقضى على عجل ، إلا إذا ساندته القوة والموهبة الذاتية العظمى فهو عندئذ يستطيع أن يضرب جذوره في التربة بعد أن يستولى على الحكم .

مثلان يسوقهما مكيافيلى : فرانشيسكو سفورزا « ١٤٠١ - ١٤٦٦ » وسزار بورجيا « ١٤٧٥ - ١٥٠٧ » .

الأول ارتفع من بين آحاد الناس بجهده الفذ وباتباع الأساليب اللازمة حتى غدا دوق ميلانو ، وما اكتسب بمثابة فائقة حافظ عليه بجهد يسير .

أما الثاني ، وهو سizar بورجيا ، فقد ارتفع بمساعدة أبيه اسكندر بورجيا « البابا اسكندر السادس » حتى أصبح دوق روماجنا . ولأن الدوقية جاءته من غيره فقد ضاعت منه ، رغم أنه بذل جهداً جباراً وأبدى موهبة فذة لتأسيس إمارة له في روماجنا ، مما جاءه بجيوش الغير وبنفوذ الغير لم يمكنه الاحتفاظ به .

أراد البابا اسكندر السادس « ١٤٣١ - ١٥٠٣ » أن يجعل من ابنه سizar علماً من الأعلام ، ولكنه واجه صعوبات بلا عدد ذللها واحدة بواحدة . فأولاً لم تكن هناك دوقية خالية خارج اقطاعيات الكنيسة يمكنه أن يجعله أميراً عليها . وكان يعلم أنه لو نصب ابنه دوقاً على قسم من أملاك الكنيسة لثار عليه دوق ميلانو ولثار عليه أهل البندقية لأنهم المتكلفون بحماية هذه الأراضي . كما أن القوات الإيطالية التي كان يمكنه الاعتماد عليها كانت تابعة لامارة أورسييني وأماراة كولونا ، وهؤلاء بالذات كانوا يخشون ازدياد سطوة البابا ولذا لم يمكنه الاعتماد عليهم .

وهكذا خطط اسكندر السادس لاشاعة الاضطراب في حزب أورسييني وفي حزب كولونا لكي يستولى على قسم منها . وسهل له الأمر أن أهل البندقية دعوا لويس الثاني عشر ملك فرنسا إلى غزو إيطاليا ليغزوا بجزء من لومبارديا ، فوجد اسكندر السادس في هذا فرصة موافق على هذا الغزو ، بل واسترضى لويس الثاني عشر بالفاء زواجه الباكر الذي كان الملك راغباً في نسخه ، ومقابل هذا ساعد الملك الدوق سizar بورجيا على اقتحام إقليم روماجنا وتنظيم قسوة كولونا بقوات من أورسييني وهكذا أصبح سizar بورجيا دوقاً أى أميراً على أوربيينو ، واراد بعدها أن يفتح إقليم توسكانيا ويستولي على عاصمته فلورنسا ولكن لويس الثاني عشر نصحه بأن يحجم عن ذلك كما أن قوات أورسييني لم تكن متحمسة لذلك .

وهنا قرر سizar بورجيا عدم الاعتماد في فتوحاته على جنود الغير أو على ظروف الغير . وكان أول ما فعله هو اضعاف حزب أورسييني وحزب كولونا في روما ، وجردهما من كل أعيانهما الأقوياء بشراء ولاء هؤلاء النبلاء أنا بالمال وأنا بالوظائف العامة وأنا بالتقدير والتشريف حتى انحاز أكثرهم إلى الدوق فالنتينو « سizar بورجيا » . وبعد أن شتت زعماء آل كولونا تفرغ للقضاء على زعماء آل أورسييني الذين ادركوا بعد فوات الآوان أن قسوة الكنيسة وقسوة الدوق تعنى نهايتهم ، فأثاروا على سizar بورجيا

فتنة في أوربينو وفتنة في روماجنا وأقاموا في طريقه عدداً لا يحصى من المتعاب ، ولكنه تغلب على كل ذلك بمعونة الفرنسيين .

ولكنه كان شديد الشك في مطامع فرنسا أو أية قوة أجنبية . وبعد أن استرد هيبته لجأ إلى الخداع فأظهر السود الآل أوربيني وأثقن الختل حتى آمنوا له فاستدرج رؤسائهم إلى سينيجاليا وفتك بهم ثم تقرب إلى أنصارهم ، فاستتب له الأمر ووضع أساس دوقية مزدهرة في أوربينو وأساس إمارة مزدهرة في روماجنا . وحين شاع الرخاء هنا وهناك تعلقت به قلوب الناس ، وبعد أن كانت كل منهما مبادلة ينهب فيها البلاء الرعيبة ولا تعرف الأمان من السلب وأعمال اللصوصية ولا تنقطع فيها حوادث الشغب . فأقام سيزار بورجيا حكومة مستبدة قاسية حازمة نشرت الأمن والنظام في كل مكان .

ولكن سيزار بورجيا أدرك أن الاستقرار وحده غير كاف لابد من العدل بعد البطش ، فأنشأ محكمة للمقاطعة اشتهرت بنزاهتها وفقها ، وكان لكل مدينة محاميها في هذه المحكمة . وكان بطش عامله قد ترك جراحات غائرة في نفوس الناس . فأذن سيزار بورجيا عامله بأن يكف عن بطشه ، فلما لم يستجب أعدمه والقى بجثته ذات صباح في الميدان العام مشطورة إلى شطرين . قال مكيافيللي : « وقد جعلت وحشية هذا المشهد أولئك الناس ذاهلين وراضين في وقت واحد » .

وبعد أن استتب له الأمر في الداخل لم يبق من قيد على حركته إلا فرنسا فأخذ يتهدأ للانتقاد عليها . ولكن وفاة أبيه ، البابا اسكندر السادس عطلت توسعاته وجعلته يعيي النظر في موقفه . فالخطير الأكبر الآن هو أن يتولى باباً جديداً قد يكون معاذياً له فيجرده من كل ما حصل عليه . فأخذ سيزار بورجيا يؤمن نفسه بأربع وسائل : الأولى هي اجتثاث كل الأسر التي نهب ممتلكاتها حتى لا يجد البابا الجديد من يعاونه على عدائه ، وثانياً ، استئصال كل نبلاء روما حتى يستعين بهم على درء خطر البابا الجديد . وثالثاً استئصال الكرادلة إلى صفة ما أمكن ذلك .رابعاً جمع أكبر قدر من السلطة في يده قبل وفاة أبيه المريض .

وبالفعل نفذ سيزار بورجيا أكثر خططه . فقد فتك بأكثر الذين صادر أموالهم أو نهبها ولم ينج منهم إلا القلائل ، وكسب صدقة أكثر أشراف روما ، وكان له بين الكرادلة أنصار كثيرون .

وكان في نية سيزار بورجيا أن يتجاهل الفرنسيين المشغولين مع الأسبان في نابولي وأن يغزو فلورنسا فتستسلم له بيزا ولوكا وسيينا على

الفور ، وبهذا يصبح سيد ايطاليا بغير منازع ودون الاعتماد على قوة غير قوته . ولكن وفاة البابا اسكندر السادس احبطت مخططه ، فلم يكن لديه ثابت في ملكه الا امارة روماجنا اما بقية احلامه فكانت معلقة في الهواء ، كما ان صحته كانت معلنة الى اقصى درجة ، بل كان نفسه بين الحياة والموت .

ومع ذلك فقد ظل أصدقاؤه أوفياء له وظل اعداؤه يرهبونه . واذا لم تكن لديه القدرة أن يختار بابا خلفاً لأبيه فقد كان يستطيع أن يمنع اختيار البابا الذي لا يريده . وبالفعل فقد اختار الكاردينال يوليوبوس خلفاً لأبيه ، وكان اختياراً سيئاً جلب على سيزار بورجيا الكوارث . . يقول مكيافيللي : « فالناس تؤذى اما بدافع الخوف او بدافع الكراهة » و « من يحسب ان الكبراء ينسون الادى القديم بفضل المنافع الجديدة فهو يخدع نفسه . . لم يكن بين الكرادلة الايطاليين من لم يكن يرعب سيزار بورجيا او يحتمد عليه لاذى سابق . فكان عليه اما ان يختار الكاردينال روان الفرنسي او احد الكرادلة الاسпан ، ولكنه لم يفعل ذلك .

● ● ●

كل هذا السجل الحافل في حياة سيزار بورجيا جعل مكيافيللي ينظر اليه على انه نموذج للأمير الذي ينبغي أن يحتذيه كل من ارتفع إلى دست الحكم في عصر الرئيسيانس بقوة غيره أو بالحظ ، وهذه هي الخلاصات التي وجدها مكيافيللي في قصر بورجيا :

« فمن وجد اذن من اللازم ان يؤمن نفسه ضد اعدائه في امارته الجديدة ، وأن يكسب الاصدقاء ، وأن يفتح البلاد بالقوة او الخداع ، وأن يجعل الشعب يحبه ويربه ، ويجعل جنوده يتبعونه ويحترمونه ، وأن يبيد كل القادرين على ايذائه او من يحتمل أن يؤذوه ، وأن يقيم القوانين الجديدة مكان العادات القديمة ، وأن يجمع بين الصرامة واللطف ، وأن الرفعة والسماء ، وأن يمحق جنده المعاشر ويجدد محلهم جنوداً جدداً ، وأن يتواصل مع الملوك والأمراء بحيث يعلمون على استرضائه او يتربدون في ايذائه ، مثل هذا الأمير لن يجد امثلة اوضح من انجازات هذا الرجل ». .

ونحن نسأل انفسنا ونحن نستعرض تاريخ الفكر السياسي : ولماذا كل هذا الاعجاب الذي يظهره مكيافيللي بشخصية شخصية كشخصية سيزار بورجيا وما قام به من اغتصاب دولة جديدة كادت ان تنتهي بتوحيد ايطاليا في هذا التاريخ الباكر لو لا تدخل القوى الأجنبية « فرنسا وأسبانيا والنمسا » ، والاعيب البابوية التي اجلت توحيد ايطاليا الى عصر غاريبالدى « ١٨٠٧ - ١٨٨٢ » في القرن التاسع عشر ؟

ويأتينا الجواب واضحًا في كلمات مكيافيللي نفسه الذي كتب يقول : « كلما استطعت أن أحرز مجدًا لمدينتي وهي وطني ، كنت أسعد بذلك ولو تعرض شخصي للخطر . فليس في حياة الإنسان واجب أكبر من واجبه نحو وطنه .. ذلك لأن الإنسان مدين لوطنه أولاً بوجوده ثم بكل خير يأتيه به القدر والطبيعة ، وكلما عظم وطنه في النيل ازداد دينه له » . وهو القائل : « إن فقرى هو الشاهد على أخلاصى وسلامة طوينى » .

الوطنية : كلمة جديدة لم نسمعها أوروبا بعد أكثر من ألف عام من العصور الوسطى في ظل « الأكليزيا » « الكنيسة » الدينية والأخوة في الدين بدلاً من الأخوة في الوطن .

هذه الروح الجديدة التي انطلقت في كل أمة من أمم أوروبا هي جوهر عصر النهضة الأوروبية الذي شقق العالم المسيحي الواحد الرافض للحياة الدنيا الساعي — نظرياً طبعاً — في طلب الحياة الأخرى ، إلى دول وطنية قومية فتية تعمل لدنياها كأنها تعيش أبداً .

وفي عصر النهضة الأوروبية بدأ الأوروبيون يرددون ما كانوا يرددونه في « جاهليتهم » اليونانية. الروقانية أيام كانوا وشيشرون الخطيب ويوليوس قيسر وأغسطس :

« ما أحلى الموت في سبيل الوطن » ، بدلاً من القرصنة باسم الصليب . الوطنية والروح القومية أعطتا لأوروبا في أول الأمر هدفاً راقياً واضحًا ملماساً مفهوماً يعيش الأوروبيون من أجله ويموتون من أجله ، هو الاستقلال عن الدولة المسيحية الجامعية أو الخلافة الرسولية أو مدينة الله على الأرض أو « الإمبراطوريات المقدسة » ، سماها ما تشاء من الأسماء . ثم أعطتها هدفاً عدوانياً هو الاستعمار والأمبريالية . أو على الأصح أن الوطنية أعطت أوروبا الهدف الراقى أما القومية فأعطتها الهدف العدواني ، كما كان يمكن أن يقول الفيلسوف كروتشى .

والتهمة الأولى الموجهة إلى مكيافيللي هي أنه فصل السياسة عن الأخلاق . وهذا الاتهام بعضه صادق وبعضه مبالغ فيه ، فمكيافيللي هو واضح نظرية أن « الغاية تبرر الوسيلة » .

ومع ذلك فنماذج « الإمارة » الأخرى التي يقدمها تلقى بصيصاً من النور على عقليته ومنطقه المتجرد البارد في النظر إلى الأمور .

هو يعطينا مثل أجاثوكليس الصقلى الذي ارتفع في الماضي البعيد إلى دست الإمارة في صقلية ، لا بفضل مساعدة الغير أو بتدخل الحظ مثل

سيزار بورجيا ، ولكن بمحض قوته الذاتية ومواهبه الشخصية . فقد كان أجائوكليس أصلا رجلا وضيع المنشأ في سيراكيوز ، فكان أبوه فخرانيا وكان هو شريرا ولكنه مع خلقه الشرير الذي تجلى في كل مراحل حياته كان قوى العقل والجسد ، فدخل الجيش وارتقى فيه حتى اختير محافظا لسيراكيوز . ولكنه كان قد اعترض أن يتولى الإمارة وأن يحتفظ بالبطش بما ناله برضاء الناس . فتوطأ مع هاميلكار القرطاجي الذي كانت جيوشه تحارب في صقلية ، وذات يوم دعا أعضاء السناتور « مجلس الشيوخ » في سيراكيوز وأجبر الأعيان فيها إلى اجتماع للنظر في أمور الدولة ، وبإشراف متفق عليها وثبت عليهم بجنوده وأجهزوا عليهم جميعا . وبهذا صار ملكا على سيراكيوز بغير حرب أهلية .

وما أن صار أميرا حتى التفت إلى جيش قرطاجة الذي كان يحاصر سيراكيوز واستطاع أن يحررها من القرطاجيين الذين انسحبوا إلى إفريقيا بعد صراع مرير معهم ذاق فيه الأهوال وتعرض لأشد الأخطار . وهذا نموذج لأمير اغتصب الحكم ولكن بجهده وجهاده ، وهو يستحق الثناء لأنه حرر وطنه ، « ولكننا مع ذلك لا نصف بالفضيلة من يقتل أخوه في الوطن ويعيش بلا أخلاص ولا رحمة ولا دين » ، هكذا يقول مكيافيلي . كل بطولاته تزكية لأن يعد بين القادة العظام : « ومع ذلك فإن قسوته وافتقاره إلى الإنسانية والعدد الذي لا يحصى من أعماله الشريرة تحول دون اشتئاره باعتباره واحدا من أفضل الرجال » .

ويضرب مكيافيلي مثلا آخر من عصره على هذا النوع من الأمراء الذي يغتصب الإمارة بقوته الذاتية وبخسنه طبعه وغدره وقسوته ، فيحدثنا عن رجل آخر في زمن البابا اسكندر السادس وسيزار بورجيا اسمه ليفر Otto الذي أصبح أمير فيرمو بالوحشية والخدعية . كان ليفر Otto يتيما في فيرمو فنفله خاله وأسمه فولياني ، ثم أرسله ليتعلم الجندي تحت قائد في مكان آخر . كان قوياً وموهوباً وطموماً فترقى في سلك الجندي إلى منصب عالٍ . وهنا رتب ليقوم بانقلاب في فيرمو ، موطنه الأصلي ، فأرسل إلى خاله فولياني قائلاً أنه أزمع زيارة مدینته ، ولا أمل له في الحياة إلا أن يرى أبناء مدینته ما أصاب من هيبة ومجد ، فيسمحوا له أن يدخل المدينة على رأس مائة من فرسانه وأن يستقبلوه بالتكريم . وبالفعل أعد فولياني كل شيء لاستقبال ربيبه ليفر Otto الذي نزل ضيفاً عليه برجاله . ثم أقام ليفر Otto مأدبة دعا إليها فولياني وصنفة الأعيان في فيرمو ، وبعد المأدبة استدرجهم إلى قاعة ما أن استقروا فيها حتى انقض عليهم رجاله وفتكوا بهم . ومن بعدها خرج ليفر Otto على جواده بين فرسانه المائة وحاصر قصر الحاكم واستولى على الحكم . ولكن

قبل أن ينقضى العام لقى مصرعه ، فقد كان بين النبلاء الذين استدرجهم سizar بورجيا إلى سينجاليا وأجهز عليهم .

والسؤال الذى يطرحه مكيافيلى هو : اجاثوكليس وليفروتو حالتان متشابهتان لأمير قوى وهو بشرير اجرامى مخاتل يصل إلى الامارة بجهده الذاتى . أحدهما ، وهو اجاثوكليس ، يبقى في دست الحكم زمانا طويلا آمنا على حياته لا يتامر به أحد حتى في أيام شدته رغم جرائمه الكثيرة . الآخر ، وهو ليفروتو ، لا يدوم له الملك حتى في زمن السلم فما السبب ؟

يقول مكيافيلى : « أعتقد أن هذا ناشيء من سوء استعمال أعمال القسوة أو حسن استعمالها ، اذا جاز لنا أن نتحدث عن الحسن في سوء الأشياء . فأعمال القسوة التي تستعمل بطريقة عاجلة كضرورة لتأمين النفس ثم لا يستمر الأمير فيها بل يحولها ما أمكن إلى أعظم المنافع لشعبه ، هذه يمكن أن نصفها بحسن استعمال القسوة . أما أعمال القسوة التي قد تبدأ قليلة ولكنها تزداد مع الأيام ولا تتضاعل فهي إساءة لاستعمال القسوة . فالحكام الذين يتبعون الطريق الأول يمكن أن يجدوا مع الله ومع الناس صلاحا لحالهم ، على غرار ما فعل اجاثوكليس ، أما الآخرون فيستحيل عليهم أن يحافظوا على كيانهم » .

هناك اذن مقياس موضوعي يضعه مكيافيلى للتمييز بين أمير مفترض وأمير مفترض . فالامير المفترض الذي ينجذب كل ما يحتاج إليه من جرائم في أجل قصير وبطريقة ناجحة يمكنه أن يجعل رعيته تعيش في أمن بعد ذلك . هذا الأمير يمكن أن يكتب لهبقاء ، وأن يتحول شره إلى خير . أما الأمير الذي يبتلى في تردد بسبب خوفه أو لسوء المشورة ، فهو يحمل دائمًا السكين في يده وهو يجدد دائمًا جرائمه فلا يعرف طعم الأمان ، وهو معرض للإطاحة به في أي وقت .

ويختتم مكيافيلى الفصل الثامن من كتاب الأمير بقوله :

« وكما أن كل أعمال التشكيل يجب أن تتم دفعة واحدة حتى يقل غضب الناس منها لأن احساسهم بمذاقتها يكون أقل ، فكل ذلك يجب أن تمنع المنافع مقتسطة ، قليلاً قليلاً ، حتى يحس الناس بمذاقتها احساساً أكبر . وفوق هذا وذلك يجب أن يعيش الأمير بين رعيته بحيث لا تغير أسلوبه الأحداث السعيدة أو الأحداث السيئة . فعندما تستدعي الضرورة بسبب الشدائ드 وتعجز عن رد المحن ، فإن ما تتعلمه من خير لا يحسب لك ، لأن الناس سوف تعتقد أنك مجرم عليه ولا يشعرون نحوك بعرفان الجميل » .

هناك اذن غاية لكل أمير مقتصب يمكن له بتحقيقها أن يقبل الناس جرائمه في بداية عهده بشرط أن يحسوا بالأمان طوال سنوات حكمه ، وهذه الغاية عند مكيافيللي غاية دنيوية ، وهي أن يحس الناس بالأمن والرخاء.

وفصل السياسة عن الأخلاق في تشريح مكيافيللي للسلطة شيء مأثور في كل العصور يعرفه بالفطرة كل طامع في الملك أو الرياسة دون حاجة إلى تقنيين أو تلقين ، ولاسيما إذا كان الساعي إلى السلطة من عامة الناس لم يرث منها شيئاً يقرره منها غير مواهبه واستعداداته الشخصية . وفي التاريخ الحديث نذكر محمد على ونابوليون ولينين وستالين وموسوليني وهتلر وجمال عبد الناصر وأنور السادات من استكملوا دورتهم التاريخية ويمكن الحكم عليهم بالنجاح أو الفشل ، بالنفع أو العقم ، حكماً تقريبياً . ولا أظن أن في تشريح مكيافيللي لعلم الحكم اضافة إلى ممارساتهم التاريخية .

ولا أظن أن بالمرستون « ١٧٨٤ - ١٨٦٣ » ، رئيس وزارة إنجلترا ووزير خارجيتها الشهير في القرن التاسع عشر كان بحاجة إلى نظريات مكيافيللي ليدرك أنه « ليس لإنجلترا أصدقاء دائمون أو أعداء دائمون ، وإنما لإنجلترا مصالح دائمة » ، بحسب قوله الشهيرة .

كذلك لا أظن أن تاريخ البابوات والكرادلة في العصور الوسطى المسيحية كان يختلف كثيراً عن هذه الممارسات العملية التي تفصل بين الدين والدولة وبين الأخلاق والسياسة . ولكن ينبغي دائماً أن نتذكر أن مكيافيللي كان أول من فتن هذا الفصل نظرياً في العالم الحديث .

كان توركوياما « ١٤٢٠ - ١٤٩٨ » ، رئيس محاكم التفتيش في إسبانيا ، يبرر احرق مئات « الزنادقة » و « السحرة » على الخازوق — وتعريف الزنادقة والشحرة كان كل منشق على الكنيسة الكاثوليكية أو رافض لها في العقيدة أو السلوك أو المصالح — بقوله « نحن نحرقك في الدنيا رحمة بك حتى ننقذك من النار الأبدية في الآخرة ». هنا تحول الأخلاق ، بل الدين نفسه ، إلى أداة جهنمية لا تقل خطأة عن دنيوية اسكندر السادس وسيزار بورجيا ونيكولو مكيافيللي .

• • •

٣

## «الأمير» الأسد والثعلب

□ في الفصل الرابع عشر من كتاب «الأمير» لكيافيللي يقول مكيافيللي إن «الأمن» يجب أن يكون الشغل الشاغل للأمة وهو يسمى ذلك «الحرب» ولكن سياق الكلام يدل على أنه إنما يتحدث عن الأمن الداخلي وعن الأمان القومي، ففي تلك الأيام لم تكن هناك تفرقة واضحة بين الجيش والبوليس كما نعرفهما اليوم.

يقول مكيافيللي :

«ينبغى على الأمير أذن إلا يكون له هم غير الحرب، والا يشغل تفكيره شيء غيرها والا يتخصص في شيء غير الحرب وقوانينها ونظمها ، لأن الحرب هي الفن الوحيد الذي ينتظره الناس من الأمر فيه . وفن الحرب فمن ناجح لا يقف تفعه عند حماية من يرثون الإمارة ، بل يتجاوز ذلك ، فهو الذي يرفع الناس العاديين إلى مصاف الأمراء . ونجد على نقیض ذلك فقد لوحظ أن النساء الذين انشغلوا بالملذات أكثر من انشغالهم بفن الحرب فقدوا مناصبهم ، وأول ما يجعلهم يفتقدون مناصبهم هو اهمالهم لفن الحرب كما أن أول ما يجعلهم يصلون إليها هو خبرتهم فيه .

« كان فرانشيسكو سفورزا مواطنا عاديا ولكن لأنه كان مسلحًا فقد أصبح دوق ميلانو . أما أبناؤه فقد ثقدوا الدوقية وارتدوا مواطنين عاديين لأنهم تجنبوا مشاق القتال . ومن بين المضار التي يجلبها التجدد من السلاح على المرء أنه يصبح محتررا ، وهي وصمة ينبغي على الأمير أن يتتجنبها » .

باختصار ، الناس تخاف من الأقواء وتزدرى الضعفاء . هذا هو القانون الذي أوضحه مكيافيللي وبنى عليه فلسفته في فن الحكم وفي علم الاجتماع وفي علم السياسة .

ومن الناس من يقول : وأى جديد في هذا ؟ إن أى رجل عملى يستطيع أن يدل على هذا القانون دون عناء كبير ، فهو بديهية لا تحتاج إلى عبرية لاكتشافها . ولكن المشكلة الحقيقية ليست في اكتشاف هذا القانون وإنما في الاعتراف به وقبوله أساسا للحياة الفردية والجماعية ، ثم في اشهاره على الملأ دون حرج كما فعل مكيافيلى ، فقد كان الاعتراف بهذا القانون الطبيعي مناقضا على خط مستقيم للمسيحية التي كانت تبشر بقول المسيح في موعظة الجبل : « طوبى للمساكين بالروح ، أى البسطاء بمعنى السذاج ، لأن لهم ملکوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتبعون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاشى إلى البر لأنهم يشعرون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملکوت السموات »

« متى ٥ - ٣ - ١٠ »

هذه الروح الجديدة التي تمجد القوة وتزدرى الضعف ، أو على الأقل تقبل قانون القوة وتحذر من الضعف ، هي دين الفطرة الجديد الذي استشرى في أوروبا في عصر النهضة الأوربية ، وهو في أوروبا في عصر يمثل قمة الفصل بين السياسة والأخلاق بل وبين السياسة والدين جملة . فلن نستطيع أن نقول أن مكيافيلى كان من صناع السلام أو من الودعاء أو من الرحماء أو من الجياع أو العطاشى إلى البر .

ومع ذلك فقد أجبت هذه العودة إلى الأخلاق الواقعية أو أخلاق الفطرة حب الحرية والاستقلال وروح الوطنية والقومية وحب السيادة على النفس والتسيد على الدنيا في أكثر دول أوروبا ودولاتها في عصر النهضة الأوروبية ، بدلا من التركيز على طلب الآخرة بالأخلاق الدينية ، كما أجبت هذه الفلسفة الدنيوية ، أو « العمالانية » « العلمانية » ، أو الزمنية كما يقولون ، الشوق إلى حقوق الإنسان بدلا من طلب الفناء في حقوق الله . وقد جسد الأوروبيون هذه الروح الجديدة في الروح الفاوسية التي بدأت في وجهها البناء بتحرير الإنسان وانتهت في وجهها المدمر بتلهي الإنسان .

من أجل هذا يضع مكيافيلى أمام « الأمير » هذا الخيار الأخلاقي الصعب في الفصل السابع عشر من كتابه ، وعنوانه « في القسوة والرحمة ». وهو يطرح علينا هذا السؤال المحرج : أيهما أفضل للإنسان بصفة عامة وللأمير بصفة خاصة ، أن يكون محبوبا أو أن يكون مرهوبا ؟ وهو لا يتردد في الإجابة على الوجه التالي :

« أقول ان كل امير ينبعى عليه ان ينشد اعتقاد الناس فيه بأنه رحيم وليس قاسياً ومع ذلك فمن الواجب عليه أن يحذر سوء استعمال الرحمة . فقد كان الرأى في سizar بورجيا أنه قاس ، ومع ذلك فقسותו هذه هي التي اعادت تنظيم روماجنا ووحدتها وأفاقت عليها بالسلم والولاء . فلماذا كنا نرى هذه مزايا حميدة ؟ لأننا وجدنا أنه كان أكثر رحمة من أهل فلورنسا الذين تركوا بيستو تتعرض للتدمير حتى لا يقال عنهم إنهم قساة ، لهذا فالامير لا ينبعى أن يحفل بأن يدمغ بالقسوة في سبيل الاحتياط بوحدة شعبه وولائه . فباستثناء حالات قليلة جدا .. نجد أنه بهذه الشدة يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يبالغون في الرحمة فيتركون الشرور تستمر مما ينجم عنه المذابح والنها . فالذابح والنها تتليان عادة طائفة كاملة ، أما الاعدام الذي يأمر به الامير فهو يبنى رجلاً واحداً . ومن الصعب على الامير الجديد ، من دون سائر الأمراء ، أن يتتجنب أن يوصف بأنه قاس ، لأن الامارات الجديدة محفوفة بالمخاطر . فكما يقول فرجيل على لسان ديدو : « ان ظروف الصعبه وملكتى الجديدة تجبراننى على فعل هذه الامور ، وعلى اقامه الحراس على حدودى في مشارق الأرض وغاريبها » .

« ومع ذلك فالامير يجب أن يلزم الحذر في الرأى والحركة ، وأن يتتجنب توليد الخوف في نفسه ، وأن يسلك سبيل الاعتدال بالحكمة والعطف بحيث لا يقلل من حذر الاصراف في الثقة ولا يجعله الاصراف في الريبة رجلاً لا يتحمل .

« ومن هنا ينشأ التساؤل : أيهما أفضل : أن تكون محبوباً أكثر من أن تكون مرهوباً ، أو العكس ؟ والجواب هو أن المرء ليحب أن يكون محبوباً ومرهوباً معاً . ولكن نظراً لصعوبة التوفيق بين هذا وذلك ، فإنه أدعى للأمان بمراحل ، ان كان لا مناص من الاختيار ، أن تكون مرهوباً من أن تكون محبوباً ، اذ أنه يمكن أن يقال عن الناس بوجه عام : انهم جاددون ، متقلبون ، مراءون ، ملثمون ، هاربون من الأخطار سباقون إلى المنافع، فإن أقبلت عليك الدنيا فهم معك قلباً وقالباً يهبونك دمهم ومالهم وأرواحهم وأولادهم كما ذكرنا حين لا تكون بحاجة ماسة إليها فإذا اقتربت حاجتك أزوروا عنك ..

« ورغم كل هذا فينبعى على الامير أن يجعل نفسه مرهوباً بطريقه تجنبه أن يكون مكروهاً اذا لم يظفر بحب الناس . فمن الممكن أن يجتمع في قلوب الناس الخوف مع عدم الكراهية ، والآن يستطيع أن يحقق ذلك اذا تجنب أخذ أملاك مواطنيه ونسائهم . فإذا كان من اللازم حقاً أن يقدم أحداً للمحاكمه والاعدام فيجب أن يفعل ذلك حين يكون لديه مبرر كاف وقضية واضحة » .

المهم عند مكيافيلى الا يكون الامير « مكروها » من شعبه . أما الخوف فلا بأس منه بشرط الا يقترن بالكراهية او يتحول اليها . بل ان الخوف من الامير ضرورة في الدولة ، فكما يقول مكيافيلى في الفصل السابع عشر، لولا خوف الجندي من الامير لكثر شغفهم وكثرة فتنهم في السراء والضراء معا ولما أمكن حماية المواطنين من اذاهم . نعم ، لا بأس بتاتا من أن يشتهر الامير بالقسوة او أن يكون مرهوبا .. المهم الا يكون مكروها .

وفي الفصل الثامن عشر يحدثنا مكيافيلى عن صفة الصدق او الاخلاص او الوفاء في « الامير » فيبني أنها لازمة لزوما مطلقا . وفي ذلك يقول :

« كل الناس تعرف أن قيام حياة الامير على الاخلاص والصدق وليس على المكر والختل أمر محمود الى أقصى الحدود ، ومع ذلك فنحن نرى من التجربة في زماننا أن أولئك الامراء الذين لم يراعوا الاخلاص كثيرا وعرفوا كيف يستهونون عقول الناس بالمكر قد أنجزوا انجازات عظيمة ، واستطاعوا في النهاية أن ينتصروا على الامراء الذين أسسوا حياتهم على النزاهة .

« لهذا ينبغي أن تعرف أن هناك طريقتين للقتال ، هما القتال بالقوانين والقتال بالعنف . والأولى أولى بالانسان أما الثانية فهي أولى بالحيوان . ولكن نظرا لأن الأولى ليست كافية في كثير من الأحيان ، فلا مناص من الاستعانة بالثانية . وهذا ما يجعل من اللازم للأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يتصرف كأنسان وكيف يتصرف كحيوان ..

« وبالتالي ، مما دام من اللازم للأمير أن يعرف باتقان كيف يتصرف كحيوان ، فمن الواجب عليه أن يختار من مملكة الحيوان نموذجين هما الشعلب والأسد . فالأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ ، والشعلب لا يستطيع أن يحمي نفسه من الذئاب . فمن اللازم له اذن أن يكون ثعلبا حتى يميز الفخاخ ، وأن يكونأسدا حتى يخيف الذئاب . ومن يعتمدون فقط على قوة السباح لا يفهمون الأشياء ، بل أن الحكم الحكيم لا يستطيع ولا ينبغي له أن يراعي الوفاء بعهوده — اذا كان الوفاء ضد مصلحته وإذا كانت دواعي العهود قد نقضت . فلو ان كل الناس كانوا اختيارا كان هذا المبدأ خطأ ، ولكن بما أنهم أشرار ولا يحفظون عهودهم نحوك فليس هناك ما يلزمك بحفظ عهودك نحوهم . ولن ننقص الامير أبدا المبررات المشروعة لتسويغ هذا الاخلاق بالتعهدات . ففي الامكان أن نسوق أمثلة حديثة لا حصر لها من هذا الاخلاق ، وأن نوضح لكم من المعاهدات الغيت وكم من الوعود نقضت بسبب نقص الامراء في الاخلاص ومن استطاع أن يقوم بدور

التعلب خرج منتصراً . ولكن لابد للمرء من اخفاء هذه الطبيعة وأن يكون استاذًا في الادعاء الكاذب واستاذًا في اخفاء ما يضم . فالناس شديدو السذاجة ويفتلون الشرورات الطارئة أحسن قبول حتى أن المخادع يجد دائمًا من يصدقون خداعه .

» . . . «

« فليس اذن من الضروري للأمير أن يتصرف بكل هذه الصفات المذكورة ، ولكن من الضروري له أن يبدو وكأنه يملكونها . بل انى اجترىء وأقول ان المرء لو انصف بها وعمل بها دائمًا فهى تضره . أما اذا بدا للناس أنه يملكونها فهى نافعة : اي ان يبدو للناس رحيمًا ، أهلا للثقة ، عطوفا ، خاليا من الرذائل ، متدينًا وأن يكون كذلك بالفعل ، بشرط أن يكون عقله مركبا بطريقة خاصة تجعله قادرًا ، اذا ما دعت الضرورة لذلك ، على التغيير الى النقيض وعارضًا بأساليب التغيير . ويجب أن ندرك أن الأمير ، ولاسيما الأمير الجديد ، عاجز عن مراعاة كل هذه الفضائل التي ترى الناس بسببيها اختياراً، ذلك لأنه كثيراً ما يضطر ، لكي يحافظ على مركزه ، الى التصرف بما يجافي الاخلاص ويجافي الخير ويجافي الانسانية ويجافي الدين . ومن أجل ذلك فهو بحاجة الى نفس مستعدة لأن تغير ذاتها بحسب ما تجري به رياح القدر وتحولات الأشياء المسيطرة عليه . وكما قلت آنفا ، الا يبتعد الأمير عن الخير كلما أمكنه ذلك ، ولكن أن يعرف كيف يتحول الى الشر اذا لزم الأمر .

« فليحذر الأمير اذن ، أشد الحذر من أن يتقوه بشيء لا تشيع فيه الصفات الخمس المذكورة فيما سلف ، ولیعن عناية فائقة بأن يبدو لناظريه وكأنه الرحمة مجسدة ، والاخلاص مجسدا ، والنزاھة مجسدة ، والانسانية مجسدة ، والدين مجسدا » .

ليس المهم أن يكون الأمير على هذه الصفات ، ولكن المهم أن يبدو كذلك أمام الناظرين . هذا رأى مكيافيلى . . ولکي يدلل عليه نجده يسوق مثل البابا اسكندر السادس الذي كان أعظم استاذ في الكذب وأعظم فاسق عرفه التاريخ ، ومع ذلك فقد كان يوهم الناس بأنه يبنو الفضيلة كما قال مكيافيلى .

ومن أهم المشاكل التي يواجهها الأمير في بلاطه مشكلة المتملقين الذين تجدهم بغزاره في بلاط الملوك والأمراء . هؤلاء المتملقون هم الوباء الحقيقي في كل امارة في رأى مكيافيلى ، وما أكثر من جلبوا من الكوارث على سادتهم

الأمراء ، ومشكلتهم مشكلة عويصة ولكن لها حلًا بيد الأمير . وهذا ما يقوله مكيافيللي في موضوع المتكلمين في الفصل الثالث والعشرين من كتاب « الأمير » :

« لست أريد أن أغفل موضوعا هاما وخلال يجد الأمراء صعوبة في وقاية أنفسهم منه إذا لم يتصرفوا بالحصافة في حسن الاختيار ، هؤلاء هم المتكلمون الذين يغتصب بهم كل بلاط . فالناس إلى حد كبير مغترون بشئونهم المتعلقة بهم ويخدعون أنفسهم بشأنها بحيث يصعب عليهم وقاية أنفسهم من هذا الوباء ، ومن حاول منهم وقاية نفسه منه جازف بامتهان نفسه . فلا سبيل إلى انتقاء شر المتكلمين إلا إذا أدرك الناس أنهم لا يغضبونك إذا هم صارحوك بالحقيقة . غير أنه إذا جاز لكل إنسان أن يصارحك بالحقيقة ضاعت هيبيتك . ومن هنا فقد وجّب على الأمير الحصيف أن يلجأ إلى طريق ثالث فيختار لدولته حكماء الرجال وهؤلاء وحدتهم يعطى حرية التقدير في مسارحته بالحقائق ، ولكن بحيث لا يتجاوزون الموضوعات التي يسألهم عنها ولا يتناولون أي موضوع آخر . ولكن يجب عليه أن يسائلهم في كل شيء وأن يستمع إلى أقوالهم ثم يقرر بنفسه بطريقته الخاصة . يجب عليه في تصرفه مع هؤلاء المستشارين أن يجعل كلاما منهم على حدة يعرف أنه كلما ازدادت صراحته ازداد قربه من الأمير ، وفيما خلا هؤلاء لا ينبغي للأمير أن يسمع لأحد ، بل يجب عليه أن يلتزم بما اتخذ من قرارات ينفذها في ثبات . فمن خالف هذه القاعدة أما أن يسقط بسبب المتكلمين أو تكثر ذنباته بين مختلف الآراء ، وهو ما يحيط من قدره أمام الناس » .

هذه بعض القواعد الهامة في الحكم وفي علم السياسة وفي تشريع السلطة كما وردت في كتاب « الأمير » لـ مكيافيللي ، وببقى سؤال واحد اعتقاد أن الإجابة عليه تلقى ضوءا كثيّرا على فكر مكيافيللي وعلى روح عصره ، عصر النهضة الأوروبية ، وتفسر لنا لماذا يحتل فكر مكيافيللي السياسي هذا الموقع المركزي من الموقف الفلسفى الحديث الذى تميز به الفكر الأوروبي في عصر الرنّيسانس .

هذا السؤال هو : لماذا كتب مكيافيللي هذا الكتاب الفظيع الحالى من الأحلام وهو يخطط لسياسة المجتمع التى لم تخل من أحلام الفلسفه فى يوم من الأيام ، منذ أخناتون حتى أنبياء اليهود ، ومن أنبياء اليهود حتى أفلاطون ، ومن أفلاطون حتى كارل ماركس ، عبر القديس أوغسطينوس والقديس توماس مور وكمبانيلا وفرانسيس بيكون وفلاسفة التنوير وفلاسفة الثورة الفرنسية .. لماذا ؟

وهو يجيب بنفسه على هذا السؤال بذلك الحلم الوحيد العظيم الذي استسلم له في كل كتابه في الفصل السادس والعشرين من كتاب «الأمير» ، وهو حلم تحرير وطنه ، ايطاليا ، وتوحيد بقية «أمير ، ملك ، قائد ، رئيس ، الخ» .. جديد قوى يغتصب السلطة في البلاد بقوة الأسد ودهاء الثعلب ، ويطرد الأعداء الأجانب من ايطاليا التي كانت ترسف في أغلال الاحتلال الجبني الفرنسي والاسباني والالمانى ، بسبب تفككها الى اقطاعيات مستقلة أمراؤها في شتاق مستمر ويعتمدون على حماية الدول الأجنبية وعلى الجنود المرتزقة محترف الجنديه من كل بلد الا ايطاليا .

وقد وصف مكيافيللى حال ايطاليا في عصره انها « بلا رأس ولا نظام مدحورة منهوبة ممزقة مخرية » حالها كحال فارس قبل قورش وأثنينا قبل ثيسبيوس وبنى اسرائيل قبل موسى ، وهو يحلم بظهور قورش او ثيسبيوس او موسى في ايطاليا ليجمع كلمة أبنائها ويفرودهم الى الوحدة والحرية :

« وقد لاح حتى الآن بصيص من الأمل في أمير من الأمراء أمكن معه أن نحسب أنه مبعوث الله لخلاصها ، ومع ذلك فقد تبين أن القدر قد رماه بسهمه وهو في أوج جهاده (يقصد سزار بورجيا) . فايطاليا الآن ، وكأنها فاقدة الحياة ، تنتظر من يطب جراحها ، ويضع حدا للنهاز الذي يجري في لومبارديا ، وللجزية التي تدفعها المملكة وتدفعها توسكانيا ، ويرؤوها من عللها التي تنخر الأن في جسدها منذ زمن طويل . ونحن نرى كيف أنها تتصلى إلى الله أن يبعث إليها مخلصا ينقذها من هذه القسوة البربرية ومن هذه الفطرسة ، ونراها على استعداد تام ورضا كامل أن تمضي تحت راية واحدة لو وجد فيها من يحمل العلم » .

ان كل شيء في ايطاليا ينتظر ظهور هذا المخلص : « فالبحر قد انشق للعبور ، والغمامة فوق رأسك تقودك في الطريق ، والصخرة قد تجرت منها المياه ، والسماء قد امطرت هنا الماء والسلوى ، وكل شيء قد اتحد لمجده أيها الأمير .. وما عليك الا أن تفعل الباقى . فالله لا يحب أن يفعل كل شيء ، حتى لا يجردنا من حرية الإرادة ومن بعض ذلك المجد الذي هو حق لنا » .

وهكذا علق مكيافيللى آماله على أمير فلورنسا ، لورنزو دي مدি�تشى الثاني وأله ، لتحرير ايطاليا وتوحيدها بعد أن ضاعت آماله بموت سزار بورجيا .

والوسيلة ؟ الوسيلة هي الحرب ، فهى تتحقق العدالة العظمى : « فالحرب عادلة عند من يحتاجون إليها ، والسلاح مقدس حين تقىد كل أمل إلا في السلاح ». الله يبارك حروب التحرير وهى فى رعاية الله .

والسبيل ؟ السبيل هو بناء جيش وطني من أبناء البلاد بدلاً من الاعتماد على الجنود المرتزقة ومحترف القتال من الاجانب : « فإذا كان ذلك الصيد يزمعون أذن ، الاحتذاء بأولئك الرجال الأفذاذ الذين حرروا أوطانهم ، فمن اللازم قبل أي شيء آخر أن توفر لها قواتها المسلحة الخاصة بها ، بوصفها الأساس الوظيفي لكل عمل حربى ، فلن يجد المرء من يتباوزها في الأخلاص والوفاء والكتفاء » .

وليكن قوام هذا الجيش الوطنى من الإيطاليين : « انظر اليهم في مبارزاتهم وفي معاركهم الجماعية ، تجد الإيطاليين متقوين على غيرهم في القوة وفي المهارة وفي الذكاء . فإذا نظرنا إليهم في الجيوش نجدهم لا يظهرون هذه الصفات ، ففي الجيوش ينبغى كل ضعف في الجنود من ضعف الرعوس . العارفون بفن الحرب لا يجدون من يطيعهم ، وكل من هناك يخيل إليه أنه خبير بشئون القتال . فحتى يومنا هذا لم يظهر فيما رأينا رجل عرف كيف يرتفع بمكانته عن طريق القوة والاستفادة من الظروف بحيث يخضع له كل الآخرين »

ان أبناء ايطاليا كما يقول مكيافيللى جنود شجعان أκفاء ولكن تنقصهم القيادة الفذة التي يمكن أن تقودهم الى النصر والمجد في معركة الحرية والكرامة . وهذا هو الأمير المنتظر .

وبعد ؟ أليست هذه نظرية الدوتشى والفوهرر في منابعها الأولى .

• • •



## «أحاديث عن ليفيوس»

### في النهضة والانحطاط

□ كتاب آخر لمكيافيللي لا يقل أهمية عن كتاب «الامير» ، وان لم يشتهر شهرة كتاب «الامير» ، هو «أحاديث عن ليفيوس» ، وهو عبارة عن تعليقات حول السنوات العشر الاولى في المدونة التاريخية التي وضعها المؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس . وأهمية هذا الكتاب في انه يشرح لنا تصور مكيافيللي لنهاية الامم وانحطاطها ، كما يشرح لنا دور الدين ودور المؤسسة الدينية ودور القواد ودور العلوم والفنون والآداب في رقى المجتمع وانهياره . وهو في الفصل العاشر من الكتاب الأول يبوب طبقات المواطنين فيقول :

« من بين أجر الناس بالثناء نجد أن الناس تختص بالحمد مؤسسى الأديان قبل سواهم ، ويليهم مؤسسو الجمهوريات والممالك ، ويليهم في الشهرة قواد الجيوش الذين وسعوا أملاكهم أو رقعة وطنهم ، ويلى هؤلاء الأدباء . ولأن هؤلاء الناس من أصناف مختلفة ، فكل منهم يشتهر بحسب مرتبته . أما بقية الناس ، وهم الأحاداد بلا عدد ، فلكل منهم نصيب من الثناء بقدر فضله في فنه ومهنته . وعلى العكس من ذلك نجد أن العار والكراهية هما جزاء محظى الأديان ومحظى الممالك والجمهوريات وأعداء الفضائل وأعداء الآداب وأعداء كل فن آخر ينفع الجنس البشري ويعلى من شرفه ، ومثل هؤلاء أعداء الدين والطغاة والجهال والتافهون والكسيالى والجبناء . ولا أحد من الناس سفيها كان او حكيم ، صالحًا كان او طالحًا ، لا يمدح من يستحقون المدح ويذم من يستحقون الذم ، لو ترك له الخيار في هذا وذاك . ومع ذلك ، فكل الناس تقريبا يخدعهم الخير الزائف والمجد الزائف وينحازون باختيارهم او بجهلهم لصف من يستحقون القدر لا المدح ، ورغم أن الناس قادرون على تأسيس الجمهوريات والممالك فيعلو بذلك شرفهم ، الا انهم ينحازون الى حكومات الطغيان .

« فلا يجب أن يخدع أحد بمجد يوليوس قيصر ، ولا سيما حينما نرى المؤرخين يمتدحونه ، فمن يمتدحونه إنما ارتشوا من سعد طالعه وارتبعوا من طول أمد الإمبراطورية التي اقتربن تاريخها باسمه فلم تسمح لأحد من الأدباء أن يتكلم عنه بحرية . أما من أراد أن يعرف ماذا قال الكتاب الاحرار في يوليوس قيصر فليقرأ ما قالوه عن كاتيلينا . فقيصر أحق باللوم بمثل ما أن فاعل الشر أحق باللوم من دبر لفعل الشر . ولينظر أيضا إلى ما يسبغونه من تكريم عظيم على اسم بروتوس . فيما أنهم عاجزون عن هجاء قيصر بسبب سطوطه ، نجدهم يكرمون غريمه » .

كل هذا الكلام يسوقه مكيافيللى للتدليل على أن احترام الجمهورية والعمل على سعادة مواطنها بالعدل والحرية والأمان هو سكة السلامة ، بينما اقامة الطغيان ونهب العباد وأشاعة الجاسوسية وارهاب الناس بالنفى والمصادرات وسفك الدماء هو سكة الندامة بالنسبة لاي حاكم .

وفي الفصل الثاني عشر من الكتاب الأول من « أحاديث عن ليفيوس » يضع لنا مكيافيللى المبادئ التي تحفظ الدولة من الفساد .

وأول مبدأ في نظره هو المحافظة على شعائر الدين . ويبدو من كلامه أنه لا يقصد دينا معينا بالذات ، وإنما الدين بصفة عامة . كذلك لا يبدو من كلامه أنه يتحدث عن الشعائر ك مجرد مجموعة من الطقوس ، وإنما يقصد البنية الأساسية في كل دين . فهو يقول :

« الأمراء والحكومات الجمهورية الذين يريدون أن يحافظوا على أنفسهم من الفساد ينبغي عليهم قبل كل شيء آخر أن يحافظوا على شعائر دينهم مبرأة من الفساد ، وأن يحترموها على الدوام ، فليست هناك دلالة على خراب دولة أوضح من الاستهانة بقدرات العبادات الإلهية . ومن اليسير ادراك ذلك اذا عرف المرء على اية قواعد يقوم الدين الذي يولد به هذا الانسان . فكل دين تقوم اركانه على بنية أساسية هامة خاصة به . فحياة الديانة الوثنية كانت مؤسسة على اشارات العرافة ، وعلى جماعة المتنبئين وقارئى الغيب ، فكل شعائرهم واضاحيهم وطقوسهم الأخرى كانت تتوقف على هذه الاشارات ، فقد كان من السهل عليهم أن يعتقدوا أن الله القادر على التنبؤ بالخير أو الشر في المستقبل قادر ايضا على تحقيقه . ومن هنا كانت القرابين والصلوات وكل طقس أقيم في اجلال الآلهة . كان هذا أساس عرافة ديلوس ، وكهانة معبد جوبيترا آمون ، وغيرهما من أماكن الوحي الشهيرة التي ملأت العالم بالاعجاب والتمسك بالدين ، فلما بدأ هذه العرائمات تتبنا بما يوافق رغبات الأقوياء ، واكتشف الناس هذا

الزيف ، فقد الناس ايمانهم وظهر استعدادهم لنقض كل العادات الصالحة . فواجـب من يـحكمـونـ الجـمهـوريـةـ اوـ المـلـكـةـ اـذـ هوـ يـ حـفـظـواـ عـلـىـ اـسـسـ الـدـيـنـ الـذـيـ يـتـبعـونـهـ .ـ فـاـنـ وـفـقـواـ عـلـىـ ذـلـكـ فـيـ اـنـفـسـهـمـ اـمـكـنـهـمـ فـيـ يـسـرـ اـنـ يـحـافـظـواـ عـلـىـ التـدـيـنـ فـيـ بـلـادـهـمـ ،ـ وـاـنـ يـحـفـظـواـ بـلـادـهـمـ فـيـ خـيـرـ وـاتـحـادـ .ـ وـيـنـبغـيـ عـلـيـهـمـ اـنـ يـهـتـمـواـ بـكـلـ الـاـحـدـاـتـ الـتـىـ يـيـدـوـ اـنـهـ تـقـوـىـ الـدـيـنـ وـاـنـ يـضـخـمـواـ مـنـ شـائـنـهـ ،ـ وـلـوـ كـانـوـاـ يـعـقـدـوـنـ اـنـهـ كـاذـبـةـ .ـ وـكـلـماـ اـزـدـادـ حـرـصـهـمـ وـاـزـدـادـ فـهـمـهـمـ لـلـعـلـومـ الطـبـيـعـيـةـ ،ـ اـزـدـادـ التـزـامـهـمـ بـالـاهـتمـامـ بـالـاـحـدـاـتـ الـتـىـ تـدـعـمـ الـدـيـنـ .ـ وـنـظـرـاـ لـاـنـ هـذـاـ كـانـ النـهـجـ الـذـيـ سـلـكـهـ الـحـكـماءـ ،ـ فـقـدـ نـشـأـ الـاعـقـادـ فـيـ الـعـجـزـاتـ الـتـىـ تـشـهـرـ بـهـاـ الـاـدـيـانـ ،ـ لـاـنـ اـهـلـ الـفـطـنـ يـضـخـمـوـنـ مـنـ شـائـنـهـ اـيـاـ كـانـ مـصـدـرـهـاـ .ـ

وهـكـذاـ تـضـفـيـ حـجـتـهـمـ عـلـىـ الـعـجـزـاتـ مـصـدـاقـيـةـ عـنـدـ كـلـ النـاسـ »ـ .ـ

هـنـاـ يـجـبـ اـنـ نـكـونـ فـيـ مـنـتـهـيـ الـحـذـرـ فـيـ فـهـمـ مـكـيـافـيلـىـ حـيـنـ يـتـكـلمـ عـنـ الـدـيـنـ ..ـ نـظـاـهـرـ كـلـامـهـ فـيـ بـادـئـ الـاـمـ يـوـحـىـ بـأـنـهـ رـجـلـ مـؤـمـنـ وـمـتـدـيـنـ بـالـمـعـنـىـ الـمـلـوـفـ .ـ وـهـذـاـ التـأـكـيدـ الشـدـيدـ عـلـىـ دـورـ الـدـيـنـ فـيـ الـمـجـتـمـعـ ،ـ وـعـلـىـ اـنـ خـرـابـ الـاـمـ نـتـيـجـةـ الـاستـهـانـةـ بـالـدـيـنـ اوـ فـسـادـ الـدـيـنـ يـوـحـىـ اـيـضاـ بـأـنـهـ رـجـلـ مـؤـمـنـ شـدـيدـ الـدـيـنـ .ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـمـنـ يـتـأـمـلـ كـلـامـ مـكـيـافـيلـىـ يـجـدـ اـنـهـ يـقـولـ بـوـضـوحـ اـنـ قـضـيـةـ الـدـيـنـ لـيـسـ فـيـ صـحـتـهـ اوـ زـيـفـهـ وـلـكـنـ فـيـ وـجـوبـ الـتـمـسـكـ بـهـ نـظـراـ لـوـظـيـفـتـهـ الـهـامـةـ فـيـ ضـبـطـ الـجـمـعـ .ـ وـلـيـسـ مـنـ الـضـرـورـىـ اـنـ تـكـوـنـ الـعـجـزـاتـ اوـ الـكـرـامـاتـ مـثـلاـ صـحـيـحةـ ،ـ وـاـنـمـاـ المـهـمـ اـنـ يـعـالـمـهـاـ الـحـكـامـ عـلـىـ اـنـهـاـ صـحـيـحةـ ،ـ بـلـ وـاـنـ يـقـوـواـ اـعـتـقـادـ النـاسـ فـيـهـاـ ،ـ وـاـنـ يـدـعـمـوـاـ فـيـهـمـ الـاـيمـانـ بـالـغـيـيـرـاتـ مـاـ اـسـتـطـاعـوـاـ عـلـىـ ذـلـكـ سـبـبـاـلـاـ بـغـضـ النـظرـ عـنـ صـدقـهـاـ اوـ كـذـبـهـاـ .ـ فـدـيـنـ زـائـفـ خـيـرـ مـنـ لـاـ دـيـنـ عـلـىـ الـاطـلاقـ ،ـ كـمـاـ يـقـولـ بـعـضـ الـمـفـكـرـيـنـ .ـ

هـذـهـ الـنـظـرـةـ نـجـدـهـاـ فـيـهاـ بـعـدـ عـنـدـ بـعـضـ دـعـاءـ حـقـ الـمـلـوكـ الـالـهـيـ مـنـ الـعـقـلـانـيـنـ مـثـلـ تـوـمـاـسـ هـوـبـيـزـ الـذـيـ كـانـ يـنـظـرـ اـلـىـ الـكـنـيـسـةـ نـظـرـهـ اـلـىـ مـانـعـةـ صـوـاعـقـ وـظـيـفـتـهـ تـفـريـغـ شـحـنـاتـ الغـضـبـ وـالـيـأسـ وـالـبـؤـسـ وـالـاحـبـاطـ ،ـ الخـ ..ـ فـيـ الـجـمـعـ ،ـ اـىـ اـنـهـ باـخـتـصـارـ مـانـعـةـ ثـورـاتـ وـضـمـانـ للـسـلـامـ الـاجـتـمـاعـيـ ،ـ وـهـىـ تـقـيمـ دـاخـلـ كـلـ مـوـاـطـنـ شـرـطـيـاـ غـيرـ مـرـئـىـ يـحـفـظـ الـامـنـ الـعـامـ دونـ قـهـرـ مـنـ الـخـارـجـ .ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـمـكـيـافـيلـىـ يـحـذـرـ رـئـيـسـ الـدـوـلـةـ فـيـ كـتـابـ «ـ الـامـيرـ »ـ مـنـ اـسـتـفـحـالـ قـوـةـ الـكـنـيـسـةـ وـالـسـلـطـةـ الـرـوـحـيـةـ بـعـامـةـ بـمـاـ يـجـعـلـهـاـ قـادـرـةـ عـلـىـ تـحدـىـ السـلـطـةـ الزـمـنـيـةـ «ـ الـدـينـيـوـيـةـ »ـ ،ـ وـهـوـ يـقـولـ اـنـ هـذـاـ مـجـلـيـةـ لـخـرـابـ الـاـمـ .ـ

مـقـىـ تـنـحـرـفـ الـاـمـ اـذـنـ عـنـ الـدـيـنـ ؟ـ حـيـنـ يـنـحـرـفـ عـنـهـ رـجـالـ الـدـيـنـ .ـ وـيـتـحـولـوـنـ اـلـىـ مـجـرـدـ اـدـوـاتـ تـسـوـغـ لـلـنـاسـ مـاـ يـفـعـلـهـ الـاـقـوـيـاءـ وـتـبـرـ رـغـبـاتـهـمـ

بالباطل طبعاً . والمهم اذن هو المحافظة على « أسس » الدين الذي تدين به الجماعة ، أيا كان هذا الدين ، والعبث بهذه الأسس من جانب الحكم ينتهي بالعبث بها من جانب الحكم . وغير دليل على هذا هو ما نزل بالعالم المسيحي من تفكك في أواخر العصور الوسطى :

« فلو أن حكام العالم المسيحي حافظوا على دينهم في صورته التي وضعها مؤسسو هذا الدين ل كانت الدول والجمهوريات المسيحية أشد اتحاداً وأوفر رخاء مما هي الآن ب ERAH . وليس هناك معيار لأنهيار المسيحية أصدق من مشاهدتنا أن أقرب الناس للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهي رأس الديانة ، هم أضعف الناس ديناً . وكل من يتأمل أسسها ويرى مدى اختلاف ممارساتها في الوقت الحاضر عما كانت عليه ، يستطيع أن يجزم دون أدنى شك بأن الإطاحة بها وشيكة أو أن نزول القصاص بها وشيك » .

ونحن حين نتحدث عن عصر النهضة الأوروبي ونقول إن من أهم مقوماته تلك الثورة على الكهنوت Anticlericalism والبابوية ، لن نجد أوضاع من تحليل مكيافيلي لفساد القيادة الروحية للعالم المسيحي ممثلة في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في نهاية العصور الوسطى . الواقع أن هذا النقد للكنيسة جاءها من كل اتجاه : من معسكر المؤمنين الصادقين ومن معسكر المنشقين المحتججين ومن معسكر المؤمنين بالدين ، لا في ذاته ، ولكن من حيث هو ضرورة أخلاقية للعامة ومؤسسة اجتماعية .. وهذا يقترب مكيافيلي من منطق « التكفير » ، أى تكفير المجتمع :

« ولأن الكثريين يرون أن سعادة مدن إيطاليا آتية من الكنيسة الرومانية ، فانى أحب أن أسوق ما أراه من منطق في الاتجاه الآخر : سأذكر ججتين غالية في الصلابة اتصور انه لا سبيل الى دحضهما . الحجة الأولى هي أن هذه البلاد فقدت كل تقوى وكل دين بسبب المثل السيء الذى يقدمه البلاط البابوى . وقد نجمت عن ذلك اضطرابات وفتن عديدة ، ذلك لأن الناس تسلم بأن كل شيء يقوم على الخير حيثما توفر الدين ، وحين يكون الدين ناقصاً انتظر الناس العكس . فنحن — الإيطاليين — اذن مدینون في المقام الأول للكنيسة وللكهنة بأننا أصبحنا مجرد مدينين وأشراراً .

« ولكننا مدینون لهما أيضاً بما هو أكثر من ذلك ، وهو السبب الثاني في خرابنا . وهو أن الكنيسة قد جعلت هذه البلاد مقسمة ولا تزال تجعلها كذلك . ولا شك أنه ما من بلد يكون متحداً أو ينعم بالرخاء اذا لم يكن كله خاضعاً لحكم حكومة جمهورية واحدة أو أمير واحد .. كما حدث

لفرنسا ولاسبانيا . والعلة في أن إيطاليا لم تبلغ هذا الوضع فلا هي تحت حكومة جمهورية واحدة تحكمها ولا هي تحت أمير واحد يحكمها ، العلة في ذلك هي الكنيسة لا سواها . ذلك لأن الكنيسة رغم أنها مترکزة هنا ورغم أنها تباشر السلطة الزمنية « الدينوية » ، لم تكن تتمتع بالقوة أو الحيوية الكافية بحيث تستولى على السلطة كاملة في إيطاليا وتتصبّع بنفسها حاكمة البلاد ، ومع ذلك فهي من الناحية الأخرى لم تكن ضعيفة إلى الحد الذي يجعلها تستعين ب الرجل قوي يحميها من كل من تستغل قوته في إيطاليا ، خشية أن تنفرد أملكها الدينوية . وقد حدث ذلك في الماضي مرارا ، حين أعاد شارلمان الكنيسة على طرد اللومبارديين الذين كانوا شبّه ملوك على إيطاليا . وفي زماننا جررت الكنيسة أهل البندقية من قوتهم بمعونة فرنسا ، ومن بعد ذلك ظهرت الفرسان بمعونة السويسريين » .

بعبرة أخرى ، المهم عند مكيافيللي هو وحدة الدولة ووحدة الأمة ، واستثناء السلطة الروحية كممثل لأن يضعف قوة الدولة .

وهنا نصل إلى جوهر الرئيسيات وهو الدعوة إلى الهيومانيزم أو المذهب الإنساني الذي تضمن الثورة على المسيحية ذاتها كدين وليس على مجرد البابوية والكهنوّت . ففي الفصل الثاني من الكتاب الثاني من « أحاديث عن ليفيوس » يقول لنا مكيافيللي إن القدماء كانوا أكثر حباً للحرية من معاصريه ، ويسوق الأدلة التاريخية لاثبات رأيه ثم يفسّر ذلك بقوله :

« وحين اتدبر كيف حدث أنه في تلك الأيام الخالية ، كانت الشعوب أكثر حباً للحرية منها في هذه الأيام ، فانى أعتقد أن سبب ذلك هو عين السبب الذي يجعل الناس اليوم أقل حيوية ، وهو في اعتقادى الاختلاف بين تعليمنا وتعليم القدماء ، وهو نتيجة لفرق بين ديانتنا وديانة القدماء . فدينتنا قد كشفت لنا عن الحق وهدانا إلى طريق الصواب ، وتأسيسنا على ذلك جعلنا أقل تقديرًا لشرف الدنيا ، بينما نجد أن الوثنين ، بفضل تقديرهم العظيم للدنيا واعطائهم فيها خيراً ما عندهم ، كانوا أكثر حيوية في اعمالهم . وهذا يمكن استخلاصه من العديد من عاداتهم ، بدءاً بخامة قرابينهم اذا هى قورفت بقربابيننا المتواضعة التي تتصف ببعض الجلال ، ولكن دقتها أشد من جلالها ، ولا يدخلها عمل وحشى عنيف . أما قرابين القدماء فلم يكن ينقصها جلال الشعائر ولا فخامة الطقوس ، وإنما كان يضاف اليها عملية الأضحى الطافحة بالدم والوحشية ، فقد كانوا يذبحون عدداً عظيماً من الحيوانات في هذه الأضحى . وهذا المشهد الرهيب جعل الناس في

مثل رهبته . وبالاضافة الى هذا ، فان ديانة القدماء لم تسبغ شرف الالوهة على أحد من البشر الا من جلهم مجد الدنيا ، كقادة الجيوش وأمراء الدول . أما ديننا فقد مجد بسطاء الناس واصحاب العقول المتأملة من دون رجال العمل . وديننا اذن قد عظم التواضع والزهد واحترار الحياة الانسانية ، أما دين القدماء فكان يمجد عظمة العقل وقوة البدن وكان في كل ما عدا ذلك خليقاً بتوجيه حيوية الناس . وحين يطلب منا ديننا أن نتصف بالقدرة الداخلية على الاحتمال فهو يؤثر أن تكون هذه القدرة على احتمال العذاب وليس في القيام بعمل شيء ايجابي .

« ويبدو أن هذا المنهج في الحياة اذن قد أضعف العالم وسلمه للأشرار الذين تمكروا من السيطرة عليه آمنين ، ذلك لأن أكثر الناس يختارون الصبر على ما يحيق بهم من أذى وليس الانتقام له لكي يدخلوا الجنة . ومع ذلك فرغم أن العالم قد غدا مخنثاً والسماء لا تحارب دفاعاً عن الضعفاء ، فقد وصلنا إلى هذه الحالة نتيجة لتفاهة الرجال الذين فسروا ديننا وفتقا لروح الخمول وليس وفقاً لروح القوة . فلو أنهم فكروا في أن ديننا يسمح لنا بالدفاع عن الوطن ويتوسيع رقعته ، لقدروا أنه يحضنا على حب الوطن وأجلاله وأن نعد أنفسنا للدفاع عنه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً » .

هذا الكلام الهام فيه ليس ينبعى أن يزيله الباحثون :

في بعضه يدل على أن مكيافيللى كان يقف موقف الناقد من الدين المسيحي في صميمه وينعته بأنه دين الضعفاء ويحمل المسيحية مسئولية انهيار الرومان أمام قبائل البرابرة الذين كانوا لا يزالون يعيشون في عنفوان البداوة الوثنية الأولى ، بل ويحمل المسيحية مسئولية الرخاوة التي أصابت الأوروبيين نحو ألف عام من العصور الوسطى حتى عصره فجعلتهم يرضخون لحكم الطغاة والأشرار والظلمة انتظاراً لما وعد به الوداع في الجنة .

وبعضه الآخر يدل على أن مكيافيللى لا يقف موقف الناقد من الأخلاق المسيحية نفسها ، وإنما يقف موقف الناقد من « المفسرين » والذين شرحوا المسيحية للعالم المسيحي على أنها دين الضعف والزهد وانكار الحياة . وما هؤلاء المفسرون الا القديسون والبابوات والكهنة وأباء الكنيسة بوجه عام .

وفي تقديرى أن مكيافيللى كان يقصد الأمرين معاً ، على غير ما كان يذهب اليه دعاة « الاصلاح الدينى » الذين سددوا سهامهم للكنيسة الكاثوليكية وحدها ونددوا بتعاليمها ومزقوا شرف رجالاتها وأعادوا فتح

باب الاجتهاد في اللاهوت المسيحي وفي الأخلاق المسيحية جمعاً بمختلف المذاهب الاحتجاجية والبروتستانتية التي تحاول التوفيق بين الدين والدنيا مثل لوثر « ١٤٨٣ - ١٥٤٦ » ، وكالفن « ١٥٠٩ - ١٥٦٤ » ، وزوينجل « ١٤٨٤ - ١٥٣١ » ، وسرفيتوس « ١٥١١ - ١٥٥٣ » ، وسافنارولا « ١٤٥٢ - ١٤٩٨ » ، والسير توماس مور « ١٤٧٨ - ١٥٣٥ » ، وكلهم كانوا معاصرين لمكيافيلي .

فالروح الجديدة التي اجتاحت أوروبا في عصر النهضة الأوروبية كانت روح الثورة على الروحانيات المسيحية .. أما في ذاتها وأما في تفسيراتها الكاثوليكية . وكانت قضية القضايا هي محاولة التوفيق بين الدين والدنيا أو على الأصح بين الدنيا والآخرة . ولما كان الدين قد التهم الدنيا والآخرة قد التهمت الأولى نحو الف عام من العصور الوسطى ، فقد جاء هذا الصلح آنا بتقليص سلطان الدين على الدنيا بحيث يصبح رياضة شخصية بحتة ، وآنا بالاجتهاد في تفسير الدين بما يجعله مسايراً للدنيا أو على الأقل غير متعارض معها . وحيث تعذر إقامة هذا الصلح كثرت الزندقة وكثرة الاتهام بالزنادقة .

وكان أول مظهر لهذا الصراع بين الدين والدنيا هو ظهور القوميات الحديثة في أوروبا كما شرح لنا مكيافيلي ، فقد أصبح الخيار المطروح أمام الأوروبي العادي هو خيار بين الأخوة في الدين كما كانت تبشر الكنيسة الكاثوليكية أو الأخوة في الوطن كما كان يبشر أكثر مفكري الرئيسانس .

غير أن الفصل بين السياسة والأخلاق ، هذا الفصل الذي تجلّى في أكثر ما كتب مكيافيلي ، إنما كان فصلاً ظاهرياً فقط ، فقد حل محل نظرية حقوق الله وواجبات الإنسان في الدنيا ، وهي جوهر الأخلاق المسيحية ، نظرية أخرى تناهى بحقوق الإنسان في الدنيا . مما كلام مكيافيلي عن « مجد الإنسان » و « شرف الإنسان » و « كرامة الإنسان » وحرية الشعوب والعدالة الاجتماعية وحراسة الحرية والعدالة والكرامة والأمن والحقوق بالقانون وبالقوة المسلحة إذا لزم الأمر ، إلا اللبنات الأولى في الأخلاقيات جديدة هي الأخلاقيات الاجتماعية التي حل محل الأخلاقيات الدينية ، كالاحسان والتقوى ومخافة الله والزهد في نعيم الدنيا طلباً لنعيم الآخرة ، الخ ...

في سبيل بناء الدولة القومية وتحرير الشعوب من الحكم الأجنبي ومن الطفاة في الداخل وتوحيد أبناء الأمة الواحدة حتى تسوسهم حكومة

وَاحِدَةٌ أَوْ أَمْيَرٌ وَاحِدٌ ، بِرْ رَمْكِيَا فِيلِي سُفَكُ الدَّمَاءِ وَالْغَدَرِ وَالْكَذْبِ وَالْخَدَاعِ وَتَقْلِيمُ أَظْافَرِ السُّلْطَةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَوُضُعَ لِلنَّاسِ كِتَابًا مَعْتَمِدًا فِي الْوَاقِعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ هُوَ كِتَابُ « الْأَمْيَرُ » .. وَلَا أَظْفَهُ كَانَ يَقْصِدُ أَنْ يَمْتَدَ تَطْبِيقُ تَعَالِيمِهِ الْلَّا-إِلَاهِيَّةِ إِلَى الْمُعَامَلَاتِ الْيَوْمِيَّةِ بَيْنَ الْأَنْفَارِ .. وَمَعَ ذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَذْكُرَ لَهُ أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الْقَوْمِيَّةِ وَمِنَ الْوَطَنِيَّةِ يَنْبُوْعَ الْأَخْلَاقِ الْجَدِيدَةِ ..

● ● ●

# لورنزو دي ميديتشي

## LORENZO DE MEDICI

١٤٩٢ - ١٤٤٩

لعل أشهر أسرتين في تاريخ إيطاليا كله منذ قيام روما العظام هما أسرة ميديتشي وأسرة بورجيا . وقد تعاصرت هاتان الأسرتان في حقبة واحدة نحو عام ١٥٠٠ : آل ميديتشي في فلورنسا ، وكانوا يشتغلون بالمال والفن والسياسة ، وآل بورجيا في روما ، وكانوا يشتغلون بالدين وال الحرب والدسائس .

وكان أشهر آل ميديتشي هو لورنزو دي ميديتشي الشهير « بلورنزو الرائع » أو « لورنزو الباهر » أو « لورنزو الماجد » ( ١٤٤٩ - ١٤٩٢ ) ، وكان أشهر آل بورجيا هو سيفار بورجيا الأمير الدساس السفاح ( ١٤٧٥ - ١٥٠٧ ) ومعه أبوه رودريجو بورجيا ( ١٤٣١ - ١٥٠٣ ) ( البابا اسكندر السادس ) ، ومعه أيضاً أخيه بياتريس بورجيا ( ١٤٨٠ - ١٥١٩ ) التي جرت في ذكرها حكايات تشبه الأساطير .

أما أسرة ميديتشي ، أو مدسيس كما يسميه الفرنسيون ، فقد أجبت غير لورنزو عاهل فلورنسا اثنين من أشهر ملوك فرنسا هما :

كاترين دي مدسيس ( ١٥١٩ - ١٥٨٩ ) ، بنت لورنزو الثاني عاهل فلورنسا وزوجة هنري الثاني ملك فرنسا وأم ثلاثة من ملوك فرنسا هم : فرنسو الثاني وشارل التاسع وهنري الرابع ، وقد كانت بعد وفاة زوجها وصية على عرش فرنسا أيام شارل التاسع ، وهي التي دبرت مذبحة سان بارثولوميو التي هلك فيها كثير من البروتستانت .

ثم ماري دي مدسيس ( ١٥٧٣ - ١٦٤٢ ) ملكة فرنسا بزواجهما من هنري الرابع ( ١٥٥٣ - ١٦١٠ ) ، ثم أصبحت بعد وفاة زوجها وصية على عرش فرنسا أيام حكم ابنها لويس الثالث عشر . وهي التي عينت الكاردينال ريشليو ، رجل الدولة الخطير ، رئيساً للوزراء ثم تصارعت معه وماتت في المنفى .

وتاريخ أسرة مدیتشی في ایطالیا هو تاريخ جمهورية التجار في فلورنسا في الانتقال من العصور الوسطى الى عصر النهضة وفي الانتقال من النظام الاقطاعي وحكم الاستقراطية الى النظام الراسمالی وحكم البورجوازیة ، وقد استفرق هذا الانتقال أكثر من قرنين ، منذ نحو ۱۳۰۰ حتى ما بعد ۱۵۰۰ قرنان تكونت فيما بينها أسرة مدیتشی وانتقلت بالمال والسياسة حتى آلت اليها مقاليد الحكم في هذه الدولة الايطالية .

نليس من سبیل اذن الى فهم الانتقال من العصور الوسطى الى الرئیسانیس الا بدراسة ما كان يجری من تغيرات داخل المدن الكبرى خلال هذین القرنین وما بعدهما ، وحلول البورجوازیة محل الاستقراطیة في الحكم حولاً تدريجیاً او حولاً عنیفاً تصاحبه الثورات . كذلك ليس من سبیل الى فهم ما يمثله لورنزو دی مدیتشی الا بدراسة تاريخ أسرة مدیتشی وارتفاعها وانهیارها عبر قرنین ، ولم وكيف كان ذلك الارتفاع وذلك الانهیار؟،

فلنلقي إن تاريخ فلورنسا هو تاريخ النظام المصری ونشأة البنك فيها . ولنلقي ان تاريخ النظام المصری ونشأة البنك بدءاً مع بداية أول هجمة للاستعمار الأوروبي في العصر الحديث ، الا وهی الحروب الصليبية في ثمانی حملات (۱۲۷۰ - ۱۳۹۶) . وما ينطبق على فلورنسا ينطبق أيضاً على البندقیة ومیلانو وجنوا ونابولی وغيرها من مدن ایطالیا الكبرى التي تحولت الى مراكز ضخمة للتجارة والصیرفة نتيجة للحروب الصليبية .

كانت ایطالیا بسبیل طول شواطئها وكثرة موانيها وبسبیل موقعها الممتاز في حوض البحر المتوسط وتوسيعها بين إوروبا وأفريقيا والمشرق القريب أشد دول أوروبا تفتحاً للعالم الخارجی وأوسعتها اشتغالاً بالتجارة الدولية .

وبینما ظلت أكثر دول أوروبا قائمة في اقتصادها ونظمها السياسي على العلاقات الاقطاعیة : ملوك وأمراء ودوقيات وكونتات ومرکيزات وبارونات يملكون الأرض ويلتزمون بالدفاع عنها بالجيوش المرتزقة من جهة ، ورقيق يفلحون الأرض من جهة أخرى ، وليس بين السادة النبلاء والرقيق ، وهم سواد الشعب ، الا طبقة رقيقة جداً من أهل المهن والحرف والتجار ، كانت ایطالیا بسبیل كثرة مداخلها من أسبق دول أوروبا الى تنمية تلك الطبقة الثالثة الوسطی ، وهي طبقة الرأسمالية التجارية ثم الرأسمالية الصناعیة .

وهكذا تبلورت في ایطالیا قبل غيرها تلك الطبقة الثالثة الوسطی التي تسمی بالطبقة البورجوازیة ، وقوامها التجار وأرباب الصناعات وأرباب

المهن والحرف الفنية وكل من يعيش من غير عمله اليدوى . وهم عادة سكان المدن والبنادر .. وهى تسمى « البورجوازية » نسبة الى « البورج » . و « البورج » هو « البندر » أو القرية الكبيرة المحيطة أو المدينة .

فالبورجوازية اذن هى الطبقة الوسطى ساكنة المدن أو التى تعيش على الاقتصاد المدنى . وينمو المدينة على حساب الريف .. حل الاقتصاد الرأسمالى محل الاقتصاد الاقطاعى ، وسيطرت القيم والنظم والأفكار المدنية على القيم والنظم والأفكار الريفية .

والحق أن البورجوازية ليست طبقة واحدة وسطى بل طبقات متوسطة متعددة ، منها الطبقة المتوسطة العليا أو الكبيرة ، والطبقة المتوسطة المتوسطة ، والطبقة المتوسطة الصغيرة . والحق أيضاً أن تعبير « المتوسطة » تعبير مضلل ، لأن هذه الطبقة تضم من روتشيلد وهنرى فورد ، وهما أثني من الملوك والأمراء ، إلى بائعة الفجل وبائع البليلة . وإنما تسمى بالطبقة الوسطى لوقعها بين الاستقراطية بنبلة الأرض والسدم ، والبروليتاريا ، الطبقة العاملة بالاجر أو التى لا تملك إلا قدرتها على العمل .

بسبب الحروب الصليبية اذن أصبحت ايطاليا معبراً طبيعياً بين أوروبا والشرق الأدنى ، وكثرت تحركات الجنود والحجاج في الحملات الصليبية المتعاقبة عبر قرنين .. ومن وراء الجنود والحجاج كثر التجار وكثرت عمليات التبادل التجارى ونشاط النقل البحري للناس والسلع من أوروبا إلى الشرق الأدنى وبالعكس . وكانت فلورنسا والبندقية ونابولي وجنوا من أنشط مدن ايطاليا في تنظيم هذه التجارة الخارجية .. فكان تجارها يحملون إليها كل أنواع العملات الأجنبية الحاصلة لهم من مبيعاتهم في الخارج أو التي يجمعونها لواجهة مشترواتهم من الخارج .. وكانت كلها عمارات معدنية ، غالباً ذهبية وفضية ، بطبيعة الحال لأن العملة الورقية لم تكن معروفة يومئذ .

ونتيجة لكل هذه التحركات البشرية الكثيفة من الجنود والحجاج في البحر والبر ، امتلاط ايطاليا بالقراصنة الذين كانوا يعترضون طريق السفن لنهب ما فيها من بضائع التجار ولنهب ما يحمله المسافرون عليها من أموال ، وامتناع طرقات ايطاليا بقطع الطريق البارونات أو الفرسان اللصوص والنهايين من كل نوع وصنف لقطع الطريق على الحجاج والتجار والمسافرين وتجريدتهم من أموالهم .. بل ولخطف الرجال والنساء والأطفال طلباً للنفدية .

وقد نجم عن كل هذه الأوضاع شيئاً : أولهما أن التعامل بالنقد حل محل التعامل بالمقاييس . وثانيهما أن تجار فلورنسا أصبحوا خبراء

في العملات الأجنبية المعدنية ، وامتلاك فلورنسا بالصيارة لتبديل العملات للتجار والحجاج والمسافرين مقابل عمولات طبعا — فكانت هذه بدايات ظهور النظام المصرفى ، اي البنوك .

كذلك أدى اختلال الأمان في الطرق ووسائل النقل إلى ظهور بيوت مالية في المدن الكبرى يودع فيها المسافرون أموالهم بدلا من حملها معهم وتعرضها للضياع ، مقابل سكوك يصدرها البيت المالي ويقدمها المدحود لراسلى هذا البيت المالي ، اي وكلائه ، في المدن الأخرى داخل إيطاليا او خارجها فيتقاضى القيمة التي أودعها ، وبهذا يأمن شر اللصوص وحوادث الطريق مقابل عمولة يدفعها للبيت المالي الذي قدم له هذه الخدمة . وهكذا نشأت خطابات الاعتماد والشيكات السياحية التي نعرفها اليوم ، بل وظهرت الاعتمادات المستندية التي تقوم عليها التجارة الذولية في عالمنا اليوم .

واقتضى كل هذا إنشاء شبكة من « المراسلين » او الوكلاء الأكاناء في أوروبا وخارج أوروبا لمواجهة المدفوعات في حينها لكل بيت مالى ، كذلك ظهر نظام التأمين على نقل البضائع . باختصار : ظهر البنك والمصراف ، وحل رجل الأعمال محل البائع المتنقل . وحل التعامل بالسكوك او الشيكات محل التعامل بالنقد .

وفي الموانئ ، ولا سيما في جنوا والبندقية ونابولي ، أضيفت عملية ثلاثة إلى عملية تبديل العملة وعملية قبول الودائع مقابل خطابات الاعتماد . وهذه هي عملية التسليف على الرهونات او بالضمان والاقراض بالربا المحدد ، اي مقابل سعر ثابت ومضمون ، وعملية الاقراض بالمضاربة اي على أساس المشاركة في الربح والخسارة وهي تحتمل المجازفة . نشأت مجموعات مالية تقوم بتمويل الصادرات والواردات ، فتشترك في تمويل كل عملية او شحنة من البضائع على حدة ثم تقاسم الربح والخسارة مع التجار ، وفي التجارة الداخلية ظهرت « الشركات التجارية » . وكانت هذه البيوت المالية تستورد المواد الخام للصناعات التحويلية : السلاح والدروع في ميلانو والمنسوجات الصوفية والحريرية في فلورنسا ، مقابل تصدير سلع الترف ، فكانت تجارة رابحة كدست الأموال في مدن إيطالية من فائض ميزانها التجارى مع الدول الأخرى . وقد تفوقت فلورنسا بالذات في هذا المضمار بسبب يقطنه نقاباتها المالية والحرفية لضمان جودة منوعاتها .

كذلك ظهر نظام قيام المواطنين العاديين من صغار المدخرين بایداع الودائع في البيوت المالية والشركات التجارية للمشاركة في هذه المضاربات

التجارية مقابل نصيب نسبي من الربح والخسارة او من الربع فقط . فكانت هذه بداية نظام الأسهم والسنادات . غير أن هذا التمويل بالأسهم والسنادات كان في بداياته قبل ظهور البورصة مقصوراً على كل عملية تجارية على حدة ، ولم يكن مساهمة في رأس مال البيت المالي أو الشركة التجارية بصفة مطلقة .

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تحرم على المسيحيين الربا ، وهو الاقراض بالفائدة المحددة المضمونة ( الفايظ ) ، ولكنها كانت تبيع التجارة . ولذا تركزت أعمال الصرافة والأعمال المصرفية ، ولا سيما التمويل بالفائدة ، في أيدي اليهود نحو ألف عام طوال العصور الوسطى . وكان سعر الفائدة حتى عام ١٥٠٠ قانونياً ٥٪ سنوياً ، وكذلك كان العقار الثابت يدر ٥٪ سنوياً . أما الشركات المالية فكانت تدر على صغار المدخرين بين ٦٪ و ١٠٪ سنوياً . أما الشركاء في الشركات المالية فكان نصيبهم في الأرباح في الربع الأول من القرن ( ١٤ - ١٣٢٤ ) ، يتراوح بين ١٥٪ و ٤٠٪ سنوياً . وقد استطاع بيت استروترى في فلورنسا أن يحقق لشركائه بهذه المشاريع أرباحاً تتراوح بين ٣٠٠٪ و ١٠٠٪ بين ١٣٣٠ و ١٣٤٠ . وبسبب هذه الأرباح الطائلة توسيع الشركات المالية ( البنوك أو البيوت المالية ) في جمهورية فلورنسا في الاعتماد على الاقتراض العام .

واسكروا هذه المكاتب الطائلة كبار البنوك فنسوا الحيطة وأخذوا يقرضون الملوك والأمراء بسعر فائدة مرتفع يصل أحياناً إلى ( ٣٣٪ ) . ومقابل بعض المنافع كالحصول على تراخيص الاستيراد والتصدير وعلى الاعفاءات الجمركية .. وقد أدى هذا إلى إفلاس بعض الشركات المالية مثل بيت بيروترى وغيره عام ١٣٤٣ حين عجز أدولف الثالث ملك إنجلترا عن سداد ديونه التي اقترضاها لتمويل حروبها مع فرنسا ، كما عجز روبرت دوق أنجو ، ملك صقلية عن سداد ديونه ، لهذه البيوت المالية ، فانتهى الأمر بإفلاسها . وأفلست معها جموع من صغار المدخرين .

وقد حدثت ثورة حقيقية في الفكر الديني المسيحي في الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة الأوروبية .. وكانت الثورة على مستويين :

كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلم الناس أن المال من عرض الدنيا الذي ينبغي على المؤمن الصادق أن يعرض عنه بالزهد والتقطيف واحتقار لذاته الحياة ومباهجها طلباً للنعم في الحياة الآخرة .

فأخذ دعاء المذهب الانساني من جهة ودعاة الاصلاح الدينى من جهة أخرى يعلمون الناس أن طلب المال والجمال والمجد والقوة ليس خطيئة ، بل هو عنوان على كرامة الانسان وشرف الانسان . أما دعاء الاصلاح الدينى فقد ذهبو يجتهدون في تفسير المسيحية ، ليثبتوا خطأ تعاليم الكنيسة الكاثوليكية بتحريم الاقراض والاقتراض بالفائدة بوصفه قائما على الريا الذى حرمه الانجيل على المسيحيين ، ويدعون العالم المسيحى ليشارك في استثمارات التمويل بالاقراض والاقتراض ، حتى لا ينفرد يهود العالم بالنظام المصرى .. فكانت هذه هي البداية الحقيقية لنشأة النظام الرأسمالى داخل أوروبا الاقطاعية .

ومن أراد أن يفهم هذا الوضع على حقيقته فما عليه إلا أن يقرأ أو يعيد قراءة مسرحية « تاجر البندقية » ( ١٥٦٤ - ١٦١٦ ) لشكسبير ( ١٥٩٦ - ١٥٩٣ ) ومسرحية « يهودى مالطة » ( ١٥٨٨ ) لمارلو ( ١٥٦٤ - ١٥٩٣ ) .

ففي « تاجر البندقية » ، التي اقتبس شكسبير موضوعها عن رواية قصيرة لكاتب ايطالى اسمه جيوفانى فيورنتينو كتبها في القرن الرابع عشر ولكنها نشرت في ١٥٦٥ ، نرى تاجرا مسيحيا يفترض من مرابي يهودى مبلغا ضخما من المال لتمويل تجارته مع موانى العالم الخارجى ولكن سفنه تفرق في البحر فيفلش ويعجز عن السداد في الموعد المحدد ، وقد كان القرض مشروطاً بشرط جزائى جهنمى ، وهو اقتطاع رطل من لحم الدين اذا تخلف عن السداد . فلما أحيل الأمر لدوق البندقية أمر بتنفيذ العقد بحذافيره ، ولكن محامى الدين انقذ الموقف في اللحظة الأخيرة لأنه اشترط أن يقتطع اليهودى الدائن من جسد المسيحى الدين رطلًا من اللحم دون أن يسفك قطرة واحدة من الدماء ، لأن العقد لم يعطه الحق إلا في رطل من اللحم ولم يشر إلى حقه في الدماء . وهكذا انقذ الموقف .

ولضمان انتظام هذه الحركة المالية والتجارية النشطة كان لابد من إنشاء نظام قانوني مدنى محكم وصارم ومستقر في فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية المشتغلة بالتجارة لحماية الحقوق ولتحديد الواجبات بين الممولين والتجار ، ونظام دقيق لتوثيق الملكية وعقود التمويل والتبادل التجارى ، كما نجد في حكاية الممول شيلوك والتاجر إنطونيو في « تاجر البندقية » .

كذلك كان هناك نظام سياسى اقتصادى اجتماعى يرتتب توزيع السلطة ومصادرها .

ففي القرن ١٢ كانت هناك ست نقابات حرفية كبرى في فلورنسا هي :

- ١ — نقابة القضاة والموثقين .
- ٢ — نقابة البنكريات والصيارة .
- ٣ — نقابة الأطباء والصيادلة والعطارين .
- ٤ — نقابة صناع المنسوجات الصوفية .
- ٥ — نقابة صناع المنسوجات الحريرية .
- ٦ — نقابة الفرائين وصناعة الجلود .

وفي القرن ١٣ ظهرت خمس نقابات أخرى للفنون والصناعات :

- ١ — نقابةالجزارين .
- ٢ — نقابة صناع الأحذية .
- ٣ — نقابة الخدم .
- ٤ — نقابة البنائين ونجارى الأبواب .
- ٥ — نقابة تجار الملابس .

ثم ظهرت تسع أو عشر نقابات للمهن الصفرى ، وهى تشمل :

- ١ — نقابة أصحاب الخمارات وتجار النبيذ .
- ٢ — نقابة أصحاب الفنادق .
- ٣ — نقابة تجار الملح والزيت والجبن .
- ٤ — نقابة الدباغين .
- ٥ — نقابة صناع السلاح .
- ٦ — نقابة صناع الأقفال .
- ٧ — نقابة الحوذية .

٨ — نقابة نجارى الأثاث .

٩ — نقابة الخبازين .

وبهذا بلغ مجموع النقابات ٢١ نقابة .

وكان يحكم فلورنسا نقابة هذه المهن والحرف وقيادات النقابات ، أما الحرف الصغير فكان لا يمثلها إلا رؤساؤها . وكان من حق كل هنؤلاء الإشراف على تطبيق القوانين ومراقبة الغش التجارى والصناعى ومراقبة الكيف والأسعار ومقاييس الانتاج ... الخ . وفرض الغرامات على المخالفين ، بل ومقاضاتهم ومتلاصنة أصحاب النشاط غير المشروع كالريا الذى كانت تحرمه الكنيسة . ومنهم كان ينتخب قنائل المدينة أو مستشاروها وقضاتها ، كما كان ينتخب منهم المجلس الحاكم الذى يسمى « السنiorية » . وكان أصحاب البيوت المالية مقيدين عادة في أكثر من نقابة فوق قيدهم في نقابة البنكيات والصيارة ، وكانوا بقوة المال هم حكام فلورنسا الحقيقيون .

أما من الناحية السياسية فقد كان تمزق المدينة إلى حزبين منذ القرن ١٣ : حزب « البيض » المعروف « بالجيبلين » ، وهو الموالى للألمان ، وحزب السود المعروف « بالجوليف » الموالى للفرنسيين . وكان بابوات روما يعادون أباطرة герمان ويطلبون القروض من البيوت المالية في فلورنسا لمحاربتهم ، كذلك كان شارل دوق أنجو ( أخو لويس التاسع ملك فرنسا ) يطلب من فلورنسا القروض لكي يمول حربه لانتزاع نابولي وصقلية من أيدي الإمبراطورة герمان . وفي ١٢٦٦ إنتصر حزب « الجوليف » ( السود ) . ثم تجددت الحرب الأهلية في ١٣٠٠ ، فانتصر السود مرة أخرى ، وانتهت بنفي العائلات المصرفية الكبرى الموالية للبيض كأسرة بورتيغاري ، وهى أسرة بياتريس صاحبة دانتي ، وسيطرت على فلورنسا البيوت المالية الموالية للسود .

وفي نهاية القرن ١٣ استفاد تجار فلورنسا من افلالس تجار المدن المجاورة ولاسيما البندقية ، وبعد أن استولت شركات السود المالية على فلورنسا نشأت فيها منافسات ضارية أدت إلى افلاسها الواحدة بعد الأخرى ، وكان أبرز أنهيار هو انهيار أسرة سكالا عام ١٣٢٦ . ودرءاً لهذا الخطر لجأت البيوت المالية الكبرى مثل بيت باردي وبيت بيروتزى إلى التفاهم بدلاً من التنافس فتكبرت في أيديها الثروات ، وانتفع من هذا صغار المدخرين الذين كانوا يودعون مدخراتهم عند هذه الشركات المالية لاستثمارها في التجارة الدولية . وقد افلس بيت بيروتزى وبيت باردي في ١٣٤٣ لعجز ادوارد الثالث فروبير دوق أنجو عن سداد ديونهما لهما .

وبعد هذه الأفلاسات ، كان الطاعون الرهيب الذى حصد ثلثي سكان فلورنسا بين ١٣٤٨ و ١٣٥٠ فانخفض عددهم من ١٢٠٠٠٠ نسمة إلى ٤٠٠٠٤ نسمة .

ورغم هذه الكوارث عاد النشاط المصرفي إلى سابق عهده ، فظهرت بيوت مالية جديدة كان أهمها بيت البرتى وريتشى واستروتزي والبيتزى وسودرين وجواردى ومديتشى . وأخذ هؤلاء يدمر بعضهم ببعضًا بالمنافسة وبلعبة السياسة . وبرز بينها بيت البرتى لأنّه أصبح بنك البابا ، وسبب إفلاس بيت جواردى في ١٣٧٠ ، كما حاول تدمير بيت ريتتشى وبيت البيتزى . ولكن هزيمة آل البرتى سياسياً انتهت بتفكيكهم من فلورنسا .

كان في فلورنسا عام ١٣٧٠ بين ١٥٠ و ٢٠٠ أسرة من بيوت المال والأعمال يبلغ أفرادها بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ رجل يشتغل فعلاً بالتمويل والتجارة على نطاقٍ واسع ، وبعد نحو خمسين سنة أي في ١٤٢٧ كانت في فلورنسا ١٠٠ أسرة تملك ربع ثروة المدينة ، وهو سدس ثروة إقليم توسكانيا كلها (واعاصمته فلورنسا) .

كانت أقدم أسر في فلورنسا هي باتزى ودوناتى وباردى ؛ ثم استجذت أسر مديتشى والبرتى ولاندو في النصف الثاني من القرن ١٤ ، وكذا أسرتا روندينيللى وكابونى . وكان المجلس الحاكم (الستيورية) هو مسرح الصراع على السلطة في فلورنسا . وكان البنكيرة الجدد يشجعون ثورات الفقراء وصغار الحرفيين لانتزاع حق تكوين النقابات من الستيورية للمشاركة فيها بمثيلين ، وبهذا تبلور في فلورنسا حزب جديد يسمى « البوبلانى » ، أي « الشعبى » . ولكن كبار البنكيرة ورجال الأعمال استطاعوا أول الأمر أن يخضعوا هذا التيار الشعبى . وبين ١٣٤٣ و ١٣٦٠ حكم بالإعدام على خمسة من آل مديتشى كما نفى الكثيرون .

ثم نجحت ثورة صغار الحرفيين أول الأمر في ١٣٧٨ ، ولكن ممثلى البورجوازية بطشوا بالثورة في ١٣٨٢ ونفوا زعماءها الثلاثة ومنهم سلفسترو مديتشى وأعدموا زعيمها جورجو سكالى .

وكان آل مديتشى أصلاً من أبناء البورجوازية المتوسطة ، فقد كانت الحصة المفروضة عليهم في الترض الوطني لا تتجاوز ٤٠٠ فلورينات في عام ١٣٦٤ بينما كانت الحصة المفروضة على آل استروتزي ، وهم من كبار البنكيرة ، ٢٠٦٢ فلورين .

اما مؤسس الثروة الحقيقى في أسرة مديتشى فهو جيوفانى مديتشى ( ١٣٦٠ - ١٤٢٩ ) الذى اشتهر مثل أبيه أميراردو مديتشى ، المتوفى عام

١٣٦٣ ، باسم « بيتishi » ، وهو اسم يهودي معروف في فلورنسا ، ربما كنایة عن بخله الشديد . وعندما مات في ١٤٢٩ ترك ثروة قدرها ١٨٠,٠٠٠ فلورين ، بحسب تقدير لورنزو دي مدیتشی لتركة والد جده ، وكانت لصرفه فروع في فلورنسا وروما وفينيسيا ( البندقية ) ونابولي وجايata . وكان قد بـدا أعماله بمبلغ ١٥٠٠ فلورين هي دوطة زوجته .

وقد عثر على ثلاثة دفاتر حسابات لأسرة مدیتشی عن الفترة من ١٣٩٧ إلى ١٤٥١ ، ويفحصها تبين منها أن جيوفانی مدیتشی كانت لديه حسابات تحمل أرقاما سرية ، على طريقة الحسابات السويسرية ، ترمز إلى ودائع الكرادلة وكبار رجال الكنيسة وكبار الضباط وكبار الموظفين والأعيان .

وكان هناك حظر على أفراد أسرة مدیتشی بشأن تقلد المناصب العامة منذ قلائل القرن الرابع عشر . ولكن جيوفانی « بيتishi » أصبح منذ ١٤٠٢ عضوا في الهيئة الحاكمة ، فانتخب عضوا في السنیورية وساير سياسة كبار الرأسماليين التوسيعة التي كانت تعمل على مد تخوم جمهورية فلورنسا وضم ميناء بيزا إليها لكي يكون لفلورنسا شفرا تتجه منه مع العالم الخارجي بدلاً من اعتمادها على موانئ إيطاليا المستقلة أو التابعة للغير مثل فينيسيا وجنو ونابولي . وبهذا أصبحت جمهورية فلورنسا في مثل قسوة فينيسيا وميلان ونابولي ، وأصبحت قادرة على التصدى للخطر الفرنسي ، خطر دوقيات أنجو الطامعين في نابولي ، وخطر دوقيات أورليان الطامعين في ميلان .

هذه كانت بدايات أسرة مدیتشی التي سرعان ما أصبحت أغنى أسرة في أوروبا ، على الأقل من حيث المال السائل ، بفضل مواهب كوسيمو « بيتishi » جد لورنزو دي مدیتشی . وحين ولد لورنزو دي مدیتشی عام ١٤٥٠ كانت أوروبا كلها ، من لندن إلى استانبول ، تتحدث عن ثراء آل مدیتشی الخرافي .

وهكذا ورث لورنزو دي مدیتشی المال عن أسلافه ، ولكنه أضاف إليه شيئا لا يشتري بالمال خلد اسمه وجعله علما من أعلام عصر النهضة الأوروبية ، إلا وهو رعاية الفنون والآداب والفكر الفلسفى بوجه عام .

إذا كان جيوفانی مدیتشی ( ١٣٦٠ - ١٤٢٩ ) ، وكنيته بيتishi ، أول من وضع أساس ثروة آل مدیتشی وأول من أسس بنك مدیتشی عام ١٣٩٧ ، فإن ابنه كوسيمو مدیتشی ( ١٣٨٩ - ١٤٦٤ ) ، وكنيته أيضا بيتishi ، هو البانى الحقيقى لأمبراطورية مدیتشی المالية ولهميتها الاجتماعية ولنفوذها السياسي الخطير في فلورنسا .

وقد ظل بنك مديتشى في عهده ينمو وينمو باطراد بين ١٣٩٧ و ١٤٥٥ حتى بلغ قمة مجده وأوسع مداه ، وكان مركزه الرئيسي في فلورنسا ، وكانت له فروع في ميلان وبيزا والبندقية ونابولي وروما داخل إيطاليا وفروع أوروبية في جنيف وليون وافنيون وبروج ولندن ، وكان له مراسلون متذرون في حوض البحر المتوسط من إسبانيا إلى الشام، رغم أنه لم تكن له فروع خارج أوروبا . كذلك كان بنك مديتشى يملك مصنعين كبارين ، أحدهما للمنسوجات الصوفية والأخر للمنسوجات الحريرية .

وبعد ١٤٥٥ بدأ بنك مديتشى يضم درجة درجة في عهد بييرو بن كوسيمو ( ١٤١٦ - ١٤٦٩ ) ثم بدأ يواجه متابعه مالية رهيبة في عهد حفيد كوسيمو ، وهو لورنزو دي مديتشى ( ١٤٥٠ - ١٤٩٢ ) ، الشهير « بلوورنزو الماجد » ( « إل ماجنفيكو » وهو لقب كان يطلق على أعيان المدن الإيطالية في ذلك الزمان ، كما نقول نحن مثلا « الوجيه » فلان أو « معالي » فلان ، ولكن اللقب لازم لورنزو بالذات حيا وميتا ) .. ولم يكن لورنزو يهتم بالبنك إلا كارها ، بل كان ينظر إلى بنك مديتشى على أنه مجرد أداة سياسية لتوطيد سلطاته في فلورنسا وخارج فلورنسا . وبالفعل أخذ البنك يضم بعد ١٤٧٨ .

ولم يبن الجد كوسيمو امبراطورية المديتشي الماليةحسب ، بل بني أيضا سطوطها السياسية داخل فلورنسا . ورغم أنه لم يتقلد سلطة رسمية خاصة فقد كان يسيطر بقوة المال وبشبكة اتصالاته وبمناوراته السياسية على كل صغيرة وكبيرة في جهاز الحكم . وجعل أسرة مديتشى هي الأسرة الأولى وأقوى أسرة في فلورنسا رغم أنها كانت أسرة محدثة النعمة تفتقر إلى الحسب والأعراق .

وحتى موت جيوفاني في ١٤٢٩ ، بل وحتى أصبح كوسيمو الشخصية الأولى في فلورنسا ، كان آل مديتشى يحسون بأن شيئا ما ينقصهم وهو شرف المحتد ، ولذا فقد اهتموا لقرن كامل بتشجيع المؤرخين وكتاب السير والمشتغلين بالأنساب ليتذكروا لهم أنسابا محترمة ، وداربوا على رعاية الفنانين والأدباء والمفكرين ليذيع صيتها في الآفاق ، واشتغلوا بالسياسة اشتغالا عنيفا ليعوضوا بالسلطة السياسية عن اهتزاز مركزهم الذي لم يكن يستند أولا لغير المال .

كل هذا بدأ كوسيمو دي مديتشى ، جد لورنزو ، فهو قد بسط رعايته على الفنان المصور العظيم فرا انجليلوكو وعلى الفنان المصور العظيم فرا ليبيوليبى وعلى الفيلسوف الأفلاطونى مارشيليو فيتشينو وعيته مؤديا لحفيده لورنزو .

كانت فلورنسا في زمن جيوفاني وكوسيمو جمهورية تحكم مساحة واسعة من شمال إقليم توسكانيا ( ١١٠٠٠ كيلو متر مربع ) ، ولكن هذه الدولة الجمهورية كانت تحكمها أوليغاركية صغيرة العدد من المولين والتجار بقيادة عائلة البنكيير البيتزى التي احتكرت السلطة السياسية في فلورنسا . وقد حاول جيوفاني كسر هذا الاحتكار ، فلم ينجح إلا جزئيا ، وأتم عمله كوسيمو مدتيتشي بمناوراته هنفي آل البيتزى ، وبذلك سيطر آل مدتيتشي على الحكم في فلورنسا تماما طوال ثمن كامل .

كان نظام الحكم يقوم على ركائز :

الديمقراطية المباشرة ، حيث كان كل المواطنين يجتمعون في السوق في هيئة « برلانتو » أي برلن شعبي . وهيئة الأوليغاركية الحاكمة ، وهي مكونة من البنكير وبار التجار وتسمى « رجيمانتو » ، متمثلة في مجلس المائة والمجلس الحاكم أو « السنويروية » ، وكان هذا المجلس يتكون من ثمانية أعضاء ينتخبون بالقرعة ويتجدد انتخابهم كل شهرين منعا لاستمرار السلطة في أسرة بعينها ، وكانتما الحكم تقاسم أسلاب أو استعراض وجاهة . فأنشأ كوسيمو مجلس المائة من أعضاء مواليه لأسرة مدتيتشي وجعل هذا المجلس يختار مجلس السنويروية بالانتخاب لا بالقرعة ، وبهذا ضمن استقرار الحكم في أيدي أنصار آل مدتيتشي ، لأن القرعة تفتح باب التغيير وانتقال السلطة إلى الأسر المنافسة . وقد اتهمه أعداؤه باقامة دكتاتورية في البلاد .

وكانت سياسة آل مدتيتشي الدائمة تقوم على تدعيم الحلف الإيطالي الذي يضم فلورنسا وميلان ونابولي ، وكانوا يعتمدون على جنود ميلان لتحقّي فلورنسا من جنود البندقية وفياريلا . فلما سقطت القسطنطينية في يد محمد الثاني في ٢٩ مايو ١٤٥٣ دعا البابا نقولا الخامس فلورنسا وميلان والبندقية وروما ونابولي إلى توقيع معايدة عدم اعتداء في لودي عام ١٤٥٥ مدتها ٢٥ سنة . وكان ذلك في عهد كوسيمو مدتيتشي .

وقد تسلم كوسيمو بنك مدتيتشي بعد وفاة أبيه جيوفاني في ١٤٢٩ فجعل فرع روما هو بنك البابا والكرادلة والحجاج من زائرى الفاتيكان ، مكان يتلقى ودائموهم كما كان يتلقى الأموال التي يدفعها المؤمنون للبابا مقابل صكوك الغفران والتبرعات التي كان يدفعها بعض المؤمنين لأشعمال الحروب الصليبية من جديد ! وكان كوسيمو دائم الحرص على توطيد صلاته بالكنيسة . وقد زاد من هيئته في فلورنسا أنه استضاف بونا الثالث الباليولوجي إمبراطور بيزنطة وجوزيف بطريرك القسطنطينية ويوجين الرابع بابا روما مع مئات من أتباعهم عندما التقوا في فلورنسا لعقد مجمع مسكونى عام ١٤٣٩

للتقرير بين الارثوذكسيّة والكاثوليكيّة استعداداً لمواجهة زحف الاتراك العثمانيين .

وكانت أسرة مديتشي منذ البداية أسرة مثقفة رغم اهتمامها بالمال ، احسن تعليمها في الإديرة ، مكان أبناؤها يعرفون اليونانية واللاتينية ، بل والعربية والعبرية . أما لورنزو دي مديتشي فقد بدأ يتعلم اليونانية في ١٤٦١ وهو في الحادية عشرة من عمره ، ثم تولى تعليمه الفيلسوف فيتشينو داعية الأنلاطونية الحديثة . وكان فيتشينو ( ١٤٣٣ - ١٤٩٩ ) يومئذ في الحادية والثلاثين من عمره ، ويعمل في خدمة كوسيمو مديتشي . وقد تأثر لورنزو بتعاليم فيتشينو تأثراً بالغاً حتى ظهر ذلك في كتاباته الأدبية من شعر ونشر ، ماتباع تقاليد الحب الأنلاطوني الشائعة في أوروبا منذ الشاعر بترارك وصاحبته لورا ، بل وربما منذ الشاعر دانتي البيجيري وصاحبته بياتريس . ومن هذه التقاليد الشائعات بالحب العذري المثالى الرومانسى نحو ملهمة واحدة تكون محور شعر الشاعر في كل قصائده وطوال حياته ، صدقأ او كذبا ، في الحقيقة او في الخيال .

وحين مات الجد كوسيمو عام ١٤٦٤ تجمع أعداء آل مديتشي ليحظموها احتكارهم للسلطة في فلورنسا . وكان سببهم إلى ذلك هو الغاء دستور ١٤٣٤ الذي وضعه كوسيمو للسيطرة على الحكم بالغاء نظام القرعة في اختيار أعضاء السنوية ، اي المجلس الحاكم . وبالفعل الغوا دستور ١٤٣٤ في عام ١٤٦٦ ، فأعادوا الدستور الأصلى ، ظناً منهم أن آل مديتشي قد دالت دولتهم بوفاة عميدهم . وكانت الدعوة إلى « برلنتو » من جميع المواطنين في ميدان السنوية بسوق المدينة في ٢ سبتمبر ١٤٦٦ ، ففوجيء زعماء المعارضة بأن وجدوا ٣٠٠ جندي كامل السلاح في ميدان السنوية يتقدّمهم لورنزو دي مديتشي في دروعه ممتظياً جواده ، وكان لورنزو يومئذ نقي في السادسة عشرة من عمره حين دخل أول امتحان للقوة في فلورنسا وخرج منه متقدراً باعادة دستور ١٤٣٤ الذي صاغه آل مديتشي ليسيطرؤا على الجمهورية من خلال مجلس المائة المكون من صنائعهم وأعوانهم .

ولم يحكم بيرو دي مديتشي ، ابو لورنزو ( ١٤٦٦ - ١٤٦٩ ) غير ثلاث سنوات بعد موت أبيه كوسيمو . لقد انتهت الجمهورية في فلورنسا وحلت محلها « الامارة » ، لأن لورنزو دي مديتشي ظل سيد فلورنسا ثلاثة وعشرين سنة ، بين ١٤٦٩ - ١٤٩٢ . وعند موت بيرو ترك مطالبات وكامييات قيمتها ٥٧٩ فلورين ، وفازات فنية قيمتها ٥٨٠ فلورين ، وفضيات قيمتها ٧٠٢ فلورين ، وتحف نادرة مثل قرن وحيد القرن الذي قدرت قيمته بمبلغ ٣٠٠ فلورين .

هذا ما ورثه لورنزو دي مدি�تشي وقد أضاف إليه شيئاً كثيراً .  
ذلك ورث لورنزو عدداً هائلاً من القصور في المدينة وفي الريف ، داخل إمارة  
فلورنسا وخارجها ، بما في هذه القصور من سجاجيد وطنافس فاخرة وتحف  
للزينة مشغولة بالذهب والفضة ، وفضيات وأثاث قل نظيره في قصور الأمراء ،  
واسطبلات عاملة بكرائم الخييل . أما اللوحات الفنية والتماثيل والتحف  
الأثرية فهي لا تقدر بثمن . كان هناك قصره في فيا لارجا ، وقصره في كاريجي  
وقصره في ميزولا وقصره في كاما جيولو . وقصره في تريبيبو وقصره في بوجيو ،  
وهذا الأخير بناء وفتا لذوقه في المعمار .

كذلك كان ما ورثه لورنزو وما اقتناه من العزب يبلغ عدداً مهولاً .  
ففي كاريجي وحدها كان يملك ٢٧ حقلًا ومصورة عام وفاته . وكان نموذجاً  
للأمير الذي تخيله مكيافيللي في شخص سizar بورجيا مع بعض الفوارق  
الهامة . . وهى أنه كان يستعمل ذهب المعز أكثر مما كان يستعمل سيفه ،  
ومع ذلك فقد كان لا يتردد في البطش بأعدائه كلما استدعى الأمر ذلك .

ورغم اضمحلال بنك مدি�تشي تدريجياً في أواخر عهد جده كوسيمو ،  
كان لورنزو لا يزال من أغنى أغنياء أوروبا . ولم تكن ثروته في بنك مدি�تشي  
وحده ، وإنما كانت ثروته الحقيقية التي ورثها واقتناها تتمثل في مجموعات  
لا تقدر بثمن من اللوحات الفنية ومن التحف الأثرية والمخطوطات النادرة  
والكتب المخطوطة ، وغير ذلك من أدوات الزينة والترف والخيول الكريمة  
التي تعمّر بها قصور الكبار .

وفي ١٤٦٥ قدر أبوه بيرو جواهر نساء الأسرة ، من فرع بيرو دي  
مدি�تشي وحده ، بمبلغ ١٢٠٥ فلورين ، ومعها خواتم قيمتها ١٩٧٢ فلورين  
والآلىء قيمتها ٣٥١٢ فلورين ، وزبالت وغابات للصيد وأراضي بسور .  
وكانت له عزبة في زمام بيزا . فقد كان لورنزو مهتماً بشراء العزب خارج  
فلورنسا وفي كل مكان من ريف توسكانيا ليدعم نفوذه السياسي .

ومن أراد أن يكون فكرة تقريبية عن ثروة لورنزو « الشخصية » المقوله  
خارج مصرفه وقصوره وأطيائه ولوحاته وتماثيله وخاليه . . الخ . . فيكتفى أن  
يعرف أن « الفلورين » كان عملة من ذهب عيار ٢٤ قيراطاً ، سكت لأول مرة  
في فلورنسا عام ١٤٥٢ وكانت زنته ٣ جرامات و ٥٣٨ من ١٠٠٠ من  
الجرام . وقد سكت البندقية على غرارها في ١٤٨٤ « الدوقية » وكانت لها  
نفس مواصفات الفلورين في الوزنة والعيار . ومن قبل كان هناك الصولدى  
الذهبي الرومانى الذى سكه الامبراطور قسطنطين عام ٣١٢ وكانت زنته  
٥٥٤ من الجرام من عيار ٢٤ ، وقد استمر اصداره في بيزنطه حتى سقوط

القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وكان يسمى « البيزنطي » ، ولكنه اختفى نهائياً من أوروبا الغربية بعد شرمان . أما خلفاء بنى أمية فقد سكوا نظيراً للصولدري الروماني في دمشق ويغداد سموه « الدينار » وكانت زنته ٢٥ ر من الجرام الذهب الخالص أي عيار ٢٤ . ( وقد اختفت العملة الذهبية من غرب أوروبا بعد شرمان وحلت محلها العملة الفضية المسماة « دينير » denier وزنته ١٠ ر من جرام الفضة الخالصة . والجنيه أو الليرة أي الرطل كان وحدة نقدية تعادل ٢٠ صولدري أو ٢٤٠ دينير ، على أساس ١٢ دينير في كل صولدري . وكلمة « دينير » مشتقة من الكلمة « ديناريوس » اللاتينية بمعنى « دينار » . وقد جرت تخفيضات مستمرة على قيمة الدينير . وفي توسكانيا في القرن ١٣ أصبح الجنيه يساوي ٩٢٩٢ جرام من الفضة الخالصة ) . وبطبيعة الحال كل هذه الأرقام لا معنى لها إلا منسوبة إلى القوة الشرائية ، وهي في تغير دائم .

لم يكن لورنزو دي مدি�تشي يستخدم بنك مدি�تشي لتنمية ثروته فقد كان لديه منها الكثير ، وإنما كان يستخدمها لتدعم قوته السياسية في الداخل والخارج . فمثلاً لم يكن لبنك مدি�تشي فرع في نابولي منذ اغلاق ذلك الفرع في ١٤٢٦ ، فأسس لورنزو في نابولي فرعاً في ١٤٧١ ، لا لأسباب تجارية ، ولكن لتدعم التحالف بين فلورنسا ونابولي . وكانت مهمة هذا الفرع الأولى اقراض ملك نابولي وبناته رغم سوء سمعتهم في أوروبا كلها بأنهم لا يسددون ديونهم .

وكان بنكريات فلورنسا جمیعاً يعرفون منذ افلام بيت باردي وبیت بیروتری الحکمة القائلة بإن بداية الخراب المالي هي اقراض الملوك والأمراء ، ومع ذلك فقد أقرض بنك مدیتشی ، فرع بروج ، دوق بورجونیا الذي امتنع عن السداد . كذلك أقرض بنك مدیتشی ، فرع لندن ، ادوارد الرابع ملك انجلترا لتمويل حرب الوردتین ( بين أسرة يورك وأسرة لانکاستر ) ، فلما خلع ادوارد الرابع عن عرشه عام ١٤٧٠ ضاعت الديون . وبالمثل فإن فرع میلان أقرض دوق میلان أموالاً ضخمة . ولكن دوق میلان ماطل في السداد ، قيل ليفرض تحالف فلورنسا - میلان على لورنزو دي مدیتشی . ورغم كل ذلك لم يمنع هذا لورنزو من إعادة تأسيس فرع نابولي ، لأنـه كان يرى في هذه المجازفات المالية استثمارات سياسية محسوبة .

وبالفعل فقد أثمرت هذه السياسة .. فحين تآمرت عائلة باتزی على اغتيال لورنزو دي مدیتشی وأخيه جوليانو في كاتدرائية فلورنسا عام ١٤٧٨ ، بالتوافق مع البابا سکستوس الرابع الذي طوّقت قواته فلورنسا لتنقل

السلطة من آل مدیتشی الى آل باتزی بمجرد اتمام الاغتيال ، قتل جولیانو ونجا لورنزو بجرح في عنقه ، وتحرك أنصار لورنزو فاحبظوا المؤامرة بقوة السلاح ، وأعدم عشرات من الأعيان والأساقفة والقادة وأكثر من مائة من أتباع عائلة باتزی واعتقل الكاردينال ریاریو المبعوث البابوي ثم أعيد الى روما .

ولم ينجف الخطر تماماً رغم التقاف الشعب حول لورنزو لأن البابا أصدر عليه قرار الحرمان . وكان هناك خطر الغزو الخارجي ، فانضم جيش نابولي الى جيش البابا سكستوس الرابع ، وانضمت جيوش البندقية وميلان وفرارارا الى جيش فلورنسا .

وما أن بلغ نباء محاولة الاغتيال حتى أرسلت ميلان ثلاثة آلاف فارس لنجد لورنزو . ولم يكن هذا التضامن الصادق إلا نتيجة لدأب لورنزو على توطيد صلاته بالأمراء في الخارج بالتراسل والهدايا والمجاملات في المناسبات ويتوفير القروض لطلاب القروض . وكان يتراسل مع سلطان تركيا وسلطان مصر .

كان آل مدیتشی أشبه شيء بقبيلة صغيرة داخل فلورنسا ، وفي تعداد ١٤٢٧ كانت تضم ٣٢ فرعاً أو أسرة مستقلة أي نحو ١٤٠٠ شخص مترباطين ترابطاً قوياً بالإضافة إلى الانسباء والأقرباء والاصدقاء والاتباع وعملاء البنك ، مما جعل آل مدیتشی أقوىاء عدداً . كذلك كان لورنزو يأسر الناس بخدماته فيوظف المستوظفين ويرفع النفي عن المنفيين ويتوسط لتخفييف عقوبات القانون العام ويحاول أن يتودد إلى الكنيسة . وكان لورنزو يدرك قيمة التأييد الجماهيري ، فكان دائماً يدافع عن الطبقات الشعبية وعن الفقراء ببيعهم القمح من مخازنه في أيام القحط بأقل من سعر السوق . ولذا فقد كان طاغية شعبياً ، طفيانه من نظامه السياسي الذي ركز سلطة الحكم في يديه وشعبيته من التقاف الجماهير من حوله .

وقد زاد من قسوة لورنزو دى مدیتشی زواجه من كلاريس أورسیني عام ١٤٦٨ وهو في سن الثامنة أو التاسعة عشرة . وقد كانت كلاريس سليلة بيت أورسیني الشهير في دولة البابوية الغنى بالكرادلة وبالقادة العسكريين وصاحب الصولة في إيطاليا كلها من البندقية إلى نابولي بجيوشيه المرتزقة . فكان هذا الزواج السياسي ، بعد انقلاب ١٤٦٦ المجهض ، وسيلة لدعم سيطرة لورنزو دى مدیتشی على فلورنسا .

عرف عن لورنزو دى مدیتشی أنه كان ، على غير عادة معاصريه وأبناء جنسه ودينه ، متساماً مع اليهود بما جعلهم يعيشون في أمان في فلورنسا .

بل وعرف عنه انه كان حامى اليهود في ايطاليا كلها . وكان دائمًا يحتمم الى العقل وضبط النفس ويتوخى الاعتدال الا حيث يتعلق الامر بأمن الدولة .

وقد ترك لورنزو دي مدি�تشي بعض الآثار الأدبية شعراً ونثراً ، باللغة الإيطالية ، وهي آثار لها مكانتها المعروفة في تاريخ الأدب الإيطالي والفكر الإيطالي . غير أن شهرته الأولى جاءت من أنه كان راعي الفنون والأداب والفكر الحر ودعوة الهيومانزم في عصر الرئيسيانس ومن المؤرخين من يقول إنه ليس هناك أثر فني واحد من نحت أو تصوير أو عمارة في عصره الا وكان لورنزو دي مدি�تشي وراءه .

ونحن حين نتحدث عن فناني الكواتروتشينتو ، أى القرن الرابع عشر في إيطاليا ، من مصوريين ومثالين ومعماريين ، إنما نتحدث عن معاصري لورنزو دي مدি�تشي الذين أحاطهم برعايته المباشرة وغير المباشرة وكان له فضل اكتشافهم وتشجيعهم : نتحدث عن المصور المثال فيروكيو ( ١٤٣٥ - ١٤٨٨ ) ، الذي كان أقرب الفنانين إلى لورنزو ، والمصور ساندرو بوتيشيللي ( ١٤٤٤ - ١٤٩٨ ) ، والمصور المثال بولايولو ( ١٤٣٢ - ١٤٩٨ ) ، والمصور المثال المعماري ليوناردو دافنشي ( ١٤٥٢ - ١٥١٩ ) الذي كان يكبر لورنزو بعامين ، وميكلانجلو ( ١٤٧٥ - ١٥٦٤ ) الذي جمع بين الفنون التشكيلية الثلاثة ، ويقال ان لورنزو اكتشف موهبته وهو في حداثته ( كان في سن ١٧ حين مات لورنزو ) . ومثل هؤلاء المصور جورجوني ( ١٤٧٧ - ١٥١٠ ) ، والمصور فلبيينو ليبى ( ١٤٥٧ - ١٥٠٤ ) بن فرا فيليبي ليبى ( ١٤٠٦ - ١٤٦٧ ) ، وهو مصور أقدر فنا من ولده ، كان يرعاه كوسيمو دي مدি�تشي مع المصور فرا إنجليكو ( ١٤٥٥ - ١٤٠٠ ) . كل هؤلاء كانوا من فلورنسا .

أما رفائيل ( ١٤٨٣ - ١٥٢٠ ) ، فقد كان من أوربينو وكان معاصراً للورنزو الثاني ، وفيرونز ( ١٥٢٨ - ١٥٨٨ ) ، كان من فيرونا ، والمصور كرافاجيو ( ١٥٧٣ - ١٦١٦ ) ، وهو من كرافاجيو ، والمثال تسلليني ( ١٥٠٠ - ١٥٧١ ) ، كذلك كان المصور أندريرا ديل سارتو ( ١٤٨٦ - ١٥٣٠ ) ، وهو من فلورنسا ، فقد كان طفلاً في عهد لورنزو دي مدি�تشي وعاش وأنتج في عهد لورنزو الثاني .

كذلك قيل ان لورنزو كان أول من خطط شوارع فلورنسا على أساس الخطوط المستقيمة . وقد استخدم فيروكيو وبوتيشيللي وبولايولو لتصميم الأعلام والدروع والشارات وأقواس النصر، وفي إنشاء القبور وتجميل القصور والكنائس ، وهو الذي أوصى بأن يدعى بوتيشيللي إلى روما لتجميل محراب السنتين في الفاتيكان . كذلك أوصى ملك المجر وملك البرتغال وملك نابولي

والبابا أينوتشنتو الثامن والكاردينال كارافا وغيرهم كثيرون بدعوة فنانى فلورنسا العظام لتجمیل الكنائس والقصور ، ولاسيما بولايولو وفیلبینو لبی .

نجم عن كل ذلك ازدهار عظيم في كافة الفنون التشكيلية التصوير والنحت والعمارة ، بعد أن مات التصوير والنحت نحو ألف عام طوال العصور الوسطى ، ولم يبق من الفنون التشكيلية إلا من العمارة لبناء الحصون والكاتدرائيات . ( الواقع أن احياء فن التصوير بدأ منذ الفنان الإيطالي جيوفتو ، ( ١٢٦٦ - ١٣٣٧ ) ) .

شيئان جديدان بعثا الحياة في فن التصوير وفي النحت بعد الف عام من موتها في العالم المسيحي .

الشىء الأول هو أن الفنان المسيحي نتيجة لانتشار الهيومانزم وتمجيد الإنسان ، ونتيجة لاحياء ثقافة الجاهلية اليونانية والرومانية ، بدأ يصور أنبياء الكتاب المقدس ومشاهدته كما كان اليوناني أو الروماني يصور آلهته وأعمالها بالخط واللون والحجر ، وقد غزت روح الهيومانزم الكنيسة الكاثوليكية نفسها فقبلت أن يكون الدين موضوعاً لفن لتنزيين الكاتدرائيات والكنائس والأديرة والقصور بالصور وال Frescoes والرسوم الحائطية الـ ( أي التجسدية أو التشخيصية ) ، دون تخوف من عودة الوثنية وعبادة الأصنام .. ولا شك أن هذا ما كان ليتم لو لا تأثير المستنيرين من دعاء المذهب الانساني والعلوم الإنسانية من أمثال لورنزو دي ميديتشي .

أما الشىء الثاني فهو أن فنان عصر النهضة الأوروبية أصبح لا يجد حرجاً في أن يستوحى الأساطير الوثنية ذاتها كما كان يستوحى القصص الدينى باعتبار أن الأساطير الوثنية جزءاً لا يتجزء من تراثه الثقافى .

خذ مثلاً بوتيتشيللى ، كان وسط كل رسومه الدينية وصور أعماله عصره يجد مجدًا في أن يرسم لوحة « مولد فينوس » ولوحة « مارس وفيتوس » ولوحة « الربيع » ولوحة « بالاس أثينا والقنطور ( الإنسان الحسان ) » .. الخ .. ومثله فیلبینو لبی ، إلى جانب ما ترك من لوحات دينية ، ترك أيضاً « القنطور الجريح » و « أبولو وبان » و « تضحية اللاوكون » و « لغز الحب » و « لغز الموسيقى » .. الخ .. وفي ميروكيو نجد « حاملة الباقة » .

وقد ورث لورنزو دي ميديتشي عن أبيه مائة كتاب فأضاف إليها ألفاً كان من بينها كثير من المخطوطات النادرة . وكان له وكلاء ، مثل لاسكاريس ، يشترون له المخطوطات من شرق أوروبا ، وقد جمع له لاسكاريس أكثر من

٢٠٠ مخطوط منها ٨٠ مخطوطا لم تكن معروفة من قبل . وكان لورنزو يكلف الخطاطين المشهورين في البندقية ونابولي وفيرارا وبادوا وروما بنسخ المخطوطات النادرة .

وكان جوتبرج ( ١٣٩٤ - ١٤٦٨ ) قد اخترع المطبعة حديثا في ١٤٤٠ وكان أول ما طبعه هو الكتاب المقدس في ١٤٤٨ ، ولكن أوروبا كانت لا تزال في عصر المخطوطات ويدايات الطباعة أيام لورنزو دي مدি�تشي .

وقد شارك كوسيمو دي مدি�تشي جد لورنزو ، في حركة جمع المخطوطات اليونانية واللاتينية لاحياء تراث أوروبا الجاهلي . وكانت في فلورنسا جامعة تسمى « الاستوديوم » أنشئت منذ أيام دانتي البيجيري ، وكانت تعلم فيها اليونانيات . وكان بترارك لا يحسن قراءة هوميروس ، ولكن الاهتمام باليونانيات شاع بين المثقفين حتى صار جزءا لا يتجزأ من ثقافة الصحفة نحو ١٤٠٠ .

وحتى حين دخل كوسيمو دي مدি�تشي في صراع مع أساتذة الاستوديوم من دعاة المذهب الانساني ونفاهם وأغلق جامعة فلورنسا ، استمر تعليم اليونانية عند المدرسين الخصوصيين طوال القرن الخامس عشر ، واستمر جمع المخطوطات اليونانية ونسخها . وقد استطاع كوسيمو أن يجمع من هذه المخطوطات ٢٠٠ مخطوط أشرف الوراق ( السكتبي ) فسبازيانو على نسخها في أقل من عامين نحو ١٤٥٠ بمساعدة ٤٥ خطاطا . وبسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ في أيدي الأتراك العثمانيين فر علماء بيزنطة إلى غرب أوروبا ، ولا سيما إيطاليا حاملين معهم كنوز الثقافة اليونانية القديمة .

بل أن البيزنطيين منذ انعقاد المجمع المككوني في فلورنسا عام ١٤٣٩ ، جاءوا إلى فلورنسا بخلافاتهم الفكرية العميقية ، وكانت منهم شيعتان : شيعة تتبع أرسطو وتضع الله خارج الكون ، وتفترض أن الإنسان خلق عاقلاً وقدراً على التمييز والاختيار ولذا يمكن حسابه وثوابه وعقابه ، وشيعة تتبع أفلاطون وتضع الله داخل الكون وتفترض أن في العالم المادي أو الطبيعة روحانية تكسر بحضورها الدائم قوانين المادة وتعطلها .

وقد كان زعيم الأفلاطونية معلماً يدعى فليثون تجاوز الأفلاطونية إلى الأفلاطونية الجديدة ، أي فلسفة أفلاطونين ، بل وتجاوز أفلاطون فدعا إلى فلسفة الهرامة ونبيها هرمز « المثلث العظمات » ، كما يسمونه . فاستدعي إلى القسطنطينية واتهم بالزنقة ، وبعد موته في ١٤٥١ أحرقت بعض كتبه .

واستأنف دعوة فليثون في فلورنسا المفكر الإيطالي مارسيلو فيتشيني ( ١٤٣٣ - ١٤٩٩ ) وهو من فلورنسا . وكان فيتشيني ابن طبيب كوسيمو دي مدичي ، وقد جعله كوسيمو مؤدياً لخطبته لورنزو دي مدичي منذ صباح . وكان أصلاً من شيعة أرسيلو ولكنها تحول إلى الأفلاطونية وترجم أفلاطون إلى الإيطالية . وأعاد فيتشيني افتتاح « أكاديمية » أفلاطون في قصر كوسيمو دي مدiche ، مع آخرين من مفكري عصره ، وكان يحتفلون كل ٧ نوفمبر بذكرى ميلاد أفلاطون وذكرى وفاته ، تماماً كما كان يفعل أفلوطين وبورفير ( فرفريوس ) وتلامذة أفلاطون العظام ، فكانوا يجلسون حول مائدة عليها مصباح . وكان لورنزو الصبي يشارك في هذه الاحتفالات والطقوس . وبتشجيع من كوسيمو أصبحت الأفلاطونية الحديثة هي الفلسفة الرسمية لآل مدiche . ولا غرابة في ذلك ، فقد اقترب ظهور البورجوازية الأوروبية بالثورة على العقل وبالقلق الوجودي وبرفض المنطق الصوري وكل فلسفة تناهى باستقرار قوانين الوجود واستقرار العلاقات بين البشر على غرار ما كانت تفعل الاستقرائية .

ولما بلغ لورنزو دي مدiche مبلغ الشباب ، أصدر قراراً في ٢٢ ديسمبر ١٤٧٢ بنقل جامعة فلورنسا القديمة ( الاستوديو ) إلى بيزا ، ثاني مدن إقليم توسكانيا ، وعين نفسه أحد خمسة أعضاء في مجلس الجامعة لتصريف شئونها ، كل ذلك مع اتصال رعايته لacadémie فلورنسا التي كان يرأسها فيتشيني . وقد أنفق لورنزو على الجامعة وعلى الأكاديمية الكثير من ماله الخاص .

أما أعمال لورنزو دي مدiche فهي بالإيطالية ، فهو لم يكتب شيئاً باللاتينية ، وهي ديوان « أمبرا » ، وديوان « غابات الحب » ، وديوان « أغاني الرعاعة » . وقد استوحى في هذه الدواوين أساطير اليونان والرومان ، وأشعار أوفيد وستاتيوس . وله أيضاً ديوان « المجادلات » ( ١٤٧٣ ) ، الذي يسمى أحياناً ديوان « الملك الصالح » .

وديوان « المجادلات : أو الملك الصالح » قصيدة مطولة من ستة أقسام ، حيث يسمى الشاعر نفسه « لورو » أو صاحب الغار ، ونجد أنه يفر من مضائقات المدينة ويتعزل في الريف ، حيث يلتقي بالراعي النيو . وفي الحوار نسمع حديثاً عن مباهج المدينة ومساوئها ، وعن مباهج الريف ومساوئه ، دون أن نخرج بنتيجة محددة . وفي القسم الثاني إلى الخامس من هذه القصيدة نجد الفيلسوف فيتشيني ينضم إلى الشاعر والراعي ، ويشترك الثلاثة في حوار فلسفي حول معنى السعادة الحقيقية في الحياة .

وفي هذا الحوار نسمع فيتشينو يقول ان السعادة المادية زائلة ، لأن القوة والصحة والجمال كلها أشياء زائلة . أما السعادة الروحية فهي نوعان : سعادة مستمدّة من الحواس ، وهذه زائلة ، وسعادة مستمدّة من العقل ، وهذه دائمة . والسعادة العقلية نوعان : فطري ومكتسب . والفطري أرقى من المكتسب . والفضائل المكتسبة نوعان : عملي وتأملي ، والتأملي أرقى من العملي . الفضائل التأمليّة هي التي تؤدي إلى السعادة الحقيقية ولبلوغها يجب فصل الروح عن المادة ، والسعادة الحقيقية هي في تأمل الله ، وهذا التأمل يحتاج إلى الإرادة وإلى الحب . فالموازنة بين الريف والمدينة عبّث في عبث ، لأن سلام النفس يأتي من السمو الذاتي سواء أكنا في الريف أو في المدينة . وقد كان هذا الديوان مجرد أصداء لرسالة كتبها فيتشينو « في السعادة » ، ولكن بلغة غنائية تعطيه طعما خاصاً وقيمة خاصة .

كذلك اكتشفت حديثا (في ١٨٦٤) في أرشيف دولة فلورنسا مخطوط روایتين قصيرتين يظن أن لورنزو دي مدیتشی كتبهما عام ١٤٧٠ ، وهما رواية « يعقوب » ورواية « جينرفا ». والروايتان من نوع « ديكاميرون » بوكاشيو .

وموضوع « يعقوب » هو أن شاباً من فلورنسا اسمه فرانشيسكو كان يدرس في سينينا عشق فتاة اسمها كاساندرا (سنة ٢٥)، متزوجة من تاجر مسن ثرى عمره ٨٠ سنة . وابتكر فرانشيسكو حيلة تجعله يعاشر كاساندرا بموافقة زوجها ، فاتفق مع غانية أن تعيش معه على أنها زوجته ثم تغوى الغانية التاجر العجوز ، وبعد ذلك تظاهرة بالندم ويرغبها في التكfir ، وتقنع الغانية العجوز بنفس الشيء ، ويعرفان أمام قس فرانسيكانى متواطئاً فيدل القس التاجر على طريق التكfir ، وهو أن يسمح التاجر للشاب فرانشيسكو أن يضاجع زوجته ، وهكذا ينتقل الشاب إلى منزل التاجر العجوز ليقيم معه ! .

أما رواية « جينرفا » فيسيطر عليها أسلوب بترارك في الحب العذري : جينرفا فتاة عمرها ١٥ سنة تعيش في قصر أبيها في بيزا ، واسم أبيها جريفي . ويعشقها شاب اسمه لويجي من أسرة لانفرانكي العريقة ويدخل لويجي بيت الفتاة عن طريق صديق له اسمه مافيو جريمالدى . ويتوقف المخطوط بعد أن يقتحم الشاب غرفة محبوبته الجميلة ، وهنا تبدأ التنهادات والعبارات الساخنة وعهود الحب المذهب بالأسلوب الشاعري الذي استقر في أدب فلورنسا منذ دانتي في ديوان « الحياة الجديدة » وبترارك

في « الأغاني » ، وهو « الأسلوب الحلو الجديد » كما كانوا يسمونه في انتقال التعبير الأدبي من اللاتينية إلى عاميتها الإيطالية .

وربما كان أدب لورنزو دي مدি�تشي أدباً من الدرجتين الثانية أو الثالثة، ولكن الذي لا شك فيه أن لورنزو كان حلقة هامة في تاريخ حركة الرنسانس بفضل رعايته للفنون والآداب في عصره ولتراث اليونان والرومان القدماء وكافة ما يسمى العلوم والدراسات الإنسانية ، وكذلك بفضل رعايته لجامعة بيزا وحمايته لحرية الفكر ، فهو الذي فتح قصره للمفكر بيكتو ديللا ميراندولا وحماه من غضب البابا ، كما فتح قصره للمفكر فيتشينو ومريديه من مجدهي مدرسة الأفلاطونية الحديثة في عصر النهضة الأوروبية .

لقد كان لورنزو دي مدি�تشي رغم كل دعاؤه بزوال المسادة وبخداع الحواس عاشقاً للحياة وللجمال ولمجده الإنسان .

•••

# سافنارولا

SAVONAROLA

١٤٩٨ - ١٤٥٩



## الشيوقراطي الأول

□ اقتنى عصر النهضة الأوروبية بحركة متميزة فيه تعرف بحركة الاصلاح الديني . وكانت حركة الاصلاح الديني حركة احتجاج على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وممارسات باباواتها وكرادلها ورجالها من جهة وحركة احتجاج على الدعوة الانسانية او المذهب الانساني ( الميومانزم ) من جهة أخرى .

وكان أول من بدأ حركة الاصلاح الديني في ايطاليا راهب اسمه سافونارولا من مدينة فرارا ، وكان من نقائض الأمور أن هذا الراهب الذي كان يبشر « نظريا » بنفس التعاليم التي تبشر بها الكنيسة الكاثوليكية كان أكبر مندد بفساد هذه المؤسسة الدينية في زمانه وباقبالها على الدنيا بدلا من تجردها لعبادة الله وتفرغها للعمل الصالح . بل ولقد أتتهم سلفونارولا الكنيسة الكاثوليكية بالجاهلية والوثنية لاهتمامها بالطقوس والشعائر أكثر من اهتمامها بالروحانيات ، ولاهتمامها بعلوم القدماء وآدابهم وفنونهم أكثر من اهتمامها بالإنجيل .

ويمثل هذه الضراوة هاجم سافونارولا العلوم والآداب والفنون الدنيوية ، وهاجم الفلسفه والشعراء والناثرين القدماء منهم والمحدين ، من أفلاطون وأرسطو إلى شبشورون وفرجيبل وهوراس إلى بترارك وبوكاشيو .. هاجم كل هؤلاء لأنهم يلهون الناس عن ذكر الله . وبمثل هذه الضراوة هاجم سافونارولا رجال الدولة وأعيانها ومن يجمعون كنوز الدنيا واتهامهم بالطغيان والفساد ويتزين الترف والرذيلة للرعية .

ومن فرارا نزل سافونارولا على فلورنسا . نزل عليها كالاعصار في أواخر عهد لورنزو دي مدি�تشي . وما أن مات لورنزو حتى حكم سافونارولا

فلورنسا ، حكمها ملكا غير متوج ، حكمها من منابر الكنائس ، حكمها من صومعته في دير سان مارك ، حكمها سبع سنوات من ١٤٩٢ إلى ١٤٩٨ ، حين تكاثر عليه أعداؤه فصدر عليه قرار الحرمان وحاكموه ، وحكموا باعدامه شنقا وحرقا .

ولد جيروم سافونارولا في ٢١ سبتمبر ١٤٥٢ ، فهو بذلك كان يصغر لورينزو دي مدি�تشى ( ١٤٤٩ - ١٤٩٢ ) بستين أو بثلاثة سنوات ، ونشأ وتعلم في موطنها فيرارا . وكان جده ميشيل سافونارولا طبيبا نابها وعالما معروفا يعمل استاذًا بجامعة فيرارا ، وكان الطبيب الخاص لدوق إستاتو ومؤدب ولد عهد فيرارا . أما أبوه نيكولو سافونارولا فقد كان رجلا خالما الذكر له ثلاثة أولاد ، اشتغل أكبرهم بالجندية ، وكان أوسطهم خاملا كأبيه ، أما لصغرهم وهو جيروم فقد ظهرت عليه علامات النجابة فكفله جده الطبيب حتى سن السادسة عشرة .

وكان الجد يرى في الحفيد أنه يكون طبيبا مثله ، ولكن الفتى جيروم كان محبا للعزلة مقبلا على الأدب الديني ، شديد التقوى ، وقد أخذ تقواه عن جده ولكنه بالغ فيها . فبدأ عليه الضيق من أقبال شباب جيله الطائش على الترف والملذات .

وذات يوم اختفى الشاب جيروم سافونارولا من فيرارا في ٢٦ أبريل ١٤٧٥ ، وكان عمره يومئذ اثنين وعشرين سنة ، ودخل دير سان دومينيك في مدينة بولونيا ، بعد أن ترك لوالده خطابا يفسر فيه تصرفه بأنه نرار من « شقاء العالم ومن فساد البشر » ، كما أرسى لوالده كتابا كان قد ألفه بعنوان « احترار الدنيا » . قال سافونارولا في رسالة الوداع التي تركها لأبيه أن عصره قد هبط إلى الحضيض بحيث لم يوجد فيه شيخا واحدا قادرًا على فعل الخير . لقد كان يصفى كالمسحور لكلام جده التقى وهو ينعي على شباب العصر خفته وطيشه ، فالشباب يبادرون إلى أغاني الفرام بدلا من أن يقصدوا إلى الكنيسة ليرتلوا المزامير في صلاة المغرب . لقد تركت تقوى الجد أثرا عميقا في نفس الحفيد ، فلم يعد يرى عاصما من شرور الدنيا إلا الارتماء في أحضان الدين .

و قبل أن يدخل سافونارولا الدير توفي جده ، فانتقل الاشراف على تعليمه إلى أبيه وأدخله - أبوه الجامعة وهو في الثامنة عشرة من عمره . وثار سافونارولا على أساتذته لكثره ما رأاه من منافسات وشحان ، وللطاعة العميماء التي كانوا يفرضونها على تلاميذهم ليرددوا آراءهم ، ولأنهم كانوا

لا يتقنون الا البلاغة الجوفاء وأساليب الجدل الأجوف . فقطع سافونارولا دراسته الجامعية وعاد الى دار أبيه في فيرارا .

وكانت أسرة سافونارولا أسرة معلقة بين الاستقرارية والبورجوازية . نقد كان جده مؤدب ولـى عهد دوقيـة استـا . وكان سافونارولا الشـاب يخالط أقرانـه من الشـباب المـاجـنـ في بلاط كورسو دوقـ استـا ، ولـكـنه لم يكن يجد مـتعـةـ في لهـوـهمـ وـسـمـرـهـمـ وـمـجـونـهـمـ . وقد زـادـ من عـقـدـهـ أنهـ لمـ يكنـ يـكـنـ وـسـيـماـ ولاـ نـبـيلـاـ بـالـولـدـ وـلـاـ مـثـقـنـاـ وـاسـعـ الثـقـافـةـ . فـانـسـحـبـ منـ البـلـاطـ كـمـاـ اـنـسـحـبـ منـ قـبـلـ منـ الـأـكـادـيمـيـةـ اوـ منـ الـجـامـعـةـ .

وزاد الامر تعقيدـاـ انهـ ذاتـ يومـ سـكـنـتـ بـجـوارـ دـارـ سـافـونـارـولاـ فيـ فـيـرـارـاـ أـسـرـةـ الـبـنـكـيرـ الشـهـيرـ أـسـتـروـتـزـىـ التـىـ جـاءـتـ مـنـقـيـةـ مـنـ فـلـوـرـنسـاـ فـيـ عـهـدـ لـورـنـزوـ دـىـ مدـيـشـىـ . وـكـانـتـ لـاسـتـروـتـزـىـ بـنـتـ شـابـةـ غـيرـ شـرـعـيـةـ تـقـيمـ مـعـهـ ، نـفـاذـةـ العـطـرـ فـاتـنـةـ الشـيـابـ ، وـيـبـدـوـ أـنـهـاـ اـسـتـطـاعـتـ أـنـ تـوـقـعـ سـافـونـارـولاـ الشـابـ فـيـ حـيـائـلـهـ ، فـقـدـ كـانـتـ نـافـذـتـهـ قـبـالـةـ نـافـذـتـهـ فـيـ حـارـةـ ضـيـقـةـ مـنـ تـلـكـ الـحـارـاتـ الـتـىـ اـشـتـهـرـتـ بـهـاـ الـمـدـنـ فـيـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ . وـيـتـيمـ سـافـونـارـولاـ بـحـبـهاـ . وـذـاتـ يـوـمـ عـرـضـ عـلـيـهـاـ الزـوـاجـ مـنـ النـافـذـةـ ، فـأـشـاحـتـ بـوـجـهـهـاـ فـيـ اـعـرـاضـ وـاسـتـكـبـارـ ، وـغـضـبـ سـافـونـارـولاـ غـضـبـاـ أـعـمـىـ وـصـاحـ فـيـهـاـ : «ـ يـاـ اـبـنـةـ الـزـنـاـ »ـ !ـ ثـمـ اـغـلـقـ نـافـذـتـهـ بـحـدـةـ شـدـيدـةـ .

ثم تـدـهـورـتـ أحـوالـ الـأـسـرـةـ الـمـادـيـةـ ، فـأـخـذـ أـبـوهـ يـشـكـوـ مـنـ الضـائـقـةـ الـمـالـيـةـ . وـكـانـتـ لـهـ اـخـتـانـ لـاـ تـمـلـكـانـ بـائـنـةـ (ـدوـطـةـ)ـ لـلـزـوـاجـ . أـمـاـ أـمـهـ فـكـانـتـ تـحـتـفـظـ بـكـرـيـاءـ الـمـالـ الـذـيـ كـانـ وـلـمـ يـعـدـ . وـبـعـدـ عـامـ كـامـلـ مـنـ الـمـداـواـتـ الـنـفـسـيـةـ اـتـخـذـ جـيـرـوـمـ سـافـونـارـولاـ ذـلـكـ الـقـرـارـ الـذـيـ كـانـ يـعـلـمـ أـنـهـ لـاـ رـجـمـةـ فـيـهـ : قـرـارـ دـخـولـ الـدـيرـ .

وـمـعـ ذـلـكـ فـمـنـذـ ذـلـكـ الـخـطـابـ الـأـوـلـ الـذـيـ تـرـكـ سـافـونـارـولاـ لـوـالـدـهـ مـعـتـدـراـ عـنـ اـخـتـيـاهـ الـفـجـائـيـ وـمـفـسـرـاـ قـرـارـهـ بـدـخـولـ الـدـيرـ ، فـلـاحـظـ بـعـضـ الـعـبـاراتـ غـيرـ الـمـلـوـفـةـ الـتـىـ تـوـحـىـ بـأـنـنـاـ باـزاـءـ شـخـصـيـةـ غـيرـ مـلـوـفـةـ .

فـهـوـ فـيـ مـكـانـ مـاـ مـنـ الـخـطـابـ يـقـولـ لـوـالـدـهـ : «ـ مـنـ أـجـلـ هـذـاـ اـنـاشـدـكـ يـاـ أـبـيـ الـعـزـيزـ أـنـ تـضـعـ حـدـاـ لـاـحـزـانـكـ وـلـاـ تـسـبـبـ لـىـ مـزـيدـاـ مـنـ الـاحـزـانـ وـالـأـشـجـانـ فـوـقـ مـاـ أـعـانـيـ مـنـهـ الـآنـ . وـلـيـسـ ذـلـكـ لـنـدـمـىـ عـلـىـ مـاـ فـعـلـتـ ، فـأـنـاـ لـنـ أـغـيـرـ مـاـ فـعـلـتـ شـيـئـاـ ، وـلـوـ اـعـتـقـدـتـ أـنـيـ سـأـكـونـ أـعـظـمـ مـنـ قـيـصـرـ ، وـلـكـنـ لـأـنـيـ مـلـكـ مـخـلـوقـ مـنـ لـحـمـ وـدـمـ »ـ . وـالـفـكـرـةـ هـنـاـ غـرـيـبـةـ ، أـنـ يـتـصـورـ سـافـونـارـولاـ الشـابـ فـيـ هـذـاـ السـيـاقـ أـنـهـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـجـاـوزـ قـيـصـرـ فـيـ عـظـمـتـهـ لـوـ أـنـهـ

عدل عن تخصيص حياته لخدمة الله . ومن يعرف شيئاً عن المسيحية يعرف أن المقابلة تجري دائماً بين ملك قيصر في الأرضين وملك الله في الأعلى . هناك أذن ما يوحى بأن هذا الفتى الغريب الأطوار إنما كان منذ البداية يحلم بامبراطورية في الأرض أو في السماء ، بل هناك ما يوحى بأن حلمه بامبراطوريته الروحانية ليس الا بدليلاً عن حلمه بامبراطوريته المادية ، وهذه درجة متقدمة من الاحساس بالعظمة الذي يسميه علماء النفس « الميجالومانيا » او جنون العظمة ، وهو ملازم لأكثر العباقرة وقادة البشر مهما استخفى تحت أقنعة التواضع والزهد في الحياة ومجدها .

وفي هذا الخطاب نفسه يقول الفتى سافونارولا :

« أهديني يا الله الى الطريق الذي ينبغي على أن أسلكه حتى استطيع أن ارتفع بروحى اليك » .

« عندئذ هداني الله وقت أن أذنت مشيئته الى الطريق برحمته اللانهائية ، وتلقيت الوحي رغم أنني لم أكن أهلاً له » .

ما هذا الكلام ؟ أهو حقيقة أم مجاز ؟ ثم كيف يتاح لبشر - داخل الاطار الديني التقليدي الذي كان يتحرك فيه سافونارولا - أن يرتفع بروحه الى مقام عرش الله الا أن تكون به درجة من درجات التأله ؟ ثم ما هذا الحديث عن وحي يوحى مجرد دخول رجل صومعة الدين ؟ أم ترى سافونارولا يتوهם نفسه نبياً جديداً ؟ لو أنه شاعر أو صوف لقلنا منه كل هذه الرموز . ثم ما هذه الفكرة الملحة في هذا الخطاب ، فكرة الاستشهاد في سبيل المسيح . « ان المسيح قد تنازل واختاره ليجعل منه أحد فرسانه المجاهدين » . و « هو يؤثر أن يموت ألف مرة قبل أن يدخله » و « هو سيقدم جسده قرباناً للمسيح » وهكذا .

ويعلن سافونارولا لابيه « أولاً : ان الدافع الذي يدفعه للاعتراض بالدين هو : الشقاء العظيم في الدنيا وظلم الناس للناس والشهوانية وجرائم الزنا واللصوصية والكبرباء والوثنية والتجريف الفظيع من كل ما لوث العصر وجعل من المجال أن نجد فيه رجالاً قادراً على فعل الخير » و « لذا فلنا كثيراً ما أردد كل يوم وسط عبراتي بيت فرجيل القائل : اهرب من الدنيا الخ .. ومن أجمل هذا لم أعد أحتمل عدوان شعوب ايطاليا العميات القلوب ، ولا سيما حين أبصرت كل الفضائل تداس وكل الرذائل تعظم » .

وهكذا دخل جيروم سافونارولا دير سان دومينيك في بولونيا بـإيطاليا وأصبح واحداً من الرهبان الدومينikan بعد سنتين من دخوله ( ١٤٧٧ ) . وهناك عرف عنه أنه كان يتمدد أذلال نفسه لسحق كل مظهر من مظاهر الكبراء ، فكان يختار من الواجبات أقسامها على النفس مثل خدمة الرهبان على المائدة وغسل الصحون والكنس وتنظيف المراحيض وغسل أقدام الرهبان المسنين . وكان سلك الرهبان الدومينikan معروفاً في أوروبا كلها بأنهم من أوسع فرق الرهبان علماً ومعرفة بالعلوم الفلسفية كالميتافيزيقيا والمنطق واللاهوت وأصول الدين ، بل ومن أوسعهم علماً بالعلوم الطبيعية . فكان يقول : أنا لم أدخل الدير لكي استبدل بـأرسسطو الصومعة أرسسطو الجامعية » .

ولأنه كان متعملاً فقد كانت له صومعته الخاصة به ، ومع ذلك فقد كان لا يقرأ إلا الكتاب المقدس وسير القديسين وكان يستنكر في إخوانه الرهبان اقبالهم على دراسة علوم الدنيا أو تبحرهم في الفلسفة . وصدمه أن وجد رؤساء في الدير لا هم لهم إلا توسيع سلطات الدير وزيادة ثروته والارتقاء بالعلم فيه ، وكان دائم المقارنة بين حالهم هذا وحال حواري المسيح البسطاء وآباء الكنيسة الأولين .

لقد كان يعد نفسه ليكون واعظاً يهدى الناس من المنبر إلى طريق الله والفضيلة والحياة الأخرى . ولذا فمن أكبر الخطأ أن نتصور أن سافونارولا كان رائداً من رواد حركة الرنسانيس أو عصر النهضة الأوروبية ، فقد كان على العكس من ذلك قمة العصور الوسطى الأوروبية بما كانت تمثله من انصراف كامل عن الحياة الدنيا واعداد كامل للحياة الآخرة وسحق كامل للإنسان ومجد الإنسان . وإذا كان سافونارولا قد دخل في تناقض ثم في صراع مع بابا روما والكنيسة الكاثوليكية ، فما ذلك إلا لما رأه من انحراف الكنيسة عن طريقها القويم ومن تنكر الكنيسة لمبادئها الأساسية ، وما ثورته الا ثورة الأصولية الدينية على « المؤسسة » الدينية أو ثورة السلفية المتية على السلفية الهرمة .

وبعد ست سنوات من الحياة في الدير بين بولونيا وفيرارا بدأ سافونارولا حياة الوعاظ . وكانت بداياته فاشلة ، فقد كان صوته ضعيفاً وعباراته متعلقة من فرط الخجل ، ولكنه في النهاية سيطر على من الخطابة بعد تجارب مريرة . وقد كان أمامه طريقان : أن يعمد إلى فن المثل ليسطر على جمهوره ، وأن يختار من الموضوعات لوعاظه ما يجعله يتذهب روحانياً وجسدياً كما كان يفعل الأنبياء الوعاظ كلما تحدثوا عن يوم القيمة ، فاختار هذا الطريق الأخير . فكان دائم النظر في « سفر الرؤيا » وفي أسفار المعهد القديم التي تنذر بالغضب الإلهي .

كان في التاسعة والعشرين من عمره حين أغلق دير الدومينikan في فيرارا بسبب تعرض المدينة للغزو ، فنقل من فيه من الرهبان الى أديرة شتى . وكان من نصيب سافونارولا أن ينتقل الى دير سان مارك في فلورنسا عام ١٤٨١ .

وكان وعاظ فلورنسا أسانذة مثقفين في علم البلاغة ، وكان زعيماً راهباً يدعى الفرير (الاخ) ماريانيو طبق شهرته الأفاق ، يأسر الباب الناس بالبلاغة والمنطق وكان سافونارولا ظاهر العجز أمامه لانه كان لا يتقن إلا لغة البساطة والصدق فأكتب على سفر «رؤيا» يدرسه ويتمثله ويقلب معانيه . وما أدرك ما سفر «رؤيا» فهو ذلك السفر الذي ينذر البشر باقتراب علامات الساعة بسبب كثرة ذنبهم وأوزارهم ، ويتوعد الخطاة بنهاية العالم بالکوارث الكونية الرمزية ويفتح أمامهم هاوية الجحيم بعد أن يرفع الله الأبرار إلى الملوك مع المسيح القادم في آخر الزمان كما جاء في العقيدة المسيحية .

ووُجِد سافونارولا في هذا الموضوع المثير حلاً لجميع مشاكله . وهكذا بدأ في فلورنسا تلك السلسلة العاصفة من المواجهات التي خا أمام وهجها ضياء الفرير (الاخ) ماريانيو ، وانتهت به إلى أن أصبح ملكاً غير متوج على فلورنسا يكاد يعبده الكثيرون من دون الله ، يقيم من الحكم من يشاء ويحسن من الشرائع ما يشاء ويحكم فلورنسا بقوانين حديدية استمدتها من الكتاب المقدس أو استوحها من روحه بوصفها قوانين الهيئة . فكان سافونارولا أول مؤسس للثيوقراطية في العالم المسيحي ، ومعناها الحرف «حكومة الله» ، حتى دالت دولته بعد ست سنوات وأعدم وأحرقت جثته مع راهبين من تبعه المخلصين في ١٤٩٨ .

نعم هذا ما دعا له سافونارولا : لقد فسد العصر وسبب فساده هو فساد الكنيسة التي نخر السوس في عظامها فلم يعد يرجى لها علاج . فيما الذي كان يجذب الناس إلى الكنيسة ؟ الطقوس والبلاغة والموسيقى والمناظر الشبيهة بمناظر التיאtero . ولماذا يهتم الناس بالدين ؟ من أجل المنافع والرخاء والنفوذ السياسية — لقد مات الإيمان وقاتلته هو الكنيسة نفسها . وكيف كان ذلك ؟ لأن مادية العصر سميت كل شيء فيها . من الجذور حتى أطراف فروعها .

كانت الفضائح في روما مركز البابوية تزكم الأنوف . الأصل في العقيدة الكاثوليكية أن رجال الدين لا يتزوجون ، وأن الرهبان ومنهم الكرادلة والبابوات ، ينذرون لله ثلاثة نذور يوم يدخلون باب الدير : نذر العفة

ونذر الفقر ونذر الطاعة . وها نحن نرى البابا اسكندر السادس ( ١٤٣١ - ١٥٠٣ ) جهاراً نهاراً له ثلاثة أولاد غير شرعيين هم : سيزار بورجيا دوق أوربينسو ( ١٤٧٥ - ١٥٠٧ ) ولوكرييس بورجيا ( ١٤٨٠ - ١٥١٩ ) ودوق كانديا ، وها نحن نرى البابوات يبيعون صكوك الففران ، وها نحن نرى البابوات يرهبون مخالفتهم بقرارات الحberman ، وها نحن نرى رجال الدين من رأس الكنيسة الى أصغر كاهن يكتزون المال ويفتنون الضياع .

لقد ساءت سمعة الكنيسة في عصر سافونارولا حتى غدا الناس يتذرون بقولهم عن قسيس « إن سمعته الطيبة تتنافى مع انتسابه للكنيسة » . وكان اسم رجال الدين مرادفاً للطفيلية والسلسل . وكانت العامة تتقد صوت اجراس الأديرة قائلاً « داندو ! داندو ! أى هات ! هات !

● ● ●

وبعد سافونارولا يرى الرؤى في نوبات من البحaran وفي المنام . وذات يوم خيل اليه أنه يرى السماء تتشق فوقه وتوهم أنه سمع صوتاً يأمره بأن يعلن في الناس أن الله سوف يرسل ضرياته على العالم ليقتضي من فساد الكنيسة . وروى هذه الرؤيا على تلميذه من تلاميذه في الدير يدعى الفرير سلفستر ماروف كان هو نفسه مصاباً بمرض السير في النوم ، فارتاع لهذه الرؤيا وحضره من مغبتها . ولكن تجاوباً قوياً حدث بين هذين الرجلين المصابين بمرض الهلوسة أو اكتشاف الحجاب .

و قبل أن يعود سافونارولا إلى الاستقرار في فلورنسا نجده يجوب أرجاء لومبارديا سنوات واعظ أرياف لأنه لم يكن بعد مهيأً لفلورنسا المثقفة العقل والقلب أو لم تكن فلورنسا بعد مهيأة للقاء هذا المتنبى التذير بعظامه الأمور .

في ١٤٨٢ أوفده دير سان مارك إلى ما يشبه مؤتمر الدومينikan في ريجيا أميليا حيث استخلف سافونارولا الأنظار بكلامه العنيف عن فساد الكنيسة . وكان الفيلسوف الشاب الكونت بيكون ديللا ميراندولا ، صديق لورنزو دي مديشي ، عامل فلورنسا حاضراً هذا الاجتماع فلاحظ شدة الحماسة وقوة اليقين التي كان يتحدث بها سافونارولا . وقد كان هذا اللقاء هو بداية سيرة سافونارولا في فلورنسا بعد طوافه سنوات في لومبارديا ، لأن بيكون ديللا ميراندولا توسط عند لورنزو دي مديشي لدعوة سافونارولا إلى دير سان مارك من جديد بسبب شدة افتئاته به .

سبع سنوات قضتها سافونارولا يجوب قرى توسكانيا لومبارديا واعظاً ومندداً بفساد الكنيسة ، وكأنه زعيم من زعماء التكبير والهجرة . في ١٤٨٤ و ١٤٨٥ نراه في سان جيمينيانو يتبنّى بأن الغضب الالهي سوف يتحقق بالكنيسة وشيكًا وبأن الكنيسة سوف تتجدد وتعود إليها نصارتها . وفي ١٤٨٦ نجده في بريشيا يتبنّى بتدمير هذه المدينة ونزول القصاص الالهي على إيطاليا كلها ، فلما احتلَّ الفرنسيون بريشيا وخربوها تذكرة الناس بنوبة سافونارولا .

ووصل سافونارولا من لومبارديا إلى دير سان مارك في فلورنسا بدعة من عاشر فلورنسا لورنزو دي ميديتشي ، بناء على ترقيته من بيكونيللا ميراندولا .. وصل الدير سيرا على الأقدام مئات الأميال وفي حالة اعياء تام بسبب كثرة الصوم واجهاد الطريق . ومرض بضررية الشمس فقادوه إلى خان في الطريق وأسعفوه حتى استطاع أن يواصل سفره إلى فلورنسا .

وفي دير سان مارك وجد كل شيء على حاله ، ووجد الأخ (الفريير) سيفلستر الذي كان يشاركه رؤاه وتتبّأاته . وبدأ موعظه الأولى بعد غيبته الطويلة ، وكان موضوعها : ضياع الإيمان وظلم العالم وفساد الكنيسة . وكان سافونارولا في فترة غيبته قد اكتسب شهرة واسعة ، فتجمّهر الناس ليسمعوه حتى ملأوا كنيسة سان مارك وما لاؤا معها حدقة الدير . وأخذ آية من سفر الرؤيا وبنى عليها موعظه : أن القصاص سينزل بالكنيسة ، وأن الكنيسة سوف ترد إليها روحها ويتجدد شبابها ، وأن كان ذلك سوف يتم في أجل وشيك .

وتندق سافونارولا في الارتجال مشتعلًا عنينا هائجاً متوعداً كأنما استولت عليه روح شيطانية . لم يعد ذلك الراهب الشاب الخجول الملتعم الذي سبق أن سمعه أهل فلورنسا قبل ذلك بسنوات في كنيسة سان مارك وانفضوا من حوله ملا . لقد تحول سافونارولا إلى مبشر جماهيري أشبه شيء بخطباء الرعاع الذين يسيطرُون باللّا عقل على العامة والبساطة بقوّة مغناطيسية لا تقاوم : يزفرون لها فتقتد القلوب في الصدور ويندبون مصير البشرية الاليم فتهمر من العيون العبرات ويذكرون الناس بيوم الحشر فتقطع الأنفاس هلعا . وينفس هذه الدورة المغناطيسية دخل هو أيضاً نفس المجال ، فسيطرت عليه الجماهير كما سيطر هو على الجماهير .

وكانت هذه بداية مجده الحقيقي .

وكان ذلك في أول أغسطس ١٤٨٩ .

## ٦

# تکفیرالمجتمع

□ كان لورنزو دي مدি�تشي ، عاھل فلورنسا ، لا يزال حيا حين عاد سافونارولا إلى دير سان مارك بفلورنسا وبدأ « جهاده » المسيحي ، « بطريقة الرسل أو حواري المسيح ، وبلا تنميق ، وبلا أيفيهات مسرحية ، وبلا طرح للقضايا » ، ومع ذلك فقد كان يکهرب جمهوره بعاطفته الجياشة الصادقة وبنبؤاته .

وضاقت كنيسة سان مارك ومعها الدير عن استيعاب جمهوره فكان يعظ أهل فلورنسا في « الدوم » أي « القبة » فيخاطب جمهورا من عشرة آلاف شخص ، ومهما كان في هذا التقدير من المغالاة فهو يعطينا فكرة عامة عما كان يجري في فلورنسا في تلك الأيام .. فقد كان الناس يتجمعون منذ الفجر ليحظوا بمكان قريب من المنبر ، أما العقلاء فقد كانوا يرون فيه مجرد دجال وخطيب رعاع وشحاذ للعواطف . وهذا نموذج من موعظة له في أسبوع الآلام :

« ابك يا قلبى ، ابك يا روحى ، واذرفى يا عينى دموعا من دموع الروح والقلب — ابکوا معى کبارا وصغارا ، نساء ورجالا ، خطأة وصالحين ، اغنياء وفقراء ، كهنة ومدنين ، ابکوا جميعا على هذا الموت الفاجع ، انتخبى ايتها النجوم ، وانتى ايتها الأرض انتخبى ، ولتنتحب كل عناصر الطبيعة وكل مخلوقات العالم لموت فادينا وخلصنا المسيح » .

ومثل هذا كثير ، حتى سماء أعداؤه « البكاء » . وكان مكيانييللى الشاب « ١٤٦٩ - ١٥٢٧ » يستمع اليه في استخفاف ويسميه « قربة من الكلام » . ومع ذلك فقد كان كلما خطب يجعل الناس يتৎسرعون وينشجون ندما على ذنبهم وخطاياهم ويرتدون خوفا من مواجهة ربهم يوم القيمة . وكان كلما صعد المنبر يتقمصه روح هائج يسميه « روح الله » يحل عقدة لسانه و يجعله يصب حمם الغضب الالهى على آثام البشر . فان نسب ما لديه من حمم عمد

إلى التنبؤ وأحاديث الرؤى ليسسيطر تماماً على جمهوره . وكان جمهوره يؤمّ مواعظه كما يؤمّ المسرح طلباً للانفعال . وبعد أن يجهدهم الانفعال يتفرقون ليجددوا حيويتهم في الحانات والخمارات .

كان سافونارولا يندد باستمرار بنقائص الرجال التي تهدم الأسرة : ينند بالسكر والميسر والانحلال الجنسي وما شاكل ذلك ، فوجد في نساء فلورنسا عضداً قوياً . كذلك كان دائم التنديد بالربا وبالجشع للمال وبالاقبال على ملذات الحياة وعلى حياة الترف بين المواطنين ، و دائم التنديد بانحلال رجال الدين بل واباحيتهم وطمعهم في مغانم الدنيا واتجارهم بالدين واهتمامهم بالطقوس أكثر من اهتمامهم بجوهر الإيمان . ثم دخل سافونارولا منطقة المحظورات ، فكان ينند باستمرار في مواعظه بطبعيـانـ الحكم وبفسادـ الطبقةـ الحاكمةـ وبالاستبدادـ السياسيـ وبالظلمـ الواقعـ علىـ الفقراءـ . وهذا دخل في تناقضـ معـ «ـ لورنزوـ دـىـ مدـيـتـشـىـ »ـ والـ حـزـبـ الـ كـبـيرـ الـ مـوالـىـ لـهـ الـ ذـىـ اـتـهـمـ سـافـونـارـوـلـاـ بـأـنـهـ تـحـولـ مـنـ وـاعـظـ أـخـلـاقـىـ إـلـىـ مـهـيـجـ سـيـاسـىـ دـيـماـجـوجـىـ يـؤـلـبـ الرـعـاعـ عـلـىـ النـظـامـ القـائـمـ فـيـ فـلـورـنـسـاـ بـاسـمـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ .

ولكى يزيد سافونارولا فى سيطرته على الناس أخذ يتـسوـهمـ أوـ يـوهـمـ الناسـ بـأـنـهـ موـحـىـ إـلـيـهـ وـأـنـ الـكـلـامـ الـذـىـ يـجـرـىـ عـلـىـ لـسـانـهـ مـنـ عـنـدـ اللهـ . قالـ لـ صـاحـبـهـ الفـرـيرـ «ـ سـيـلـفـيـسـتـرـ »ـ إـنـهـ يـشـعـرـ بـأـنـ الصـلـيـبـ وـاسـمـ اللهـ مـنـقـوشـانـ عـلـىـ صـدـرـهـ . وـكـذـبـهـ الـأـخـ سـيـلـفـيـسـتـرـ أـوـلـ الـأـمـ رـغـمـ أـنـهـ كـانـ مـنـ السـائـرـينـ نـيـاماـ ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـلـبـثـ أـنـ صـدـقـهـ حـيـنـ توـهـمـ أـنـهـ رـأـىـ فـيـ الرـؤـيـاـ الـمـلـائـكـةـ تـقـولـ لـهـ أـنـ سـافـونـارـوـلـاـ «ـ حـبـيـبـ اللـهـ »ـ فـهـوـ صـادـقـ فـيـ كـلـامـهـ . وـكـانـ هـنـاكـ رـاهـبـ آـخـرـ مـنـ تـلـامـيـذـ سـافـونـارـوـلـاـ أـسـمـهـ الـأـخـ «ـ دـوـمـيـنـيـكـ »ـ ، وـكـانـ يـؤـمـنـ بـهـ إـيمـانـاـ أـعـمـىـ فـيـ كـلـ مـاـ يـقـولـ . أـمـاـ أـهـلـ فـلـورـنـسـاـ فـنـدـ اـنـقـسـمـوـاـ فـيـ أـمـرـهـ : الـبـسـطـاءـ آـمـنـوـاـ بـمـلـكـاتـهـ الـخـارـقـةـ وـالـعـقـلـاءـ رـأـواـ فـيـهـ دـجـالـ خـطـيرـاـ .

مثلاً ، قال سافونارولا في أحدى مواعظه التي هاجم فيها رجال الدين : « أنا لم أكن أريد أن أنكلم باسمك يا الهى ، ولكنك كنت أقوى منى فسيطرت على وصارت كلمتك مثل لهب يحرق نخاع عظامي ، ولهذا أصبحت موضع احتقار الناس وبغضهم . ولكنني رغم هذا أندى الله ليلاً ونهاراً وأقول لكم أن الفجر الجديد وشيك الizzoغ » .

وببدو أن سافونارولا كان يدرك خطورة ادعائه بأنه شبه نبي يوحى إليه ، فقد كتب قائلاً : « اذكر أنني كنت أعظم في القبة عام ١٤٩١ وكانت موعظتي قد بنيت على هذه الرؤى ، وفكرت في العدول عنها وفي الامتناع نهائياً في المستقبل عن استخدام هذا الموضوع . والله شهيد على أنني صليت

وصليت طوال النهار وطوال الليل حتى مطلع الفجر من أجل ذلك ، ولكن كل المسالك وكل الأفكار سدت أمامي . ونحو الفجر كنت مكدودا ضيق النفس بسبب طوال السهاد ، وسمعت صوتا يجيب على صلاتي بقوله : يا مجنون ! الا ترى ان الله يأمرك بأن تواصل السير في نفس الطريق » .. وفي ذلك اليوم القيت موعدة رهيبة » .

وحين كثر تنديد سافونارولا بالطفيان دعوه ليلقي مواعظه في قصر الحكومة في فلورنسا على أعضاء السنوية . وكانت مواعظته حول واجبات الحاكم وواجبات المحكومين ، ولكنها سرعان ما تحولت إلى تنديد بالطفاء والطفيان ، وكان سافونارولا محدودا في كلامه فكان واضحا أنه يتحدث عن لورنزو دي مدি�تشي .

ولم يغضب لورنزو ، فقد كان سياسيا متربما ، فتجاهل الاتهانات المسددة إليه بالايحاء ، وحين نبهه أخوانه إلى خطورة سافونارولا والى وقاحتته لم يزد تعليقه عن قوله انه على استعداد لأن يغفر له سوء أدبه اذا استطاع أن يصلح من أخلاق اهل فلورنسا وأنه يتمنى له التوفيق في عمله . لقد كان واضحا له أن سافونارولا كان يخالط أعداء آل مدি�تشي السياسيين ويستقى منهم فكرته عن البيت الحاكم في فلورنسا . لقد كان اجنبيا من فرارا ولا يعرف الكثير عن سراديب الحياة السياسية في فلورنسا ، ولم يكن هناك من داع للاشتباه في توافقه مع أعداء لورنزو دي مدি�تشي .

وفي يوليو ١٤٩١ انتخب سافونارولا رئيسا لدير سان مارك . ولما كان سان مارك قد بنى بأموال آل مدি�تشي ويعيش على دعمهم المادي المستمر ، فقد جرت العادة أن يقوم كل رئيس جديد للدير بزيارة مجاملة لرئيس الدولة . ولكن سافونارولا رفض أن يخضع لهذا التقليد قائلا : « أنا مدين بانتخابي ولن أقدم فروض الاحترام لغير الله . ولم يغضب لورنزو دي مدি�تشي لذلك وإنما عده مجرد نقص في التربية . وكان دائما يشير إلى سافونارولا بقوله « هذا الأجنبي » الوارد من فرارا .

كان هناك صراع صامت بين الرجلين لم يظهر على السطح أبدا . كان لورنزو رجلا متواضعا في رفعة لا افتخار ، لطيف العشر يصعب على اي إنسان أن يقاوم سحره ورقته . وكان يريد أن ينعرف إلى سافونارولا لسبر غوره ولكن دون حرج ، غير أن عناد الراهب وقف دائما حائلا بينهما . كان لورنزو يذهب إلى دير سان مارك ليتنزه في حديقته آملا أن يخرج سافونارولا للقاءه ، ولكن سافونارولا كان يقع في صومعته لا يريم . وكان لورنزو يملك أن يرسل إليه من يستدعيه ، ولكنه كان يخرج من أي مظهر

من مظاهر الاكراه . وكان سافونارولا يراه ويسائل « هل أرسل في طلبي ؟ » فيقال : « لا » . فيقول : « فليتنزه كما يشاء » . المشكلة كانت : من منها يسعى الى الآخر قبل صاحبه .

ولم يكرر لورنزو هذه التجربة ، وإنما جرب شيئاً آخر . وضع لورنزو في صندوق نذور القراء الخاص بالدير خمسمائة من الفلورينات الذهبية ، وكان مستشار لورنزو قد انتهى جانبياً ليشهد الموقف ، وفوجيء الرهبان بسانونارولا يفرز النقود الذهبية من النقود الفضية والنحاسية ويرسل بالقطع الذهبية الى جمعية خيرية لتوزيعها على القراء . وبعد فترة وجيزة أهدى بيكيو ديللا ميراندولا مبلغاً سخياً لدير سان مارك فقبله سافونارولا . وهنا نقط امتعض لورنزو دى مدیتشی وبداً يتحدث علنا عن عجرفة الراهب وعما يشيشه من الفضائح عنه وسط العامة . لقد كان سافونارولا يتصور أن لورنزو دى مدیتشی كان يحاول أن يرثوه ليسكت عنه .

وكان الموضوع الذي لا يفتّ سافونارولا يرددده في خطبه هو طغيان لورنزو دى مدیتشی . ولم يكن لورنزو طاغية بالمعنى المأثور . كانت فلورنسا جمهورية تحافظ على هذا الاطار الشكلي أسوة بما فعله أسلافه من آل مدیتشی ، ولم يعلن نفسه أميراً أو دوقاً ليجعل الملك وراثياً في بيته بقوة القانون مكتفياً بأنه كان كذلك بقوة الواقع بحكم إمبراطورية المال التي ورثها عن أجداده . كان لورنزو مجرد المواطن الأول في جمهورية فلورنسا كما كان جده كوسيمو دى مدیتشی ، ولكن سلطاته في هذه الدولية كانت بالفعل مطلقة لأن آل مدیتشی كانوا بالفعل يسيطرون بنفسوذ مالهم وحزفهم على انتخاب مجلس المائة والمجلس الحاكم ، فكانت السنiorية اداة طيعة في أيديهم . ولكن لورنزو شخصياً لم يكن له حجاب وكان يمكن لأى مواطن أن يجذبه في الشارع من ردائه ليستوقفه ويناقشه .

اما أن آل مدیتشی قد جمعوا ثروتهم الطائلة من الريا فهذا لم يكن وقنا عليهم وإنما من طبيعة النظام المصرفى الذى استقر فى المدن الإيطالية منذ الحروب الصليبية ، وبغيره ما كان يمكن لتجارة او صناعة ان تقوم في ايطاليا بأى معنى جاد . وكل التغيير الذى حدث هو ان البيوتات المسيحية بدأت تشارك في عمليات التمويل بالريا وانشاء المصارف رغم التحرير الكنسى بعد ان كان ذلك وقفا على اليهود .

لهذا بدت حملة سافونارولا على آل مدیتشی حملة ظالمه . وربما كان هناك وجہ حق في اشتباہ البعض في ان خصوم لورنزو السياسيين والماليين قد استغلوا سذاجة هذا الراهب « الأجنبى » وحماسه الاهوج

لتطبيق شريعة الدين المسيحي في فلورنسا لإقامة مدينة الله على الأرض .

وأوفد لورنزو إلى سافونارولا وفدا من خمسة أشخاص لتحذيره من اقحام الدين في السياسة ، وأشاروا له من طرف خفي أن نفيه من فلورنسا أمر وارد اذا دأب على مهاجمة «الطاغية»، فكان جواب سافونارولا ان أعلام القديسين : القديس دومينيك والقديس أنطونيوس والقديسة كاترين وغيرهم كانوا جميعا يتدخلون في الحياة الدنيوية ، ثم أضاف : « قولوا للورنزو أن يتبوب عن ذنبه لأن الله لا يخشى أحدا ولن يستثنى من عقابه الحاكمين في الأرض .. أما النفي فأنا لا أرهبه أبدا فمدينتكم هي مجرد «حبة عدس» على وجه الأرض ، وسيوف تنتصر الدعوة الجديدة وتندثر الدعوة القديمة .. وأما كوني أجنبيا وكونه مواطننا ، بل والمواطن الأول في المدينة ، فأنا باق هنا وهو راحل .. نعم ، أنا باق وهو راحل » . وبعد ذلك بأيام أعلن سافونارولا نبوته بموت لورنزو والبابا وملك نابولي في أجل قريب وقد كان .

ولم يلتق الرجالان الا ولو رنزو على فراش الموت . كان لورنزو بالفعل مريضا فلما دنت منيته تناول الأسرار المقدسة ثم أرسل في طلب الراهب الرهيب في ٨ أبريل ١٤٩٢ بأمل أن يصلحه ، ولكن سافونارولا أجاب بأن كلامه سوف يسوء لورنزو ولن يجدى شيئا . وأرسل لورنزو مرة أخرى في طلب «الراهب الوحيد الأمين الذي عرفه» وهذا وافق سافونارولا على زيارته . وكان المفكر بوليتيانو صديق لورنزو ، حاضرا في هذا اللقاء وقال ان لورنزو أبدى رغبته في الاعتراف فشجعه سافونارولا وصلى معه . وفي تلك الليلة مات لورنزو .

كان هذا المشهد الأخير في حياة لورنزو دى ميديتشى بمثابة انتصار أدبي لسافونارولا ، زاد من قوته وشهرته وأسبغ عليه نوعا من الاعتراف من جانب الدولة . أما من ناحية سافونارولا فقد أخذ يشهد بعظمة لورنزو دى ميديتشى قائلا انه أكثر من عرف من الحكم تمرسا بالأمور الدينية ، فلما مات البابا اينوتشينتو الثامن ( ١٤٣٢ - ١٤٩٢ ) الذى اعدى الكرسى البابوى منذ ١٤٨٤ ، لما مات البابا بعد ثلاثة شهور من موت لورنزو ثبت في روع العامة ان سافونارولا مكتشف عنه الحجاب وانه قادر على التنبؤ بالغيب .

وكانت خلافة البابا اينوتشينتو الثامن مقاعدة الفساد كولاية خلفه زير النساء البابا اسكندر السادس او روديريجو بورجيا ( ١٤٣١ - ١٥٠٣ ) . فقد اشتهر اينوتشينتو الثامن بأنه كان رجل المحسوبية وخراب الذمة ، كما

أنه كان أول بابا يعترف علينا بأبنائه غير الشرعيين ، وكان دأبه توسيع أملاك أسرته . وقد جرت كل هذه الرذائل مجرى التقليد في البلاط البابوى حتى أن تغير أسماء البابوات لم يعد يعنى شيئاً فكلهم كان سواسية في شهوة السلطة والتملك والاقبال على المذاهب .

وهذا ما رکز سافونارولا على مهاجمته ، وكان يفسر انحطاط الكنيسة الكاثوليكية بأنه نتيجة لانتقال السلطة الزمنية (الدنيوية) إليها منذ أن قيل إن الإمبراطور قسطنطين تنازل لبابوية روما ، وهى كرسى القديس بطرس ، عن السلطة الدنيوية في الإمبراطورية الرومانية إلى جانب سلطتها الدينية . قال سافونارولا إن السلطة السياسية هي التي سمت الكنيسة بالاطماع والمصالح الدنيوية فأضاعت منها سلطتها الأخلاقية التي هي سر قوتها .

والحل ؟ الحل عند سافونارولا هو العودة إلى فجر المسيحية أيام الرسل أو حواريي المسيح حين كانت الكنيسة خالصة في بساطتها وحين كان المؤمنون يعيشون بالإيمان في المدينة الفاضلة المؤسسة على القوانين الإلهية . وفي ١٤٩٢ أعلن سافونارولا على أهل فلورنسا أنه رأى في الرؤيا علامة في وجه السماء الغاضبة فيها سيف معلق فوق روما وصوت يهدى وسط هزيم الرعد قائلاً : « انظروا ، فهذا سيف الله العاجل ينزل على الأرض فجأة » ، وفي سماء روما طاف سيف أسود نقشت عليه بحروف من كبريت عبارة لاتينية هي : « هذا صليب غضب الله » ، والصوت المنادى بين الرعد يدعو الناس للتوبة . ثم رأى سافونارولا الرؤيا الثانية ، وهى صليب أبيض معلق فوق سماء القدس كتب عليه باللاتينية : « هذا صليب رحمة الله » . نعم .. المجتمع كله يعيش في الجاهلية ولا خلاص له إلا بالتوبة والعودة إلى القوانين الإلهية .

وبداً اصلاحه الدينى بدير سان مارك فأبطل بعض ما كان يجرى فيه من طقوس الرهبان التي تدخل في باب البدع لحفلات استقبال الرهبان الجدد التي كان يقوم فيها راهب جديد بدور مريم العذراء ويناديه الرهبان المجتمعون من حوله باسم « ماما » . وقاطع سافونارولا اللحم تماماً وكان لا يأكل من الخبز الا الكسر ، ويقتصر في نومه على أربع ساعات . وفرض على نفسه أدنى أعمال العمل . اليدوى كالكتنس ومسح البلاط وتنظيف المراحيض ليعطى القدوة لغيره من الرهبان . ويبعدوا أنه بمقدار ما كان غضوباً حين يعتلى المنابر كان وديعاً وحليماً في حياته الخاصة . كذلك نجح سافونارولا في انتزاع الفاتيكان بضرورة انهاء تبعية دير سان مارك للوبرارديا وحصوله على استقلاله الذاتي بالتبعية لفلورنسا .

وَمَا أَنْ اسْتَقْلَ سَافُونارُولَا بَدِيرَهُ حَتَّىٰ بَدَا اصْلَاحَاهُ الْاسْسَاسِيَّةِ وَفِي  
مُقْدَمَتِهَا تَحْرِيمِ حِيَازَةِ الْمَالِ أَوِ الْأَمْلاَكِ عَلَى الدِّيرِ وَرَهْبَانِهِ ، فَقَدْ كَانَ  
الْقَدِيسُ دُومِينِيكُ مُؤْسِسُ فِرْقَةِ الرَّهْبَانِ الدُّومِينِيَّكَانِ مُتَشَدِّداً فِي نَذْرِ الْفَقْرِ  
لِلَّهِ وَكَانَ يَلْعَنُ كُلَّ مَنْ يَدْخُلُ الْمَالَ فِي فِرْقَتِهِ . فَبَدَا سَافُونارُولَا حَرِبَهُ  
ضَدَ الْقَمْلَكِ وَبَاعَ أَمْلَاكَ الدِّيرِ وَحَرَمَ قِبْوَلَ الرَّهْبَانِ الْعَطَّاِيَا وَفَرَضَ عَلَىِ  
الْرَّهْبَانِ أَنْ يَعْمَلُوا لِيَكْسِبُوا تَوْهِمَهُمْ عَلَى أَنْ تَكُونَ مَكَاسِبِهِمْ عَلَىِ الْمَشَاعِ  
لِاَطْعَامِ الْجَمِيعِ ، فَكَانُوا يَزَارِلُونَ الْأَعْمَالِ الْيَدِوِيَّةِ كَتْسِنَخِ الْمَخْطُوطَاتِ أَوِ  
زَخْرَفَتِهَا أَوِ الرَّسْمِ أَوِ النَّحْتِ ، وَكَانَ الْقَادِرُ يَعْوُلُ الْعَاجِزَ وَالْكَثِيرَةِ الْعَامِلَةِ  
تَعْوُلَ قَلْةَ مِنِ الْمَوْهُوبِينَ اِنْقَطَعَتْ لِلْوَعْظَةِ أَوِ لِدِرَاسَةِ الْلَّاهُوتِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ  
وَالْفَلِسْفَةِ وَاللِّغَاتِ كَالْيُونَانِيَّةِ وَالْعَبْرِيَّةِ وَالْتُّرْكِيَّةِ وَالْكَلْدَانِيَّةِ . وَكَانَ الرَّهْبَانِ  
النَّاسِئُونَ يَقْوِمُونَ بِالْأَعْمَالِ الْكَرِيمَةِ . وَهَكُذا تَحُولُ دِيرُ سَانُ مَارِكُ فِي فُلُورِنْسَا  
مِنْ مَجْتمِعِ رَهْبَانِ شَحَادِينَ إِلَى مَا يُشَبِّهُ الْكَوْمُونِ الشِّيَوْعِيِّ حِيثُ كُلُّ يَعْطِي  
حَسْبَ قَدْرِهِ وَكُلُّ يَأْخُذُ حَسْبَ حَاجَتِهِ .

وَمَعَ ذَلِكَ أَوْ بِسَبِبِ ذَلِكَ ، كَانَتْ دُعَوةُ سَانُونَارُولَا دُعَوةً مُعَادِيَةً  
لِلنَّفَافِةِ وَلِلْمَذْهَبِ الْإِنْسَانِيِّ لَأَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنْ كُلُّ شَيْءٍ يَنْبَغِي أَنْ يَبْدُأَ  
بِالْأَلْهَيَاتِ وَيَنْتَهِي بِالْأَلْهَيَاتِ ، وَالْأَلْهَيَاتِ عِنْدَهُ كَانَتِ الْإِيمَانُ وَالنَّقْوَى وَالْعَمَلُ  
الصَّالِحُ دُونَ تَقْلِيسٍ كَبِيرٍ وَلَا مَجَالٍ عِنْدَهُ لِلنَّظَرِ فِي أَىِّ عِلْمٍ أَوْ فَنٍ أَوْ فَكْرٍ  
دُنْيَوِيٍّ . اِنْظُرْ إِلَيْهِ يَقُولُ فِي أَحَدِ مَوَاعِظِهِ :

« اَمْضِ اَذْنَ إِلَى رُومَا وَسْتَقْبَاجِهِمْ هُنَّا كِتَابُهُمْ الْقَائِمَةُ عَلَىِ  
الْمَذْهَبِ الْإِنْسَانِيِّ ، جَالِبِيهِمْ عَلَىِ اِنْفُسِهِمِ الْلَّعْنَةُ بِتَوْجِيهِهِ أَرْوَاهُمُهُ إِلَى فَرْجِيلِ  
وَهُورَاسِ وَشِيشِرُونَ . وَهُمْ يَنَادِونَ مَعَ اَمْلَاطُونَ وَأَرْسَطُو وَفَرْجِيلِ وَبِتَارَكِ  
بِأَهْمَيَّةِ الْكَلْمَاتِ وَيَهْمَلُونَ صَحَّةَ الرُّوحِ . لَمَّا لَمْ يَكْتَفُوا بِشَرْحِ ذَلِكَ الْكِتَابِ  
الَّذِي يَشْتَمِلُ وَحْدَهُ عَلَى قَانُونِ الْحَيَاةِ وَجُوهِهِا ، اَلَا وَهُوَ الْاِنْجِيلُ ، بَدَلَّا  
مِنْ شَرْحِ كُلِّ هَذِهِ الْكِتَابَاتِ الْكَثِيرَةِ ، اِيَّاهَا الْمَسِيحِيُّونَ ! يَجْبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْمِلَ  
مَعْنَا الْاِنْجِيلَ بِاسْتِمْرَارٍ ، لَا الْكِتَابَ نَفْسَهُ وَلَكِنَّ رُوحَ الْكِتَابِ . اَنَّ الْعَمَلَ  
الصَّالِحَ لِيَسَ فِي الْوَرَقِ . وَمَؤَلَّفَاتِ الْمَسِيحِ الْحَقِيقِيَّةُ هُمُ الرَّسُولُ وَالْقَدِيسُونَ ،  
وَالْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ يَتَمَثَّلُ فِي تَقْلِيدِ حَيَاتِهِمْ » .

« اَنَّ الْكَنِيْسَةَ اَوَّلَى لَمْ تَعْرِفْ تِيجَانَ الْبَابُوَاتِ وَلَا طِيَالِسَ الْكَرَادِلَةِ  
وَالْاِبِيَانَفَةِ وَلَا الصَّوَالِجَ النَّفِيسَةِ وَلَا الْاوْعِيَةِ الْمَقْدِسَةِ الْذَّهَبِيَّةِ . فَقَدْ كَانَ  
اَكْثَرُ حَوَارِبِيِّ الْمَسِيحِ مِنِ الصَّيَادِيْنَ وَمِنْ بَسْطَاءِ النَّاسِ وَكُلُّ مَظَاهِرِ الْاَبَهَةِ  
وَالْفَنِّ هَذِهِ مِنْ آثارِ الْوَثَنِيَّاتِ اَوَّلَى . وَالَّى اَنْ تَعُودَ الْكَنِيْسَةَ إِلَى بِسَاطَتِهَا  
اَوَّلَى وَيَتُوبَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاصِي فَغَضِبَ اللَّهُ قَادِمٌ لَا رَيْبَ فِيهِ » .

وكثر أتباع سافونارولا في فلورنسا ولاسيما من النساء الناضجات اللواتي كثُر ترددُهن على كنيسة سان مارك . وكانت في فلورنسا موجة من التضخم الخانق بعد الازدهار الكبير في عهد لورنزو دي ميديتشي . وشاع الرعب في المدينة من اقتراب غزو شارل الثامن ملك فرنسا لايطاليا بجيشه جرار كان يعد يومئذ أكبر قوة ضاربة في أوروبا ، لضم نابولي ، وأعلن سيادته على « الصقليتين » . فلما تحققت نبوءة سافونارولا الثالثة ومات فيرانى ملك نابولي في يناير ١٤٩٤ شاع الذعر في فلورنسا من الاقتحام الفرنسي الوشيك .

واستغل سافونارولا هذا الذعر العام ليعود إلى نبوءاته القديمة ووعيده بالويل والثبور . وفي عيد القيامة، من ثامن ١٤٩٢ كان قد أعلن في الناس أن طوفانا دونه طوفان نوح سوف يغرق فلورنسا . قال : « فليسرع كل إلى ذلك الله ، فنوح اليوم يدعو كل العالم إليه ، وباب الفلك سيفتح مفتوحا على مصراعيه ، ولكن سوف يأتي يوم يغلق فيه الباب فلا ينفع ندم ولا توبة ». وبالفعل كان شارل الثامن على أبواب فلورنسا في نوفمبر ١٤٩٤ . قال الفيلسوف بيكونديلا ميراندولا إن سافونارولا خطب في ١٧ نوفمبر في الدوم ( القبة ) فوق قبر رأسه . أما الجموع التي كانت تستمع إلى سافونارولا فقد ترقوا شاحبة وجوههم « اقترب إلى الموتى منهم إلى الأحياء » كما جاء في وصف أحد المعاصرین . وساد في المدينة الصاحبة صمت رهيب وتردد في أجواها صوت ينادي « توبوا إلى الله ! » .

•••



## الموضوعون

كانت سياسة فلورنسا التقليدية منذ لورنزو دي ميديتشي وأسلافه الحفاظ على صداقة فرنسا وعلى صداقة دوقية ميلان في إيطاليا صيانة لتوازنها مع نابولي من جهة ومع البندقية من جهة أخرى . فلما مات لورنزو وخلفه ولده بييرو دي ميديتشي في مكان الصداررة في فلورنسا تخاصم مع شارل الثامن ملك فرنسا ومع لودوفيكو سافوزا دوق ميلان ، الملقب بالغربي .

وكان لويس الحادي عشر ( ١٤٢٣ - ١٤٨٣ ) ، والد شارل الثامن ( ١٤٧٠ - ١٤٩٨ ) ، أول من وضع حدا لفوضى أمراء الاقطاع في فرنسا ووحد بلاده في ظل ملكية قوية مطلقة ، فترك لولده قوة عسكرية ضاربة يخشاها جيرانه الأوروبيون . وكانت للملك الشاب شارل الثامن أحلام توسعية محورها الاستيلاء على نابولي ، واستخدامها قاعدة لتوسيع استعمارى جديد باسم تجديد الحروب الصليبية .

غير أن الشعور القومي الذى كان يتبلور في إيطاليا أدى إلى تجمع الدوليات الإيطالية فيما يسمى « الرابطة الإيطالية » ، وهى عبارة عن حلف عسكري دفاعي يضم البندقية وميلان وفيرارا وجنوا ونابولي والكرسي البابوى أوى دولة الفاتيكان ، ولم يبق إلا أن تنضم فلورنسا إلى هذا الحلف لتبدأ الوحدة القومية الإيطالية . وحين ظهر تعاطف بييرو دي ميديتشي مع نابولي ، زحف شارل الثامن على فلورنسا وخربها بعد أن سلخ منها بيزا ولوكا ، وقد بييرو دي ميديتشي مكانه ففر إلى روما .

كانت هذه لعبة إيطالية مأowفة في العصور الوسطى ، أن يتحالف أمراء الاقطاع في دوليات إيطاليا مع دولة أجنبية أو أخرى لرد عدوان جاراتها أو للعدوان على جاراتها ، فلما نما الشعور القومي في إيطاليا ونما معه شعور الوحدة ، ازداد احساس الإيطاليين بخطر وجود الجيوش

الأجنبية على الأرضى ، مما نجد صداه في كتابات مفكري عصر الرنيسانس الإيطالية من بترارك وبوكاشيو إلى ميكافيلى . حتى البابوية التي كانت تقليدياً تشجع استقلالية أبناء الأقطاع لاستقىدهم من لعبة التوازنات بينهم في توسيع دائرة نفوذها على حساب تناقضاتهم، وكانت تعرقل الوحدة القومية في كل دولة خشية ظهور الملكية المركزية القوية التي تتعرض سلطانها على الكنيسة وتقلص من نفوذها . . حتى البابوية كانت في عهد اسكندر السادس (بورجيا) تتبني فكرة الدولة القومية وتحتاج من تدخلات الجيوش الأجنبية، وهذا ما جعل أكثر المؤرخين يصفون البابا اسكندر بورجيا بأنه كان أقرب إلى روح الرنيسانس منه إلى بابوات العصورظلمة .

● ● ●

طلب شارل الثامن حق المرور البري لجيوشه في إراضي فلورنسا ليزحف على نابولي . . نرفض بيرو دى مدیتشى أن يمنحه ما أراد . وهكذا احتل شارل الثامن فلورنسا « ليحررها » من طغيان آل مدیتشى . وفر بيرو دى مدیتشى إلى روما ومعه أخوه الكاردينال . وكان طغيان آل مدیتشى حقيقة موضوعية ، فقد سيطروا على أداة الحكم في فلورنسا بأموالهم وحكمتهم نحو قرن كامل ، مما جعل كل خصومهم السياسيين يتآلبون عليهم من عهد بيرو دى مدیتشى الذي لم يكن طاغية ولا حكيمًا كأسلافه ، بل كان مجرد حاكم تافه ورث السلطة عن أسلافه الأقوباء .

ووجد هؤلاء في سافونارولا حلينا نافعاً . ووجد سافونارولا في شارل الثامن حلينا نافعاً لتخلص فلورنسا من آل مدیتشى فكان يخطب في الناس لتهذئة الخواطر قائلاً : « يا قوم . إن الله قد استجاب لصلواتكم فتحققت ثورة عظمى لم تسفك فيها دماء . فيا أهل فلورنسا ثابروا على العمل الصالح ، وثابروا على السلام . فلو أردتم أن يثابر الله في رحمته ، فكونوا أئتم رحماء ياخوتكم . . رحماء بأصدقائكم . . رحماء بأعدائكم ! . فان فقدتم الرحمة فسوف تنزل عليكم الضربات التي أعدها الله لايطاليا كلها » .

بعباره أخرى كان سافونارولا يحضر أهل فلورنسا على أن يقبلوا شارل الثامن وجيشه الفرنسي الغازي بوصته محرر جمهوريتهم من الطغيان . فلم تحدث إلا تلاقل بسيطة . وأوفدت حكومة فلورنسا سافونارولا ليفاوض شارل الثامن في الجلاء عن فلورنسا فنجح ومعه المجلس الحاكم في هذه المهمة . . وجلا شارل الثامن عن المدينة حاملاً لقب « حامي حريات فلورنسا » مع وحدة بأن يرد بيزا إلى فلورنسا بعد إنجاز مهمته في إيطاليا وعودته إلى فرنسا .

والسؤال هو : لماذا اتخذ سافونارولا هذا الموقف الغريب من شارل الثامن والغزو الفرنسي لايطاليا ؟ والجواب المعتقد هو أنه وجد في شخصية شارل الثامن ومشروعاته ما يحقق أحلمه هو ومخططاته .

كان بين الرجلين حلم مشترك وهو حلم تجديد الحروب الصليبية التي كانت قد انتهت بعد ١٧٤ عاماً بفشل الحملة الثامنة في ١٢٧٠ .. حملة لويس التاسع .. وقد أعلن شارل الثامن أن هدفه من ضم نابولي وصقلية .. هو استخدامهما كقواعد لحملته الصليبية المزمعة . ورغم فتور الفرنسيين أنفسهم نحو هذا المشروع فقد تحمس له سافونارولا . وأخذ ينظر إلى شارل الثامن على أنه مبعوث العناية الإلهية لاحياء المسيحية المتلاكلة حتى في العالم المسيحي نفسه .

كذلك حين عرف شارل الثامن بتضامن البابا اسكندر السادس مع ملك نابولي والرابطة الايطالية لمواجهة كل غزو لايطاليا ، أعلن أنه بمجرد دخوله روما سوف يعمل على اصلاح الكنيسة وتطهيرها من الفساد . وكان هذا بمثابة انذار بفتح ملفات البابوات والكرادلة والأساقفة بل وكل رجال الدين المنحرفين الذين كان همهم الأول ارضاء شهواتهم وتوسيع أملاكهم . وهكذا وجد سافونارولا الذي لم يكن يكفي عن التنديد بمقاصد الكنيسة وتحذير رجالها من الفضب الالهي الوشيك .. وجد في شارل الثامن أداة العناية الإلهية لتطهير الكنيسة وتقويم أعوجاجها . وأخيراً فلأن سافونارولا كان أجنبياً في فلورنسا .. قادماً من فيرارا . فهو رغم نفوذه الروحي الواسع لم يكن يملك السلطة المادية الكافية لbursement سلطانه الفعلى على المدينة أو خارج المدينة . ولذا فهو قد رأى في هذا الملك الغازى الأجنبي سيف الله المسؤول لتمكينه من بث التقى في قلوب العباد واعادة الايطاليين الى حظيرة الدين .

وهذا يدل على أن سافونارولا لم يكن في حقيقته يكتفى بدور المصلح الديني الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .. وإنما كان يتغنى السلطة الدنيوية ليضع القوانين الإلهية موضع التنفيذ . وهذه هي «الثيوقراطية» التي يتحدثون عنها .. أو «حكومة الله» .. فهي ليست بالضرورة حكومة دينية أو حكومة من رجال الدين .. ولكن حكومة القانون فيها هو الشريعة الإلهية . حكومة تضع الشريعة الإلهية موضع التنفيذ .

هذه الثيوقراطية تبدو بجوارها سلطة الكنيسة في أوج العصور الوسطى سلطة باهتة شاحبة لأن الخلافة البابوية كانت تكتفى بسيطرة

السلطة الروحية على السلطة الزمنية (الدنيوية) واعطائها التفسويض في الحكم الدنيوي ، وتعترف بقوانين قيصر الى جوار قوانين الله .

كل هذا يجعل من سافونارولا .. رغم دعوته الى الاصلاح الديني والتقائه في بعض المبادئ بدعاة الاصلاح الديني في عصره وبعد عصره .. أقرب الى العصور الوسطى منه الى عصر النهضة الاوربية . فالروح القومية التي بدأت تجتاز شعوب اوروبا وتتجمل منها أمما مستقلة قائمة على وحدة الوطن (التاريخ والجغرافيا) والجنس واللغة والثقافة والمصالح الاقليمية .. كانت من أهم خصائص عصر النهضة الاوربية ، وهي التي جعلت الانجليزي يحس بانجليزيته والفرنسي يحس بفرنسيته والامريكي يحس بمالتيته والاطالي يحس بایطاليته .. الخ .. بعد أن كان كل هؤلاء يعيشون فيما كان يسمى « بالعالم المسيحي » الحالى من كل « هوية قومية » بالمعنى المفهوم لدينا الآن ، بل حيث الدين هو القومية والقومية هي الدين .

هذا الاحساس بالانتماء الديني من دون الانتماء القومي او الوطني هو الذي سوّغ لسافونارولا الاطالي أن يحل مشاكل ايطاليا والكنيسة الایطالية بالاستعانة بملك اجنبي غاز لبلاده . ويقاوم الى آخر رمق في حياته انضمام فلورنسا الى « الرابطة الایطالية » التي كانت نواة القومية الایطالية والوحدة الایطالية .. وقد كان هذا الموقف معاديا لحركة التاريخ في زمانه . وفي اعتقادى أنه كان من الدوافع الهامة التي دفعت بسافونارولا الى الهاوية ولم يتم خمس سنوات في حكم فلورنسا .

● ● ●

ودعى سافونارولا عام ١٤٩٤ الى المشاركة في اعادة صياغة نظام الحكم في فلورنسا بعد رحيل بيرو دي مدیتشى .. وهكذا دخل الراهب الواعظ عالم السياسة الملىء بالاخطر والمحاذير . وكان هدفه تسخير سلطة الدولة في فرض الفضيلة وعقاب الرذيلة بالقانون . قال سافونارولا في احدى خطبه إن الله أراد أن يعطي فلورنسا سيدا جديدا « وهذا السيد هو يسوع المسيح ، فهو الذي سيكون ملككم » .

كانت فلورنسا قد اعتادت لقرون خلت أن تقيم كرنفالا سنويا حافظ على كثير من العادات الوثنية الصارخة . وبتوجيه من سافونارولا تحول هذا الموكب الوثنى الى موكب مسيحي . فتوقف الرقص في الشوارع والأعمال البهلوانية والملابس المزخرفة والاقنعة واحتساء الخمر والبذاءات الجنسية . وتحت اشراف الاخ دومينيك سار ٦٠٠ ألف الايفاع يرثلون القرائهم الدينية ويهتفون « عاش المسيح ملکنا » . ومشي الرجال صفا واحدا

والنساء صفا واحدا في موكب ديني يطوف بالمدينة ويحج إلى دير سان مارك .

استغل سافونارولا حيوية صبية المدينة وشبابها فحولهم إلى قسوة أخلاقية ضاربة . فجعلهم يتربدون بانتظام على الكنيسة ويمتنعون عن الرقص ويقطعن الموسيقى ويتركون مدارس الشيش ويقصون شعرهم قصيراً وينصرفون عن سباق الخيل وعن الحفلات العامة . وقسمهم إلى خمس فرق هي : فرقة « المصالحين » الذين يفضّون المشاجرات ، وفرقة « المصلحين » لا الذين يعاقبون الرذيلة كالمطوعين ، وفرقة « المفتشين » الذين يبحثون عن رذائل الناس وعوراتهم ، وفرقة « جامعي الصدقات » ، وفرقة « المنظفين » الذين يبيّضون بالجبر الأماكن القذرة .

وبعد تنظيمهم تحول هؤلاء الصبية والشباب إلى قوة مخيفة ، ولا سيما بعد أن رخصت لهم الحكومة مزاولة هذا الإرهاب المقدس . فكانوا يلتحقون النساء في الشوارع وينزعون عنهن حليهن بالرضا أو بالإكراه . وكانوا يجدون متعة في « اصلاح » الكبار . وفي مواسم الصيام كانوا يهاجمون محلات الطوى ويحطمون المعروضات . وبالمثل تخصصوا في مهاجمة الحانات ومطاردة لاعبي اليسر . ولم يقف أمامهم أي عائق فكانوا ينتهكون حرمة المساكن ، ويجعلون الخدم يتجمسون على رذائل سادتهم ويبلغون عنها .. بل لقد كان هؤلاء الصغار يجدون تشجيعاً على التجسس على آبائهم وأمهاتهم . كل هذا بموافقة الحكومة وتحت جناحها بأمر من الفرير سافونارولا . ولم يجد احتجاج المواطنين على هذا العداون على الحرية الشخصية . فان وجد بين المواطنين من يرد عدوائهم أرسلت الحكومة مندوباً لحماية هؤلاء المطوعين والمفتشين .

فسافونارولا كان من أسبق من اكتشفوا ما في الصبية والراهقين والشباب الغض من حيوية مدمرة وعدوانية يمكن تسخيرها في الدين والسياسة . وكان يقول لهم انه يبدأ بهم لأنهم الجيل الجديد الذي لم يفسده بعد ضلال الآباء والأمهات . اكتشف ذلك أكثر من أربعين قرون قبل ان ينظم الفاشيست الطليان « الباليللا » من تلاميذ المدارس وصفار الحرفيين ويلبسوهم القمصان، السوداء ويخرجوا بهم في استعراضات الشوارع . وهم النموذج الذي بنى عليه « الشباب الهتلري » في المانيا أيام النازى ، وكل الجماعات شبه العسكرية كالكتيبة والجروالة والقمصان الخضر والزرق ومحطمى الحانات والكافاريهات ونوادي الاعداء العقائديين .

علم سافونارولا « غلمان الفرير » .. كما كانوا يسمونهم في فلورنسا .. أن كل مظهر من مظاهر الترف خروج على الدين .. فكانوا يغزون بيوت

الموطنين دورياً ويجردونها من التحف وأدوات الترف والشعر المستعار .. وغالى الشباب وأدوات التجميل واللوحات الفنية والمؤلفات الأدبية والفلسفية التي لم تستلهم الدين موضوعاً لها . كما كانوا يجمعون روايات بوكاشيو وأمثالها كأعمال بترارك ودواوين الشعر الذي يتحدث عن الغرام والهيمام وكتب الدعوة الإنسانية . وبعد أن يجمعوا كل هذه الأشياء الثمينة في أكوام في ميادين فلورنسا كانوا يضرمون فيها النار . وكانوا يجلدون النساء المتبرجات . وهكذا اكتسب حكم سافونارولا منذ البداية طابع الوندالية والبربرية رغم ما كان فيه من بعض الميادين الاصلاحية .

وتطبيقاً لمبادئ الشريعة المسيحية حرم سافونارولا الربا الذي كان يرافق عنده الأقراض والإيداع بالفائدة ، فقضى بذلك على النظام المصرف . ولكنـه أحل محلـه «بنـك التـسلـيف عـلـى الرـهـونـات» أو ما يـسمـى «بنـك التـقوـى» الذي كان يـقرـض عـلـى الرـهـونـ بـسـعـرـ ٦٪ سنـوـيـاـ بدلاـ منـ الـبـيـوـتـ الـمـالـيـةـ الـقـىـ كـانـتـ تـبـلـغـ الـفـائـدـةـ فـيـهاـ ٣٢٪ سنـوـيـاـ . وـكـانـ الـأـصـلـ فـيـ بنـكـ التـقوـىـ أـنـ التـسلـيفـ فـيـهـ عـلـىـ اـسـاسـ الـاحـسـانـ أـوـ الـقـرضـ الـحـسـنـ ،ـ أـىـ بـلـ فـوـائدـ ،ـ وـالـنـسـبةـ الصـفـيرـةـ المـذـكـورـةـ لـلـمـصـرـوـفـاتـ .

واعتـرضـ يـهـودـ فـلـورـنـسـاـ عـلـىـ هـذـاـ النـظـامـ الـجـدـيدـ الـذـىـ اـبـطـلـ حـرـفـتـهـ .. وـكـانـتـ سـلـطـاتـ فـلـورـنـسـاـ مـنـ قـبـلـ تـرـىـ أـنـ الـيـهـودـ حـشـراتـ سـامـةـ وـلـكـنـ لـاـ غـنـاءـ عـنـهـاـ لـاقـتصـادـ الـمـدـيـنـةـ .ـ أـمـاـ سـافـونـارـوـلـاـ فـقـدـ أـصـدـرـ قـانـونـاـ يـوجـبـ نـفـىـ كـلـ يـهـودـيـ يـقـرضـ الـمـالـ بـالـرـبـاـ بـمـجـرـدـ اـنـشـائـهـ بـنـكـ التـسلـيفـ عـلـىـ الرـهـونـاتـ الـذـىـ كـانـتـ تـمـولـهـ حـكـومـةـ الـمـدـيـنـةـ .ـ وـلـكـنـ مـاـ لـمـ يـحـسـبـ سـافـونـارـوـلـاـ حـسـابـهـ هـوـ أـنـ الـبـيـوـتـ الـمـالـيـةـ الـعـتـيدـةـ فـيـ فـلـورـنـسـاـ الـقـىـ كـانـتـ تـمـولـ الـتـجـارـةـ وـالـصـنـاعـةـ بـالـفـائـدـةـ كـانـ اـكـثـرـهـاـ فـيـ يـدـ الـعـائـلـاتـ الـمـسـيـحـيـةـ الـقـىـ تـجـمـعـتـ لـتـواجهـ هـذـاـ الـاعـصـارـ الـدـينـيـ الـذـىـ كـادـ يـعـصـفـ بـالـحـيـاةـ الـمـدـيـنـةـ .

وـأـصـدـرـ سـافـونـارـوـلـاـ ..ـ أـوـ عـلـىـ الـأـصـحـ صـدـرـ بـوـحـيـهـ ..ـ عـدـداـ مـنـ الـقـوـانـينـ الـاخـلـقـيـةـ مـثـلـ تـعلـيقـ الزـانـيـ للـمـرـءـ الـأـوـلـيـ فـيـ الـمـيـادـينـ وـاحـرـاقـ الزـانـيـ إـذـاـ تـكـرـرـتـ الـجـرـيـمةـ ..ـ وـنـفـسـ الـأـمـرـ بـالـنـسـبةـ لـلـشـذـوذـ الـجـنـسـيـ ..ـ كـذـلـكـ صـدـرـ قـانـونـ بـاـغـلـاقـ الـحـانـاتـ وـتـحـرـيمـ الرـقـ ..ـ وـهـذـهـ قـوـانـينـ أـقـرـبـ إـلـىـ نـصـوصـ الـتـورـاهـ مـنـهـاـ إـلـىـ نـصـوصـ الـأـنجـيلـ ..ـ وـرـبـيـماـ كـانـتـ هـذـهـ مـنـ دـوـاعـيـ تـلـقـيـبـهـ «ـبـالـيـهـودـيـ»ـ مـنـ جـانـبـ أـعـدـائـهـ .

وـلـمـ يـكـنـ لـسـافـونـارـوـلـاـ مـرـكـزـ رـسـمـيـ فـيـ الـدـوـلـةـ وـلـكـنـ كـانـ فـيـ الـوـاقـعـ يـحـكـمـ فـلـورـنـسـاـ مـنـ دـيـرـ سـانـ مـارـكـ بـقـوـةـ سـيـطـرـتـهـ عـلـىـ الشـارـعـ وـعـلـىـ السـنـيـورـيـةـ مـعـاـ ،ـ فـقـدـ جـمـلـ مـنـ نـفـسـهـ هـمـزـةـ الـوـصـلـ بـيـنـ الـحـكـومـةـ وـالـشـعـبـ ..

وقد أجرى من التعديلات في نظام الحكم ما حطم به احتكار الاوليجاركية (القلة) للسلطة السياسية في فلورنسا ، ابقاء لدكتاتورية الرأسماليين . ولكن تنظيمه فتح الباب أمام دكتاتورية الرعاع ، رغم أنه كان دائم التمجيد للديمقراطية ، دائم التنديد بحكم الصفو .

وكانت نساء فلورنسا تساهم في الحياة العامة . فتشارك في المجتمعات السياسية وتشارك في المراكب وجمع التبرعات .. ولكن سافونارولا أمرهن أن يقرن في بيتهن ولا يشاركن في اهتمامات الرجال ولاسيما السياسية .

وفي عهد سافونارولا كانت عقوبة من يكنز الذهب أن يشنق في ميدان عام .. وبالفعل نفذت هذه العقوبة في بعض الناس ومنهم من ظلت جثته معلقة نحو أسبوعين ثم القتلت في النهر .. وكاد سافونارولا أن يهلك شخصيا بتهمة اكتنار الذهب .. فقد أخفى الكاردينال دي مديشي أو أودع كنزا من الذهب في دير سان مارك قبل فراره من فلورنسا .. فلما اكتشفت الحكومة الكنز اتهم البعض سافونارولا باخفائه فاضطر للتنصل من هذه التهمة علينا في موعظه من فوق المibr .

● ● ●

كان سافونارولا اذن يرى في شارل الثامن وجيشه الفرنسي الغازى اداة ريانية لتجديد الحروب الصليبية .. ولاصلاح البابوية الفاسدة .. ولعقاب شعب فلورنسا والشعب الايطالى على فسقه وانصرافه عن الدين . ولتشييع سلطته في المدينة وحمايته من بطش الكنيسة .. فوق وحده مستميتا في الدفاع عن الفرنسيين وفي ابعاد فلورنسا عن الرابطة الايطالية .

وهكذا وقف أعضاء الحلف الايطالى .. وهم ميلانو والبندقية وجنوا ونابولى وروما والدوپلات البابوية ومعهم إسبانيا وامبراطور النمسا في جانب مقاومة الفرنسيين . ووقفت فلورنسا وحدها بتأثير سافونارولا في جانب الفرنسيين . وكان سافونارولا لا يفتئ يكرر أن الغزو الفرنسي هو عقاب الله لايطاليا وللكنيسة على فسادهما . ورغم أنه نجح سنوات في عزل فلورنسا عن بقية دوليات ايطاليا ، الا أن تمكّنه بحياد فلورنسا الب عليه أعداءه في الداخل والخارج .

● ● ●



## الحبل والمرقة

□ وتحرك في فلورنسا أعداء الراهب الرهيب : حزب آل مدیتشی وحزب « الارابیاتی » أی « المسعورین » .. . وهم حزب ( الاقلیة ) من كبار الأثرياء .. . الرافضیین لحكم الشعب ولحكم الفرد معا .. . وأنصار الحلف الإيطالی .. . وفرق الراهب المنافسة للدومینیکان مثل الراهب الفرنسيسیکان ... الخ . بل وبعض الدومینیکان المعارضین لسافنونارولا في دعوته ومنهجه.

وبذعوا مهاجمته في المجلس الحاكم بتهمة خلط الدين بالسياسة .. . فأجلبهم بأن عديدا من القديسين ورجال الدين خلطا الدين بالسياسة .. . وبأن الدين لا ينافق في مجلس الوزراء . بذعوا يستجوبونه : « أجبنا صراحة . هل كلامك من عند الله ؟ أجب بلا أو نعم » . فرفض الإجابة قائلا انه قال ما قاله علينا وعلى رعوس الأشهاد وليس لديه ما يضيئه وخرج من الاجتماع .. ثم أخذوا يعيرونله بأن الزحف الفرنسي قد أضاع بيزا من فلورنسا وطالبوه بالانضمام الى الرابطة الإيطالية . واعتدى عليه في الشارع فصار لا يسير من غير حرمس .

ولم يقو من سلطة سافونارولا الا أن أعداء كانوا متباغضین .. فالمسعورون يمقتون حزب آل مدیتشی ويختسونهم . كما ان الخائفین من جیوش شارل الثامن كانوا أكثر من الوطñيين المقاتلين في سبيل الوحدة القومية .. . بعبارة أخرى اتى كیاسة ، كان سافونارولا يحكم فلورنسا بذراع الراعع وتحت ظل شارل الثامن .

وكان الشغل الأسپانی ، البابا اسكندر السادس ، في روما يرافق نشاط سافونارولا في فلورنسا عن كثب ويتعذر من عدائه للرابطة الإيطالية، فكتب اليه يقول في دبلوماسية شديدة :

« ولدى الحبيب ، السلام عليك وعلىك البركات الرسولية . لقد جاعنا انك بين العاملین في حدیقة کروم الرب من أخلصهم جهدا ، وهو ما يبتهج له

طلبنا ونشكر عليه الله العلي القدير . كذلك جاعنا أنك تزعم أن تنبأتك بالمستقبل لا تأتى منك وإنما تأتى من الله . ولهذا السبب نرحب ، بما تمليه علينا رسالة الراعى نحو رعيته ، في الالقاء بك حتى نستثير عن طريقك بمشيئة الله فنتمكن من تحقيقها . ونحن نرجوك أن تبادر على وجه السرعة بالحضورلينا بما يملئه عليك واجب الطاعة المقدسة ، ولسوف نستقبلك بكل محبة واحسان » .

ودخل سافونارولا في ورطة ، فقد كان يخشى الطاعة ويخشى العصيان . وحل مشكلته مؤقتاً بأن رد رداً مهذباً يعتذر فيه عن الحضور لأنه لا يزال يمر بفترة نقاوة بعد مرض شديد ، وبأنه جنب فلورنسا سفك دماء غزيرة ، فأعداء الحرية فيها كثيرون في الداخل والخارج ، وبأن القوانين المقدسة التي سنها للمدينة جعلت أعداءه يطلبون دمه فهو لا يستطيع أن يغادر المدينة أو يقيم فيها إلا تحت حراسة مشددة ولو أنه ترك فلورنسا لانهارت كل اصلاحاته لأنها لا تزال هشة الجذور .

وكان هذا الاعتذار رغم سلامه عبارته بمثابة عصيان للأمر البابوى . فأصدر البابا أمراً بالفداء القرار الذي كان سافونارولا قد حصل عليه من حكومة فلورنسا بفضل دير سان مارك عن ولاية الكنيسة في أقليم لومبارديا حتى يستقل في فلورنسا عن كل تدخل أو توجيه خارجي وحتى تنتهي تبعيته لكاردينال لومبارديا . ومع هذا الأمر جاء الإنذار بقرار الحرمان لكل من يعصى تنفيذ أمر الفداء الفصل . وهكذا أطاح البابا باستقلال سافونارولا بدير سان مارك في فلورنسا .

وللمرة الثانية عصى سافونارولا الأمر البابوى ، محتاجاً بأنه سيجعل من رئيس لومبارديا الروحى « خصماً وحکماً » بالنسبة لرهبان سان مارك وما يدعون إليه . وهو « لم يزعم بالضبط أنهنبي » ، كما يتهمه خصومه ، و « مع ذلك حتى هذا ليس فيه ما يشكل الزندقة » ، فيحسب القانون الكنسي لابد أن يثبت من يدعى الوحي من الله أدعاه ببيان المعجزات وبدليل من الكتب المقدسة ، وأعداؤه يريدون أن يثبتوا عليه هذه التهمة . غير أن سافونارولا حتى هذه المرحلة كتب للبابا مناوراً : « وانا أكرر ما سبق ان قلت دائماً ، انى أخضع بشخصى وبكتاباتى للتصحيح من كنيسة روما » .

ولم يصدر البابا اسكندر السادس قرار الحرمان غوراً على سافونارولا ، بل أظهر الآلة لأن سمعة سافونارولا الدينية والأخلاقية كانت بلا شائبة مهما اختلف الناس حول أفكاره السياسية وتطرفة الاجتماعية .. واتخاذه سمت الكهان الملهمين في كثير من الأحيان . ولذا اكتفى البابا بمنعه

من الوعظ اقتاء لبلبلة الخواطر : « فنحن ايماناً منا بأنك قد اخطأت لا عن تجذيف مقصود ولكن عن اسراف في السذاجة ، نرد مرة اخري على خطيباتك ونأمرك بحق الطاعة المقدسة ان تكف عن الوعظ ، ليس فقط امام الجماهير ولكن أيضاً في مجالسك الخاصة ». كذلك امر البابا ان يتلزم سافونارولا بهذا المسلك حتى يتاح له المثال أممه ووعد بأن يستقبله استقبلاً أبوياً .

وكان رد سافونارولا على ذلك خطبة نارية عن فساد الفاتيكان ورذائل البابوات وضرورة اصلاح الكنيسة .

ورد في هذه الخطبة : « ان البابا لا يستطيع ان يأمرني بعكس ما يقول به الانجيل او بعكس ما يأمر به الخير . ولا أظن ان البابا قادر على هذا في يوم من الايام ، ولكن لو أنه فعله لقلت له : أنت لم تعد راعي المؤمنين ، أنت لم تعد كنيسة روما ، أنت تضل » .

وجاء فيها : « لو ظهر لي بوضوح ان ترك مدينة سيفضي الى خراب اهلها روحياً ومادياً فلن أطيع من يأمرني بمغادرتها ، لأن هذا سيكون مخالفَا لأمر الله » .

وجاء فيها : « أى روما ! استعدى لأن عقابك سيكون عظيماً . سوف يطوقك الحديد ، سوف تخترقك السيوف ، سوف تلتهمك النار واللهب .. أى روما : لقد أصابك سهم المحن . لقد اعتلت صحتك . لقد انصرفت عن سبيل الله . لقد أفسدتك الذنوب والشدايد . فإذا شئت أن تبرئي من اسقامك فغيري من نظامك : كفى غروراً ، كفى طمعاً ، كفى زنا وكفى جشعًا ، فهذا هو النهج الذي أسميك وقادك الى الهلاك .. قال رب : مادامت ايطاليا مليئة بالظلم والبغاء وبالقطع الطرق وبالنصابين فسوف أحمق أمراءها وأحطم كبارها وأقود إليها أحط شعوب لتحكمها فتستولى على محاربيها وتتنفس كنائسها التي غدت مرنعاً للبغاء .. أى ايطاليا ! سوف تتعاقب عليك الكوارث : الحروب بعد المجاعات ، والأوبئة بعد الحروب » .

كل هذا وصبيته وفتنته يجوبون شوارع فلورنسا جماعات هائفين : « عاش المسيح ملتنا » . ونشروا هذا الشعار على قصر الحكومة . لقد بلغ سافونارولا بهذه الثورة الدينية نقطة اللاعودة مع الكنيسة . منذ أن ثبتت الثورة في فلورنسا بقيادة سافونارولا عام ١٤٩٤ على بيرو دي مدیتشی وأنهت بخلعه وفراه ، تدهورت أحوال فلورنسا اقتصادياً وسياسياً . فاقتصادياً شلت التجارة والصناعة وانتشر الفقر والبطالة

وأنكمشت موارد الدولة حتى بلغت عشر قيمتها الأصلية وشاع الجوع وأطل الطاعون برأسه من جديد . أما سياسيا فقد أدى ضياع بيزا من فلورنسا بسبب التدخل الفرنسي .. إلى زعزعة مركز سافونارولا ، وأرسلت حكومة فلورنسا حملة فاشلة لاسترداد بيزا .

وفي خريف ١٤٩٦ تجمهرت على جيش فلورنسا الملهل قوات أعضاء الرابطة الإيطالية لمساعدة أهل بيزا في رد جيش فلورنسا : مولت البندقية جيوش الحلف الإيطالي ، وأرسل لودوفيكو سفورزا دوق ميلان مددًا لنجد بيزا ، وأرسل البابا اسكندر السادس إليها ابنه الأكبر ، دوق كандريا ، على رأس قوات وفي صحبته بيرو دي مدیتشی . فاستنجدت فلورنسا بشارل الثامن ملك فرنسا مرة أخرى ، وحين فشأ النبأ بأن الفرنسيين عائدون ، عبر مكسيمليان ، إمبراطور النمسا ، جبال الألب قاصدا الاستيلاء على فلورنسا ليحول دون التوسيع الفرنسي ، ودخل بيزا وحاصر ليفورنو .

ودعية حكومة فلورنسا مرة أخرى للانضمام إلى الرابطة الإيطالية ، ولكنها رفضت من جديد بضغط من سافونارولا وأنصاره . ولم يبق أمام أهل فلورنسا إلا الصلاة والضراعة في الكائس أن يرفع الله عنهم هذا البلاء . أما سافونارولا فمضى يفسر للناس كل هذه الشدائيد كعادته بأنها القصاص الالهي يحل على المدينة لأن أهل فلورنسا لم يغيروا ما بأنفسهم ، وأنه لا سبيل للنجاة إلا سبيل التوبة عن المعاصي . وكان ينظم المظاهرات الدينية ويفرض الفضيلة بالارهاب . فحرم الرقص والغناء حتى في الريف قائلا : « لأن هذا ليس أوان الرقص والغناء ، بل أوان التوبة والدموع » . وتشدد في فرض الصيام على الناس ، وكان صياما بلا نهاية ، وأغلق الحانات وحرم سباق الخيل وعلق المقامرين على عجلة التعذيب . وحدد أقصى دوطة لبناء العائلات بمبلغ خمسمائة دوقية ، وأغلق كل المحلات يوم الأحد باستثناء صيدلية أو صيدليتين وأخذ يجلد كل امرأة تتبرج أو تلبس غالى الثياب ، أو يسجّنها في حالة العودة . وجمع بغايا فلورنسا أمام قصر الحكومة ثم أصدر أمرًا بتنفيهن من المدينة .

كل هذا لم يحل مشاكل فلورنسا فبقيت المشاكل بغير حل .. وربما ساعدت الدعوة إلى التقشف والزهد على قبول الوضع الاقتصادي المتردي بين أنصار سافونارولا ، ولكن الاضطراب الاجتماعي والغليان الاجتماعي بقيا على حالهما ، وكان هناك نوع من النهم الباطني في قرار البابا الجديد بضم أديرة توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا ، إلى أديرة روما وضم رهبانهما في سلك واحد يتلقى أوامره من الرئاسة الروحية في نابولي . وكان القصد طبعاً إجراء تجربة جديدة في القضاء على استقلال دير سان مارك وسافونارولا

بعد أن فشل في توحيد توسكانيا ولومبardiا . والمعنى المتضمن في هذا القرار الأخير هو تشديد الرقابة على سافونارولا ، أما المعنى الظاهر فهو الآتي : ما دمت تزعم أنك نجحت في اصلاح أخلاق أهل فلورنسا والتقريب بينهم وبين الله ، فتعال هنا إلى روما لتزيد من تقوى أهلها الفاسدين وتملا قلوبهم بالإيمان . فتح جديد نصبه البابا لسافونارولا . وأعلن سافونارولا عصيانه لهذا القرار البابوي . انه لن يفرط في استقلاله ولو صدر ضده قرار الحرمان .

زاد الاضطراب في المدينة ، وحاول بيرو دي مدیتشی محاولة اخيرة في ٢٢ أبريل ١٤٩٧ لاقتحام فلورنسا ، ولكن حزب « المسعورين » انضم إلى حزب سافونارولا لدرء خطر المديتشي . ثم انقلب « المسعورون » على سافونارولا ، وبدعوا يناؤئونه بعدوانية ، فلطخ له شبابهم منبر الكنيسة بالبراز ودقوا له المسامير في درايزين المنبر ، ولكن أنصاره أصلحوا ما أفسده « المسعورون » . وكثير الشفب في المدينة ، فأغلق المجلس الحاكم الكنائس بحجة انتشار الطاعون ليمنع تجدد الصدام . وكان هناك اقتراح بنفي سافونارولا ولكن الاقتراح رفض . وكتب زعماء المسعورين إلى روما يطالبون بصدور قرار الحرمان على الراهب الرهيب .

وفي ١٨ مارس ١٤٩٧ أصدر البابا اسكندر السادس قرار الحرمان على سافونارولا وجاء فيه :

« لقد جاءنا من عدة أشخاص جديرين بالثقة أن راهبا يدعى جيروم سافونارولا ، يبدو أنه يشغل الآن منصب رئيس دير سان مارك ، قد نشر دعوة ضارة تؤذى أرواح البسطاء وتضليلهم .. ورغم تسامحنا معه تسامحا عظيما إلا أنه أصر على عناده ، وبالتالي فهو قد استحق العقاب .. لذلك فنحن نأمركم بأن تعلموا في حضور الشعب أن الأخ جيروم المذكور قد صدر عليه قرارنا بالحرمان ويجب عليكم معاملته كمحروم لأنه خرج على تنبياتنا وأوامتنا الرسولية . وبموجب هذا القرار نفسه ، فإن كل من يحاول أن يساعده أو أن يخالطه أو أن يتمدحه سواء بالقول أو بالفعل سوف يحرم وتوجه إليه شبهة الزندقة » .

وأذيع قرار الحرمان في الكنائس الست الرئيسية في فلورنسا شهرا بعد صدوره أي في ١٨ يونيو ١٤٩٧ وسط كل طقوس الموت الروحي . فدققت أجراس الكنائس ، وأوقدت الشموع . ولما أعلن القرار أطفئ لهيبها وحل الظلام وساد الصمت الرهيب كأنما روح سافونارولا وقفـت على حافة الهلاك الأبدي .

وعاد كل شيء في فلورنسا سيرته الأولى ، ففتحت الحالات أبوابها وعاد الناس إلى الرقص والموسيقى وسباق الخيل وانتشرت في المدينة الأغاني البذيئة للسخرية من الراهب المتزمن . ولم يبق لسافنارولا غير دير سان مارك يقيم فيه قداسه . وأطلق سافونارولا شائعة تقول أنه سيدعوا لعقد مجلس مسكوني للنظر في أوضاع الكنيسة ومفاسدها ، كما أنه كتب « رسالة احتجاج على قرار الحberman » .

وكتب رهبان دير سان مارك عريضة للبابا يتشفعون فيها للأخ سافونارولا ويشهدون له بالاستقامة ويعلنون ولاءهم له بالاجماع « رغم أنه أجنبي » عن فلورنسا وينسبون الحملة عليه أنها من دسائس بعض أحزاب فلورنسا . وكانت هناك نسخة أخرى من هذه العريضة جمعت عليها توقيعات ثلاثة مواطن في فلورنسا من أصحاب النفوذ . وهنا ثارت ثائرة المعارضة وتجدد الشغب في المدينة واتهموا دير سان مارك بأنه لم يعد ديرا وانما تحول إلى ناد سياسي وطالبوا بتطبيق عقوبة الخيانة العظمى على أنصار سافونارولا ، ولكن المعتدلين هدوا الأمور ، ووضع انتشار وباء الطاعون نهاية مؤقتة لهذا الأضطراب .

واعتكف سافونارولا في الدير أكثر من ستة شهور لا يختلط المدينيين أو يشتغل بالسياسة وساعده على ذلك أن أنصاره من المدينيين كانوا لا يزالون يسيطرون على المجلس الحاكم بفضل تحالفهم مع حزب المديتشي . وكانوا يبعثون بالرسائل والرسائل إلى روما باستمرار طالبين العفو عن سافونارولا والفاء قرار الحberman ، وكانت هناك محاولات الأخيرة . قالت روما : الحberman كان للعصيان ، فإذا جاء سافونارولا إلى روما وخضع لنظام توحيد رهبان توسكانيا مع رهبان روما ، اعتبر هذا إعلانا بالخضوع . لا خضوع لا غفران . وكتب سافونارولا للبابا اعتذارا ذليلا ، ولكن البابا تمسك بحضوره .

ورفض سافونارولا الامتثال ، فكان ذلك بداية مأساته . ربما كان خائفا على حياته من روما ودسائسها الكثيرة . ربما كان مشفقا من التراجع عن مبادئه أو مشيققا على أتباعه أن تتزعزع عقيدتهم إذا ما خضع هو وتصالح مع الشر ، أو ما كان هو ينادي دائما بأنه يمثل الشر . ربما كان سبب عناده هو مجرد الكبرياء أو الامتلاء بالنفس أو جنون العظمة . أو ربما كان في سافونارولا شوق عارم دفين لأن يموت ميتة الشهداء . أيا كانت أسباب رفض سافونارولا المثلول أمام البابا فقد كانت هذه بداية النهاية .

ولكن الذي عجل بالنهاية كان تحرك الفرنسيين الذي جدد الآمال في نفس سافونارولا . قيل إن شارل الثامن سيحضر في سبتمبر .

وتجدد أمل سافونارولا في عقد مجلس مسكوني يعرض عليه قضيته لیحکم  
بینه وبين البابا . كان شارل الثامن من قبل ذلك قد اعلن أنه سيتولى تطهیر  
كنيسة روما من الفساد المتأصل فيها ، وهو الآن قد قدم الى جامعية  
السوربون ثلاثة أسئلة وطلب الاجابة عليها :

١ — هل البابا ملزم بموجب قرارات مجلس بازل ومجمع كونستانتس  
أن يدعو للانعقاد مجتمعا عاما مرة كل عشر سنوات ، وهل تجوز مطالباته  
أن يدعو الآن للانعقاد مجتمعا عاما نظرا للاضطرابات الخطيرة التي تسود  
الكنيسة ؟

٢ — هل يجوز لاقطاب الكنيسة في حالة رفض الكرسي البابوى ،  
أن يعتقدوا مثل هذا الجمع بمعونة أمراء العالم المسيحي ؟

٣ — اذا رفض بقية الامراء ان يتدخلوا ، فهل يجوز لملك فرنسا ان  
يتدخل وحده ؟

٩

وأجابت السوربون بالإيجاب ، أما الفاتيكان فقد قابل هذه التساؤلات  
بامتعاض . وببدأ سافونارولا يحلم مرة أخرى بشبح جيش فرنسي يفرض  
الاصلاح الدينى على كنيسة روما بحد السيف . ونشط أنصاره فبدعوا يعودون  
المدة لعودته ، وسکوا لتكريمه ميدالية برونزية تحمل صورته في وجه منها ،  
وفي الوجه الآخر نقشت باللاتينية عبارة : « سيف الله فوق الأرض قاطعا  
وعاجلا » . وفي عيد الميلاد ( ٢٥ ديسمبر ) من عام ١٤٩٧ أقام سافونارولا  
القدس في دير سان مارك وناول ثلاثة شخص . وفي ٦ يناير ١٤٩٨  
( عيد التجلى ) حضر أعضاء « السنويروية » القدس جماعة وقبلوا يده عند  
الهيكل . لقد بدأ جهاد فلورنسا ضد روما .

وذهل الأصدقاء قبل الأعداء من هذا الاجتراء . وابتعد العتدلون وسقط  
حزب سافونارولا في أيدي المتطرفين . وكانت شجاعتهم من شجاعة  
اليايسين فبدأوا يكترون من الأخطاء : استأجروا على مسئوليتهم ميليشيا  
من الجنود المرتزقة الذين رفضت المدينة ان تستأجرهم ، بل ومولوا اجر  
هذا الجيش من بنك القرض الحسن او « بنك التقوى » بدون اذن من الحكومة  
ولكن بضمان بعض سراتهم . وتواترت العرائض والماكب طالبة عودة  
« الاخ » سافونارولا الى منبر الوعظ فحددت الحكومة يوم ١١ فبراير موعدا  
لعودته حتى يؤثر ذلك في نتائج الانتخابات .. وكانت كل الكنائس مغلقة باستثناء  
« القبة » . وهنا تدخل كبير أساقفة فلورنسا وأوصى المنبر وحرم على رجال  
الدين الحضور الى الكنيسة ولوح للمدنيين بتطبيق قرار الحرمان عليهم .

فتحتده السينiorية أن يسحب انذاره في خلال ساعتين والا صدر الامر بنفيه من فلورنسا .

هذا هو الجو العاصف الذى عاد فيه سافونارولا الى القاء أول خطبة بعد صدور قرار الحرمان عليه . وفي الواقع كان هناك حزبان كبيران في المدينة ، كما كان الحال أيام صراع « البيض » ( انصار التحالف مع الجerman ) و (السود ) ( انصار التحالف مع الفرنسيين ) في زمان دانتى اليجيرى . او فلنقل : كان هناك في فلورنسا حزبان كبيران : حزب يدعو للوحدة القومية في ايطاليا ، وحزب يدعو لوحدة العالم المسيحي ووحدة الكنيسة الجامعة . والغريب في الأمر أن البابا اسكندر السادس بالذات كان يبارك حزب الوحدة الايطالية ، ربما خوفا من التوسع الفرنسي وربما خوفا من فتح دفاتر المفاتيكان العطنة اذا انتصر الفرنسيون وربما تمهيدا لتنصيب ابنه سizar بورجيا أميرا أو ملكا على ايطاليا الموحدة كلها ، وربما لكل هذه العوامل مجتمعة .

والمؤرخ الذى لا يكتفى بسطح الأمور يجد مجالا خصبا للبحث فيما اذا كان سافونارولا مخلب قط استخدمته بعض شرائح الطبقة المتوسطة ذات المصلحة في التعاون مع فرنسا ولو على حساب الوطن الايطالي ، ام أنه كان فاعلا أصليا في الثورة على فساد الكنيسة الرومانية وداعية مثاليا لتجديد شباب المسيحية بالعودة الى بساطة الكنيسة الأولى أيام حواريي المسيح والى الطهر والنقاء والاعراض التام عن زخرف الدنيا الى حد اعتبار الحياة الدنيا مجرد معبر للآخرة .

وكانت أول خطبة لسافونارولا في قاعة « القبة » او « الدوم » . ولم يتطرق في هذه الخطبة الراغدة الى السياسة ولكنه ركز على موضوعه الدائم وهو فساد كنيسة روما : أن روما هي مصدر كل الفجور ، فمنذ أن أصدرت عليه قرار الحرمان عاد كل شيء سيرته الأولى : عادت الحشادات وعادت الرذيلة وعادت كل الموبقات . اذا كانت روما قد لعنته فهو ايضا يلعن روما . إنها تطلب منه الاستغفار ، أما هو فيجيب أن قاضيه هو المسيح : « ويأرب ! لو أنى طلبت الغفران لرفع هذا الحرمان فلتاح على اللعنة » .

ثم يعود سافونارولا الى ما دأب عليه في الماضي من مفاجأة ساميته بالصدمات الكهربائية : ان الله يرسل الاشارات الالهية لعقاب المعتدين ، فهناك في روما من فقد ابنه وهنا في فلورنسا من فقدوا حياتهم ( هو يشير الى أن البابا اسكندر السادس كان قد فقد ابنه الاكبر دوق كنديا في اليوم التالي

لصدور قرار الحرمان ، وقد انتشرت جثته من نهر التiber في الموقع الذي تلقى فيه قمامه المدينة ، وحامت الشبهات تباعا حول أسرة اورسييني ثم الكاردينال سفورزا وجيوغانى سفروزا وهو من أنسباء البابا ، ثم حول ابنه الثاني سيزار بورجيا الذى قيل إنه كان ينافس أخيه دوق كانديا على عشق اختهما بياتريس بورجيا ) . نعم اذا احتاج الأمر لحدث معجزة لنصرة الحق فان الله سوف يحقق معجزة .

وانتظر البسطاء حدوث معجزة ، ولكن لم تحدث معجزة . وفترة حماس الناس ثم أصيروا بالسلبية ، فلما كانت انتخابات السنويورية لمارس وابريل فاز « المسعورون » بالأغلبية . كذلك كانت لهم الأغلبية الساحقة في مجلس العشرة وفي مجلس الثمانين .

وكان لعودة سافونارولا للحياة العامة رغم اعلان « موته الروحي » اسوأ الآثر في الفاتيكان . فأرسل البابا الى حكومة فلورنسا يطلب تسليم سافونارولا للفاتيكان « لهديه لا لقتله » . وحاولت حكومة فلورنسا مرة أخرى أن تتوسط لدى البابا لساافونارولا ، وهنا هدد البابا بجسم ان يصدر على مدينة فلورنسا كلها قرار « التحرير » ، أى تحريم اقامة الشعائر الدينية فيها وتحريم التعامل معها ، حتى تكت عن الايمان بهذا الراهب العاصي « ابن الضلال » ، لأنه يعتبرها مسؤولة عن تشجيعه على تحدي الكرسي البابوى . وهنا فقط احسست فلورنسا بالخطر .

وعقد اجتماع في السنويورية في ١٤ مارس ١٤٩٨ طرحت فيه مشكلة سافونارولا وحضر قيامه بالوعظ والشعائر الدينية ، واسفر الاجتماع عن ثمانية صوات في جانب سافونارولا وبسبعة عشر صوتا ضد وسبعة صوات حائرة . واراد أعداء سافونارولا أن يطروحوا الأمر على الاستفتاء العام في المدينة ، ولكن أنصاره خالفوا من هزيمة ساحقة تقضي على مستقبلهم نهائيا فتدخلوا لسحب الاقتراح . وكان هناك اقتراح باغلاق دير سان مارك جملة لتجريد سافونارولا حتى من هذا النطاق الضيق ، ولكنه أجل للبقاء على الدير . وفوجئ سافونارولا في أن يعلن باختياره التوقف عن الوعظ واقامة الشعائر الدينية حتى تمر الأزمة بسلام ، ولكنه رفض . ثم تعقدت الأمور حين أبلغ رسميا بقرار الحظر . قال سافونارولا لمستشار السنويورية الذى حمل اليه القرار « أنت قادم من عند أسيادك . طبعا . وأنا أيضا يجب أن استشير سيدي » (يقصد الله) . وأرجأ الرد لليوم التالى ، واعتكف سافونارولا في صومعته طوال الليل يقلب النظر في سيرة النبي أرميا الذى تخلى عنه الله وقد نفه الناس بالحجارة .

وفي ١٨ مارس ١٤٩٨ ألقى سافونارولا خطبته الأخيرة : نعم أنه سيكف عن الوعظ لأنه لا يستطيع إنقاذ الناس ضد ارادتهم . ولكنه يحذر كل من أراد به سوءاً أنه سيهلك بالسيف أو سيهلك بالطاعون . ان الله معه « وكلمة الله قد صارت في هذا المكان مثل لسان من لهب أكل » . وهكذا عاد سافونارولا إلى تنبؤاته والى نبرته النبوية التي توحى بأنه يتلقى الوحي : « ان الله معى ! ... يا الهى ! اليك من حقى أن أقول هذا ؟ نعم ، بغير شك . لهذا أقولها .. بكل ثقة : لو أنتى كنت مخطئاً فلأنك يا يسوع المسيح قدتنى إلى الخطأ ! .. لو أنتى كنت مخطئاً فلأنك أيها الثالوث المقدس قدتنى إلى الخطأ ! وأنتم أيها القديسون في الفردوس ، لو أنتى كنت مخطئاً فأنتم الذين قدتموني إلى الخطأ » . وبهذا ختم سافونارولا موعظه الأخيرة .

وباعتزال سافونارولا هدأت الأمور نسبياً في روما لفترة وجيزة . ولكن سافونارولا لم يهدأ . أرسل رسالة إلى البابا إسكندر السادس في الظاهر « لاثبات صحة مبادئ وبراعتي وخضوعي » ، ولكن وراء أدبهما الظاهري تهديد باطنى بأن الله نصير الضعفاء سوف يقتضى من كل من انزلوا به الإضطهاد : « أما أنا فلا أبغى أى مجد دنيوى بل انتظر الموت انتظار المشتاق . وأنى أرجو لقدساتك الا تهمل العناية بصحتك أكثر من ذلك » . وفهم البابا ما وراء هذه الدعوات الصالحات من تهديد خفى بقرب حلول ضربة من الله ترك البابا حطاماً .

وكتب سافونارولا خطاباً إلى كل من ملوك فرنسا وإنجلترا وأسبانيا والنمسا وال مجر يطلب فيه عقد مجمع مسكوني فوري للنظر في أحوال الكنيسة . ولم يكن هذا الخطاب في الواقع الا دعوة لمحاكمة البابا إسكندر السادس وخطشه من كرسى الخلافة الرسولية . كذلك أرسل خمسة من أصدقاء سافونارولا إلى أصدقائهم في بلارات هؤلاء الملوك لتهيئة الجو .

وكان الدعوة إلى عقد هذا المجمع المسكونى تستند إلى قرارات مجمع كونستانتس ( ١٤١٤ - ١٤١٨ ) التي نصت على أنه في حالة اضطراب أحوال الكنيسة اضطراباً صارخاً أو عند سوء سلوك رئيسها يجوز عقد مجمع مسكوني بغير موافقة البابا . والمطلوب بحثه الآن هو هل يجوز عزل « خليفة المسيح » من كرسى الخلافة بقوة سلطة أخرى غير سلطته . هذا الاحتمال لم يكن وارداً عند أي مؤمن خاضع لكنيسة روما ولكن كان يشتم منه رائحة السياسة الفرنسية التي شقت الكنيسة الكاثوليكية إلى شقين حين بنت بابوية موازية بأنفيون في بروفانس بجنوب فرنسا نحو سبعين عاماً بين ١٣٠٩ و ١٣٧٨ . فالقضية المراد طرحها على المجمع المسكونى أذن هي قضية سيادة

البابا على العالم المسيحي ، وهل يجوز عزله أم لا يجوز . ويدخل في هذا طبعاً موضوع عصمة البابوات .

فالقضية اذن منذ البداية قضية متفجرة وكفيلة بتبادل اتهامات الكفر والزنقة ، ولا سيما لأن سافونارولا وانصاره كان لهم رأى معروف في البابا اسكندر السادس . كان لابد من اقناع ملوك أوروبا وأمرائها أولاً بأن هناك فعلاً ما يدعو لعقد هذا المجمع ، ثم كان لابد ثانياً من اقناع المجمع بحجج لا تقبل المناقشة بضرورة عزل البابا . لم تكن سيرة البابا الشخصية الفاضحة ولا أطماعه الدنيوية ولا دسائسه .. الخ بكافية كأسباب توجب العزل ، لأن البابا كان « رمزاً » للإيمان المسيحي وللعقيدة المسيحية . وهذا الرمز يبقى دائماً محسناً ما لم توجه إليه تهمة « الالحاد » . وهذا ما بنى عليه سافونارولا وحزبه الأمل في معركته الضارية مع البابا اسكندر السادس .

وفي أحد خطاباته للملك أوروبا كتب سافونارولا يقول :

« أشهد باسم الله أن اسكندر هذا ليس البابا ولا يمكن اعتباره كذلك ، حتى لو طرحنا جانباً خطيبته الكبرى وهي الاتجار بال المقدسات ، فهو قد اشتري الكرسي البابوي وبيع يومياً المنافع الكنسية لمن يعرض أعلى ثمن ، وبالاضافة إلى رذائله الواضحة ، فإني أؤكد أنه ليس مسيحياً وأنه لا يؤمن بالله ، وهذا ما يتجاوز كل حدود الكفر » .

كذلك كتب سافونارولا إلى مكسيميلاين أمبراطور النمسا يذكره بواجباته المقدسة نحو حماية المسيحية . وكتب إلى فرديناند وايزابيلا ملكي إسبانيا يناشدهما أن يكفا عن اضاعة وقتهم في قتال المغاربة وطردهم من إسبانيا « بينما أسس الكنيسة خربة في الداخل » . وهذا الخطاب الأخير لم يقدر له أن يصل إلى ملكي إسبانيا لأن جواسيس لودوفيكو دوق ميلانو استوقفوا الرسول وجردوه من رسالته الخطيرة التي أرسلت للتو إلى البابا في روما .

و قبل أن يتحرك البابا أشتعلت النار في فلورنسا لتعجل بنهاية سافونارولا . فقد تحولت فلورنسا فجأة إلى مستشفى مجاذيب . تقدم راهب فرanciscan اسمه fransisco da bolivia يتحدى سافونارولا — بعد أن انتهى عصر المعجزات — أن يجرب معه امتحان النار لاثبات صحة دعاؤه ومبادئه ، وهو أن يدخل الرجلان معاً محرقة من التيران ، فمن كان منهمما صحيحاً العقيدة خرج من النار سليماً ، غالباً أسوأ بسيدنا إبراهيم الذي كانت النار بربداً وسلاماً عليه لأنَّه كان صحيحاً الإيمان ، أما الفاسد العقيدة فهو حتماً سيهلك في النار . وكان الراهب franciscan على استعداد فعلاً

لأن يضحي بحياته ليخلص الناس من الدجال سافونارولا . وكان « المسعورون » يلهبون حماس هذا الراهب المتهوس حتى يتخلصوا من سافونارولا .

ولكن سافونارولا اكتفى بتجاهل هذا التحدي . وإذا بالأخ دومنيك ، وهو أخلص أتباعه ، يقبل التحدي . ويزجره سافونارولا على هذا الطيش ، ولكنه لا يتراجع ، فقد سرى الخبر في المدينة واشتعلت النفوس شوقاً إلى معجزة من السماء لتفصل لهم في أمرهم بعد أن حرك الراهب الرهيب فيهم لسنوات طويلة النزوع إلى الخرافات بكثرة كلامه عن الرؤى والنبوعات ، فارتدوا كما انسان الغاب يلتمسون العلامات في خوارق الأمور .. أم تراها كانت شهوة الاستشهاد اختلطت بشهوة سفك الدماء ؟

وحين عجز سافونارولا عن احتواء الأمر وأحس بالفرانسيسكان ومحركيهم من الارستقراط يتراجعون ويتلذبون شدد عليهم النكير فاشترط أن تكون المحرقة بلا مخرج . فلا تراجع ولا فرار . واستولت الهستيريا على المدينة فنطّطوا ثلاثة من رهبان سافونارولا لكي يخوضوا هذا التحدي مع الرهبان الفرنسيسكان ، أسوة بالأخ دومنيك ، وفي الكنيسة بربز للتحدي بامتحان النار الكثيرون من الرجال والنساء ، لأنما كانت في المدينة رغبة جماعية في الانتحار .

وكانت الحكومة قد وافقت في بداية الأمر على هذه المبارزة الانتحارية ، ولكن حين رأت انتشار الهوس إلى حد الانتحار الجماعي أدركت أن ما بدأ أشبه باللعبة أوشك أن يفضي إلى مأساة . وفي ٧ أبريل ١٤٩٨ ، اليوم المحدد للمواجهة ، اجتمع في الميدان الكبير أمام قصر السينiorية آلاف من المشاهدين وجند كثير للمحافظة على النظام . وفي العصر جاء الفرنسيسكان في جماعات صغيرة ، ثم جاء الدومنيكان ، ثلاثة راهب في مسوحهم يسررون في طابور حاملين الشموع يرثّلون التراتيل يقودهم سافونارولا ، وفي مقدمتهم الأخ دومنيك لابساً مسوحاً حمراً . واحتاج الأخوة الفرنسيسكان على لون مسوحه قائلين أنها رداء مسحور . فدخل القصر واستبدل ثيابه ثم خرج . وكانت راكبة الخشب معدة وسط الميدان . والكل ينتظر الأمر باشتعال الراكبة وببدء امتحان النار . وحين اقترب المساء جاء أمر الحكومة بايقاف هذه المهرولة الفاجعة وحظر الوعظ على كل الرهبان الدومنيكان .

هذا ما انتهت إليه فلورنسا باستماعها لكلام الرهبان أكثر مما ينبغي .

ويُعد أربع وعشرين ساعة كان أحد السعف ، وحاول أحد الرهبان الدومنيكان الوعظ في قاعة الدوم أو القبة في المساء ، ولكن الحرس الفرسان

اقتحموا الكنيسة وشتبوا المصلين . ثم اتجه الفرسان الى دير سان مارك في مهبط الليل ومعهم جمع غاضب غفير وحاصروا الدير . وكان الاخ سيلفستر ومعه خمسة عشر راهباً وثلاثون من المدنيين قد كدسوا الاسلحة وزعوا على الرهبان القوس والنشاب . ومن الخارج علا صوت المنادى يأمر سافونارولا بقرار الحكومة أن يغادر أراضي فلورنسا خلال اثنى عشرة ساعة .. وببدأ اشتباك مسلح فأحرق المحاصرون أبواب الدير واقتحوه وجرت معركة على ضوء المشاعل بين الرهبان والحراس . واستمر الحصار والقتال أكثر الليل .

وفي الثالثة صباحاً استسلم سافونارولا بعد سبع ساعات من الحصار . فجره الجمع في الشارع وفي الحواري وأوسعوه لاما واهانة . وانقضى الحراس من الجمهور حتى لا يفتک به أو يشنقه دون محاكمة ، وقادوه الى قصر السنويوريه ووجد المحظيين في انتظاره ، لجنة من ستة عشر محققاً أكثرهم من أعدائه . وببدأت المحاكمة قبل أن تستأنف الحكومة البابا في محاكمة رجل من رجال الدين . هكذا كان هياج لرأي العام على سافونارولا شديداً . ولخريا ورد أن البابا مشترط أن يكون في لجنة التحقيق قسيسان لتمثيل الكنيسة وأن يسلم الى ممثلى الكرسي البابوى بعد انتهاء التحقيق الجنائى .

واستمرت محاكمة سافونارولا أربعين يوماً استخدمت فيها كل أنواع التعذيب ، وخصصت الأيام الثلاثة الأخيرة للمحاكمة الدينية ، وكانت هناك تهم عديدة بعضها يخص الدولة وبعضها يخص الدين . وكان التركيز على ادعائه النبوة أو تلقى الوحي من الله . وبعد عشرة أيام من التعذيب انهار سافونارولا «فاعترف» بأنه كان نبياً كذاباً ، وأنه كان يدعى ما يدعى من أجل المجد والشهرة . وبعد هذا صار كل شيء يسيراً . لم تكن فلورنسا تحاكم رجلاً من رجال الله ، وإنما كانت تحاكم دجالاً .

ووقع سافونارولا أمام خمسة من رهبان دير سان مارك على اعترافه رغم اعتراضه على ما جاء به من اضافات ، وقرئ الاعتراف أمام المجلس الكبير ، وصدر الحكم بالاعدام شنقاً في الميدان الكبير . وكان مع سافونارولا أولى تابعين من أتباعه وهما الاخ سيلفستر والاخ دومينيك . أما الاخ سيلفستر فذهب يردد أنه بريء ، وأما الاخ دومينيك فقد طلب — أن يحرق بدلاً من أن يشنق . وقد استجابت فلورنسا لطلبه فأقامت تحت المشانق الثلاث راكيه كبيرة من الخشب والخطب ، كأنما الاعدام مرتين : الجبل من الدولة والحرقة من الكنيسة .

وهكذا انتهى الراهب الذى قتله الفضيلة لأنه جعل من الصليب  
هراوة يضرب بها أعداء الله ، أو على الأصح يضرب بها أعداءه ، ففي  
الكلام عن عظماء التاريخ كثيراً ما يصعب أن تميز بين هم الله وهم  
الشيطان ، ولكن نهايته لم تكن نهاية دعوته بحال من الأحوال ، بل على  
العكس من ذلك ، كانت في بعض وجوهها بداية حركة الإصلاح الدينى التي  
اجتاحت أوروبا منذ القرن الخامس عشر .

● ● ●

## ٥

### انجيل الموت

□ كان سافونارولا نصف مثقف ، ولكنه مع ذلك كان عدوا للثقافة . وكان خطيبا من خطباء الرعاع ، لا يخاطب عقول الناس ولكن يخاطب عواطفهم وميلهم الفطري الى الخرافات . كان عدوا للثقافة لانه كان قادر ا على ان يقول للعلماء والجهلاء معا سخيف الاقوال ، مثل : « وما نفع أرسطو اذا كان لا يستطيع ان يثبت حتى وجود الروح ؟ » او مثل : « ان امراة عجوزا ساذجة تعرف عن الايمان اكثر مما يعرف افلاطون ! » .

ولا شك ان في افلاطون وأرسطو كما في كل فلسفه في تاريخ الفكر البشري مواطن قصور تستوجب التنديد والتصويب .

وكل من درس تاريخ الفكر المسيحي في العصور الوسطى يعرف كيف كان فقهاء المسيحية يستخدمون منطق ارسطو في السفسطة اللاهوتية ، حتى قبل مدرسة القديس توماس الاكتيني ( ١٢٥ - ١٢٧٤ ) وجماعة « الاسكولائيين » او « المدرسيين » التي كانت تؤسس كل شيء في الدين والحياة على ان « الله عرفوه بالعقل » وبلغت مبلغ السفسطة في الكلام عن الروح والملائكة والمعجزات وكافة الغبييات ، وبلغت مبلغ السفسطة في تshireح الفضائل والرذائل والصلة بين الدين والحياة .

كذلك انتهى الاحتجاج على العقل منذ القديس اوغسطين ( ٣٥٤ - ٤٣٠ ) حتى القديس برنارد ( ١٠٩٠ - ١١٥٣ ) ، غالبا بتأثير افلاطون وأفلاطونين ، الى ظهور الوان متطرفة من الفكر الصوفى جعلت من الدين مسرحا للسطحات التي لا يقرها العقل .

ولكن في الحالين ما بهذه البساطة تهدز الأفلاطونية او الارسطاطاليسيية كما فعل سافونارولا .

والسؤال الآن هو : إلى أي مدى يمكن اعتبار سافونارولا من رواد حركة الرنسانس أو عصر النهضة الأوروبية ؟ والاجابة على هذا هي أنه بجميع المقاييس الا مقاييس واحدا كان سافونارولا عدوا لأكثر المبادئ التي تجسدت في عصر النهضة الأوروبية .

كان سافونارولا اكبر عدو لذهب «الهيومانزم» او المذهب الانساني الذى كان يدعو الى تمجيد الانسان والحياة الانسانية بما فيها من علوم وفنون وآداب ونشاط حيوى وطلب للقوة والمجد والسعادة الدينوية، ولا يرى ان في كل هذا تعارضا مع طلب الآخرة ، كما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلم الناس في العالم المسيحي طوال العصور الوسطى . وقد بدأ حياته وهو لايزال في العشرين من عمره بكتاب «احتقار الدنيا » وختمه بكتابه المسمى « النتائج » ، واسسها في كل مواعظه-الراعدة بالدعوة التي لا تعرف المهاينة الى سحق الجسد والاعراض عن كل القيم الدينوية واعداد الروح في كل لحظة للانتقال الى العالم الآخر ، وكان شعاره الدائم : « هيا ! هيا ! اهرب من ارض الظلمات ، ارض الشهوات » ، تشبها ببيت فرجيل : « هيا اهرب من الارض الوحوشية ، اهرب من تلطيخ الشهوات » .

فهو من هذه الناحية لم يغير شيئاً في موقف الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تعلم أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى ان الحياة الدنيا مجرد عرض زائل وأن كل وجود في الزمن ، أى كل وجود مادى ، وهم زائف زائل وأن الموت باب الحياة ، وملألت أوروبا بالأديرة والرهبان . بل على العكس من ذلك ، فقد اجتنب سافونارولا الى دير سان مارك بالذات والى غيره من الأديرة مئات من الرهبان والراهبات وحاول تحويل فلورنسا كلها الى دير كبير ، ولو أتيح له لجعل من ايطاليا كلها معبداً للصوم والمصلحة .

حمل سافونارولا حملة شعواء على احياء آداب اليونان والرومان وفنونهم وفلسفاتهم وعلى الاهتمام بالشعر والفنون ، لما فيها من وثنية ومن صرف للناس عن عبادة الله الى عبادة الجمال ، وكانت حملته هذه حديث الاوساط الأدبية في ملورنسا فاتتهمه المثقفون بالجهل والبربرية ، فكتب بحثا سماه « اعتذار عن الشعر » يشرح فيه آراءه ، وجاء فيه :

« لم يكن في نصي مطلقاً أدافنة من الشعر ، وإنما أدافنة اساءة استعماله التي نلمسها في أعمال الكثرين ... فالبعض يزعم أن الشكل هو الأساس الوحيد للشعر ، وهذا خطأ جسيم ، نجوهر الشعر هو فكر الشاعر وفلسفتهم ، حيث أنه لا وجود لشاعر أصيل بدونهما ... ولأن روح الإنسان تكمل تماماً بالاغانى وبالموسيقى فقد اخترع القدماء وزن الشعر ليقودوا الناس

إلى الفضيلة بمزيد من اليسر . ففي الحقيقة ما نفع هذا الأسلوب في البلاغة اذا لم يتحقق الغرض المنشود منه ؟ ما نفع السفينة الملونة المزينة اذا لم تixer من أعلى البخار لتصل إلى الميناء ؟ ما نفعها اذا كانت تبعد الناس أكثر وأكثر عن بر الأمان ؟ الحق أن الروح لفى خسر اذا وقف الأمر عند طرب الأذن ، واحساس المرء غروراً بأنه مجيد كالآلهة ، والتشدق بملء الفم بكلام الفلسفة ، والترنم عبشاً بشعر الشعراة ونسopian انجيل المسيح او تذكره في لحظات نادرة » .

فالشعر الذى يستحق البقاء عليه عند سافونارولا هو الشعر الدينى فحسب ، أما الشعر الذى يتناول أغراضاً دنيوية فهو مرفوض . وهو يحمل على حركة أحياء آداب اليونان والرومأن بقوله :

« ولدينا فصيلة زائفة من الشعراة المزعومين الذين لا هم لهم إلا ان يلهثوا وراء اليونان والرومأن وأن يكرروا أنكارهم وأن يتقدوا قولاتهم وأوزانهم ، وأن يناجوا الآلهة ، كائناً القدماء لم يكونوا بشراً مثلنا ولهم عقول تشتبه عقولنا ، وهذا ليس مجرد تصور خاطئ للشعر وإنما هو سُمْ زعافه يدس للشباب .. مما قولنا اذا كان القدماء أنفسهم قد أدانوا الشعراء ؟ الم يكن أفلاطون نفسه ، الذي يرفعه اليوم كل الناس إلى أعلى مقام ، هو الذي سن قانوناً لنفى الشعراء من المدينة (الفضلة) ، لأن الشعراء بمحى من الآلهة الفاسدة وتشبيهاً بها ، وبسحر الشعر الفاسد ، يملؤون الناس بالرغبات المخجلة ويقودونهم إلى دمارهم الخلقي . وماذا يفعل أمراؤنا المسيحيون اليوم : لماذا يهملون هذه الشرور ؟ لماذا لا يسنون قانوناً لنفى يطبق ، لا على الشعراء المزيفين وحدهم ، ولكن على دواوينهم وكذلك على كتب القدماء التي تعالج الموضوعات المضللة وتمجد الآلهة المزيفة ؟ ما أعظم سعادتنا لو أن كل هذه الكتب دمرت ولم يبق من الكتب إلا ما يدعو الناس للفضيلة » .

ونحن لسنا بحاجة إلى أن نقول ان معارف سافونارولا عن أفلاطون كانت معارف سطحية ، لأن أفلاطون لم ينف الشعراء من جمهوريته لمجرد تزيينهم للرذيلة ولكن لأسباب فلسفية مدارها بعد الشعر عن « الحقيقة » بدرجتين . ومن السهل أن نرى أن سافونارولا كان لا يقل ضراوة عن الكنيسة الكاثوليكية في تحريم العلوم والأداب والفنون الإنسانية وفي إحياء آثار اليونان والرومأن ، بل لقد كان أكثر منها ضراوة في التحريم . وكلامه لا يقل بشاعةً عما نقرؤه عن مطاردة محاكم التفتيش لكل ما هو خارج عن إطار الفكر والسلوك في مسيحية العصور الوسطى على أنه من عمل السحر

ومن التعامل مع الشيطان ولذا وجب تدميره واحراقه . فبهذا المعنى كان سافونارولا أكثر سلفية وأشد رجعية من الكنيسة الكاثوليكية .

قال سافونارولا في أحدى موعظه :

« اذهب أذن إلى روما والى كل العالم المسيحي ، فلن تسمع في دور أقطاب رجال الدين وأقطاب رجال الدولة الا الشعر والفن ونشر الخطباء . أقول اذهب هناك لترى بنفسك وسوف تفاجئهم وهم يقرعون نصوص أدبائهم الإنسانيين محاولين توجيه عقول الناس وفقاً لأقوال فرجيل وهوراس وشيشرون . وهم يفرضون على أسماء الناس أفلاطون وارسطو وفرجيل وبترارك ، ويهملون صحة النفوس .. الخ » .

فهو أذن يندد بالكنيسة الكاثوليكية لأنها انجرفت في تيار عصر النهضة وشاركت في الاحتفال بآداب اليونان والرومان .

وقد كان لسافونارولا تأثير قوى في بعض أعلام الفنانين في عصره وبعد عصره ، مثل ميكلانجلو ( ١٤٧٥ - ١٥٦٤ ) وبوتيشيلي ( ١٤٤٤ - ١٤٧٢ ) وكراناك ( ١٤٥٣ - ١٥١١ ) وفاساري ( ١٥١١ - ١٥٧٤ ) . ومنهم من تبعه إلى الدير مثل الفنان أندريرا ديللا روبيا ( ١٤٣٥ - ١٥٢٨ ) والفنان ديللا بورتا الذي عزف عن الرسم أربع سنوات حزناً على موت سافونارولا . وكان ميكلانجلو في شيخوخته الكثيبة دائم القراءة في موعظ سافونارولا باحثاً عن سلام نفسه .

كان كل هؤلاء الفنانين يدعون لمبادىء سافونارولا ، أو على الأصح يدعون لإنجيل الموت الذي كان يبشر به ، وقد تجلّى أثره العميق في أعمالهم الفنية .. قال ميكلانجلو لفاساري : « أنا لا تمر بخلدي فكرة واحدة إلا وكانت مدمرة بطبع الموت » . وكان يجهز نفسه دائماً للموت ، لهذا كثُر في فنه وفن معاصريه تصوير عذابات « يوم القيمة » . وهذا كلّه بتأثير سافونارولا الذي كان لا يكف عن تذكير الناس بـ يوم الحساب . وأيّة ذلك « يوم القيمة» لميكلانجلو التي دخلت الفاتيكان وكانت نوعاً من الانتصار لسافونارولا .

كان الفنانون المصورون يرسمون صورة العذراء في أزهى الوان وفي أحسن هندام .. فكان سافونارولا يقول لهم : « انكم تدخلون في الكنيسة كل مظاهر الزينة والغرور . اتحسبون أن العذراء كانت تكتسى برداء شبيه بما تتصورون ؟ أنا أقول لكم إنها كانت ترتدى أسمال شحاذة » .. ترى هل كان سافونارولا يخلط بين الفن والحياة ولا يفهم أن الفن « اختيار » كما

كان أرسسطو يقول ، أم انه كان فاقد الحساسية الفنية تماماً عديم الادراك  
لمعنى « الشكل » في التشكيل ؟

كذلك كان سافونارولا يلوم الفنانين لأنهم كانوا يستخدمون الموديلات  
لرسم موضوعاتهم الدينية وأشخاصهم الدينيون .. فكان يقول : « ويمضي  
الشباب يقولون عن هذه المرأة او تلك : هذه هي مريم المجدلية ! هذه هي  
العذراء ! هذا هو يوحنا المعمدان ! ذلك لأنكم رسمتم صورهم في لوحاتكم وفي  
الكنائس فأفسدتم الأمور الإلهية فساداً عظيماً . ان فنانيكم المصورين  
يسبيئون اساءات بالغة ، ولو عرفتم ما أعرفه أنا من الفضائح التي تخلقونها  
لتوقفتم عن اتيانها » .

وختام هذه الفقرة يوحى بصدق الشائعة التي راجت عن سافونارولا  
ورهبانه من أنهم كانوا يستغلون أسرار الاعتراف التي يأتفيهم الناس  
عليها بحكم وظيفتهم الدينية لارهاب أهل فلورنسا وارغامهم على  
الخضوع لهم .

ويمضي سافونارولا فيقول : « ما سر الجمال ؟ أهو في الألوان ؟ كلا ..  
أهو في الملامح ؟ كلا .. الجمال صفة تتنج من الانسجام والتواافق بين كل  
أعضاء الجسم وأجزائه .. وما مصدر الجمال ؟ لو بحثتم جيداً لوجدتم ان  
هذا الجمال ينبع من الروح .. خذوا إمرأتين على مستوى واحد من الجمال ،  
احداهما طيبة وظاهرة محترمة ، أما الأخرى ففانية .

« ففي الأولى ترون اشعاع جمال يوشك أن يكون ملائكياً ، بينما الثانية  
فهي لا تقارن بالأولى مهما تكون متقنة التكوين . وسوف ترون ان المرأة  
الشريفة أشد اثارة للحب وللإعجاب حتى عند الرجال الشهوانيين .. مهل  
ترى هذا راجع الى ان الخير يشارك في جمال الله ويشيع جمال الله في  
الجسد .. ؟ فيما أيتها النساء المتباھيات بشعرهن وبجمال أيديهن ، ها إنذا  
أقول لكن : أنتن جميعاً دميمات . تأملوا امرأة تقية وهي تصلّى ، تأملوها  
كيف تشتعل بحرارة الجمال الإلهي . تأملوها وهي عائدة من صلاتها تروأ  
جمال الله يتلألأ في ملامحها وتروأ وجهها شبّيها بوجوه الملائكة » .

كل هذا الكلام الساذج لا يصلح لأن يكون نظرية في علم الجمال ،  
وانما يفسر كيف سيطر سافونارولا على فلورنسا باقتناع السذج والنساء  
المدينات . وهو ان دل على شيء فهو يدل على ذوق سافونارولا الخاص  
في النساء . ومع ذلك فقد تركت تعاليم سافونارولا أثراً عميقاً في بعض  
فنانى عصره . ويكتفى أن نذكر ما فعله بوتيتشيللى بربة الحب والجمال في

لوحته « مولد فينوس » ، فقد جعل بوتيتشيللى من فينوس وهى خارجة من محارتها نموذجاً لصبية فلورنسية تفيف بالبراءة رغم عريها ، خالية تماماً من أيحاءات الشبق الجسدي والخصوصية الحيوانية التي اقتربت دائماً بصورة فينوس في الفن والأساطير عبر العصور : أنها فينوس أورانيا أو فينوس السماوية .

فسافونارولا اذن كان عدواً للثقافة الإنسانية ، عدواً للفنون والأداب والعلوم الدينية ، عدواً لكل فكر أو فلسفة لا تلتئب بالشعور الديني وذكر الموت والبعث في الأصباح والامسأء . فإذا تذكروا أن الفنون التشكيلية ( التصوير والنحت والعمارة والزخرفة ) كانت من أعظم ما ازدهر خلال عصر النهضة ، كان موقف سافونارولا من كل هذه الأشياء مضاداً لحركة التاريخ معادياً للحضارة . بل ان موقف الكنيسة الكاثوليكية كان أكثر تقدماً من موقفه في هذا الصدد بالذات لأنها حاولت أن تتعاييش مع الفنون التشكيلية والموسيقية وترعاها لخدمة الكنيسة ، بل ان رجال الكنيسة من حاول أن يتعاييش مع المذهب الإنساني .

كذلك كان سافونارولا معادياً لحركة التاريخ لأنّه كان معادياً لتبلور الروح القومية ، معادياً لاتجاه الوحدة القومية الذي كان من أهم سمات عصر النهضة الأوروبية . فبانحيازه الكامل إلى شارل الثامن ملك فرنسا وقف وحده ينادي كل دویلات ايطاليا في سعيها للتحالف والاستفهام نهائياً عن الجيوش الأجنبية لحفظ التوازن بين دویلات ايطاليا . ان فكرة الدولة القومية فكرة دينية .. وألمسيحي لا يعرف الا الاخوة في المسيح رابطاً بين الانسان والانسان ورابطها بين الانسان والله . هذا ما قامت عليه بشاراة حواري المسيح وأباء الكنيسة الاولين في عصرها الذهبي . وسافونارولا حافظ لرسالتهم اكثر من البابا الداهية الفاسق اسكندر السادس الذي كان يجذب الى تغذية الروح القومية في ايطاليا رغم انه كان رمزاً للمسيحية الجامحة في كل العالم المسيحي .

بعد كل هذا ، ماذا يربط سافونارولا بعصر النهضة او عصر النهضة الأوروبية اذا كان الاساس في دعوه سافونارولا هو العودة الى المسيحية في نقاوتها الاول او الى المدينة الفاضلة والله فيها ملك ، ولا حواجز هنالك بين الله والانسان .

هذا بالذات ما يربط سافونارولا بعصر النهضة الأوروبية ، انه كان رائداً من رواد حركة الاصلاح الديني التي كانت ، بخيرها وشرها جزءاً لا يتجزأ من عصر النهضة الأوروبية . وقد كان الركن الركيـن لحركة

الاصلاح الديني ثورتها على المؤسسة الدينية الكاثوليكية الفاسدة والدعوة الى العودة الى المسيحية في نفائها الاول او الى المدينة الفاضلة حيث لا ملك الا الله ولا حواجز بين الله والانسان . كان سافونارولا يرى ان الكنيسة الرسولية الجامعية ( الكاثوليكية ) فاسدة من قمة الرأس الى اخمص القدم وانه لا امل هناك في اصلاحها لانها انحرفت بكليتها الى الدنيوية .. فرجال الدين فاسدون والعلمانيون شبّاكون وحرية التفكير قد قوضت كل شيء .

حتى الكنيسة نفسها بنت نفسها على فلسفة دينية تنتهي الى تدعيم هذا الفساد او تبريره . الاساس في العقيدة الدينية هو الایمان ، هكذا يقول فقهاء الكنيسة الكاثوليكية : جوهر العقيدة هو الایمان . وليس العمل الصالح ، ومهما حاول الانسان بلوغ الخلاص الروحي ( اى دخول الجنة ) بالعمل الصالح وحده فجهده ضائع لأن الخلاص لا يكون الا بنعمة الایمان .. ونعمـة الایمان لا تحل على الانـسان الا اذا احسـ على الدوامـ بأنه مخلوق ضعيف خطـاء ، وبالتواضـع للـه تـأتـ نـعـمـة الـایـمان ، وبـهـذا الـاحـسـاسـ بالـضـعـفـ والاستـعدـادـ للـسـقوـطـ يـتعلـقـ الانـسانـ بـالـلـهـ الغـفـورـ الرـحـيمـ تـعلـقـ الفـرـيقـ بـقـارـبـ النـجـاهـ . ويـائـيـنـ العملـ الصـالـحـ فـيـ المـقـامـ الثـانـيـ ، وـهـوـ لـيـسـ جـوـهـرـياـ لـخـلاـصـ الانـسـانـ ، مـهـماـ كـانـ الـعـلـمـ الصـالـحـ مـنـ ثـمـارـ الـايـمانـ الصـادـقـ . بلـ انـ اـعـتـمـادـ الـرـءـ علىـ قـوـةـ الـاخـلـاقـ قدـ يـكـونـ عـقـبةـ فـيـ طـرـيقـ الانـسـانـ اذاـ اـحـطـهـ المـرـءـ مـحـلـ التـسـلـيمـ بـالـنـقـصـ الـاـصـيلـ فـيـ جـبـلـةـ الانـسـانـ ، اوـ ماـ يـسـمـىـ فـيـ الـمـسـيـحـيـةـ بـالـخـطـيـئةـ الـاـوـلـىـ .

فلـذـىـ أـضـافـهـ سـافـونـارـولاـ هوـ انـ الـايـمانـ وـحـدـهـ لـاـ يـفـنـىـ عـنـ الـفـضـيـلـةـ .  
اماـ الـبـابـاـ اـسـكـنـدـرـ السـادـسـ فـكـانـ لـاـ يـخـلـطـ بـيـنـ الـايـمانـ وـالـاخـلـقـ الـفـاضـلـةـ ، وـرـبـماـ كـانـ يـنـتـقـلـ مـنـ فـرـاشـ الرـذـيـلـةـ إـلـىـ اـبـتـهـالـاتـهـ المـلـخصـةـ لـلـسـيـدـةـ العـذـراءـ دونـماـ حـرـجـ ، وـهـوـ صـادـقـ الشـعـورـ فـيـ الـحـالـيـنـ . كـانـ عـمـيقـ الـاحـسـاسـ بـضـعـفـ الـانـسـانـ عـمـيقـ الـايـمانـ بـأـنـ اللـهـ غـفـورـ رـحـيمـ . لـقـدـ كـانـتـ هـذـهـ «ـ التـطـهـرـيـةـ »ـ وـالتـزـمـتـ الـاخـلـاقـيـ فـيـ سـافـونـارـولاـ وـاـشـيـاعـهـ شـيـئـاـ جـدـيدـاـ فـيـ اـورـوبـاـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ ، وـلـمـ يـلـبـثـ الرـجـلـ ، حـتـىـ بـعـدـ هـزـيـمـتـهـ ، اـنـ تـحـولـ إـلـىـ حـرـكةـ اوـ تـيـارـ دـيـنـيـ اـهـتـرـتـ لـهـ الـمـسـيـحـيـةـ الـاـوـرـوبـيـةـ . بـداـ النـاسـ يـتـجـادـلـونـ فـيـ طـبـيـعـةـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـايـمانـ وـالـعـلـمـ الصـالـحـ وـكـانـ هـذـاـ مـنـ بـدـايـاتـ حـرـكاتـ الـاصـلاحـ الـدـيـنـيـ .

كان سوء سلوك رجال الدين يزعزع ايمان الناس بالكنيسة الكاثوليكية، بل ويزعزع ايمانهم الديني جملة ، فكانت الحجة التي تستخدمنها الكنيسة لابقاء الناس في حظيرتها هي التالية : لا تنظر الى ما يفعله رجل الدين وإنما انصت الى أقواله . فطالما أنه يدعو الى سبيل الله فاتبعه ولو قبحت أعماله.

العصمة لله وحده فكلنا خطاعون .. البابا من حيث هو رمز للمسيحية وللعالم المسيحي معصوم من الخطأ ، أما من حيث هو بشر فهو قابل للزلل .

ورغم هذا المنطق المتماسك في مظهره ، كانت أصوات الاحتجاج على تجاوزات الكنيسة الكاثوليكية تتضاعد في كل مكان لتدین قرارات الحرمان الجهنمية التي كان يجردها البابوات على نقادهم ونقد آغوانهم من الامراء ، ولتدین اقبال رجال الدين على عرض الدنيا من مال وملذات جسدية ، وتدين الآباءة التي ترفل فيها الكاتدرائيات ومن فيها من الكرادلة والأساقفة ، وتدين انحياز الكنيسة الدائم الى الأقوياء والاغنياء وانحيازها الدائم ضد المستضعفين في الأرض ، وتسخيرها للدين لترويض الجماهير على الخضوع للطغاة وللظالمين .

ذلك ارتفعت أصوات الاحتجاج في كل مكان على اتجار البابوات الفاسدين وسماسرتهم من رجال الدين في سكوك الغفران وبيعها للموسرين من الزناة والقتلة ومرتكبي الموبقات من الرجال والنساء .

ولم تمر عشرون عاما حتى اندلعت فتن الانشقاق البروتستانتي في كل مكان .

ولكن سافونارولا ، رغم أنه كان يسمى حركته في فلورنسا « ثورة دينية » ، لم يكن داعية انشقاق في الذهب والعقيدة ، بل ظل إلى آخر لحظة يحاول أن يعمل داخل إطار الكنيسة الكاثوليكية ، مع تحفظ واحد وهو أنه كسر عهد الطاعة الذي يرتبط به الرهبان عند ارتدائهم المسوح ، وأسس ذلك على المبدأ القائل انه « لا طاعة لخلوق في معصية الخالق » ، كما نقول نحن في لفتنا .

•••

# بيكو ديللا ميراندولا

## PICO DELLA MIRANDOLA

١٤٩٤ - ١٤٦٣

□ كان بيكو ديللا ميراندولا يسمى في زمانه « العقل المعجزة » أو بالتعبير الحرف « عنقاء العقول ». وكان بعض المحدثين مثل والتر باتر يسميه « أمير الرئيسيانس الساحر ». وفي الحالين نجد أنفسنا بين أوصاف مستمدّة من عالم الأساطير . ومن تاريخ ميلاده ووفاته نستطيع أن نرى بسهولة أنه مات في شرخ شبابه ، فهو لم يعش إلا أحدي وثلاثين سنة .

وفي هذه الحياة القصيرة استطاع بيكو أن يكتسب صيتاً واسعاً في إيطاليا كلها بل وفي أوروبا كلها ، بأنه كان من أوسع أهل عصره ثقافة وأعمقهم تأملاً . وكان وسيم الهيئة واسع الثراء عريق الحسب بالإضافة إلى علمه الغزير نحق له أن يسمى مجازاً « الأمير الساحر » .

وقد ولد جيوفاني بيكو كونت ميراندولا في ميراندولا من أعمال فرارا ، لاسرة مبتوثة الصلة تماماً بالثقافة . فقد كان آله لأجيال طويلة سادة ميراندولا ، يتوارثون مهنة الحرب ، فكانوا قادة فرقـة من الجنود المرتزقة يبيعون خدماتـهم العسكرية للملوك والأمراء ، وقد ظلـوا أجيـالـاً في خـدمة الإـباطـرة الـآلـانـ من أسرـة هوـنـشـتاـوـنـ ( ١١٣٨ - ١٢٥٤ ) وـمن أسرـة هـابـسـبورـجـ بـوـصـفـهـمـ قـوـادـ فـرـقـ منـ الجـنـودـ المـرـتـزـقـةـ ، وـهمـ القـوـادـ الـذـينـ يـسـمـونـ بـالـإـيطـالـيـةـ « كـونـدوـنـيـرـيـ » . وـكـانـ أـبـوهـ يـمـتـهـنـ أـيـضاـ مـهـنـةـ القـتـالـ التـىـ وـرـثـهـ عـنـهـ أـخـواـ بـيكـوـ ، جـالـيوـتوـ وـانـطـونـيوـ . وـرـغـمـ أـنـ بـيكـوـ نـشـأـ فـيـ حـضـنـ الأـسـرـةـ وـسـطـ السـلاحـ وـالـخـيلـ وـالـدـرـوعـ إـلـاـ أـنـهـ لـمـ يـظـهـرـ أـيـ اـهـتمـامـ بـمـهـنـةـ اـسـرـتـهـ الـمـتـوـارـثـةـ ، وـبـيـنـماـ كـانـ أـخـواـ يـتـشـاحـنـ عـلـىـ خـلـافـةـ أـبـيهـماـ فـيـ مـهـنـتـهـ بـعـدـ وـفـاتـهـ كـانـ جـيـوـفـانـيـ بـيكـوـ يـدـرـسـ فـيـ هـدـوـءـ الـيـونـانـيـةـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ وـالـموـسـيـقـىـ .

وكانت أمه ت يريد له أن يكون قسيساً ، فدخل جامعة بولونيا وهو في سن الرابعة عشرة حيث درس القانون الكنسى أى « الشريعة المسيحية » .

فلا ماتت أمه أهل هذه الدراسة واقتصر على العلوم والأداب الدنيوية يلتهمها التهاماً . وفي ١٤٧٩ دخل جامعة فيرارا وهو في سن السادسة عشرة ليدرس الأداب والفلسفة . وقد حدث بيكيو ديللا ميراندولا عكس ما حدث لجبروم سافونارولا تماماً ، فقد كان سافونارولا قبل دخول بيكيو جامعة فيرارا بأربع سنوات يدرس الأداب والفلسفة ثم انصرف عنهما ليتفرغ للدين كراهب دومينيكانى .

ولم يبق بيكيو في جامعة فيرارا غير عام واحد ، ثم انتقل إلى جامعة بادوا ( ١٤٨٠ - ١٤٨٢ ) ليتبحر في اليونانية ، وفي جامعة بادوا درس أيضاً العبرية والعربية والأرمنية والكلدانية .. وقد درس الشعر العربي على راموزيو ، مترجم ابن سينا ، وأشترك في المعركة الفلسفية التي ثارت في جامعة بادوا بين أنصار ابن رشد وخصوم ابن رشد . وقد اجتذبه فلسفة ابن رشد بفضل حماس ايليا ديل مديجو ، استاذيه اليهودي في العبرية لهذه الفلسفة . وكان هناك من أعلام الأساتذة من أمثال باريبارو من يتحمس للتوفيق بين الأفلاطونية والارسطاطاليسية . أما ملكة بيكيو ديللا ميراندولا على الاستيعاب فقد كانت مذهلة سواء بالنسبة للغات وآدابها وللمدارس الفلسفية ، حتى شهد له جهابذة العلماء بأنه يضاهيهم علمًا وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، وهكذا لقبوه « بعنقاء العقول » ، لأن العنقاء لا تتجدد من رمادها إلا مرة كل مائة عام .

ولم يكن بيكيو ديللا ميراندولا شاباً مدفوناً بين اكdas الكتب يعيش عيشة جافة معزولة عن الحياة ، بل كان يحيا حياته وحياة عصره كاملة ، يلهو ويسمر مع الشبان والفتيات ، وكان رجل مجتمع ورجل بلاط يتقن آداب السلوك بين أبناء الطبقة الراقية ، وكان غاية في الاناقة .. ومع حياة المجتمع وحياة الفكر الفلسفى وحياة الوجдан العاطفى كانت فيه أيضاً ميل روحيه دينية من رواسب تلقين أمه المتدينة أيام صباها الباكرا . وبسبب تعدد هذه الاتجاهات في نفسه وتضاربها أحياها ، كان به نازع دائم إلى بناء سلامه النسبي على التوفيق بين هذه المتناقضات وإيجاد التجانس فيما بينها داخل نظام فلسفى واحد .

كان هناك أولاً التناقض بين المسيحية ووثنية اليونان والرومان ، وكان بيكيو محباً للمسيح ومحباً لأفلاطون في وقت واحد . فما الحل ؟ الحل هو رفض هذه المواجهات المستمرة بين المسيحية والوثنية ومحاولة التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية .. نفس الأمر بين أرسطو وأفلاطون .

بدأ بيكون دليلاً ميراندولا حياته الفكرية أرسطاطاليسيما متحمساً وكتب ينتقد أفلاطونية فيتشينو . فلما انتقل إلى فلورنسا عام ١٤٨٤ في سن الحادية والعشرين التقى بفيتشينو وببدأ يعيد النظر في موقفه من الأفلاطونية وانضم إلى حلقة فيتشينو في بلاط لورنزو دي ميديتشي التي كانت تسمى « اللواء » بمعنى الفرقة العسكرية ، وهنا بدأت محاولاته للتوفيق بين أرسطو وأفلاطون .

وفي ١٤٨٥ دعى بيكون إلى جامعة باريس ، وفي هذه الفترة دخل في مغامرة عاطفية فهرب عام ١٤٨٧ مع سيدة متزوجة من سيدات آل ميديتشي ، وكاد الأمر أن ينتهي إلى مأساة لولا أن تدخل لورنزو وحل الموضوع بسلام . وفي هذه الفترة أيضاً تعلم بيكون « الكابالاه » ، وهو علم الاتصال بالأرواح والتعامل مع الجن ، وهو أصلاً نوع من السحر عند اليهود يقوم على تفسير التوراة تفسيراً باطانياً .. و « كابالاه » في العبرية كلمة تعنى أصلاً « التقليد » ..

وفي نهاية ١٤٨٦ وضع بيكون دليلاً ميراندولا كتاباً سماه « النتائج التسعمائة » ويشتمل على ٩٠٠ قضية فلسفية يحاول فيها بيكون أن يفسر المسيحية تفسيراً فلسفياً ، وأرسل مؤلفه إلى البابا أنوشنتو الثامن الذي كان جالساً على الكرسي البابوي من ١٤٨٤ حتى ١٤٩٢ . وأعلن استعداده للدفاع عن قضيائاه في روما في مناظرة عامة . ودرس البابا هذه القضياءاً فوجد سبعاً منها تتطوى على زندقة وستاً منها يداخها الشك .. وبالفعل عرض بيكون قضيائاه ودافع عنها في روما فأدانها البابا بتهمة الزندقة وأمر بإيقاف المناظرة في ١٤٨٧ .. وصدر أمر بالقبض عليه ففر إلى فرنسا . وهناك تعقبه رسائل البابا فقبض عليه وسجن في فانسين خارج باريس . ثم أفرج عنه بعد تدخل عديد من أمراء إيطاليا ، وتوسط له لورنزو دي ميديتشي فقبل البابا أن يعيش بيكون في فلورنسا ، وأحله لورنزو دي ميديتشي في قصره بفيزو ولا مع بقية أعضاء « اللواء » أو الأكاديمية الأفلاطونية تحت حمايته مع الفيلسوف فيتشينو والمفكر بوليتريانو وغيرهما كثيرين من الشعراء والأدباء والفنانين . وبهذا أنقذ لورنزو بيكون دليلاً ميراندولا من محاكمة التقنيش .

ثم كتب بيكون كتابه المسمى « هبتايلوس » أو « أيام الخلقة السابعة » ( ١٤٨٩ ) .. وأهداء إلى لورنزو دي ميديتشي . وفي هذا الكتاب حاول أن يجد توافقاً بين ما ورد في سفر التكوين في التوراة وما ورد في محاورة « تيماؤس » لأفلاطون عن خلق العالم . وفي هذه الرسالة ينتفع بيكون من تفقيه في اليونانية وفي العبرية ليعد المقارنات ويحلل الإشارات ويفك الرموز الخبيثة في كل من النصين . وليس المهم في كل هذا أن يكون بيكون قد أصاب

أو أخطأ في تصوراته . وإنما المهم هو هذا الحماس الذي تجلى في بعض دعاء الهيومانزم أو المذهب الإنساني في عصر الرئيسانس للتوفيق بين الدين والفلسفة حفاظا على الإيمان أو حتى لا يفقدوا الإيمان . وقد كان بيكيو ديللا ميراندولا واحدا من مؤلاء المفكرين المؤمنين بالأنسان .

وفي ١٤٩١ كتب بيكيو ديللا ميراندولا كتابه « في الجوهر الواحد » الذي حاول فيه التوفيق بين أرسطو وأفلاطون .. وكان آخر كتاب كتبه ونشر بعد وفاته كتاب اسمه « تسفية التجيم » يهاجم فيه التجيم والمنجمين ويرد على مزاعم القائلين بأن قدر كل إنسان محدد منذ مولده بالأفلاك ومسارها وبروجها ، وإن الإنسان مجرد من الإرادة ، أو مسير لا مخير كما يقولون ، بسبب سيطرة النجوم على حياته وعلى مصيره . وقد كان هذا الكتاب سببا في اقديام البابا إسكندر السادس على رد اعتبار بيكيو ديللا ميراندولا إليه في ١٤٩٣ ، عاما واحدا قبل وفاته في ١٧ نوفمبر ١٤٩٤ ، عام اقتحام شارل الثامن مدينة فلورنسا .

لماذا يعد بيكيو ديللا ميراندولا قطبا من أقطاب عصر النهضة الأوروبية وقطبا من أقطاب حركة الهيومانزم ؟

هو يعد كذلك لأن جوهر فلسفته يقوم على ثلاثة مبادئ :

١ - الإيمان بكرامة الإنسان وعزه الإنسان ونبيل الإنسان وبأن للإنسان قيمة في ذاته وبأن للحياة الإنسانية قيمة في ذاتها ويجب اثراوها بكل ما في الطبيعة والعالم المادي من فكر ونشاط وعلوم وفنون وأداب .

٢ - بأن الإنسان سيد مصيره في هذا العالم وأن إنسانيته مقترنة بقدراته على الاختيار .

٣ - أن الحضارات الوثنية الأولى كانت تتطوّر على حكمة عميقة أهدرها العالم المسيحي . ولذا فكل نهضة يجب أن تقوم على استيعاب التراث الوثنى عند اليونان والرومان وغيرهما من شعوب العالم القديم .

وقد كان من المفارقات الغريبة أن صاحب هذه الدعوة للاحتفال بالحياة الدنيا يؤخذ بالمسحور حين سمع موعظة سافونارولا عام ١٤٨٢ في الحلقة التي عقدها الرهبان الدومينikan في ريجيا أميليا ، لأن سافونارولا هو أولا وأخيرا صاحب كتاب « احتقار الدنيا » وصاحب فلسفة الموت الذي قضى حياته في إعداد الناس للأعراض عن هذا العالم وتجهيز أرواحهم للعالم الآخر . ولعل الذي سحر بيكيو ديللا ميراندولا في هذه الموعظة

كان شجاعة سافونارولا في التنديد بمقاصد الكنيسة في عصره . وبعد سبع سنوات من هذه الحلقة ظل بيكون ديللا ميراندولا يغرى لورنزو دي مدичيني في ١٤٨٩ باعادة سافونارولا إلى فلورنسا حتى استجاب له لورنزو عام ١٤٩٠ وبذلك تغير تاريخ هذه المدينة .

● ● ●

حين عرض بيكون « النتائج التسععائمة » في روما وأراد أن يدافع عنها علناً في مجمع الكرادلة عام ١٤٨٧ . قدم لها بمقدمة ضافية تسمى « الخطبة ». وقد اهتم معاصره بيكون ودارسوه بتحليل هذه الخطبة الضافية لما اشتملت عليه من مبادئ أساسية توضح كثيراً من جوانب أصحاب الفلسفة الإنسانية في عصر الرئيسانس . غير أن بيكون لم يستطع القاء « الخطبة » بسبب صدور قرار البابا بتجريم القضايا التسععائمة جملة وايقاف المناظرة . فكتب بيكون « الدفاع » (الابولوجيا) ليشرح وجهة نظره . أما « الخطبة » فهي تنشر عادة تحت عنوان « في كرامة الإنسان » . وهذا موضوعها . ويعدّها أكثر مؤرخى الفكر بمثابة « مаниفستو » أو « بيان » باعادة اكتشاف الإنسان في عصر النهضة الأوروبية يمثل رأي دعاة المذهب الإنساني .

وتبدأ الخطبة على الوجه الآتي : الإنسان هو عجيبة العجائب في الخليقة وهو أحق المخلوقات بالاعجاب والمجيد . فالله خلق كافة الكائنات من جمادات ونباتات وحيوان . بل وخلق الملائكة . وحدد لكل مخلوق طبيعة ثابتة ومكانة ثابتة . إلا الإنسان الذي خلقه الله وأودع فيه القدرة على اختيار طبيعته وتشكيلها بنفسه . الله وضع في الإنسان بذور كل أشكال الحياة وهو يستطيع أن ينمي من هذه البذور ما يختاره لنفسه . في استطاعته أن يصبح جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو ملائكاً أو جرماً من أجرام السماء ، بل وأن يصبح « ابن الله » . متجاوزاً كل المخلوقات في الاتحاد مع الله . وتدرك الإنسان الخارقة هذه على تشكيل نفسه وفق ارادته هي وراء معتقدات الشعوب ورموزها في مختلف الثقافات والديانات منذ القدم . وفي « الخطبة » سرد لكلام الله الأدم يبلغه فيه بهذا الامتياز على كافة المخلوقات وهو يذكرنا بما ورد في القرآن الكريم عن المكانة المميزة التي حبا بها الله آدم على الملائكة وسائر المخلوقات منذ الخلق الأول .

كان تمجيد بيكون ديللا ميراندولا للإنسان استناداً لهذه الحيثيات الدينية عملاً مرفوضاً بالنسبة للكنيسة التي كانت تركز على قدوة الإنسان على السقوط منذ العصيان الأول بدلاً من أن تركز على قدرته على الكمال . وكان قول بيكون إن الإنسان حر في أن يختار طبيعته بنفسه ، وإنه سيد نفسه

ومصيره ، وان عمل الانسان ونشاطه هما اللذان يسيران به الى الرقي او الانحطاط ، بمثابة تجذيف لانه يلغى دور العناية الالهية او التدخل الالهى او « النعمة » الالهية في انقاذ الانسان من السقوط وتمكينه من العمل الصالح ومن استحقاق الخلاص في الدار الأخرى سواء بالإيمان او بالمعمودية او بهما معا .. كما ان في احياء بيکو ان في امكان الانسان ان يصبح « ابن الله » زنقة واضحة بالقياس المسيحي لانه بمثابة غض من الوهية المسيح وافتراض واضح لطبيعته البشرية وفهم للاهوت المسيحي و « الكريستولوجيا » على انهم مجرد مجموعة من الرموز الاسطورية السامية لا تختلف في كثير عن قصة ارتقاء هرقل الى مصاف الالهة باعماله الصالحة او قصة آلام بروميثيوس من أجل انقاد البشرية عند اليوتان .

منظورية بيکو ديللا ميراندولا بتمام حرية الارادة الانسانية في تشكيل طبيعة الانسان أفضت الى مجموعة أخرى من النتائج منها اعادة تعريف العلاقة بين الله والانسان واعادة تعريف العلاقة بين الانسان والعالم . وكانت اكملا تعبير عن روح « الفردية » المطلقة الى حد التاله التي تميز بها عصر النهضة الاوربية ، واماكملا تعبير عن روح « الحرية » و « التمرد » العبقري التي شاعت في كل وجه من وجوه الحياة في عصر الرئيسانس ، وأكملا تعبير عن روح « الحرية » و « التحدى » و « الثورة » و « المغامرة » وكل هذه المعانى التي تبلورت في « الشخصية الفاوستية » . وهي التجسيد الامثل لشخصية الانسان في الحضارة الاوربية الحديثة بداية من ماركو بولو ( ١٢٥٤ ) - ( ١٣٢٤ ) حتى رواد الفضاء واللاعبين بالرعوس النووية .

اما حركة صعود الانسان فقد قسمها بيکو ديللا ميراندولا الى ثلاث مراحل هي : تطهير الروح بالفلسفة الاخلاقية وبالجدلية ، وتنوير الروح بالفلسفة الطبيعية وهى تشمل طبعا العلوم والفنون والآداب ، وبلغ الروح مرتبة الكمال باللاهوت او الالهيات . ففى فلسفة بيکو ديللا ميراندولا مكان حتى للالهيات فى أعلى السلم من العقل الانساني ، ولكنها ليست بالضرورة الالهيات التقليدية التى أسست عليها العقيدة المسيحية الكاثوليكية او غير الكاثوليكية .

خذ مثلا نماذج من « النتائج التسعمائة » التى رفضتها الكنيسة جملة ونوهت بزنقة ثلاثة عشرة قضية منها :

هناك قول بيکو إن المسيح « لم يدفن في العالم السفلى » بمعنى أنه لم يدفن في القبر ، وهذا يوحى بأن بيکو ديللا ميراندولا كان مطلاعا على

القرآن الكريم في نصه العربي لأنه كان يتقن العربية أو على بعض التفاسير الإسلامية للقرآن الكريم . وأنه كان مقتنعاً بأنهم « ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وان الله رفع المسيح « مكاناً علينا » . وعلى كل فقد كان مثقفو العالم المسيحي في عصر النهضة الأوروبية ، ولاسيما في الأوساط الجامعية ، على علم كاف بأساسيات العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية من خلال تشتت علماء الأندلس في عديد من جامعات أوروبا .

وهناك أيضاً قول بيكون في « النتائج التسعينية » إن الصليب والمصور الدينية لا ينبغي أن تقدس بنفس الطريقة التي يقدس بها الله .. وأنزعاج الكنيسة الكاثوليكية من هذا البداء لا تفسير له إلا أنها اشتملت فيه اتهاماً لها بأنها قد انحدرت إلى الوثنية .

وهناك أيضاً رأى بيكون أن الكبائر أو ما يسمى في العرف الكاثوليكي « بالخطايا السبع القاتلة » كالقتل والزنا والطمع والكبراء .. الخ . لا يمكن أن تستحق العقاب بالجحيم الأبدي لأنها ترتكب في حياة الإنسان المحدودة بالزمن . فما كان محدوداً لا يمكن عقابه باللا محدود .. وهنا أيضاً يبدو أن بيكون كان متاثراً بالعقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي . فالله فيما يمكن أن يغفر كل ذنب فيما خلا الشرك .

كذلك هناك أكثر من قضية في « نتائج » بيكون تتعلق بالقربان المقدس عند المسيحيين وتحول لحم المسيح ودمه إلى الخبز والنبيذ .

وليس من الضروري أن نفترض أن مصادر فكر بيكون كانت كلها إسلامية أو عربية فهناك من فقهاء الدين المسيحي أمثال أوريجن الاسكندرى ( ١٨٣ - ٢٥٤ ) الذي ذهب إلى نظرية الغفران الشامل في الآخرة ، وكان ينزع مثل بيكون إلى فهم المسيحية فيها مجازياً ، وقد رفضت الكنيسة الغربية تخریجاته . وهناك أريوس الاسكندرى ( ٣٣٦ - ٢٥٦ ) الذي انكر وحدة الثالوث وبالتالي انكر الوهية المسيح . وقد رفضت الكنيسة رأيه في مجمع نيقية عام ٢٣٥ . كما أنه كان يرى أن المسيح لم يصلب إلا في الظاهر فقط ، وهو نفس ما قاله بيكون دليلاً ميراندولا بتفسيره الرمزي للعقيدة المسيحية . وقد ذكر بيكون أوريجن بالفعل بين مصادره وطالب الكنيسة بالاعتراف به . ومع ذلك فقد كانت المصادر الإسلامية والمصادر المسيحية المرفوضة من الكنيسة كلها متاحة أمام بيكون في عصره الذي كان يموج بالأفكار الجديدة والقديمة الخلقة .

وقد انقرضت اكثر اعترافات بيکو على اللاهوت المسيحي . ولكن بقيت بعض هذه الاعترافات وغدت جزءا لا يتجزأ من المارك الفكري واللاهوتية التي اقترن بحركة الاصلاح الديني في عصر النهضة الاوربية ، واقتربت بظهور المذاهب البروتستانتية المختلفة . مثال ذلك معركة الجبر والاختيار ، ومعركة الصور والتماثيل ، ومعركة « البيوخاريست » او العشاء الرباني وتحول جسد المسيح الى الخبز والنبيذ .

حتى مشكلة اللغة التي اثارها بيکو ديللا ميراندولا في كتاباته كانت وجها هاما من معركة لغة التعبير التي لازمت خروج اوربا من عصرها الوسيط الى عصرها الحديث . فقد كان بيکو ديللا ميراندولا من دعاة كتابة البحوث الفلسفية واللاهوتية بلاتينية ببساطة سهلة الفهم على المثقف العادى، وكانت تعرف في عصره « بأسلوب باريس » .. بينما كان كرادلة روما يتبعون للاتينية الكلاسيكية الفصحى العالية البلاهة .. او ما كان يسمى يومئذ « اسلوب شيشرون » ، بل وكانوا يتعمصبون لهذه اللغة الفصحى ويعدونها لازمة لاكتمال الايمان .

ونحن اليوم نربط بيکو ديللا ميراندولا بحركة الهيومانزم او المذهب الانساني .. وهي حركة تمثل في جوهرها التيار العلماني في عصر النهضة الاوربية .. باستثناء عدد محدود من كبار المفكرين مثل إرازموس والسير توamas مور الذين اقترنوا باسماؤهم بما يسمى « الهيومانزم المسيحي » « مهن دعوا لتجريد الانسان وعلومه وفنونه وآدابه ولكن رفضوا تمزيق العروبة الدينية التي قامت عليها الكنيسة الجامعة ( اي الكاثوليكية ) وتمسكون بوحدة العالم المسيحي .

ولكن معاصري بيکو ديللا ميراندولا الذين كتبوا عنه قبل وفاته وبعد وفاته .. مثل باولو كورتيزى مؤلف كتاب « اعلام العلماء » في ١٤٩٠ و « كتاب الحكم » ( جمع حكمة ) في ١٥٠٤ وكتاب « الكاردينال المثالى » في ١٥١٠ .. كانوا لا يرون فيه كل هذه العلمانية التي تنسبها اليه . وأنما كانوا يرون فيه منكرا دينيا في المقام الاول ، بل ويدافعون عن صحة ثاملاته اللاهوتية . وقد حاول كورتيزى ان يصوّر في صورة « الكاردينال المثالى » بالرغم من اتهام الكنيسة اياه بالزنقة . وهو نفس رأى السير توamas مور فيه .

كان الكاردينال المثالى عند كورتيزى هو مقىه الدين الذى يعمل العقل في الدين ليتغلب على كل ما يتحدى العقل في الدين .. وربما كان هذا الموقف

من بيکو ديللا ميراندوا هو التقدير الصائب لفلسفته حول الله والانسان  
التي يمكن أن تكون تعبيرا عن محاولته التوفيق بين أفلاطون وأرسطو .

وبذلك لا تبقى الا نقطة محيرة واحدة . وهى انجذاب اكبر مدافع عن  
شرف الانسان انجذاب المسحور الى اكبر داعية لاحتقار الدنيا ، فقد  
أوشك سافونارولا أن يقود بيکو ديللا ميراندوا الى عتبة دير سان مارك  
في فلورنسا .

● ● ●

# ليوناردو دافنشي

## LEONARDO DA VINCI

١٤٥٦ - ١٥١٩

□ كما نقول إن عصر النهضة الإيطالية بدأ في الأدب بالشاعر دانتى ، كذلك فلننقل انه بدأ في الفنون التشكيلية بالفنان جيوتو ( ١٢٦٦ - ١٣٣٧ ) الذي كان معاصرًا لدانتى . وكما نقول ان ادب دانتى كان يمثل عصر الانتقال من العصور الوسطى إلى بدايات العصر الحديث . فلننقل أيضًا ان من جيوتو كان يمثل هذا الانتقال ، من حضارة العصور الوسطى إلى حضارة الرئيسمانس ، ففيه من هذه وتلك شيء كثير .

هذا القلق الحضاري الذي تجلى — ولا يزال — في كل وجهه من وجوه الحياة الأوربية منذ نحو ١٣٠٠ بدأ بالي Jadid لفن التصوير بظهور جيوتو ، ثم بالي Jadid لفن النحت ، ثم بالتحول العميق الذي أصاب فن العمارة فتطورت من الطراز القوطى إلى الطراز الكلاسيكى الجديد . عبر « الكواترو تشننتو » ، أى من ١٤٩٩ إلى ١٤٠٠ ، أى القرن الخامس عشر ثم عبر القرن السادس عشر ، إلى أن تصدعت الكلاسيكية الجديدة وحلت محلها مدرسة الباروك ، أو مدرسة « الإغراب » .

كان جيوتو يقف مثل دانتى بين عالمين : كان ينتمى إلى العصور الوسطى لأن الهايم كان الهايم دينياً محضاً لا مكان فيه للتصوير الدينوى ، ولأن اكتشافه للبعد الثالث أو ما يسمى بالمنظور ، وهو العمق الذي به تجسم المثلثات والمصور والتماثيل وكل كتلة تقع عليها عين الإنسان ، كان اكتشافاً تقريبياً لا يقوم على أساس علمية .

كانت أوروبا قد نسيت نحو ألف عام من التجسيد أو التشكيل حيث تبدو المثلثات مجسمة كما هي في الطبيعة . نسيت التجسيد أو التشكيل بسبب الحضارة المسيحية التي سادتها أكثر من عشرة قرون . ولأنها دخلت في معارك حياة أو موت مع الحضارات الوثنية السابقة على ظهور التوحيد . عاشت في جزع قائل من كل ما هو مجسد في الفن أو في الحياة .

وبعد أن دمر المسيحيون الأول كل ما وصلت إليه أيديهم من أصنام الآلهة والبشر وصورهم خشية عودة الوثنية ، انقرض فن النحت تماما . ولم يبق من فن الرسم الا الزخارف التجريدية من الامشاق الهندسية المتكررة او امشاق الأزهار وأوراق الشجر ، والا بعض الصور المقدسة ( لدى المسيحيين ) المسطحة ذات البعدين بالفسيفساء الشائعة في الفن البيزنطي ، او بالزجاج الملون المعشق بالرصاص الشائع في نوافذ الكاتدرائيات القوطية في أوروبا الغربية .. ولم ينج من هذا الاضطهاد الا من العمارة لحاجة الدين اليه في بناء دور العبادة ، ولحاجة الامراء اليه لبناء الحصون والقلع والقصور .

كان بعد الثالث او العمق مرادنا للوجود في المكان والزمان . والمكان والزمان هما دار الفناء . والاستعداد للحياة الأبدية يتضمن التجرد من الجسدانية الفانية او من الحياة الدنيا . لهذا فقد كان مجرد اشتغال جيتو بالتصوير التجسيدي « الفيجوراتيف » او بالبعد الثالث ، مهما كان اجتهادا في البدایات .. حدثا ضخما لأنه كان بمثابة التققاء الدين والدنيا . لقد كسرت الحواجز التي كانت قائمة بين الدنيا والآخرة .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح ممكنا ان نخلد ذكرى العظام بالتماثيل والصور ونحيي ذكري الاحباء بالرسوم والايقونات دون أن ننهم بالوثنية .. لأننا ندرك أن رموز الفن ورموز العقيدة مستويان مختلفان . بل مستويات مختلفة .. في الادراك الانساني .. ومنذ ذلك التاريخ أصبح ممكنا للفن أن يقلد الطبيعة والحياة او أن يبدع منها ابداعا خلقا دون أن يتهم الفنان بالشرك او الردة الى اقامته للأصنام . وكان كل ذلك انتصارا للانسان .

وبازدهار العلوم والآداب والفنون الإنسانية . ذلك الازدهار الذي اقترن باحياء حضارة اليونان والرومان .. استوحى فنانو عصر النهضة الأوربية فنون النحت والتصوير والعمارة عند القدماء شكلا وموضوعا . أما من حيث الشكل فقد سيطرت قوانين التجسيد والتكتوين والحركة درجة درجة على مصوري عصر النهضة الإيطالية ومثاليه حتى بلغت أوجها بعد قرنين من التطور التدريجي في من الأقطاب الثلاثة : ليوناردو دافنشي ( ١٤٥٢ - ١٤٩٠ ) ورافائيل ( ١٤٨٣ - ١٥٢٠ ) وMicelangelo ( ١٤٧٥ - ١٥٦٤ ) . أما من حيث الموضوع فقد شاع في من عصر النهضة استحياء الأساطير والموضوعات اليونانية والرومانية الى جانب استحياء القصص الدينية المسيحية والموضوعات الدينية المسيحية . وشاع الاهتمام بتصوير الطبيعة والحياة .. وشاع الاهتمام بتصوير اعلام الناس رجالا ونساء او نحت تماثيلهم .. وشاع الاهتمام بتصوير أجسام الرجال والنساء بدقة تفاصي

دقة الطبيعة .. وبوجه عام كان فنانو الرنيسانس — كما كان 'فنانو اليونان القديمة .. يرون في كمال أجسام الرجال جمالا يفوق جمال أجسام النساء .

وقد أدت الرغبة في تقليد الطبيعة والحياة الى اكتشاف قوانين التجسيد من جهة ، والى الاهتمام بدراسة التشريح من جهة أخرى . وكانت اكبر ثورة قام بها فنانو الرنيسانس هي اكتشاف أهم قانون من قوانين التجسيد ، الا وهو قانون « المنظور » الذي به تأخذ المثلثات بعدها الثالث الا وهو « العمق » ( او الارتفاع ) .. فلا تبدو المثلثات مسطحة بالطول والعرض وحدهما . وأساس هذا القانون هو ان الأجسام تبدو أصغر وأصغر ببعضها اكتر وأكتر عن خط النظر ، وأن الخطين المتوازيين يبدوان أضيق فأضيق ببعضهما عن خط النظر حتى انهما يلتقيان بالوهم في عين الناظر اذا امتدا بالدرجة الكافية . ( أما في علم الهندسة فالخطان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا ) . ولم يكن الاقطاب الثلاثة ، ليوناردو دافنشي ورفائيل وميكلانجلو أول من اكتشفوا أهمية بعد الثالث او التشريح ، ولكنهم كانوا اول من بلغوا بهما حد الكمال .

● ● ●

ولد ليوناردو دافنشي في 15 أبريل ١٤٥٢ في قرية انكياري بالقرب من بلدة فتشى في ريف مقاطعة توسكانيا بجوار مدينة فلورنسا . وكان ابنا غير شرعى لحام ورجل أعمال ناجح يعمل موظفا للعقود اسمه بيرو دافنشي ، من فتاة ريفية فقيرة تدعى كاترينا . وقد تزوج الأب في نفس عام ميلاد ليوناردو من فتاة من نفس مركزه الاجتماعي . أما الأم فلم تثبت ان تزوجت بعد انجاب ليوناردو من رجل رقيق الحال من بيتها . وقد قبلت ليوناردو الصغير منذ مولده أسرة أبيه ، وتم تعبيده في حضور الأسرة وعشرة اشخاص آخرين . وتولت تربية ليوناردو امراة أبيه ، ولكن الأب تزوج بعد ذلك ثلاثة مرات وأنجب أبناء كثرين بلغ عددهم عشرة .

ولا نعرف الكثير عن حداة ليوناردو غير أنه عاش في فتشى حتى سن الثالثة عشرة أو السابعة عشرة ، وأن تعليمه الابتدائى كان بسيطا ، الا انه أظهر استعدادا واضحا للرياضيات وللهندسة وللفنون التشكيلية ، وأنه لم يتعلم اللاتينية في صباه ، ولكنه علم نفسه اللاتينية قراءة وكتابة بدرجة كافية حين بلغ سن الأربعين . كذلك نعرف عن الصبي ليوناردو انه كان شديد الالتصاق ببابيه ، ولكنه كان يقضى اكتر وقته خارج البيت ، غالبا

للتألف مع الطبيعة أو لعله كان حائراً بين أبيه وأمه .. كذلك لوحظ عليه أنه كان محباً للوحدة .

ويبدو أن ليوناردو كان في فنshi وحيداً بلا أصدقاء . ولكن لم يكن يتململ من ذلك أبداً . وقد كتب يقول : « إذا كنت وحيداً ملك نفسك ». وهناك احتمال أن يكون وضعه كابن غير شرعي قد سبب له المتابع في حداثته سواء في البيت أو في المدرسة أو في مجتمع فنshi الريفي الصغير ، فأدى ذلك إلى انطوائيته وعزوفه عن مخالطة الناس .. بل والى عقده النفسية الكثيرة التي انتهت به إلى الخوف من المرأة رغم أنه كان بشهادة كل معاصريه بالغ الوسامة والرشاقة والاناقة .. بل وانتهت به إلى الشذوذ الجنسي غالباً حتى لا يكرر غلطة أبيه .

أما أمه فقد انقطعت أخبارها . غير أنها نسمع أن ليوناردو حين بلغ سن الأربعين كان يقيم في ميلان وكان يستخدم مدبرة منزل اسمها كاترينـا توفيت غالباً أثناء العمل عنده . وقد دفنتها على نفقته . وقتل إنها أمه .

وكان ليوناردو أخ اسمه فرانشيسكو أنجـب غلامـا مكتـبـاً لـيـونـارـدـو يقول « أنت سعيد لأنك خلقت لنفسك عدواً حريصاً على استخلاص حريرته التي لن ينالها منك قبل موتك » . فإذا كانت هذه العبارة تعبر عن شعور ليوناردو نحو أبيه في مكنونات عقله الباطن .. شعور البغض الدفين بين الولد والوالد ، وربما بين الوالد والولد ، فربما أمكن بذلك تفسير شذوذ ليوناردو الجنسي على غرار ما حاول فرويد أن يفعله في بحثه عن ليوناردو دافنشـي .

وهناك وثيقة تثبت أن الوالد بيـرـو دافـنـشـي عـينـ رـسـمـياً موـقـعـوـدـ السـيـئـيـرـيـةـ فـيـ فـلـورـنـسـاـ عـامـ ١٤٦٩ـ .. وـمـنـ هـذـاـ نـسـتـدـلـ عـلـىـ أـنـ هـنـاكـ اـنـتـقـالـ إـلـىـ فـلـورـنـسـاـ فـيـ تـلـكـ السـنـةـ حـيـنـ كـانـ اـبـنـهـ لـيـونـارـدـوـ فـيـ السـابـعـةـ عـشـرـةـ مـنـ عـمـرـهـ .. وـقـدـ أـثـرـىـ بـيـرـوـ مـنـ زـيـانـهـ الـخـصـوصـيـيـنـ حـتـىـ أـنـ هـنـاكـ شـيـقـةـ فـيـ قـصـرـ الـيـوـدـيـسـتـاـ فـيـ فـلـورـنـسـاـ وـاسـتـأـجـرـ بـيـتـاـ آـخـرـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ كـمـ أـنـ هـنـاكـ فـيـلـلـاـ فـيـ بـلـدـةـ فـنـشـيـ .. وـلـاـ نـعـرـفـ أـنـ أـبـ قـدـ اـصـطـحـبـ اـبـنـهـ إـلـىـ فـلـورـنـسـاـ مـعـ اـنـتـقـالـهـ إـلـيـهـاـ .

ولكننا نعرف أن الأب لاحظ نجابة ابنه في فن الرسم منذ أن كان غلامـا في فـنـشـيـ يـرـسـمـ الـمـنـاظـرـ الطـبـيـعـيـةـ .. فـعـرـضـ بـعـضـ رـسـومـهـ عـلـىـ الـفـنـانـ الشـهـيرـ أـنـدـرـيـاـ دـيـلـ فـيـرـوكـيـوـ (ـ١٤٣٥ـ -ـ ١٤٨٨ـ) .. وـهـوـ رـسـامـ نـحـاتـ وـمـعـمـارـيـ فـيـ وـقـتـ وـاحـدـ ، فـقـدـ كـانـ عـادـةـ الـفـنـانـيـنـ فـيـ تـلـكـ الـاـيـامـ أـنـ يـشـتـغـلـوـ بـالـفـنـونـ التـشـكـلـيـةـ جـمـيـعـاـ فـيـ وـقـتـ وـاحـنـدـ .. وـكـانـ ذـلـكـ فـيـ مـقـرـةـ مـاـ بـيـنـ ١٤٦٤ـ

و ١٤٧٠ .. فقبله فيروكيو تلميذا في مرسمه . وفي ١٤٧٢ قبل ليوناردو دافنشي عضوا في « جماعة سان لوكا » ، وهى نقابة الفنانين التشكيليين في فلورنسا .

كذلك نعلم أن فيروكيو احتفظ بليوناردو دافنشي مساعدا له لمدة خمس سنوات بعد دخول ليوناردو دافنشي نقابة الفنانين التشكيليين . . . ونعلم أن ليوناردو دافنشي كان في ١٤٧٦ يقيم مع فيروكيو . ومعنى هذا أن ليوناردو دافنشي ظل على صلة وطيدة بأستاذة فيروكيو ، تلميذا ومساعدا سبع سنوات على الأقل من ١٤٧٠ إلى ١٤٧٧ ، أى بين سن ١٨ و ٢٥ . وقد اعترف فيروكيو فيما بعد بأن تلميذه تفوق عليه . وكان رأى ليوناردو دافنشي الذي دونه هو قوله : « من لا يتتفوق على أستاذة فهو تلميذ مختلف » .

وفي ١٤٧٦ .. أى حين كان ليوناردو دافنشي في الرابعة والعشرين من عمره .. اتهم مع عدد من شباب فلورنسا بالشذوذ الجنسي . ولكن بعد جلستين من المحاكمة حفظت القضية لعدم كفاية الأدلة . غير أن أكثر الباحثين في سير الأعلام يجمعون على صحة هذا الاتهام . ولفرود بحث هام في هذا الموضوع .

• • •

كانت لفيروكيو وليوناردو دافنشي اهتمامات متشركة غير التصوير والنحت والعمارة والموسيقى .. كانوا يهتمان بالرياضيات والهندسة والتشريرج . وقد ترك لنا ليوناردو دافنشي مئات من الرسوم التشريحية التي يعدها البعض دراسات في علم التشريح .. ولكن أكثر هذه الرسوم لا تتجاوز التسجيل الظاهري .. أى تسجيل الفنان لا الطبيب . ومع ذلك فقد تجاوز ليوناردو دافنشي في بعض هذه الدراسات التشريحية اهتمامات الفنان ودخل منطقة العلم المتخصص .

ويقال إن أول من علم ليوناردو دافنشي علم التشريح كان الفنان فيروكيو . ويقال أيضا ان ليوناردو دافنشي درس التشريح دراسة منتظمة في فلورنسا مع طلبة الطب .

ولما كنا نعرف أن لورنزو دي مدি�تشي نقل جامعة فلورنسا ، وفيها كلية الطب ، إلى بيزا بمجرد انتقال ليوناردو إلى فلورنسا فيمكن أن نستخلص أن ليوناردو دافنشي لم يتعلم التشريح مع طلبة الطب إلا فترة وجيزة . وعلى كل فتد كتب ليوناردو نفسه يقول « وقد رأيت تشريح من

نفذ فيهم حكم الاعدام شنقاً ، وهو هنا غالباً يشير إلى من جرى اعدامهم في مؤامرة باترzi عام ١٤٧٧ . وهناك كتاب لمؤلف مجهول معاصر يقول إن ليوناردو قام بتشريح جثث كثيرة في مستشفى سانتا ماريا الجديدة ، ولكن هذا يشير إلى تاريخ إقامته الثانية في فلورنسا وليس إلى فترة التكווين .

كان التشريح معروفاً عند اليونان ثم في مدرسة الإسكندرية ثم عند العرب . ويقول أرسسطو في « خلق الحيوانات » (١/٧) إن تعليم التشريح ينبغي أن يتم برسوم ايساحية . وكان هيروفيلوس ولاريسيتراتوس ، عالماً التشريح في مدرسة الإسكندرية يستعملان الرسوم ايساحية عند شرح تشريح جسم الإنسان . وكان علم التشريح أولاً يوضح بالصور خمسة أشياء : العظام والعضلات والأعصاب والأوردة والشرايين ، ثم أضيف إلى ذلك منظر المرأة الحامل ومنظر الأعضاء التناسلية عند الرجل وعند المرأة . وهذه هي التقاليد التي ورثها العرب ثم أحياها الأوربيون وجددوها وأضافوا إليها منذ عصر النهضة الأوروبية .

وبضمور الحضارة الأوروبية مات علم التشريح طوال العصور الوسطى، ولم يبق منه إلا تشريح الحيوانات ، لأن الكنيسة حرمت تشريح الجثث الأدمية خوفاً من آثار التشريح الوخيمة على البعث في الدار الأخرى . وفي ١٣٠٠ أصدر البابا بونيفاتشيو الثامن مرسوماً اسمه « موضوع القبور ». يعلن فيه تطبيق قرار الحرمان على كل من يخلّى عظام ميت ولاسيما من المشاركين في الحروب الصليبية لتسهيل حفظها ونقلها لتدفن في وطن صاحبها .. وكان أول ذكر لعملية التشريح في إيطاليا عام ١٢٨٦ ، وكانت محاولة لمعرفة أسباب وفاة رجل توفى بالطاعون .. وكانت هذه ارهاصاً ببداية البحث العلمي الموضوعي الذي أدى أزدهاره إلى نهضة أوروبا في العصر الحديث . وفي ١٣٠٢ جرت في بولونيا محاولةً أخرى بالتشريح لمعرفة سبب وفاة رجل اشتبه أنها جنائية ، وهو شيء قريب مما يفعله الطب الشرعي في العالم الحديث .

وكانت أول محاولة علمية في الموضوع ظهرت في أوروبا الحديثة هي كتاب موندينيوس ( ١٢٧٠ - ١٣٢٦ ) ، « علم التشريح » (باللاتينية) ، عام ١٣١٦ ، وهو كتاب متأثر إلى حد كبير بعلم الطب عند العرب ، والكتاب يتناول تكوين جسم الإنسان ووظائف أعضائه . وقد اعترفت جامعته فلورنسا بعلم التشريح في ١٣٨٧ ثم اعترفت به جامعة بولونيا في ١٤٠٥ ، ثم جامعة بادوا عام ١٤٢٩ ، ومع ذلك فقد ظلت الرسوم الخمسة أو الستة المتواترة كشرح لعلم التشريح سائدة حتى القرن السادس عشر .

وحين كتب فيزاليوس كتابه الشهير « اللوحات التشريحية » في ١٥٣٨ لم يضف جديدا وإنما قدم الموارث ولكن في انتقام شديد .

وكان الأطباء من قبل يحتقرن عادة هذه الشروح المchorة التقليدية لرداءة رسومها ، ويررون أنها لا تناسب الا حلقي الصحة . ولكن الفنانين بدعوا منذ جيوبتو يهتمون بهذه الرسوم التشريحية ليستعينوا بها في تصوير الجسم الانساني بواقعية شديدة . بل ان الفنانين في فلورنسا ، المصورين والمثالين ، انضموا منذ ١٣٠٣ الى نقابة الصيادلة والأطباء بسبب هذا الاهتمام بالتشريح ، وكان اهتمامهم بالتشريح لبلوغ الكمال في تقليد الطبيعة كلما تصدوا لرسم الأجسام العارية .

ثم بدأ الفنانون يقومون بالتشريح بأنفسهم ، وكان من أسباقهم الى ذلك المثال دوناتيللو ( ١٤٦٦ - ١٣٨٦ ) . وروى عن الفنان أنطونيو بولايولو ( ١٤٩٨ - ١٤٣٢ ) أنه كان يسلخ الجلد من الجهة ليدرك العرى الحقيقي ، وله صورة « معركة العرايا العشرة » ، التي تعد أهم دراسة في التشريح الظاهري قبل ليوناردو دافنشي ، ولاسيما من حيث تكوين العضلات . وبالمثل اهتم فيروكيو ، تلميذ دوناتيللو وبولايولو وأستاذ ليوناردو دافنشي بعلم التشريح ، وعنه أخذ ليوناردو هذا العلم . كذلك روى عن الفنان لوكا ستيويلي ( ١٤٤٢ - ١٥٢٤ ) انه كان يزور المقاير بحثا عن أشياء يدرس عليها علم التشريح . وربما كانت هناك مبالغات في هذا الصدد لأن بعض الفنانين يعودون من شواذ الناس ، أو ربما رغبة من أعداء الفنون الجميلة في التشهير بالفنانين واظهارهم في صورة شيطانية . ومع ذلك فالثابت أن فيزاليوس علامة الطب ، كتب في ١٥٦١ يقول ان المصورين والمثالين كانوا يتجمهرون حوله أثناء اجرائه لعمليات التشريح .

غير أننا بوجه عام نستطيع أن نقول ان اهتمام الفنانين كان يستطيع الجسم وليس بالتشريح الحقيقي . فاهتمامهم الأول كان بالعظام والعضلات والأوعية الدموية الظاهرة وبلون الجلد وبلون اللحم الحى وبكل ما يدخل في باب التكوين . وقد كان ليوناردو دافنشي أقرب الفنانين الى دراسة التشريح بوصفه علما وفنا .

لا تعرف كيف تعرف ليوناردو دافنشي على لورنزو دي ميديتشي .. ولكننا نقرأ في المؤلف المعاصر المجهول أن لورنزو حين اكتشف موهبة ليوناردو جعله يعمل في حديقته في ميدان سان ماركتو وربما تدخل لتكتيفه برسم الصورة في المذبح في كنيسة السنيورية عام ١٤٧٨ . كذلك نقرأ قول ليوناردو دافنشي فيما بعد : « لقد بناني آل ميديتشي وحطموني » ،

فنعرف أنه مدين بشيء كثير لورنزو دي مدি�تشي ولكننا نعرف أيضاً أن البابا ليو العاشر ، وهو من آل مدি�تشي ، كان يضع أمامه العرقيل أيام اقامته في روما ، ويقدم عليه المصور رافائيل .

وكان أول عقد فني وقعته ليوناردو دافنشي في ١٤٧٨ وهو في سن السادسة والعشرين . ولكنه كان دائمًا يتلوى الكمال في عمله ، ولذا فقد كان بطريقاً في عمله وكثيراً ما لا ينجز ما بدأه . ولهذا قتل زبائنه وشاع عنه أنه لا يعتمد عليه . حتى لورنزو دي مدি�تشي الذي كان معجباً بفنمه لم يكفله بأى عمل له . وكان ليوناردو نفسه لا يكتفى سخطه على لورنزو وعلى حلقة المثقفين المتعلمين بأهدابه ويترفع عليهم ويصفهم بأنهم من طلاب المسافع .

وفي ١٤٧٨ كان ليوناردو دافنشي لا يزال في فلورنسا عندما جرت مؤامرة باتزي التي استهدفت اغتيال لورنزو دي مدি�تشي وأخوه جوليانيو والاطاحة جملة بآل مدি�تشي وبحكمهم ، ولكنها لم تنجح إلا في قتل جوليانيو ، وخرج منها لورنزو أقوى مما كان . وفي ديسمبر رسم ليوناردو جثة أحد القتلة وهو باندينو بارونتشيلي ، مشنوقاً من نافذة قصر السنيورية . وقد تعرف ليوناردو في ١٤٧٨ على عاشر ميلانو ، لودوفيكو سفورزا ، حين زار فلورنسا ليهنيء صديقه لورنزو بسلامة النجاة وليعزيه في موت أخيه جوليانيو . وكان لورنزو هو الذي عرف ليوناردو بأمير ميلانو ، وقد أفضى ذلك إلى أن ليوناردو دافنشي انتقل إلى ميلانو في فترة ما بين ١٤٨١ و ١٤٨٣ ، ليتحقق بيلات الدوق لودوفيكو سفورزا حاكم ميلانو .

هكذا قضى ليوناردو دافنشي الفترة الأولى من حياته في فلورنسا ، أكثر من عشر سنوات ما بين ١٤٧٠ و ١٤٨٠ ، قبل انتقاله الأول إلى ميلانو . قضاها تلميذاً للفنان فيروكيو ثم مساعدًا له . فماذا أضاف ليوناردو لفن خلال هذه السنوات العشر ؟

هناك من فترة التلمذة جزء من صورة رسماها فيروكيو اسمها « يوحنا يعمد المسيح » ، وقد رسم ليوناردو في ركتها الأيسز صورة ملاك بالغة الانتقام جعلت فيروكيو يقسم أنه سيهجر الرسم بعد ظهور هذا الفنان المعجزة ، وبالفعل انصرف فيروكيو بعد ذلك إلى فن النحت .

كذلك تنسب إلى ليوناردو دافنشي في فترة فلورنسا الأولى صورة « بشاره مريم » التي رسماها أثناء عمله في أتيليه فيروكيو . وتنمي هذه الصورة بالتفصيل الشديد في رسم جناحي الملائكة ، على غير الأسلوب

التقليدي في القرن الخامس عشر . كذلك نجد ثوب المادونا ، أى مريم العذراء ، يتميز بشدة الواقعية والمطابقة للقماش الحقيقي الذي كانت تصنع منه الأثواب ، وقد كان الرسامون التقليديون يرسمون الثياب من الخيال . وشاع أن ليوناردو الشاب كان يستعمل موديلات حقيقية من الحياة ، يرسمها أولاً بالتفصيل قبل أن ينقلها بالزيت على القماش أو على الكرتون أو على الجدران ، كما كان يدرس طيات الثياب وطريقة سقوطها عند الجلوس أو الوقوف وفي مختلف الأوضاع . كان المهم عند ليوناردو دافنشي هو تقليد الطبيعة بأقصى دقة ممكنة . وقد قلده معاصره في ذلك تقليداً حرفيًا . ولم ينبع منهم حقاً في حياة ليوناردو غير رفائيل وميكلانجلو .

ومن آثار فترة فلورنسا الأولى « المادونا ذات الزهرية » ( ربما من لوحات ١٤٧٠ ) . ومثلها صورة سيدة سيدة اسمها جينرفا وهي من عائلة بتشى المعروفة في فلورنسا ، وتسمى في تاريخ الفن « جينرفا دابتشى » . وهي غالباً من حصاد ١٤٧٤ . وتعد هذه الصورة المقدمة التمهيدية للصورة النصفية التي نعرفها في أشهر نموذج لها ، وهي صورة « الموناليزا » المعروفة بالجيوكوندا . وهي الآن في متحف اللوفر بباريس .

وفي ١٤٨١ رسم ليوناردو دافنشي صورة « ملوك المجروس يعبدون المسيح » ، وهي صورة ناقصة بعض الشيء ، ومع ذلك فعظمتها الفنية تسطع ، لأنها رغم تعدد الأشخاص فيها ، بل تكتسهم ، تجعل مريم والطفل في بؤرة المنظر ، كما أن الملوك الثلاثة وأصحابهن تماماً وسط حشد الشباب والشيوخ والخيول والفرسان والخلفية من العمارة المتداعية .. وقد توصل ليوناردو دافنشي إلى إبراز العمق الواضح في الصورة عن طريق التكوين الهرمي ، كما أن التعبيرات على وجوه الناس آية في الدقة .

ثم جاءت مرحلة ميلان الأولى التي امتدت نحو ثمانية عشر عاماً ، من نحو ١٤٨٢ حتى نهاية ١٤٩٩ ، فقد أرسل لورنزو دي ميديتشي ليوناردو دافنشي ، وقد قارب الثلاثين من عمره إلى صديقه وحليفه لودوفيكو سفورزا عاشر ميلان حاملاً إليه هدية هي عود مصنوع من الفضة ، وكانت هذه طريقة لبقعة لتركيبة ليوناردو عند حاكم ميلان .

ولا أحد يعرف لماذا « تنازل » لورنزو ، وهو الحريص على تجميع المواهب ورعايتها في فلورنسا ، لصاحبها لودوفيكو عن ليوناردو دافنشي بهذه السهولة رغم ايمانه بعيقريته . أما التفسير المألوف فهو لأنه وجد أن فلورنسا كانت متخصمة بالعقربات الفنية بينما ميلان بحاجة إليها . وهو تفسير غير كاف لأن ميكلانجلو كان يومئذ لا يزال في السادسة من عمره ،

ولورنزو دى مدیتشی لم یتبن میکلانجلو الا یافعا . ثم ان مدرسة فیروکیو (١٤٣٥ - ١٤٨٨) ودوناتیللو (١٤٦٦ - ١٤٨٦) من قبله ، كانت في سبيلها الى الانقراض او انقرضت بالفعل ولكن ، هناك احتمال ان قضية الشذوذ الجنسي التي ثارت حول ليوناردو أثناء اقامته مع فیروکیو عام ١٤٧٦ جعلت لورنزو دى مدیتشی یترجع من ضم ليوناردو رسميا الى بلاطه كما فعل مع میکلانجلو .

وهناك خطاب كتبه ليوناردو دافنشی في تلك الفترة موجها الى لودوفیکو سفورزا یشبه طلبات الاستخدام ويعدد فيه ليوناردو مواهبه وقدراته كمهندس عسكري وعالم رياضي ومهندس معماري ومثال ، ولا يذكر صفتة كفنان مصور الا في آخر الفائمة .

وفي ١٤٨١ استولى الدوق لودوفیکو سفورزا على السلطة في ميلان بمحض انقلاب قام به على الحاكم الشرعي ، وهو ابن أخيه . فقد كان يحكم ميلان أصلا الدوق جالياتزو ماريا ، وبعد اغتياله كان وريثه في الحكم جيان جالياتزو ، وكان عمره سبع سنوات ، فكان رسميا تحت وصاية امه بونا دى سافوى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد سكرتير الدوق السابق، وتدعى سیمونینتا ، فقام الدوق لودوفیکو سفورزا بانقلابه الذي اطاح فيه بنظام الوصاية وأصبح هو الحاكم الحقيقي لمیلان بوصفه حامى الدوق الصغير ، ثم انفرد هو بالحكم رسميا رغم أن جيان جالياتزو عاش حتى ١٤٩٤ .

وقد أدى هذا الانقلاب الى ظهور حلف نابولي ومیلانو وفلورنسا الذى انضم اليه غیرارا . وكانت البابوية والبندقية تعترضان على هذا التحالف بعدوانية ، ولكن رغم انسحاب البابوية والصالح مع البندقية ، استمرت الفتنة الاقطاعية في ايطاليا بتشجيع من البابوية . وبذلت فرنسا طالب بحقها الوراثي في ملك نابولي ثم في میلانو ، وقويت مشكلة التدخل الفرنسي المسلح للاستيلاء على هاتين الدولتين .

و واضح ان خطاب ليوناردو دافنشی الى لودوفیکو سفورزا ، الذى يعرض ليوناردو فيه كفاءاته كمهندس وخبرير في بناء استحكامات قبل كفاءاته كفنان ، قد كتب في هذا الجو المشحون بنذر الحرب . وهكذا دعى ليوناردو دافنشی للعمل في بلاط دوق ميلان ، فاشتغل بين ١٤٩٢ و ١٤٩٨ كمهندس استحكامات وكمهندس للديكور الداخلى .

وفي ميلان تعرف ليوناردو دافنشی الى رجلين من اهم رجالات عصره ، هما عالم الرياضيات لوکا باتشیولی والمهندس المعماري دوناتو دانیولو

الشهير باسم برامانتى (١٤٤٤ - ١٥١٤) ، وهو الذى بنى كاتدرائية القديس بطرس في روما ، وكان برامانتى هذا يشارك ليوناردو دافنشى جبه لعلم الميكانيكا الى حد الهوس . وحين انتقل ليوناردو الى بافيا مع الدوق لودوفيكو سفورزا أقام مع الدوق في حصن المدينة ، وكانت به مكتبة هائلة فعكف ليوناردو على دراسة التشريح مع استاذ معروف يدعى مارك انطونيو ديللا طورا ، وعلى دراسة الرياضيات مع كاردانو استاذ الرياضيات بجامعة بافيا وقد اطلع في هذه المكتبة على بعض الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية في التشريح والرياضيات .

وفي ١٤٩٢ دعا لودوفيكو سفورزا شارل الثامن لغزو ايطاليا والاطاحة بالفونسو دى اراجون ، ملك نابولى الطامع في عرش ميلان بسبب زواج ابنه من جيان جالياتزو الوريث الشرعي لعرش ميلان . وبالفعل اجتاح شارل الثامن من ١٤٩٤ ايطاليا كلها بتوسط ميلان . وهنا ادرك لودوفيكو سفورزا خطأه في الاستعانة بقوات أجنبية لثبت عرشه في ميلان ، فانضم الى التحالف المقدس في ١٤٩٥ مع البندقية والبابوية وأسبانيا ومكسيليان امبراطور النمسا لطرد الفرنسيين . ولكن بعد موت شارل الثامن غزا خلفه لويس الثاني عشر ملك فرنسا ميلان من جديد في ١٤٩٨ ، واستولى عليها في ١٤٩٩ ، وكان معجبا بفن ليوناردو دافنشى فعرض عليه العمل في بلاطه ولكن ليوناردو اعتذر وترك ميلان في نفس العام مع المهندس برامانتى والفنان كاراسو والعالم باتشيولى وغيرهم . أما لودوفيكو سفورزا فقد وقع في الاسر وكان معتقلًا في فرنسا عام ١٥٠٠ .

وبعد رحيل ليوناردو دافنشى من ميلان قضى في التجوال نحو ست سنوات ( ١٥٠٠ - ١٥٠٦ )، فقصد أولاً إلى مانتوا بدعوة من حاكمها الدوق فرانشيسكو جونزاجا وزوجته الدوقة ايزابيلا ديستا التي اشتهرت برعايتها للفنون . ولم تطل اقامته في مانتوا فقصد إلى البندقية حاملاً خطاب توصية من حاكم ميلان الفرنسي يقول أنه خبير في اقامة الاستحكامات وصناعة السلاح ، فقد كانت البندقية تتوقع غزو تركيا ، ولكن الغزو لم يتم ، فعاد ليوناردو إلى فلورنسا في ١٥٠١ ، ولكنه انتقل في ١٥٠٢ لخدمة سizar بورجيا فترة وجيزة كمهندس معماري وعسكري .

وفي ١٥٠٣ ترك ليوناردو خدمة سizar بورجيا قبل اغتياله بفترة وجيزة .

ولم تشتهر « موناليزا » لجمال صاحبتها ولا لرقة قسماتها فهي أشبه شيء بربة أسرة عاطلة من كل امتياز فهى خفيقة الحواجب سميكية الجفنين طويلة الأنف ولكن نصف الابتسامة الملغزة في ركن من فمهما وعينيها

المغورقتين بندى خفيف توحى بأن الوانها الزينية الغائمة ليست منقوشة على اللوحة بل مفروشة عليها بأنفاس الفنان . وبموت سizar بورجيا والبابا اسكندر السادس عاد الهدوء الى فلورنسا .

وعاد ليوناردو الى فلورنسا حيث رسم صورة « الجيوكوندا » او « موناليزا » التي تعد أشهر صورة في تاريخ الفن في العالم ، وقد أتمها ليوناردو في ١٥٠٣ ، وهى صورة امرأة من نابولى تدعى موناليزا ديللا جيوكوندا او مادونا ليزا كانت زوجة موظف او تاجر من اثرياء التجار في فلورنسا وقد كلف ليوناردو برسمها في ١٥٠٢ . وقد أقام ليوناردو في فلورنسا حتى ١٥٠٦ ثم عاد الى ميلان بدعوة من حاكمها الفرنسي . واسم ليزا جيوكوندا الأصلى هو ليزا جيزاردينى وقد تزوجت من ديل جيوكوندا في ١٤٩٥ .

وهكذا انتهت اقامة ليوناردو دافنشى الثانية في فلورنسا وبذات اقامته الثانية في ميلان ، وقد امتدت من ١٥٠٦ الى ١٥١٣ .

فماذا حقق ليوناردو دافنشى في مرحلة اقامته الأولى في ميلان ؟

في مرحلة ميلان الأولى التي امتدت من نحو ١٤٨١ الى ١٤٩٩ ، رسم ليوناردو دافنشى صورة « مادونا الصخور » او « عذراء الصخور » عام ١٤٨٣ ، وهى الآن في متحف اللوفر ، وهناك صيغة أخرى منها في المتحف القومى بلندن . ومن هذه الفترة أيضاً في متحف الاوقيانيس في فلورنسا « دراسة لرأس امرأة » .

وكان من أهم الاعمال التي صممها ليوناردو دافنشى ونفذها بين ١٤٨٦ و ١٤٩٣ تمثال ضخم لفرانشيسكو سفورزا ، والد الدوق لودوفيكو سفورزا ، راكبا جواده ، قد استغرق صنعه سبع سنوات على الأقل بعد محاولات فاشلة في التصميم أو بعد تردد شديد بين أوضاع الجواد . وقد كان ارتفاع هذا التمثال الهائل ٢٧ متر ، وقد صنعه ليوناردو دافنشى من الصلصال وكسه بالجبس حتى يمكن تفريغ الصلصال من الداخل وصب البرونز مكانه ، وقد مدت زنة البرونز المفترض بمائة رطل . وقد فرغ منه في ١٤٩٣ وأقامه في ساحة الحصن أو قصر الدوق في ميلان تحت قوس النصر ، ولكن بعد ان استولى الفرنسيون على نابولى وفلورنسا وظهر خطفهم على ميلان عام ١٤٩٥ عدلت حكومة ميلان عن صب التمثال في البرونز نظراً لحاجتها الى البرونز في صناعة الدافع والأسلحة . وحين احتل الفرنسيون الغزاة ميلان في ١٤٩٩ استخدمه جنودهم هدفاً للتدريب

على اطلاق النار . وقد ظل التمثال قائماً في ميدان الحصن حتى ١٥٠١ ولكنه تحطم بهذا التخريب المتواصل وبفعل الرياح والأمطار ولكنه ظل سنوات رائعة من روائع الفن وشاهداً على عبقرية ليوناردو دافنشي التي بهرت كل معاصريه .

ولم يصبح ليوناردو دافنشي رسمياً فناناً في بلاط لودوفيكو سفورزا إلا بعد ثمانى سنوات من نزوله الأول في ميلان ، وظل طول هذه السنوات يقيم في استوديو خاص شاركه فيه فنان آخر يدعى أمبروجيو دي بريديس . ثم انتقل ليوناردو للإقامة في قصر لودوفيكو سفورزا .

أما الرائعة الباقية من مرحلة ميلان الأولى فهي الصورة الحائطية الشهيرة ، صورة « العشاء الأخير » ( بالزيت ) التي بدأها ليوناردو في ١٤٩٦ أو قبل ذلك بتكليف من لودوفيكو سفورزا ، وهي قائمة الآن في قاعة الطعام بدير سانتا ماريا ديللا جراتزيا ، وهي أيضاً مثل الجيوكوندا من أشهر الصور في تاريخ الفن ونحن نعلم أنه كان يعمل فيها في ١٤٩٧ .

ويبدو أن ليوناردو دافنشي كان شديد البطء في العمل طلباً منه للكمال حتى أثار حفيظة رئيس الدير الذي كان يستحثه للانجاز . وكان ليوناردو يذهب إلى الدير كل صباح للعمل في « العشاء الأخير » وكان يتأمل الصورة نصف ساعة ثم يضيف بريشه نحو عشر لمسات وبعدها ينصرف بقية النهار ليعود في اليوم التالي . وحين أظهر رئيس الدير ضيقه من ذلك ، أجابه ليوناردو بأنه يحاول أن يخلق تعبير الدناءة على وجه يهودا ، ولكن إذا كان رئيس الدير متوجلاً فهو في أمكانه أن يضع صورته مكان صورة يهودا .

ويلاحظ في الصورة التقليدية « للعشاء الأخير » أن الصورة مكونة من المسيح ومن حوله الحواريون الاثنا عشر نصفهم يجلس عن يمينه ونصفهم يجلس عن شماله وكل منهم مستقل عن الآخرين في وضعه وفي تعبيراته وكأنهم غرباء لا يعرفون بعضهم بعضاً ، أما في « العشاء الأخير » لليوناردو دافنشي فنجد كل مجموعة من الحواريين تقسم إلى مجموعتين على اليمين ومجموعتين على الشمال وكل مجموعة من ثلاثة ، وكل ثلاثة منهمكون في الحديث أو التفكير أو في تخمين مقاصد المسيح من عباراته المبهمة الأخيرة ، الا يهودا الذي اختفى وجهه في الظل .

ويلاحظ من النادر المروية عن ليوناردو دافنشي ورئيس دير سانتا ماريا ديللا جراتزيا أن الفكرة الشائعة عن الفنان المصور يومئذ كانت أنه أشبه شيء بالنقاش الذي ينفتح على الجدران حسب الطلب . هكذا كان تصور

رئيس الدير .. أما فكرة الفنان المتأمل الخلاق الشّبيه بالشاعر الملم فكانت شيئاً جديداً غير مألوف وهو ما استجد في نظرية الفن في عصر الرئيسيانس . كذلك نلاحظ الاحساس بالعمق او بالبعد الثالث الذي يجسم المرئيات نتيجة لتطبيق نظرية المنظور المدروس في رسم القاعة والابواب والعروق الخشبية في سقف الغرفة ..

وفي ميلان أيضاً رسم ليوناردو في مرحلته الأولى صورتين لاثنتين من عشيقات لودوفيكو سفورزا وقد درما ، وصورة « ذات الجبين المرصع »، وصورة لودوفيكو سفورزا وهي في متحف اللوفر ، وصورة « موسيقى » . وفي مانتوا بدأ صورة للدوقة ايزابيلا ديستا ولكنه لم يتمها . أما فترة عمله مع سizar بورجيا فكانت مستقرة في بناء الاستحكامات ودراسة الطبوغرافيا ولم تدم أكثر من سنة واحدة هي سنة ١٥٠٢ . وفي مكتبة الامبروزيانا بميلان صورة بريشة ليوناردو ويقال أنها صورة بيانكا ماريا سفورزا اخت لودوفيكو .

وقد ظلت العلاقة بين لودوفيكو سفورزا وليوناردو دافنشي علاقة بالغة الجودة حتى ١٤٩٧ حين توقف لودوفيكو عن دفع مرتب ليوناردو بسبب اضطراب أحواله المالية نظراً لظروف الحرب فساعت هذه العلاقة نوعاً ما . ولكن آخر عمل قام به لودوفيكو سفورزا قبل فراره من ميلان كان إهداءه حقلان من حقول العنب في ضواحي ميلان إلى ليوناردو دافنشي . وأضطر ليوناردو بسبب سوء حالته المالية أن يغادر ميلان في ديسمبر ١٤٩٩ ، وكان عمره يومئذ ٤٧ سنة ، فناناً ذائعاً الصيت ولكنه قليل المال ، فلم يكن قد أدخل طوال هذه السنوات غير ٦٠٠ فلورين أودعها في فلورنسا وكان يسحب منها باستمرار . غادر ليوناردو ميلان مع عالم الرياضيات لوكا باتشيولى بحثاً عن عمل جديد ، وأهمل دراساته التشريحية وتفرغ للفن . وفي ١٥٠١ و ١٥٠٢ كان يعمل في صورة « سانتا آنا » (القديسة حنة) ولكنه لم يتمها ، وهي الآن في متحف اللوفر .

فلما عاد إلى فلورنسا في ١٥٠٣ أعاد قيد اسمه في سجل نقابة الفنانين في المدينة وكلفته السينiorية (المجلس الحاكم) برسم فريسكو على حائط في قاعة المجلس الكبرى في « القصر العتيق » (بالاتزو فيكيو) يصور « معركة انجياري » بين فلورنسا وميلان في ١٤٤٠ ، فبداء ولكنه لم يتم رغم أنه تعهد بإنجازه في فبراير ١٥٠٥ وبدلاً من ذلك ذهب في ١٥٠٥ إلى فينيزولى ، وهناك انقطع لدراسة حركات الطيور فقد كان مستغرقاً في فكرة اختراع طائر وبعد ذلك بعام كلفت السينiorية ميكلانجلو برسم فريسكو يصور « معركة كاشينا » التي تسمى أحياناً معركة بيزا .

لم تكن لدى ليوناردو خبرة كافية بفن الفريسكو فاستعمل تكنيكا جديدا بالشمع ، ولكن الشمع ساح وفسد الفريسكو .

وقد نقل روينز نسخة من هذا الفريسكو التالف وبهذا حفظ لنا سماته الأساسية . كانت معركة ميكلانجلو عبارة عن استعراض لكمال أجسام الرجال المحاربين فهى دراسات في الأجسام العارية ( الجنود يخرجون من نهر الأرنو على نداء النفير ويهرون إلى السلاح ) ، أما معركة ليوناردو دافنشى فكانت تصور جنون الرجال المقاتلين الذى امتد الى خيلهم فجعلها أيضا تقتل في جنون ومحور الصورة أربعة فرسان يقتتلون لينتزعوا علما . وتوقف العمل في لوحة ليوناردو في ١٥٠٥ ، فقد كان لابد أن يبدأها من جديد بعد فسادها .

وفي أثناء اقامة ليوناردو الثانية في فلورنسا تعقدت حياته بعض الشيء، فقد مات أبوه في ١٥٠٤ وحاول أخوه حرمانه من حقه في الميراث بحجة أنه ابن غير شرعى ، فلجا إلى القضاء ، وحكم القضاء لصالحه في ١٥٠٦ .

كذلك أوصى له عمه ببعض المال ، فلما مات في ١٥٠٧ حاول أخوه حرمانه من التركة فرفع عليهم دعوى واستمر نظر القضية حتى ١٥١١ ، فاضطر ليوناردو أن يلجأ إلى رعاية الماريشال شارل دامبواز حاكم ميلان الفرنسي بل والى لويس الثانى عشر ملك فرنسا وغيرهما حتى يتدخلوا لإنهاها وقد كان ، وكان كل ذلك يقتضى من ليوناردو أن ينتقل بين ميلان وفلورنسا .

كان ليوناردو دافنشى قد تقاضى من السنiorية في فلورنسا مبلغا طائلاً مقابل رسم فريسكو « معركة انجيارى » وكان موضع رعاية لويس الثانى عشر وحكام ميلان ، فقرر العودة إلى ميلان في ١٥٠٦ ولكن حكومة فلورنسا اعترضت على رحيله حتى يتم فريسكو « معركة انجيارى » فكتب على نفسه تعهدًا بالعودة إلى فلورنسا لاتمام الفريسكو ، واحتاج الامر إلى بضفت من حكومة ميلان حتى توافق حكومة فلورنسا على الانتظار إلى أجل غير مسمى .

وهكذا بدأت مرحلة ميلان الثانية في حياة ليوناردو دافنشى ، وقد امتدت من ١٥٠٦ إلى ١٥١٣ . بدأت بضغط لويس الثانى عشر ملك فرنسا على فلورنسا لكي تغير ليوناردو دافنشى إلى ميلان إلى أجل غير مسمى . وفي ١٥٠٧ أصدر لويس الثانى عشر مرسوماً بتعيين ليوناردو دافنشى فناناً

مصوراً ومهندساً معمارياً في البلاط الفرنسي ولكن ليوناردو لم ينتقل إلى فرنسا بل بقى في ميلان .

وفي ١٥٠٧ تعرف ليوناردو في ميلان على فرانشيسكو دى ملزى الذى لازمه بقية عمره وحفظ كل أوراقه . وكان فرانشيسكو دى ملزى غلاماً موهوباً في فن الرسم فتلقى على ليوناردو الذى كان يقيم في منزل جيرولامو دى ملزى والد الغلام ، في ضاحية خارج ميلان . وفي ١٥١٢ انسحب الفرنسيون من ميلان وعاد الحكم إلى آل سفورزا ، فتولى السلطة ماسيميليانو سفورزا بن لودوفيكو سفورزا . وانتقل ليوناردو دافنشى إلى روما في ١٥١٣ ومعه فرانشيسكو دى ملزى .

ورغم أن حكم آل سفورزا دال في ١٥١٥ وسيطر الفرنسيون مرة أخرى على ميلان ، إلا أن ليوناردو أقام في روما حيث كان البابا ليون العاشر من آل مدیتشى ، فهو أصلاً جيوفانى دى مدیتشى بن لورينزو العظيم . وأقام ليوناردو في قصر البلفدير في الفاتيكان ولكن راعيه الحقيقي وصديقه كان جوليانيو دى مدیتشى أخا البابا ، لأن البابا نفسه كان أكثر حماساً للفنان رفائيل منه إلى ليوناردو . أما جوليانيو فكان يشارك ليوناردو شغفه بعلم الكيمياء وكانت في قصر البلفدير مكتبة ضخمة جذبت ليوناردو إلى دراسته العلمية من جديد ، فانقطع لدراسة البصريات والتقطير وعاد إلى دراسة التشريح في مستشفى الروح القدس .

ودس له البعض عند البابا واتهمه بالتجديف وبتشريح الجثث ، فغضب عليه البابا وحرم عليه دخول مستشفى الروح القدس . وفي ١٥١٦ مات صديقه جوليانيو دى مدیتشى فعاد إلى ميلان في نفس العام . فعينه فرنسوا الأول ملك فرنسا فناناً مصوراً في البلاط الفرنسي وأجرى عليه معاشًا سخيًا وأصطحبه إلى فرنسا وأنزله قصر كلوج في إمبواز على نهر اللوار ، حيث أقام ليوناردو مع فرانشيسكو ملزى ثلاثة سنوات في رعاية الملك الشخصية حتى مات في ٢ مايو ١٥١٩ . وقد أوصى ليوناردو في وصيته لفرانشيسكو ملزى برسومه وأوراقه ومذكراته .

وقد حافظ ملزى على كل ما تركه له ليوناردو دافنشى حتى مات في ١٥٧٠ ، وكان يرفض كل ما يأتيه من عروض لشراء الرسوم أو المخطوطات ، ولكن بعد موت ملزى انتقل هذا التراث إلى أيد عديدة . وكان بينها ١٣ مجلداً ألت إلى مكتبة أمبروزيانا في ميلان عن طريق الاهداء في ١٦٣٦ ، ومن هذه المجموعة مجلد به ١٧٠٠ رسم ايطالي ويسمى مجموعة الاطلس . وقد بقيت كل هذه المجلدات في ميلان حتى استولى عليها بونابرت في حملته

الإيطالية ونقلها إلى المكتبة الأهلية بباريس والى مكتبة المجمع الفرنسي بها، وبعد سقوط نابوليون أعيد إلى مكتبة ميلان مجلد واحد هو « مجموعة الأطلسي » عام ١٨١٥ بناء على طلب إيطاليا . ورغم موافقة فرنسا على إعادة بقية المجلدات إلا أنها تجاهلت الأمر واحتفظت بها .

وقد انتهت مذكرات « تحليق الطيور » إلى مكتبة تورينو في إيطاليا ومذكرات الرسم بالزيرت إلى مكتبة الفاتيكان . كذلك حصلت إنجلترا على بعض المذكرات ، ففي إنجلترا ما يعرف « بمجموعة وندسور » و « بمجموعة المتحف البريطاني » ومجموعة فورستر في متحف فكتوريا والبرت ومجموعة ليسير بنورفولك ومجموعة إكسفورد « مكتبة كرايستنس تشيشن » . وكل هذه المذكرات منتشرة ، وهي تتناول ملاحظات ليوناردو دافنشي في فنون المعمار والتصوير وفي علوم الطب والتشريح والهندسة والهندسية ، والجيولوجيا والفيزياء ، الخ ..

وقد ضاعت أكثر لوحات ليوناردو دافنشي ، وإن كان نعرف أسماء بعضها من كتبات المعاصرين ، مثل صورة « ليدا » و « بومونا » (في أساطير اليونان والروماني) . ولم يبق من تراثه الفني إلا خمس عشرة صورة منها ، إلى جانب ما تقدم ذكره ، صورة « يوحنا المعمدان » و « يوحنا جالسا » وهمما في متحف اللوفر ، وهذه الأخيرة تعرف أيضاً بصورة « بالخوس » رب الخمر عند القدماء . وبوجه عام نستطيع أن نقول أن ليوناردو دافنشي كان شحيحاً في إنتاجه الفني منذ مرحلة ميلان الثانية ، أى ابتداء من ١٥٠٦ ، أما مرحلة روما ( ١٥١٣ - ١٥١٦ ) فقد كانت مرحلة عقم فني وانصراف كامل إلى الدراسات العلمية .

وقد اقترن اسم ليوناردو دافنشي بمدرستين : المدرسة الطبيعية في الفن ، ومدرسة الخيال العلمي في الحياة . أما المدرسة الطبيعية فقد كان أساسها تقليد الطبيعة في قدرتها على الابداع وقد اقتضى هذا دراسة مفصلة لعلم التشريح ولعلم البصريات ولعلم الجيولوجيا . أما مدرسة الخيال العلمي فقد اقتضت من ليوناردو دافنشي أن يدرس دراسة مفصلة قوانين الرياضيات والميكانيكا والطبيعة والكيمياء ليعرف أسرار الحركة والسكن ومراحل التقل والقدرة والمقاومة في اليابسة والماء والهواء .

وقد كان شغف ليوناردو دافنشي بالعلوم وبالمنهج التجريبي يضاهي شغفه بالفن ، فترك لنا في مذكراته دراسات حول مركز الثقل والروافع والقوة والمقاومة والقصور الذاتي في السكون والحركة قبل أن يكتب غاليليو ( ١٥٦٤ - ١٦٤٢ ) في هذا الموضوع وقبل أن يضع نيوتن ( ١٦٤٣ - ١٧٢٧ )

قوانينه المشهورة في القصور الذاتي وفي الفعل ورد الفعل — وكذلك ترك ليوناردو دراسات عن بعض قوانين الجاذبية وبعض قوانين الاحتكاك وبعض قوانين الصلابة ، ودراسات في تخطيط المدن ، ودراسات في الكبارى .

ففي تخطيط المدن كتب ليوناردو يقول : « دع الشارع يتخذ عرضا مساويا للارتفاع الاجمالي للمنازل » وذلك لمنع التكدس السكاني المؤدي إلى انتشار الاوبئة . وتصور ليوناردو مدن المستقبل من مستويين : العلوى للمشاة والسفلى للعربات ، وهما يتصلان بسلام وكماري والشوارع مغطاة بالبواكي مع نظام خاص للمجارى .

أما دراسات ليوناردو عن الكبارى فتناولت العقود الرومانية ( نصف الدائرية ) والعقود القوطية المدببة ( ذات الأقواس المكسورة ) ، واكتشف أن مركز الثقل في العقد نصف الدائري لا يقع في منتصف العقد كما كان التصور قبله ولكن يقع في طرف الارتكاز . وفي ١٥٠٣ كتب ليوناردو إلى بايزيد الثاني يقترح عليه إنشاء كوبرى حجرى عبر القرن الذهبى طوله حوالي ٢٤٠ مترا في هيئة قوسن واحد منفرد .

واكتشف ليوناردو قياس المساحة بطريق حساب المثلثات من نقطتين مرتفعتين لعمل الخرائط المساحية .

وفي معدات القتال وضع ليوناردو تصميم مدفع ينطلق بضغط البخار ، ومدفع يحشى من الخلف ، كما وضع تصميم رشاش به ٣٣ ماسورة مركبة على ٣ صنوف ، وكل صف ينطلق تباعا . كذلك وضع تصميم الكبارى العسكرية السهلة التركيب والفك . واخترع قوس باليسنا وهو نوع من المنجنيق لاطلاق القذائف الحجرية زنة ٤٥ كيلو جراما مشدودا بحبيل طوله ٤٠ مترا ، وكان القوس معروفا أيام الرومان ولكن ليوناردو طوره . واخترع الدبابة والمصفحات وهى مركبة مغطاة لوقايتها من القذائف ومجزأة بمدافع للهجوم .

وكذلك وضع تصميم الغواصة وهى سفينة مزدوجة الجدار صعبة الاخترق تغوص لخرق قاع سفن الاعداء بسلاح حاد يدار بقوس البحارة . واخترع بدلة الغطس بأنبوبة هوائية بدلا من أنبوبة الاوكسجين وفي البدلة حاجز شفاف أمام العيون .

ولاستيلاد القوة الميكانيكية طور ليوناردو تصميمات توربينات الماء والهواء والهواء المضغوط بالمنفاخ وقد كانت معروفة في العالم القديم منذ اليونان والفرس لادارة الطواحين وتتكلم عنها المسعودي ( المتوفى في ٩٤٧ )

والقزويني ( ١٢٠٣ - ١٢٨٣ ) وأبو طالب الدمشقي ( ١٢٥٦ - ١٣٢٧ ) . وبالمثل اخترع ليوناردو الفرملة الميكانيكية لايقاف طواحين الهواء ، والسلالس لنقل القدرة كالجذير . ووضع تصميم الكوريك الرائع والويشن وتصميم الكراكات لتطهير الترع ، وماكينات لرفع المياه ، ولخراطة الخشب والمعادن وللقطع كالناشير ، وللغلز تغزل وتلف الخيط معا ، وللطباعة تكون فيها التغذية بالورق آلية ، وللتجلیخ والشحن والدرفلة ، كما وضع دراسات مستفيضة في الترويس للاستفادة منها على اكمل وجه في ميكانيكا الساعات وغيرها ، وانشا آفراانا وأنابيب للتنفس .

وكان من أهم ما اخترعه ليوناردو دافنشي ماكينة للطيران على هيئة أجنحة وذيل تركب على الطيار ، وكان روجر بيكون قد تنبأ بهذا الاختراع في ١٢٥٠ ولكن تجربة ليوناردو في الاعتماد على قوة الطيار العضلية فشلت لعدم اكتمال دراسته . وكذلك وضع ليوناردو تصميم الباراشوت والهليكوبرت أو الطائرة العمودية .

اما في علم التشريح فقد ترك لنا ليوناردو دافنشي منذ ١٤٨٧ رسوما تشريحية ساذجة يمكن أن يكون قد استقاها من جاليروس ومونديوس وابن سينا . وقد كان ليوناردو يقتني في مكتبه كتابا في الصحة لأبي بكر الرازي ( ٩٤٤ - ٨٦٦ ) باللاتينية اسمه « الكشكول » ، وفي ليوناردو اشارات عديدة الى معرفة بعض مؤلفات ابن سينا ورسائل الكندي المتوفى عام ٨٧٣ . وعلى كل فقد كان كتاب « القانون في الطب » لابن سينا ( لعله « الشفاء » ) المرجع الأول في جامعات أوروبا منذ نشره باللاتينية عام ١٤٧٣ حتى منتصف القرن السابع عشر ، ويسمى باللاتينية الكتب الخامسة . ولكن معرفة ليوناردو بالتشريح الظاهري بلغت حد الكمال في دراسة العظام والعضلات والأوعية الدموية والأعصاب وقد انعكس ذلك في أعماله الفنية .

اما في علم البصريات فقد قرأ في مكتبة باغيا كتاب « الذخيرة في عالم الاوبيطيقى » للحسن بن الهيثم مترجمها الى اللاتينية عام ١٢٦٠ ، وكان الاوربيون يسمونه « الهايزن » او « الهاشم » ، وكان في متناول يده مترجمها الى اللاتينية كتاب « الحاوى » في الطب العربي لأبي بكر الرازي وكتاب « الزيج » للخوارزمي ( المترجم في ١١٢٦ ) وكتاب « الجبر والمقابلة » للخوارزمي ( المترجم في ١١٤٥ ) .

•••

# رافائيل

## RAPHAEL

### ١٤٨٣ - ١٥٢٠

□ كان أقطاب الفن الثلاثة في عصر النهضة الأوروبية هم : ليوناردو دافنشي وMicلانجلو ورافائيل . وكان أصغرهم جميرا رفائيل الذي ولد في أوربينو في ٦ أبريل ١٤٨٣ ومات في روما ٦ أبريل ١٥٢٠ ، فهو اذن قد توفي عن سبع وثلاثين سنة . وهو يسمى أحياناً رفائيل سانتي أو رفائيل سانتزيو لأن آباه كان يدعى جيوفاني سانتي أو جيوفاني سانتزيو ، وقد قرأت في أحدي توصيات رفائيل على أحدى لوحاته اسم « رفائيل سانتي » ، وهذا هو الاستثناء لا القاعدة .

وكان الأب جيوفاني سانتي يعمل فناناً مصورة وشاعراً في بلاط أوربينو ، وهو بلاط الدوق فريديريكو دي مونتيفلترو الذي كان يجمع في بلاطه ، كعادة أمراء عصره في الدوليات الإيطالية ، كوكبة من الفنانين والأدباء والمفكرين والمتقين ، وكان أعظم فنان في بلاطه هو بيرو ديللا فرانشيسكا الذي كان علماً من أعلام عصره . أما جيوفاني سانتي ، الذي ولد عام ١٤٤٠ فقد عرف بين رسامي أوربينو بأنه شاعر وعرف بين شعرائها بأنه رسام . باختصار : كان جيوفاني سانتي فناناً تافهاً وأديباً تافهاً ، ولم يكن له شيء من عبقرية ابنه العظيم رفائيل ، ومع ذلك فقد كان مرسم الأب هو أول مكان تعلم فيه الابن بدايات الفن .

وقد فقد رفائيل أمه ، ماجياتشياولا وهو في الثامنة من عمره ، وتزوج أبوه بسرعة فاضحة ، ثم مات أبوه في ١٤٩٤ حين كان سن رفائيل في الحادية عشرة من عمره ، فخلفه أعمامه وتولت تربيته أرملة أبيه . وتتلمذ رفائيل على الفنان الكبير بيروجينو في الفن والفلسفة — وكان المعتقد أن هذه التلمذة بدأت عام ١٤٩٥ ، غير أن بعض نقاد الفن اكتشفوا أن بيروجينو كان قد انتقل إلى فلورنسا بين ١٤٩٣ و ١٤٩٩ ، فالأرجح اذن أن تلمذته على بيروجينو امتدت من ١٤٩٩ حتى ١٥٠٤ ، عام رحيله إلى فلورنسا . ولكن الذي لا شك فيه هو أن الفنان المصور الكبير بيرو ديللا فرانشيسكا كان من

أكبر المؤثرات في تكوين رفائيل لأنه كان المسيطر على الجو الفني في أوربينو عندما كان رفائيل في يفاعته وشبابه الباكر . ولابد أن رفائيل درس كتاب بيرو ديللا فرانشيسكا الهام المسمى « المنظور في الرسم » وتعلم منه نسبية المساحات والمسافات في فن التصوير . ومع ذلك فقد كان أقوى مؤثر في فن رفائيل في صدر شبابه هو الفنان بروجينو أنجب تلميذ لبيرو ديللا فرانشيسكا .

وفي ١٥٠٠ تلقى رفائيل أول تكليف في حياته الفنية برسم صورة لمذبح كنيسة سان نيكولا ، ونجحت هذه الصورة فانهمرت عليه التكليفات وهو لايزال في السابعة عشرة من عمره تلميذاً لبيروجينو .. وفي الواقع أن قصة حياة رفائيل كانت من بدايتها إلى نهايتها قصة نجاح متصل ، فكان يسرى من نجاح إلى نجاح ، ولم يتعرّض في حياته قط أو يتعرض لعواصف الحياة كما حدث لليوناردو وليكلانجلو . كان فتى من أسرة طيبة ميسورة الحال تعيش متعلقة ببلات أوربينو وكان رضى الخلق رضى النفس محبوها موفقاً في حياته المادية فقد جمع من فنه مالاً كثيراً ، يحسن الاستفادة من كل أسلوب عظيم ، وبسبب شمائله الارستقراطية كان مقرباً إلى البابوات والنبلاء حيثما ذهب .

ولكن هذا لا يمنع طبعاً أنه بطريقته الهدئة هذه كان وراء كثير من المتابعات التي واجهها ليوناردو دافنشي وليكلانجلو مع البابوات في روما والنبلاء في أوربينو ، وقد اتهم رفائيل أنه كان يدرس لهما في الفاتيكان وفي بلات أوربينو مع صاحبه المهندس الكبير برامانتي ، مؤسس كنيسة القديس بطرس الجديدة في الفاتيكان . أما نحن فنبينبغي أن ننظر إلى كل هذه الأمور على أنها من تحاسد الفنانين الأنداد ، بحيث لا نحكم من هو الجانى ومن هو الجنى عليه .

والاعتقاد الشائع أن رفائيل تعلم من الفريسكو بعمله مع استاذه بروجينو في تصوير الفريسكات الحائطية في « قاعة الكامبيونو » في مدينة بروجيا بين ١٤٩٦ و ١٥٠٠ . وكان عمر رفائيل عندما شارك في هذا العمل سبعة عشر عاماً . ومعنى هذا أنه لم يشارك في هذا العمل إلا قرب نهايته . وقد كانت أهم خصائص بروجينو التي تأثر بها رفائيل ولازمه حتى في مرحلته الرومانية ، الاعتماد على موتيفات الزينة ك مجرد ملحقات اضافية لموضوع الصورة وليس كالموضوع الرئيسي للصورة واستخدام الصور المعمارية كالأعمدة والبوابات وواجهات المعابد كخلفية لصوره لاشاعة التوازن والرسوخ في الصورة ولتحديد نسب الأشخاص والأشياء ، مع استخدام

ظلل الأشخاص والأشياء على مساحات واسعة لأشاعة جو من الهدوء في صوره . وهذا بعض ما بقى من بيروجينو في فن رفائيل الذى نراه في الفاتيكان ونموذجه فريسكو « مدرسة أثينا » الشهير .

ويبدو أن رفائيل أدرك بحاسة الفنان العظيم أن جو إقليم أومبريا لم يعد فيه شيء يمكن أن يتعلم ، فانتقل إلى فلورنسا في ١٥٠٤ وأقام فيها أربع سنوات حتى ١٥٠٨ ، أى بين سن الحادية والعشرين والخامسة والعشرين ، ولكنه كان قبل انتقاله إلى فلورنسا قد اشتهر كأعظم فنان في إقليم أومبريا ، وكان من فلورنسا يقوم بزيارات قصيرة إلى أوربينو وبيروجيا وسيينا لينفذ بعض تعاقداته .

كان رفائيل قبل انتقاله إلى فلورنسا قد رسم في ١٥٠٢ صورة القديس سbastيان التى نجدها في أكاديمية كلارا في برجمو ، وفي ١٥٠٣ رسم « تتويع العذراء » ، وهى فى متحف الفاتيكان ، وفي ١٥٠٣ - ١٥٠٤ رسم لوحات « الثالوث » و « خلق حواء » ، وهما فى متحف تشيتادى كاستيللو ، و « زواج العذراء » ، وهى فى أكاديمية بيريرا في ميلان ، و « الصليب » ، وهى فى المتحف القومى بلندن ، و « المسيح على الصليب » ، وهى فى متحف ددى وورد فى لندن ، و « قيمة المسيح » ، وهى فى متحف الفن فى سان باولو بالبرازيل . ومن أعماله الباكرة أيضا « العذراء بين القديس فرنسيس والقديس جروم » ، و « العذراء حاملة الكتاب » ، وهى الآن بمتحف الازمياج فى لينجرايد ، ومن أقدم لوحاته التى تؤرخ عادة فى ١٥٠١ « المادونا » .. أى العذراء فى مجموعة سولى .. وهى الآن فى متحف الدولة ببرلين . ولعل أعظم عمل لرفائيل فى حياته الباكرة هو لوحة « تتويع العذراء » التى رسمها رفائيل أصلا للقديس فرنسيس فى بيروجيا وهى الآن محفوظة فى متحف الفاتيكان ، وهى تنسب عادة إلى عام ١٥٠٣ .

وكانت فلورنسا لاتزال أعظم مركز للفنون التشكيلية ، فلما انتقل رفائيل من بيئته أومبريا المحدودة إلى بيئته فلورنسا الرحيبة وجد الكثير مما يمكن أن يتعلم من فن ليوناردو وفن ميكلانجلو وفن فرا بارثولوميو الذى كان مثله تلميذا لبيروجينو . وكان رفائيل أصلا يقلد من استاذه بيروجينو ومدرسة أومبريا تقليدا حرفيًا ، ولكنه بعد ذلك أخذ يقلد مدرسة فلورنسا ويستوعب تقاليدها ، فلما انتقل إلى روما بعد ذلك أصبح لا يعترف بشيء إلا من قدماء الرومان ، وقد قيل في ليوناردو دافنشى أنه لا تستطيع أن تميز رسوم شبابه من رسوم شيخوخته ، أما رفائيل فهو نموذج أعلى للفنان الذى تطور درجة درجة . كان ليوناردو يمثل الفطرة العبرية ، أما رفائيل فكان يمثل الدراسة المنهجية التى تبلغ ب أصحابها درجة الكمال .

وفي فلورنسا انضم رفائيل إلى جماعة الأنجلطيرية الحديثة التي أعيد تشكيلها بعد انتشار ظل سافونارولا . وفي فلورنسا رسم رفائيل مجموعة كبيرة من صور « المادونا » ( العذراء ) و « العائلة المقدسة » وكانت أعظم هذه الصور « مادونا بلاكين » . وأصبح رفائيل أهم فنان مصور في فلورنسا نظراً لغيبته ليوناردو دافنشي في ميلان وميكلانجلو في روما أكثر الوقت . واحتدى الفنانون الشبان ، من أمثال اندرريا ديل سارتو ، حذو رفائيل ، كما تعلم رفائيل عن ميكلانجلو القوة والجلال وتعلم عن ليوناردو ذلك الأسلوب الغائم الذي اشتهر في الجيوكوندا واشتهرت به الجيوكوندا ، وهو نثر طبقة خفيفة من الضباب الشفاف على سطح الصورة ، وهو الأسلوب الذي « سفوماتو » كما يسميه فنانو إيطاليا . ولكن رفائيل أطلع على دراسات العرى التي كان يقوم بها ميكلانجلو وليوناردو وبولاليولو في فلورنسا .

وفي أثناء اقامة رفائيل في فلورنسا كان يقوم بزيارات قصيرة لأومبريا ، بعضها لبروجيا وبعضاً لأوربينيو ، وفي هذه الفترات أنجز « حلم الفارس » في ١٥٠٤ التي نجدها الآن في المتحف القومي بلندن ، و « دفن المسيح » في ١٥٠٨ ، وهي الآن في متحف بورجيزي بروما ، وأتم فريسيكو موضوعه « المسيح في جلاله مع القديسين » لكنيسة سان سيفيرو في بروجيا ، و « مادونا انسيداي » ( ١٥٠٦ - ١٥٠٤ ) ، وهي الآن في المتحف القومي بلندن ، و « العائلة المقدسة » لدوق ريبالدا . ولعل أهم ما رسمه رفائيل في زياراته لأوربينيو كان صورة « مار جرجس على جواد » في ١٥٠٦ ، وهي الآن في متحف الارمنيتاج في لينينغراد ، وصورته الذاتية و « صورة امرأة » اللتين نجدهما في متحف الاوفيتي في فلورنسا .

وفي مرحلة فلورنسا ظهر تأثير فن ليوناردو وميكلانجلو في فن رفائيل فتخلى عن المعالم الواضحة التي تعلمتها من استاذه بيروجينو كما في صورة « حلم الفارس » ، وازداد احساسه بالجمو العام في الصورة فلم يعد الاشخاص في مجموعاته منفصلين اتفصالاً تماماً كما كان الحال في صوره الأولى ، وكان هذا بتأثير ليوناردو الذي علم معاصريه ضرورة وجود علاقة عضوية أو حوار نفسي بين الشخصيات مجموعاته كما في « العشاء الأخير » . ومن أروع صور فترة فلورنسا صورة « مادونا الغراندوق » وهي من أعمال ١٥٠٤ - ١٥٠٥ ، وهي الآن في متحف بالاتزو ( قصر ) بيتي في فلورنسا ، وتذكرنا بالموناليزا ، ولكن بغير لغزها ، و « البستانية الجميلة » ( ١٥٠٧ ) ، وهي الآن في متحف اللوفر ، وهي آية في ابداع التكوين وتذكرنا بالتكونين الهرمي في « سيدة الصخور » لليوناردو دافنشي ، وفيها نجد

المادونا مع الطفليين يسوع ويوحنا ، والحسوار النفسي قائم بين الاشخاص الثلاثة ، وبين المادونا وخلفيتها من الطبيعة الفسيحة القائمة وكأنها همسة الوصل بين الأرض والسماء . ومن آثار مرحلة فلورنسا صورة « كاترين قدسية الاسكندرية » ( نحو ١٥٠٩ ) ، وفيها نرى سانت كاترين وقد غمرها الوجد الإلهي تتطلع في استسلام الى السماء قبل تعذيبها وكأنها تتroc إلى الاستشهاد .

وتعود فقرة ١٥٠٧ - ١٥٠٩ نقطة تحول في حياة رفائيل جعلته يترك فلورنسا وينتقل نهائيا الى روما في اواخر ١٥٠٨ وقد تعددت الآراء لتفسير هذا الانتقال . قيل انه كانت في صالونات القصر العتيق فريسكات ناقصة بريشتى ليوناردو وMicelangelo وكان رفائيل يأمل أن تسند اليه السنiorية أمر اتمامها ولكنها لم تفعل ذلك فغضب رفائيل . وقيل أن رفائيل أحس بدnu أزمة سياسية وشيكة يمكن أن تنزل بفلورنسا . والراجح أن رفائيل ترك فلورنسا لأنه أحس بأن فلورنسا لم يعد فيها ما يمكن أن يتعلم .

على كل فقد انتقل رفائيل الى روما في اواخر ١٥٠٨ حاملا خطاب توصية من المهندس براما نتى مصمم كاتدرائية القديس بطرس في روما ، ودخل رفائيل في رعاية البابا يوليوس الثاني رسما للبلاط البابوى في ١٥١١ ، وفي ١٥١١ بـدا رفائيل في تجميل بعض أجنحة الفاتيكان .

وفي حياة البابا يوليوس الثاني ، أى حتى ١٥١٣ أتم رفائيل بحماس عظيم أول قاعتين مخصصتين في الفاتيكان لهذا البابا ، وهما قاعة السيناتورا ( أى « التوقيع » ، الذى يبدو انه كان يحتوى مكتبة البابا ومكتبه ) ، وقاعة الهليودوروس .. ومن الطريق ان يوليوس الثاني ما أن رأى في بداية عمل رفائيل موهبة رفائيل الساطعة حتى استغنى عنm كان يستخدمهم من الفنانين لتزيين جناحه الخاص .. وكان من بين هؤلاء بروجينو نفسه ، أستاذ رفائيل . أما بقية القاعات فقد أتم رفائيل رسماها في عهد خلفه البابا ليو العاشر ، ولكن في فتور واضح ، وظل يعمل فيها بقية حياته .

ومن ١٥٠٩ الى ١٥١١ رسم رفائيل الفريسكو الشهير « مدرسة أثينا » الذى يغطي جدران قاعة السيناتورا في الفاتيكان ، وموضوعه هو تمجيد « العقل » والبحث عن الحقيقة من خلال اكبر فلسفيين في العالم القديم ، وهما أفلاطون وأرسطو اللذان يتوسطان الفريسكو ، ومن حولهما بعض اعلام الأثينيين الذين يمثلون العلوم النظرية والعلوم التجريبية ، مثل فيثاغورس وأقليدس ، وقد أقدم رفائيل في هذا الفريسكو على تجربة تعد ثورة

في مبادئ التكوين وهي وضع صورة شخصين في منطقة البؤرة في اللوحة الفنية ، وقد جرى العرف على وضع صورة شخص واحد في منطقة البؤرة ، والشخصان طبعا هما أفلاطون وأرسطو .

والارجح أن رفائيل فعل ذلك رمزا للتزامه بالحيدة بين هذين الحكيمين المتعارضين ، أو بين فلسفة أفلاطون المثالية وفلسفة أرسطو المادية . وفي الفريسكو نرى أفلاطون حاملا كتابه « تيماؤس » ، ونرى أرسطو حاملا كتابه « الأخلاق » ، أما الخلفية من وراء مجموعات الفلسفه والحكماء والعلماء والتلاميذ اليونان فكانت تمثل معمارا كلاسيكي رومانى السمات . والعمل الفني كله يعد تحية الفن لحركة الهيومانزم واحياء العلوم والفنون والأداب اليونانية والرومانية التي اجتاحت أوروبا في عصر الرئيسانس .

والفريسكو في قاعة السيناتورا يمثل في مجموعة وجوه المعرفة الأربع ، وهي اللاهوت والفلسفة والقانون والفن ، لكن أروع جانب منه هو الجانب الذي يمثل الفلسفة كما عبر عنه في « مدرسة أثينا » .

ومن ١٥١١ إلى ١٥١٤ رسم رفائيل فريسكو القاعة الثانية التي تسمى قاعة هليودوروس في الفاتيكان . وفي هذه القاعة رسم رفائيل مايسى « تحرير القديس بطرس » .. من سجنه ، وفي هذا الفريسكو نشاهد من خلال القضبان أربعة أنواع من النور : هي نور القمر ونور الفجر ونور المشعل ونور الملك المضيء .

كان ميكلانجلو في تلك الفترة يرسم فريسكو سقف محراب السستين ، فتبين أن رفائيل ند له . وكل البابا يوليوس الثاني رفائيل برسم صورة زيقية تسمى « مادونا ( عذراء ) السستين » فأنجزها رفائيل في ١٥١٣-١٥١٢ ، وهي الآن في متحف درسدن بالمانيا الشرقية . وفي الفن الديني رسم رفائيل صورة « النبي أشعيا » لكنيسة سان أجوستينو . وفي نفس الوقت كان يضع تصميم محراب سانتا ماريا دل بوبولو بتكليف من البنكي كيجي .

وكان ميكلانجلو وهو يرسم فريسكات محراب السستين في الفاتيكان شكلاكا في كل الفنانين يخشى أن يطلع أحد هم على منهجه أو أسلوبه في العمل فيسرق منه الوانه أو موضوعاته أو رؤيته ، ولهذا فعل ميكلانجلو كل ما يستطيع لاحب فريسكات السستين عن رفائيل ، ولكن رفائيل استطاع بوسائله الخاصة أن يطلع على عمل ميكلانجلو وأن ينتفع منه فعلا ، وكان أكثر ما أخذته رفائيل عن ميكلانجلو هو عنصر القوة والصلابة الذي تجلى في الصراعات البطولية التي كان ميكلانجلو يصورها في فريسكاته .

وكانت في روما ، وفي بلاط الفاتيكان بالذات ، حلقة من انصار الأفلاطونية الحديثة ، منهم الكاردينال بمبو ، وكاستليوني رجل البلاط المشهور ، وانجرامي ، خانضم رفائيل إلى هذه الحلقة . وقد ظهر اهتمام رفائيل بالأساطير اليونانية في أنه رسم في ١٥١١ - ١٥١٢ فريسكو لفيلا يملكتها في روما البنكير كيجي ، وموضوعها « انتصار جالاتيا » ، وكان هذا الفريسكو ترجمة بالخط واللون لقصيدة شاعر فلورنسا بوليتزيانو حول هذا الموضوع .

كذلك رسم رفائيل في ١٥١٤ - ١٥١٥ صورة رائعة لرجل البلاط كاستليوني صاحب كتاب « رجل البلاط » ، الذي يعد ، بعد كتاب « الأمير » لكيافيلى ، أهم كتاب في فن الحكم في الرئيسانس . وصورة كاستليوني موجودة الآن في متحف اللوفر . وهي تمثل نموذجاً رائعاً في الاعتدال والتوازن في ذلك العصر الهائج المليء بالتطور والمتناقضات . وبعد موته البابا يوليوس الثاني في ١٥١٣ استمر خلفه البابا ليو العاشر ابن لورينزو دي مدি�تشي في رعاية رفائيل . وبموت المهندس براماونتي في ١٥١٤ عين ليو العاشر رفائيل مكانه كبيراً لهندسى كاتدرائية القديس بطرس الجديدة ، فاصبح رفائيل بمعنى الكلمة الدكتاتور الفنى في الفاتيكان ، مما دفع ميكلانجلو إلى الانسحاب إلى فلورنسا . كذلك وصل ليوناردو دافنشى إلى روما في تلك الفترة ، فأهمله البابا ليو العاشر ولم يكلفه بعمل ما واكتفى بأن أنزله ضيفاً في قصر بلوفدير في الفاتيكان ثم انتقل عليه بحجة اشتغاله بتشريح الجثث مما جعل ليوناردو يقبل دعوة ملك فرنسا إلى أن يقيم معه فناناً في البلاط الفرنسي .

وكان ذلك عصر الكشوف الأثرية والتنقيب عن آثار روما القديمة الذي اقتنى بحركة الميومانزم وأحياء آداب اليونان والروماني وفنونهم وعلومهم . ومنذ عهد البابا إسكندر السادس اكتشفت الرسوم الحائطية الرومانية واكتشف تمثال أبوابو بلوفدير . وفي عهد يوليوس الثاني اكتشف تمثال « اللاوكون » وتمثال فينيوس الفاتيكان كما اكتشف تمثال كلوباترا النصفي ، وفي ١٥١٦ عين ليو العاشر رفائيل مديرًا للآثار في روما ، فقد كان ليو العاشر من أشد المتحمسين لاحياء أمجاد روما القديمة وفي عهده امتلاك قصور النبلاء والكرادلة بالتماثيل والتحف الأثرية ، وكلف ليو العاشر رفائيل بأن يعد له تقريراً عن عما في روما القديمة وفنونها ، فقدم رفائيل تقريره عام ١٥١٨ أو ١٥١٩ ، قليل بمساعدة كاستليوني ، عن آثار روما المطمورة تحت خرائبها وتلالها .

ولم يعش رفائيل بعد ذلك طويلاً فقد أصيب بحمى لم تمهله غير أسبوع

نمات في ٦ أبريل ١٥٢٠ في عيد ميلاده السابع والثلاثين ودفن في البانتيون (مقبرة الخالدين) في احتفال مهيب ، وكان قبره تحت صورة « التجلى » وهي صورة غير مكتملة بذاتها رفائيل عام ١٥١٧ .

والناس اليوم تتحدث كثيرا عن ليوناردو وعن ميكلانجلو لأن حياتهما كانت عاصفة ولبلة بغرائب الأمور ، ويتحدثون قليلا عن رفائيل لأن حياته كانت سلسة من بدايتها إلى نهايتها وليس فيها شيء فاجع إلا موته المبكر . ولكن بعض نقاد الفن يرون أن فن رفائيل كان النقطة العليا في فن الرئيسيانس وأنه جمع بين ملحمة ميكلانجلو ودرامية ليوناردو وأضاف اليهما غنائية من عنده وصفاء عظيماء . وربما كان في هذا نوع من المبالغة ، لأن عصر الرئيسيانس كان كل هؤلاء مجتمعين .. وأكثر .. وربما كان رفائيل أكثر الثلاثة انسجاما وصفاء ، ولكن ميكلانجلو كان أكثرهم قسوة وشموخا ، بينما كان ليوناردو أشدتهم حيوية وأقربهم إلى الطبيعة البكر .

• • •

# ميكلانجلو

## MICHELANGELO

### ١٥٦٤ - ١٤٧٥



□ وهذا ثالث الثلاثة الذين لا يذكر الفن في عصر النهضة الاوروبية الا وذُكرت أسماؤهم مجتمعة ، وهؤلاء هم ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) ورفائيل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) وميكلانجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) . وقد مات ليوناردو عن ثمانية وستين عاما قضى اكثيرها في « الكواتروتشينتو » أى في « الأربعينية » (بعد الالف) ، من ١٤٠٠ الى ١٤٩٩ (القرن الخامس عشر) ، ومات رفائيل في شرخ شبابه هن سبعة وثلاثين عاما قضى منها سنوات التكوين في « الكواتروتشينتو » ، أما ميكلانجلو فقد مات طاعنا في السن عن نحو تسعين عاما ف تكون في « الكواتروتشينتو » ولكنه عاش حتى يرى ظهور مدرسة فنية جديدة هي مدرسة « الباروك » أو مدرسة « الإغراب » التي ربما كانت احدى نتائج فنه العظيم بعد أن إخبا نور الالهام العظيم .

وكان اسم عائلة ميكلانجلو بوناروتي ، أو بوناروتي سيموني ، فقد كان هو يحب أن ينسب عائلته إلى آل سيموني كونت كانوسا الذي جاء إلى فلورنسا في ١٢٥٠ وكان رئيس هذه العائلة وزعيمها لحزب « الجوييف » ، أو « السود » أو أنصار التقارب مع فرنسا والبابا ، في ١٣٩٢ . أما بوناروتي سيموني ، الأب ، وأولاده في زمن ميكلانجلو فكانوا من أوساط الناس ، وربما من صغار أوساط الناس . وكان أخوه الأكبر ليوناردو من أشياع سافونارولا وبالفعل دخل بتأثيره دير سان مارك في ١٤٩١ وظل به حتى ١٥١٠ . أما ميكلانجلو نفسه فقد كان موزعا بين اعجابه بسافونارولا ، وولائه لأسرة مديشي صاحبة الفضل عليه وعلى أكثر فناني عصره .

وقد كان ميكلانجلو تلميذا مستعصيا فتعلم الايطالية ولكنه لم يتعلم اللاتينية ، وكان دائما يهمل دروسه لرسم أو لاصنع التمايل ، فكان أبوه أو عمه يضربه عقابا على ذلك . ولما يئس منه أبوه أرسله ليتعلم الفن في مرسم الفنان المعروف جيرلاندایو لمدة ثلاثة أعوام ، ولكنه لم ينتفع

كثيراً من جيرلاندابو فتمرد عليه كما تمرد بيتهوفن على استاذه هايدن . وكان ميكلانجلو يتصور أن استاذه يغار منه كما أنه كان سليط اللسان في نقد استاذه ، وكان يتقاضى منه بوصفه « صبياً للأوسطى » ستة فلورينات في السنة الأولى وثمانية فلورينات في السنة الثانية وعشرة فلورينات في السنة الثالثة .

وبعد أن تعلم ميكلانجلو الرسم واللون في مرسم الفنان جيرلاندابو ، تجلت موهبته العظيمة في فن النحت ، فصنع من الرخام حيواناً خرافياً من أساطير اليونان في حدقة لورنزو دي مدичي . وما أن رأى لورنزو التمثال حتى قرر أن يبسّط رعايته على ميكلانجلو ، فأرسل إلى أبيه يدعوه لمقابلته . وأدرك الوالد مراد لورنزو دي مدichei فأجاب بأنه لا يريد لولده أن يكون « حجاراً » وعلق بأن لورنزو يريد أن يقود ابنه ميكلانجلو في طريق الغواية . ولكن الأب ، لودوفيكو بوناروتى ، اقتنع أو اقنع أخيراً مقابل عاھل فلورنسا وسلمه ولده ميكلانجلو ليرعااه عام ١٤٨٩ ، وكان ميكلانجلو يومئذ في الخامسة عشرة من عمره . واستمرت هذه الرعاية ثلاثة سنوات حتى وفاة لورنزو دي مدichei في عام ١٤٩٢ حين بلغ ميكلانجلو سن الثامنة عشرة . وكذلك عين لورنزو أباً ، لودوفيكو بوناروتى موظفاً في جمرك فلورنسا ليعينه على الحياة .

تبني لورنزو دي مدichei الفتى ميكلانجلو وعامله كولد من أولاده ، فأقام ميكلانجلو في قصر آل مدichei بفلورنسا حيث خصصت له حجرة محترمة وكان لورنزو يجالسه دائماً على مائدة الطعام في مجلس بين أهل البيت وبين ضيوف العاھل من كبار رجال الدولة ومن الشعراء وال فلاسفة . وكان من عادة لورنزو أن يجالس ضيوفه على العشاء بحسب ترتيب قدومهم لا بحسب أصول البروتوكول ، وكثيراً ما احتل ميكلانجلو الفتى المقعد المجاور لرب البيت فكان أدنى إلى لورنزو من بنيه . وكان الشاعر بوليتريانو ، وهو من أعلم أهل عصره في الآداب القديمة والحديثة ومن أشعر شعراء فلورنسا باللغة الإيطالية ( العامية ) ، مؤدياً لأولاد لورنزو دي مدichei فشمل بتادييه الفتى ميكلانجلو . وهكذا قضى ميكلانجلو فترة التكوين من حياته في أزهر مكان في فلورنسا يوم أن كانت فلورنسا أعظم مصدر للإشعاع الثقافي في أوروبا كلها وكانت تذكر العالم بمجد أثينا الثقافي فيما بين الحروب الفارسية وحروب البلويونيز . كذلك كان لورنزو يجري على ميكلانجلو خمس دوقيات شهرية كمصرف جيب وين Kendall بكسوته .

اما ميكلانجلو الفتى فقد عرف عنه انه كان محبًا للوحدة والتأمل ، لا يأنس إلى الناس ، غضوباً كثيراً الشجار مع جيرانه ، لاذع التهكم بزملائه

من الفنانين . وقد جرت عليه سلاطة لسانه شجارا انتهى بكسر أنفه رغم أنه كان لا يحب الشحان الجسدي . وكان يشارك في الكرنفالات التي تميزت بها فلورنسا في عصره وكان يغذيها لورنزو دي مدি�تشي ليلهي الناس عن السياسة بالمسكات أى الأقنعة ( و « المسكيرا » هي « المسخرة » ) ، وبالأغاني والرقص والاستعراضات في شوارع المدينة . وكان لورنزو نفسه ينظم لهم الأغاني مثل أغنية : « ياشباب ويابنات ، انعموا باليوم فملا أحد يعرف ما يأتي به الغد » فيكرر الناس هذا القرار وهم يحتفلون بالمهرجان .

كل هذا انتهى بموت لورنزو دي مدি�تشي في ١٤٩٢ وباحتلال شارل الثامن فلورنسا بجيشه الفرنسي في ١٤٩٤ ، وبطرد بيرو دي مدি�تشي ابن لورنزو من فلورنسا وطلب رأسه مقابل جائزة مالية . حتى هذا الازدهار الفكري الذي عرفته فلورنسا بدا ينقرض سريعا : غفى ١٤٩٤ مات بوليتزيانو وبيكو ديللا ميراندولا ، وفي ١٤٩٩ مات الفيلسوف فيتشينو . كل هذا الازدهار الثقافي انقرض بتولى سافونارولا زمام الأمور في فلورنسا . حتى الازدهار الفني أخذ ينقرض بهجرة كبار الفنانين إلى روما .

وكان ميكلانجلو أحد هؤلاء الفنانين المهاجرين من فلورنسا إلى روما رغم اعجابه بسافنارولا واستماعه على الدوام لخطبه منذ ١٤٩٤ في ميدان الدومو ( القبة ) وفي دير سان مارك . وفي هذه الفترة تفرغ ميكلانجلو لدراسة التشريح كمقدمة أساسية للإحاطة بتكوين جسم الإنسان قبل رسمه أو نحته . وفي ١٤٩٤ غادر ميكلانجلو فلورنسا قاصدا بولونيا حيث نحت تمثال « كوبيد نائما » في الرخام وباعه لناجر تحف في روما لقاء ٣٠ دوقية . وكان هذا التمثال شبيها بآثار القدماء فباعه هذا الناجر إلى الكاردينال رياريو على أنه تحفة أثرية وتلقى منه مقدما قدره ٢٠٠ دوقية ، غير أن الكاردينال اشتبه في هذا التزييف فأوفد رسولا إلى فلورنسا لتحقق الحقيقة فاختفى الرسول إلى ميكلانجلو وأصطحبه إلى روما . وغضب الكاردينال رياريو ورد التمثال إلى الناجر واسترد منه ما دفع . وانتهى التمثال إلى سizar بورجيا بعد استيلائه على دوقية أورビينو ، ثم أهداه سizar بورجيا إلى المركيز دى مانتوا في ١٥٠٢ . وكان هذا التمثال بداية شهرة ميكلانجلو في روما التي قضى فيها أكثر حياته المديدة .

وفي ١٤٩٥ عاد ميكلانجلو من بولونيا إلى فلورنسا وفيها نحت تمثال « يوحنا العمدان » ، وظن الناس زمنا أن هذا التمثال الذي نحته ميكلانجلو وهو في سن العشرين من عمل دوناتيللو ( ١٣٨٦ - ١٤٦٦ ) ، شيخ مثالى فلورنسا في عصره وهو الآن في متحف برلين .

وانتقل ميكلانجلو الى روما عام ١٤٩٦ . وفي روما نحت ميكلانجلو في الرخام تمثال « باخوس » ( ديونيزوس ) رب الخمر عند اليونان والروماني ، وافتراه منه بنكري في روما من رعاه الفن اسمه يعقوب جابو ، والتمثال موجود الآن في متحف بارجيلاو ، كما نحت تمثال « كوبيد » ( رب الحب ) وهو الآن في ساوث كنسجتون بلندن . وقد صور ميكلانجلو باخوس في هيئة شاب مرح يتربّع سكرا حاملا كأسا على غير عادة القدماء — فقد كان القدماء لا يمثلون باخوس منتثيا وإنما ينسبون النشوة أو السكر إلى أتباعه من العذاري المعروفات باسم « الباكانتي » ، أى « عذاري باخوس » ، ومن التيوس التي كانت تمثل عندهم الشهوانية الحيوانية . أما باخوس نفسه فقد كان يمثل عندهم النشوة الروحية كذلك .

وفي فترة اقامة ميكلانجلو الأولى في روما تعاقد في ١٤٩٨ مع الكاردinal دى سان دينيس على اقامة تمثال من الرخام اسمه « الرحمة » ( البييتا ) مقابل ٤٥٠ دوقية ذهبية من عملة الفاتيكان خلال سنة من تاريخ العقد ، وضمن البنكري جالو ميكلانجلو في تنفيذ هذا العقد فقد كان ميكلانجلو حتى ذلك التاريخ غير معروف بالدرجة الكافية . والتمثال يمثل جسد المسيح الجريح بالحجم الطبيعي ملقى على حجر مريم العذراء . وبدت العذراء في هذا التمثال ثابة فانتقده النقاد قائلين انه كان ينبغي أن تبدو في سن أم المسيح ، ورد عليهم ميكلانجلو بقوله ان النساء لا تهرم ملامحهن إلا نتيجة للمعاشرة الجنسية ، وهو ما لا ينسب لمريم ، والتمثال موجود الآن في الكنيسة القديمة من كاتدرائية القديس بطرس بروما في محراب « المادونا ديللا فويرى » ، أى « العذراء الحامية من الحمى » ، وهناك دفن البابا إسكندر بورجيا عام ١٥٠٣ .

وفي روما نحت ميكلانجلو أيضا في الرخام تمثال « مادونا بروج » ، أى مريم العذراء حامية مدينة بروج ، والتمثال قائم الآن في محراب صغير بكاتدرائية بروج ، وهو من طراز تمثال الرحمة أو « البييتا » ، وفيه نرى العذراء جالسة على كتلة من الحجر صارمة الملامح في اعتزاز يوشك أن يبلغ مبلغ الكبراء ، وفي حجرها يسوع الطفل يهم بالنزول إلى الأرض . وقد كان المفترض أن يشحن هذا التمثال إلى بروج ، ولكن هناك وثائق تدل على أن ميكلانجلو أخفاه في بيت أبيه في فلورنسا .

وبهذه التمايز الثلاثة « باخوس » و « مادونا ديللا فويرى » و « مادونا بروج » أصبح ميكلانجلو أشهر مثال توسكاني . بل أشهر مثال إيطالي وكان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة .

وعاد ميكلانجلو الى فلورنسا حيث اقام من ١٥٠١ الى ١٥٠٤ . وكانت اسرته تعانى من ضائقه مالية شديدة لأن أباها نصل من وظيفته في الجمرك بعد طرد آل مدجيشى من فلورنسا . وظل ميكلانجلو يعىن اسرته — أباها وآخوه الأربع — ماليا حتى آخر يوم في حياته ، بل وظل يساعدهم على اقتناص الأموال في فلورنسا ليعرف من شأن الأسرة . وكان كلما أعطاهم طالبوا بالزائد . وازداد جشعهم حتى ساعت العلاقات بينه وبينهم ، ومع ذلك فقد ظل يساعدهم بقية عمره . أما ميكلانجلو نفسه فقد كان طوال حياته يعيش في زهد وتقشف رغم ضخامة موارده وشاع عنه البخل ولكن الارجح أنه كان لا يحفل بالمال ، فقد كانت تأثيره العروض السخية فلا يقبلها وإنما يعمل دائماً بوحي من إلهامه واستجابة لشاعر المودة .

و قبل أن ينتقل ميكلانجلو نهائياً إلى روما ، وقع في فلورنسا عقداً في ١٦ أغسطس ١٥٠١ مع لجنة الأشغال بالمدينة بأن ينحت لمدينة فلورنسا تمثلاً للنبي داود من رخام ، تعهد بأن ينجزه خلال سنتين من تاريخ توقيع العقد ، مقابل سترة فلورينات ذهبية شهرياً علاوة على تكاليف الخامات والأدوات ومكافآت الأسطوانت المساعدين والعمال . ونص العقد على أنه عند اكتمال التمثال يترك للجنة الأشغال أن تقرر أن كان ميكلانجلو يستحق مكافأة إضافية أم لا ، وكان الأمر متروكاً لضمائر أعضاء اللجنة . وفي ٢٨ فبراير ١٥٠٢ كان العمل في التمثال قد تقدم بدرجة كبيرة حتى أن اللجنة قدرت لميكلانجلو ... فلورين ذهبي . وقد اشتهر هذا التمثال في فلورنسا باسم « العملاق » ، وكان أصلًا كتلته ضخمة من الرخام من كارارا أساء قطعها مثل آخر فأصبحت لا تصلح لشيء . وقد أقيم تمثال « داود » بعد مداولات طويلة عند مدخل القصر العتيق « بالاتزوفيكيو » لمدة ثلاثة قرون ، ثم نقل في ١٨٧٣ إلى قباعة « الأكاديمية ديل بلازو » ( الأكاديمية الفنون الجميلة ) ، لمزيد من صيانته .

وتمثال « داود » في فلورنسا من أهم الروائع التي خرجت من يدي ميكلانجلو ، وقد وضعت في مكانه الأصلي ، أمام البوابة الكبرى لقصر السنوريه ، نسخة منه طبق الأصل . والتمثال نموذج حي لأسلوب ميكلانجلو في من النحت الذي يتميز بالقوة والجلال ، بل والرهبة الباعة على « الرعب » ، كما أجمع كافة نقاد الفن على توصيفه وتوصيف شخصية صاحبه ، فهو تمثال مخيف ، وفي التصور العام حرارة واندفاع . غير أن بعض نقاد الفن قد لاحظوا أن رأس « داود » كبير وغير مناسب مع جسمه ، وكذلك اليدان والقدمان ، ويبدو أن الموديل البشري الذي اتخذه ميكلانجلو

نموذجًا لتمثاله كان بحاجة إلى سنتين من النمو لتنضج رجولته ويتناسب تكوينه التشيحي .. . ومع ذلك فهناك في التمثال اعتزاز عظيم .

وقد ترك لنا كاتب فرنسي معاصر من القرن السادس عشر رأى ميكلانجلو يعمل وصفاً لطريقته في العمل : قال أنه رأه في حالة هياج وهو ينحت « داود » .. قال إنه رأه يكسر بمطرقته من الرخام في ربع ساعة أكثر مما يكسره ثلاثة حجارين في قمة فتوتهم في أربع ساعات ، وكان يتصور حين رأه أن كتلة الرخام كلها ستتفلق في يده ، لكنه كان يعمل في دقيقة عجيبة فلا يتجاوز شعرة عن المراد قطعه والا تلف الرخام ، فالخطأ في الرخام لا يمكن اصلاحه . ولم يكن أمام ميكلانجلو إلا نموذج من الشمع من تصميمه .

وفي ١٥٠٥ استدعى البابا الجديد ، يوليوس الثاني ، خليفة اسكندر السادس ( أو رودريجو بورجيا ) ، ميكلانجلو إلى روما وكلفه ببناء مقبرة خاصة به تقام في كاتدرائية القديس بطرس بروما ، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حياة ميكلانجلو .. مرحلة العمل الذي لا ينقطع لتحقيق أحلام سلسلة من البابوات المتعاقبين ، وقد امتدت هذه المرحلة إلى نهاية عمره . وبذلت بما يسمى في تاريخ الفن « مأساة مقبرة يوليوس » ، وتلتها مرحلة مشروعات التحجير وشق الطرق التي تبناها البابا ليون العاشر ، ثم مشروع تجميل كاتدرائية سان لورنزو بفلورنسا حيث مقبرة آل مدি�تشي ، ثم المشروعات الهندسية الخارجة عن اختصاصه .

وكان البابا يوليوس الثاني ( ١٤٤٣ - ١٥١٣ ) رجل سياسة ورجل حرب لا رجل روحيات ، وكان يرعى الفنانين لجده الشخصي ولجد الفاتيكان الدنوي . كان يتصرف كأمير دنوي لا يهدف إلى توحيد إيطاليا بقدر ما يهدف إلى اخضاع دولاتها ووضعها تحت سيطرة البابا الدنوية في روما وتوسيع نفوذ البابوية الدنوية . وكان يستعمل في ذلك سلاح الحرب ويخرج بنفسه للمعارك على رأس جيشه فكان كل هذا غريباً في رئيس روحي . وقد جلس على الكرسي البابوي من ١٥٠٣ إلى ١٥١٣ ، وكان أهم من رعاهم من الفنانين المعماري الشهير برامانتي والمصور رفائيل والمثال ميكلانجلو .

تعاقد البابا يوليوس الثاني مع ميكلانجلو لبناء مقبرته ، فوضع ميكلانجلو تصميماً للمقبرة غاية في الفخامة مكانت في شكل بناء رخامي ضخم مستطيل ذي أربع واجهات ، به أكثر من أربعين تمثلاً من الرخام وعلى سطحه ملائكة

يحملون التابوت الرخامى . ووضع البابا لحساب ميكلانجلو فى بنك سلفياتى فى فلورنسا ٢٠٠٠ دوقية تحت حساب المقبرة ولكن دون تحديد لمرتبه فيما خلا نفقات أكله وشربته ومسكنه ، وأوفده إلى كرارا لأكثر من ثمانية شهور لقطع الرخام اللازم للمقبرة ، فشحن بالبحر إلى روما أكثر من ٣٤ عربة محملة بالرخام ، ومعها حمولة ١٥ عربة أخرى .

● ● ●

## الفن يغزو الكنيسة

وعاد ميكلانجلو الى روما وبدأ العمل في اواخر نوفمبر ١٥٠٥ ، ولكن المقبرة لم تستكمل الا في ١٥٤٥ ، أى بعد أربعين عاماً ، رغم أن يوليوس الثاني توفي في ١٥١٣ ، وتعاقب بعده من البابوات : ليون العاشر ، الذي جلس على الكرسي البابوي بين ١٥١٣ و ١٥٢١ ، وأدريان السادس ، الذي جلس بين ١٥٢١ و ١٥٢٣ ، وكلمنت السابع ، الذي جلس بين ١٥٢٣ و ١٥٣٤ ، وبول الثالث الذي جلس بين ١٥٣٤ و ١٥٤٩ ، .. الخ . وبتعاقب البابوات كان لكل منهم رأى في التصميم ، ومع كل تعديل كان ميكلانجلو يوضع عقداً جديداً بمواصفات جديدة كلها تتجه نحو اختصار الفخامة وضفت النفقات ، حتى بلغ عدد العقود التي وقعتها ميكلانجلو خمسة عقود – بل لقد انتهى الأمر بتغيير مكان المقبرة ذاتها فأقيمت المقبرة في كنيسة القديس بطرس في فينكلولى بدلاً من كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان . وكان المتر أولاً للمقبرة أنها كانت تستكمل ١٦٥٠ دوقية ذهبية ، ولكن النفقات اختصرت في النهاية فلم يتسلم ميكلانجلو في ثلاثة سنوات من ١٥١٤ إلى ١٥١٦ سوى ٦١٠٠ دوقية ذهبية من ليون العاشر ، ثم شحت الاعتمادات المخصصة للمقبرة كلما تعاقبت السنون على رحيل صاحبها .

كان البابا يوليوس الثاني عدوانياً في موته كما كان عدوانياً في حياته لأن تنفيذ تصميم مقبرته على صورتها الأصلية الضخمة كان معناه إزالة العديد من قبور أسلافه البابوات في الفاتيكان ليحتل هو مكانهم ، ولعل هذا كان سبب كثرة التعديلات التي طرأت على تنفيذ مشروع مقبرته .

ولم يبق من ذلك التصميم الضخم إلا مقبرة ذات واجهة واحدة صغيرة الحجم تحف بها ستة تماثيل ، كان أحدهما تمثال « موسى » ، وهو من أعظم التماثيل التي نحتها ميكلانجلو بيده من البداية إلى النهاية ، أما الخامسة الأخرى ، وهي تمثال « المادونا والطفل » وتمثال « حياة العمل » وتمثال « حياة التأمل » وتمثال « نبي » وتمثال « عرافة » ، فقد أتمها ميكلانجلو بيده ولكن عهد بتشطيبها إلى مثال آخر . وكل هذه التماثيل قائمة الآن في كنيسة القديس بطرس في فينكلولى .

وقد كان في التصميم الأصلي طائفة من التماثيل التي استبعدت من التصميم الأخير ، منها تمثال « الاسيرتان » ، وهما فتاتان في الأغالل تمثلان الفنون والآداب وقد وقعتا في الأسر بعد وفاة البابا يوليوس الثاني ، وقد أهدي ميكلانجلو هذا التمثال لصديقه البنكيير استروتزى ، والتمثال موجود الآن في متحف اللوفر . ثم هناك تمثال « أدونيس » وهو الآن في المتحف القومي بفلورنسا . ثم هناك تمثال « ليا وراحيل » وهو في كنيسة القديس بطرس في فينكلولى ، وتماثيل أخرى متفرقة في أماكن أخرى .

وحتى في حياة البابا يوليوس الثاني شجر خلاف بين البابا وميكلانجلو ، قبل لأن البابا لم يف بتعهداته المالية ، وقيل بسبب دسائس الفنان رفائيل والمعماري برامانتى اللذين كانوا يقومان ببناء الكنيسة الجديدة للقديس بطرس داخل الفاتيكان . فعاد ميكلانجلو إلى فلورنسا سنوات واستدعاءه يوليوس الثاني مرارا لاتمام عمله ولكنه رفض ، وكان يخشى أن يفتال في روما بالسم أو بالخجر . وأخيرا كتب البابا إلى « السينiorية » (المجلس الحاكم) في فلورنسا يطالب بابعاد ميكلانجلو وتسويمه إليه . فعاد ميكلانجلو إلى روما بعد أن زودته السينiorية بخطاب للبابا يؤمنه على حياته ، ويقول ان اى عدوان عليه يعد عدواً على فلورنسا .

وفي أثناء اقامة ميكلانجلو في فلورنسا اتم فريسكو (رسما حائطيًا ملوانا على الجبس قبل جفافه) عن معركة بيزا وهو يصور الجنود عرايا يستحمون في نهر الأرنو فلما نادى النغير هرعوا للسلاح وهم عرايا . وهذا الفريسكو موجود في قصر مدیتشی ولكن لم يبق منه شيء مذكور .. وكان لليوناردو دافنشي فريسكو في قاعة البابا بكنيسة سانتا ماريا نوفيللا بفلورنسا .

وقبل عودة ميكلانجلو إلى روما أقام فترة في بولونيا ، وهناك صنع تمثلاً من البرونز للبابا يوليوس الثاني بضعف الحجم الطبيعي تقريباً . وكان قد تلقى من البابا ١٠٠٠ دوقية مقدماً .

هذه قصة « مأساة مقبرة يوليوس الثاني » في إيجاز شديد : لم يبق من تماثيلها في المقبرة نفسها إلا تمثال امرأتين ، أحدهما تمثل « حياة العمل » والأخر تمثل « حياة التأمل » ، ويتوسطهما تمثال « موسى » جالسا ، وهو التمثال الذي أفضى في وصفه كتب الفن واتخذه النقد ، كتمثال « داود » في فلورنسا وكتمثال « الرحمة ». في محراب السستين في كنيسة القديس بطرس بروما ، عنواننا على عبقرية ميكلانجلو ونموزجاً أعلى لأسلوبه الفني في عصر الرنaisans . هذه التماثيل الثلاثة من صنع يد ميكلانجلو من الآلف إلى

الياء ، أما بقية تماثيل المقبرة فقد نحتها ميكلانجلو في أساسها ثم عهد لغيره من المثالين بتشطيبها بسبب كثرة التزاماته نحو بابوات روما .

ولعل من سخرية التاريخ الا يشفل ميكلانجلو نفسه في تخليد ذكرى هذا البابا الغريب. الأطوار الا بهذه الجوانب الثلاثة من شخصية يوليوس الثاني . فقد كان هذا البابا المحارب أقرب الى القائد العسكري المستغرق في « حياة العمل » منه الى الاب الروحي المستغرق في « حياة التأمل » . وقد تجسد هذان الرمزان في شخصية موسى كما تجلت في سفر خروج بنى اسرائيل في « التوراة » .

ثم عاد ميكلانجلو الى روما ليبدأ العمل في نقوش محراب السنتين الفريسكية وتمثال « الرحمة » في المحراب ، ثم انتقل الى فلورنسا ليجدد كنيسة سان لورنزو ومقابر آل مدичي ، ثم عاد الى روما ليتم عمله في كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان ، كل ذلك بحسب نزوات البابوات او جبهم للفنون ، فأصابت الكنيسة رواء ما بعده رواء ، وأصاب ميكلانجلو مجدًا لا يطلى مع الأيام .

في روما بدأ ميكلانجلو يرسم صور فريسكات محراب السنتين في كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان بتكليف من البابا يوليوس الثاني . والفريسكو هو الرسم الملون على الجدران او على السقف قبل ان يجف الطلاء او الملاط او الجبس او المصيص .

بدأ بفريسك القبة في ١٠ مايو ١٥٠٨ وانتهى منه في أكتوبر ١٥١٢ ، فكان ميكلانجلو كسا قبة محراب السنتين بالنقوش التصويرية في أربع سنوات ونصف . ويقال انه تقاضى عن ذلك ٣٠٠ دوقية ذهبية عن فريسكات قبو محراب السنتين . وكان يعمل بمفرده .

واستمر ميكلانجلو يضيف الفريسكات على جدران محراب السنتين بصورة متقطعة ، ولم يفرغ منه تماما الا في ديسمبر ١٥٤١ ، وبهذا يكون العمل في نقوش السنتين قد استغرق نحو ٣٣ سنة متقطعة .

وقد صور ميكلانجلو في فريسكات محراب السنتين قصة الخليقة وسقوط آدم وحواء وقصة الطوفان وقصة المسيح حتى يوم القيمة كما استوحى هذه القصص من أسفار التوراة والإنجيل ، ومع هذه القصص صور بابوات روما .

ومحراب السستين محراب في الفاتيكان بناء في ١٤٧٣ معماري من فلورنسا اسمه باتشيو بونتيللي للبابا سكستوس الرابع ، ولذا عرف بالسستين أو السستين . وطول المحراب ٣٩ متراً و ٦٠ سم وعرضه ١٣ متراً و ٢٠ سم وارتفاعه ٢٠ متراً و ٤٠ سم . والمحراب تثراه ١٢ نافذة في كل جانب . وقد كان على الجانبين قبل ميكلانجلو ١٢ فريسكو تمثل موضوعات دينية مثل سيرة موسى وسيرة المسيح وغيرها ، وهي بريشة أعلام الفنانين في القرن الخامس عشر مثل بوتيتشيلي وسنيوللي وروسييللي وبيروجينو وجيرلاندانيو . وعلى الجدار الشرقي رسم بوتيتشيلي صفا من البابوات عددهم ٢٨ بابا ، أما الجدار الغربي فقد كساه بيروجينو بثلاث فريسكات تمثل « صعود العذراء » يتوسط صورة « العثور على موسى » وصورة « ميلاد المسيح » .

وقد هدم ميكلانجلو فريسكات بيروجينو على الحائط الغربي وكسا الحائط الغربي بفريسك جديد يصور « يوم القيمة » . وفي سقف القبو رسم ميكلانجلو تسعه مشاهد من قصة خلق الكون وطرد آدم وحواء من الجنة وقصة الطوفان .

وكان أسلوب ميكلانجلو يسمى « الأسلوب الجديد » . فقد كان الفنانون المصورون من قبله في القرن الخامس عشر يتبعون في الاعتماد على الزينة فيما يرسمون من موضوعات مقتبسة من الكتاب المقدس أو من أساطير القدماء ، أما ميكلانجلو فقد تجنب رسم متاظر الطبيعة والأشجار والازهار والطيور والحيوانات كما تجنب رسم أوراق الشجر والفاكهه والأرابيسك والشمعدانات وتتجنب رسم المجموعات الثانوية من الاشخاص مجرد ملء الفراغ ، باعتبار أن كل هذه كانت موتيفات وسقاسف رخيصة يستجدي بها الفنان الكسول اعجاب المشاهدين بسهولة ، وبدون اجهاد .

اما ميكلانجلو فقد كان مركزاً على جسم الانسان بوصفه دراسة مضنية في التشريح ، وكان شديد الاعجاب بجمال جسم الرجل ولا يحفل بجمال جسم المرأة ، وهي سمة كثيراً ما نلاحظها في الفن اليوناني القديم ، ولذا جاءت أكثر أعماله الفنية من تماثيل وصور دراسات فائقة الدقة في كمال أجسام الرجال .

وفي ١٥١٤ كلفه راع من رعاة الفن يدعى فارج دي بوركارى بتحت تمثال يسمى « المسيح مفترضاً » (على الورت) أو « المسيح قائماً من بين الاموات » (كريستو ريزورتو ) ، ولكنه لم يبدأ العمل فيه جدياً إلا في ١٥٢١ وانته في ١٥٢٣ ثم سلمه لصبي موهوب اسمه بيترو دي أوربينو كان يعمل

عند ليتولى صقله . وكان هذا الصبى يشيع بين الناس أنه هو صانع التمثال ، وبالفعل عبث به بتدخله فأفسد أجزاء من أصحاب اليدين والقدمين واللحية وأرببة الأنف ، فسلم ميكلانجلو التمثال إلى مثال يدعى فريتنرى ليرممه ويقيمه على قاعدة ، فقام بترميمه .. غير أن ميكلانجلو عرض على مشتري التمثال أن يصنع له غيره ، ولكن المشتري تمسك بالتمثال قائلاً : انه كنز من كنوز الفن . ومن المبالغات التي قيلت في هذا التمثال يومئذ أن « ركبة » « المسيح منتصرا » تساوى روما كلها . وبالفعل فقد أجمع نقاد الفن على أن هذا التمثال معجزة فنية ، وقد اشتهر أمره حتى أن فرنسوا الأول ملك فرنسا استخرج منه نسخة برونزية . ولكن الجديد في هذا التمثال أن ميكلانجلو خرج عن الصورة التقليدية للمسيح الذى اشتهر بالوداعية ، فجسده فى الرخام عارى الجسد تماماً قوياً مثل هرقل فكان بقسمات جسمه معجزة فى التشريح وكان بشعره المتلئ على الكتفين معجزة فى الوضع والحركة .

وكان ميكلانجلو رجلاً غريب الأطوار وكان سبيلاً الحظ « مع  
صبيانه » وخدمه ومن عاونه من الأسطوات .. فكان في فترة عمله في محراب  
الستين يقيم في روما في غرفة واحدة أو في شقة العازب ويشارك معه  
فيها ثلاثة من مساعديه وخادمه الغلام .. وكان كثيراً ما ينام بملابس  
كاملة .. وكان في العادة يستقدم خدمه وصبيانه من فلورنسا ، ثم  
لا يلبث أن يعيدهم اليها : هذا لأنَّه كمسول لا يخدم ولكن ينتظر من  
سيده أن يخدمه ، وهذا لأنَّه نصاب ، وهذا لأنَّه يتصرف كاللوردات  
ويختال في روما بحذائه القطيفة .. وكان لا يطيق وجود خادمة في البيت لأنَّ  
الخدمات في روما « كلهن بغايا وكلهن خنازير » ، أما صبية روما « فكلهم  
أوغاد » ولا يصلحون خدما .. وكان لا يكف في خطاباته عن تعنيف أسرته لأنَّهم  
شر هون يرهقونه بطلب المال وكلما أعطاهم طالبوا بالزيادة ليشتروا الأطيان  
رغم أنَّهم يعرفون أنه يحرم نفسه ليعينهم ويعمل الليل والنهار ، فهو يشقي  
من أجلهم لترفع مرتبتهم قليلاً في الحياة .. وبالمثل كان يستقدم الصبيان أو  
الأسطوات من فلورنسا وكانت أسرته تتولى إرسالهم إليه .

وكان حاد الطياع ألي على نفسه الكثرين من فناني عصره بسبب صراحته ، سريع الفضب ، متسرعا في القول وفي الفعل ولكن كان يهدأ بسرعة .. وكان كثير الشكوك إلى حد المرض ، شديد الاكتئاب إلى حد الجنون ، يكره البشر ويرعب من يخالطه من الناس ، متقطضا إلى حد الظهور بالاملاق ، متهمها بالبخل رغم أنه ساعد الكثرين ماليا .. وكان محبا للوحدة لا يطيق أن يشرك معه أحدا في العمل ولا يحب أن يعلم فنه لأحد ، وكان

كتوما لا يطلع أحدا حتى أقرب معاونيه على تصميمات مشروعاته الفنية ، وقد تسبب جهلهم بعوايده في تغيير تصميماته بعد وفاته . وكان جبانا على مستوى الشجار البدنى ، ولكن كانت له طاقة ماردة على العمل . وكان بعض أصدقائه الخلصاء يتهمونه بأنه سكير . وقد عرف عنه حبه للشبان الوسيمين وعدم اكتراثه بالنساء . أما ميكلانجلو الفنان فقد كان شديد التواضع في الفن ، رغم أنه كان متطرف الكبرياء على المستوى الاجتماعي ، فقد كان يكره أن يسمى مثلا ، وكان شديد الاعتزاد ببنشهه البعيد إلى أشراف كانوا سا .

ولأن ميكلانجلو لم يعلم أحدا شيئا ، فهو لم يترك مدرسة رغم أنه عمر إلى التسعين ، بينما ترك رفائيل مدرسة زاهرة في تاريخ الفن رغم أنه مات في شرخ الشباب . كان رفائيل يكاف تلامذته بالأعمال ثم يصححها ، أما ميكلانجلو فكان يضططلع بأى عمل يتصدى له من الآلاف إلى الياء .

وكان ميكلانجلو متعاطفا مع مبادئ سافونارولا رغم أنه كان ربيب لورنزو دي مدি�تشى . ومع ذلك فقد كان يخشى التدخل في السياسة . وبعد معركة راينا في ١٥١٢ فرض ريموندو دي كاردونا أسرة مدি�تشى من جديدة سادة على فلورنسا . وكانت لأسرة ميكلانجلو عواطف نحو حزب سافونارولا ، فكتب اليهم ميكلانجلو يحذرهم من التدخل في السياسة . وبالفعل فرضت عليهم بعد عودة آل مدি�تشى في ١٤ سبتمبر ١٥١٢ غرامة مالية قدرها ٦٠٠ دوقية ، ولكنهم سلموا من الاضطهاد لتفاهة شأنهم . وكتب ميكلانجلو إلى الكاردينال جيوفانى دي مدি�تشى ( بن لورنزو ) يدافع عن أسرته ، ويبدو أن دفاعه أثار لان آباء أعيد إلى وظيفته .

وبعد وفاة البابا يوليوس الثاني جلس الكاردينال جيوفانى دي مديشى ابن لورنزو على الكرسى البابوى باسم البابا ليو العاشر لمدة ثمانى سنوات ، حتى مات في ١٥٢١ . وكان هذا البابا لا عمل له الا تثبيت سلطة آل مديشى في فلورنسا ، ولم يزد هر بسببه فنان ولا أديب . على العكس من ذلك ، فقد كلف ليو العاشر ميكلانجلو ورفائيل وسانجاللو بتجديد كنيسة سان لورنزو في فلورنسا حيث كانت مقابر آل مديشى . وكانت تجربة مؤسفة لأنها ضيعت سنوات على ميكلانجلو . فقد رفض ميكلانجلو العمل مع غيره فوقع عليه العباء كله ، وأهمل العمل في مقبرة يوليوس الثاني .

وبعد وفاة ليو العاشر في أول ديسمبر ١٥٢١ تلاه البابا ادريان السادس الذى كان مؤدب الامبراطور شركان ، ولم يجلس على الكرسى البابوى الا سنة وثمانية شهور لأنه مات في ٢٣ سبتمبر ١٥٢٣ . وكان

ادريان هذا لا يهتم بالسياسة ولا بالفن ولا بالأدب ، وإنما يهتم بالدين وحده وكان يسمى التماذيل أو ثان الوثنيين ، فلما مات خلفه جولييو دي مدیتشی باسم البابا كلمنت السابع ( ١٥٢٣ - ١٥٣٤ ) . وكلف میكلانجلو بالعمل في تجديد كنیسة سان لورنزو بفلورنسا وتجديد مقابر آل مدیتشی في هذه الكنیسة وأجرى عليه معاشا شهريا وأنزله مسكنًا بجوار عمله ليطمئن إلى تفرغه الكامل . وبالفعل حين عرضت عليه حکومة مدينة جنوا في ١٥٢٣ أن يصنع لها تمثلاً لمواطنه الشهير اندريا دوريا الذي كان أميراً لاساطيل فرنسوا الأول وشريكه على التوالى ، اعتذر میكلانجلو . وفي هذه الفترة صنع میكلانجلو للدومو ( القبة ) في فلورنسا ، ١٢ تمثلاً خلال ١٢ سنة مقابل فلورينيين ذهبيين شهرياً .

وكان العمل في سان لورنزو عمل مهندس معماري أكثر منه عمل مثال ، ولم يكن میكلانجلو سعيداً به . وزاد من شقائه أن دوق أوربینو قریب البابا بولیوس الثاني ، رفع عليه دعوى لأنها تقاضى ٦٠٠ دوقية ليبني مقبرة البابا ولكنه لم يف بالتزاماته .

ثم اضطررت أمور روما وفلورنسا خلال عامي ١٥٢٧ و ١٥٢٨ حين دمرت الجيوش الفارسية روما باسم الامبراطور شريك وطردت آل مدیتشی من فلورنسا مرة أخرى . وانقطعت أخبار میكلانجلو نحو سنتين وسط هذا الاضطراب السياسي . غير أن إنجلترا وفرنسا اتفقا مع شريك في صلح برشلونة ( ٢٠ يونيو ١٥٢٩ ) على إعادة فرض أسرة مدیتشی على فلورنسا وإطلاق يد البابا كلمنت السابع فيها . وسار إليها أمير أورانج بجيش لحصارها ، فاستعدت المدينة للدفاع عن نفسها وعيّنت لجنة الحرب میكلانجلو مديرًا للاستحكامات .

واشتُم میكلانجلو رائحة الخيانة في أحد القواد فتسطل خارجاً من المدينة وقصد إلى البندقية حاملاً ٣٠٠ دوقية ، وهناك استقبلته حكومتها استقبالاً رسميًا . وكان في نية میكلانجلو أن ينطلق من البندقية إلى باريس ، فكتب تناصل فرنسا في البندقية ، لزار ذي بالييف ، إلى فرنسوا الأول أن يضم میكلانجلو إلى بلاطه ، ولكن میكلانجلو عدل عن هذه الرحلة وعاد إلى فلورنسا في ٢٠ نوفمبر ١٥٢٩ وسط الحصار قبل يسقط المدينة في يد أمير أورانج قائد جيش شريك في أغسطس ١٥٣٠ . نتيجة للخيانة كما توقع . واكتفت السنوية بعزل میكلانجلو من منصبه ومن المجلس الكبير لمدة ثلاثة سنوات عقاباً له على تسليمه من فلورنسا ، رغم أنها صادرت أسلاك غيره من الفارين . وكان الاتفاق بموجب صلح برشلونة أن يعيد الامبراطور شريك الساندرو ( اسكندر ) مدیتشی أميراً

على فلورنسا بعد أن زوجه من ابنته باعتبار فلورنسا « دوطة » منها لزوجها . وحين سقطت المدينة اختفى ميكلانجلو في بلدة بعيدة خشية البطش به .

ولما هدأت الأحوال وانتهت أعمال الانتقام وعده البابا كليمينت السابع بالأمان لو عاد إلى فلورنسا للعمل في كنيسة سان لورنزو ومقابر آل مدیتشی . فعاد وكان مرتبه خمسين كورونا شهريا . وفي هذه الفترة وضع ميكلانجلو تصميم تمثاله « شمثيون الجبار » ، ورسم لوحة « ليدا والبجع » التي اشتراها فرنسوا الأول وظللت في قصر فونتيفيل حتى عهد لويس الثالث عشر حين دمرت بأمر الوزير دينواييه بسبب اباحتها ، وفي هذه الفترة أيضا نحت ميكلانجلو من الرخام تمثال « أبولو رامي السهم » ، وتمثال « النزول من الصليب » في كنيسة الدومو ( القبة ) حيث نرى مريم عاجزة عن حمل جسد المسيح .

ومن ١٥٣٠ إلى ١٥٣٣ استغل ميكلانجلو في اتمام مقبرة آل مدیتشی في كنيسة سان لورنزو بفلورنسا . وكان مركزه قلقا في المدينة بسبب عداوة الدوق الساندرو مدیتشی له . وفي هذه الفترة أيضا تم التراضي بين ميكلانجلو ودوق أوربينو ، بعد مفاوضات مضنية ، على أن تقتصر مقبرة يوليوس الثاني علىواجهة واحدة ومعها ستة تماثيل من صنع ميكلانجلو نفسه مقابل كل ما تقاضاه من أموال . ثم سافر البابا كليمينت السابع إلى مرسيليا في ١٥٣٣ ليزوج بنت عمته كاترين دي مدسيس للدوين ، ولـى عهد فرنـسا . وقبل موـت الـبابـا في ٢٣ سـبـتمـبر ١٥٣٤ بيـومـين وصل مـيكـلانـجلـو إـلـى رـومـا مـن فـلـورـنسـا ، وـكـان ذـلـك مـن حـسـن حـظـه . فـقـدـ كان الـبـابـا ، وـهـوـ مـن آل مدـيـتشـي .. يـحـميـهـ من غـضـبـ السـانـدـروـ مدـيـتشـيـ أمـيـرـ فـلـورـنسـاـ ، وـبـمـوـتـهـ اـنـتـهـتـ هـذـهـ الـحـمـاـيـةـ . وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ زـارـ مـيكـلانـجلـوـ فـلـورـنسـاـ مـرـةـ أـخـيـرةـ ثـمـ غـادـرـهـاـ نـهـائـيـاـ إـلـىـ بـيـزاـ وـرـومـاـ فـيـ دـيـسـمـبـرـ ١٥٣٤ـ ، وـلـمـ يـعـدـ إـلـيـهاـ حـتـىـ مـاتـ فـيـ ١٥٦٤ـ لـيـدـفـنـ فـيـهاـ .

لم يعد ميكلانجلو قط إلى فلورنسا بعد موـتـ الـبـابـاـ كـلـيمـنـتـ السـابـعـ ، وـكـانـ عـمـرـ مـيكـلانـجلـوـ يـوـمـئـذـ ٥٩ـ سـنـةـ ، وـاستـدـعـاهـ الـبـابـاـ الـجـدـيدـ بـولـ الثـالـثـ ( تـولـىـ ١٥٣٤ـ - ١٥٤٩ـ ) ، وـطـلـبـ إـلـيـهـ أـنـ يـدـخـلـ فـيـ خـدـمـتـهـ وـلـكـنـ مـيكـلانـجلـوـ اـعـتـذـرـ بـضـرـورـةـ قـيـامـهـ بـاتـمامـ مـقـبـرـةـ يـوليـوسـ الثـانـيـ .. فـغـضـبـ الـبـابـاـ بـولـ الثـالـثـ ثـالـثـ قـائـلاـ أـنـ هـذـهـ الـلـحـظـةـ ثـلـاثـيـنـ عـامـاـ فـلـمـ جـاءـتـ خـيـبـ مـيكـلانـجلـوـ أـمـلـهـ . وـهـرـبـ مـيكـلانـجلـوـ إـلـىـ دـيـرـ فـيـ جـنـوـاـ لـيـتـمـ عـمـلـهـ بـجـوارـ مـاحـاجـرـ الرـخـامـ فـيـ كـرـارـاـ . وـلـكـنـ الـبـابـاـ بـولـ الثـالـثـ نـجـحـ فـيـ اـسـتـقـدـامـهـ إـلـىـ رـومـاـ لـيـكـمـلـ مـاـ بـدـأـهـ مـنـ فـرـيـسـكـاتـ مـحـرابـ السـيـسـتـيـنـ . وـأـصـدـرـ الـبـابـاـ بـيـانـاـ بـأـنـ مـيكـلانـجلـوـ غـيرـ

مسئول عن أي تعطيل في مقبرة يوليوس الثاني وأن الفاتيكان يعفيه من أية تعويضات عن التأخير .

وهكذا تفرغ ميكلانجلو لرسم فريسكو « يوم القيمة » حتى أتمه وعرض على الجمهور في ٢٥ ديسمبر ١٥٤١ ، وكان عمر ميكلانجلو يومئذ ٦٦ عاما . وهذا الفريسكو من الأعمال الخالدة التي اقتربت باسم ميكلانجلو . كذلك أتم ميكلانجلو فريسكات « محارب الباولين » بتكليف من البابا بول الثالث . أنتها في سبع سنوات وهو في الخامسة والسبعين من عمره .

وقد أرسل فرنسيوا الأول إلى ميكلانجلو في سنة ١٥٤٦ خطابا يرجوه فيه أن يقيم له بيديه أثرا فنيا يعتز به . فاعتذر ميكلانجلو بشيخوخة وبدنو الأجل .. قائلًا أنه لو كان في الامكان عمل تماثيل في الدار الأخرى ، حيث الشباب دائم ، فسوف يسعده أن يصنعها « لصاحب الجلالة المقدسة » .

أما حلم ميكلانجلو في شيخوخته فقد كان قبة الكاتدرائية الجديدة للقديس بطرس مؤسس الكنيسة الكاثوليكية .. وقد كان البابا يوليوس الثاني أول من هدم كاتدرائية القديس بطرس القديمة لتناسب تصميم مقبرته الضخمة التي لم يتم تنفيذها لأن البابوات المتعاقبين شغلوا ميكلانجلو عن تنفيذها بما صنع من تماثيل وما رسم من فريسكات وما أقام من معمار في كنيسة القديس بطرس الجديدة .

وكان واضح تصميم هذه الكاتدرائية العظيمة المهندس المعماري المشهور برامانتى الذى كان كبير المهندسين فيها حتى توفي في ١٥١٤ . وكان تصميم الكاتدرائية يقوم على مبدأ الصليب المصرى اليونانى المتساوی الأضلاع في الأرضية من المدخل إلى الهيكل . فلما مات برامانتى قاد العمل مكانه في ١٥١٧ الفنان رفائيل أيام البابا ليو العاشر .. يساعده المهندس المعماري أنطونيو دي سانجallo . وعدل رفائيل التصميم فأاسسه على الصليب اللاتينى ، حيث الصلع الرأسى أطول من الصلع الأنفى . فلما مات رفائيل في ١٥٢٠ قاد العمل سانجallo بمساعدة بيروتزي ، وعادا إلى تصميم الكنيسة على قاعدة الصليب المصرى اليونانى ، ولم يتم العمل كثيرا بسبب الارتباك السياسى . ثم مات بيروتزي في ١٥٣٧ وانفرد سانجallo بالعمل فزاد من التعقيد الهندسى للمبنى ، مازجا الطراز القوطى بالطراز الكلاسيكى .. وأضاف ممرا طويلا عند مدخل الكاتدرائية ليتحقق وهما بقاعدة الصليب اللاتينى . ولكن كان له نضل اضافة القبة الوسطى الشامخة . وقد سيطر سانجallo على العمل نحو ثلاثين سنة ، من ١٥٢٠

حتى بعد ١٥٥٠ ، كان خلالها مصدر استنذاف لأموال الفاتيكان ورببي مدرسة ضخمة من المعاونين الفاسدين شملت المقاولين الغشاشين، والكرادلة والإداريين المرتشين . فلما تولى ميكلانجلو قيادة العمل بعد موته، سانجاللو أحاطوه بمؤامراتهم المستمرة لسدى البابوات وب Yoshiyatiem التي لم تنقطع حتى وفاته .. ولم ينتد ميكلانجلو إلا أنه كان يعمل متظوعاً مكتفياً بما كان البابوات يهبونه من هبات .

عاد ميكلانجلو إلى تصميم برنامجه الأصلي القائم على مبدأ الصليب القبطي اليوناني المتساوی الأضلاع . وعاد إلى بساطة مشروع برنامجه ولكنه تمسك بالقبة الشامخة وزادها شمولاً وأضاف مدخلًا شامخًا بعد أن الغى الدهليز الذي أضافه سانجاللو ليوهم بأبعاد الصليب اللاتيني في البناء وزيادة الطول عن العرض . وكان البابا بعد البابا يقرر تصميم ميكلانجلو رغم مؤامرات أتباع سانجاللو : بول الثالث المتوفى في ١٥٤٩ ثم يوليوس الثالث المتوفى في ١٥٥٥ ثم مارسيل الثاني الذي مات بعد أسبوعين قليلة من توليه ثم بول الرابع ثم بيروس الرابع الذي جلس في ١٥٥٩ .

ولأن ميكلانجلو كان يعمل دائمًا في انفراد ولا يشرك معه أحداً ، بل ولا يطلع أحدًا من معاونيه على خطواته التالية .. انتهى تصميمه بموته فعدل أخلاقه مشروعه وعاد صليبه القبطي اليوناني صليباً لاتينياً ولم يبق من ميكلانجلو حقيقة في كاتدرائية القديس بطرس إلا القبة الشامخة . ولم يترك ميكلانجلو رسوماً هندسية بتصوره . حتى البنائين كانوا لا يعرفون مخططاته وإنما كانوا ينفذون ما يشير به جزءاً بجزء .

وفي عهد بول الثالث وضع ميكلانجلو أيضاً تصميم الكابيتول في ميدان الكامبودولي . ونفذ هذا التصميم في عهد البابا إينوتشينتو العاشر ( ١٦٤٤ - ١٦٥٥ ) .

وعندما مات ميكلانجلو في ١٨ فبراير ١٥٦٤ لم يجدوا عنده إلا صندوقاً مختوماً بالشمع الأحمر به نحو ٨٠٠٠ كoron و ١٠ رسوم جديدة وبعض التماثيل القليلة غير المكتملة التي تمثل موضوعات دينية ، منها تمثال للقديس بطرس .. وكان يملك عند موته بيته في روما وبيتاً في فلورنسا وبضعة حقول في توسكانيا إلى جانب ما كان يرسله من أغانٍ كثيرة لأسرته . ونقلت رفاته من روما إلى فلورنسا حيث دفنت في كنيسة سانتا كروتشي في احتفال مهيب شارك فيه كل الفنانين والآلاف من المواطنين .

أما عن علاقات ميكلانجلو بالنساء فليس لها وجود . فيما خلا صداقته لسيدة اسمها فيتوريا كولونا بنت حكمدار نابولي .. كانت متزوجة من محارب

اسمه المركيز دى بيسكارا وكان أحد قواد الامبراطور شرلكان ثم مات في ١٥٢٥ متهمًا بخيانة الامبراطور . وظلت المركيزية فيتوريا دى بيسكارا أمينة لذكري زوجها بين الاعتقال في الدير والاعتقال في دارها ونظم الشعر ، ولم نسمع عن صداقتها لميكلانجلو إلا في ١٥٣٤ وهي في الحادية والأربعين من عمرها ، أما ميكلانجلو نفسه فكان قد قارب الستين . وكانت هذه السيدة تختلط المفكرين والفنانين وبعض رجال الاصلاح الديني ، فكانت موضع اشتياه من الماحظين أو دعاء « مناهضة الاصلاح الديني » ، رغم أنها لم تكن بروتستانتية أو منشقة على الكنيسة الكاثوليكية . ولا أحد يعرف متى بدأت صلاتها بميكلانجلو ولا مدى هذه الصلة . وربما اجتنبه فيها أنه كان مثالاً من دعاء اصلاح الكنيسة وأنه كان متأثراً بمبادئ سافونارولا . وكان ينظم فيها قصائد الشعر وبينهما مراسلات كثيرة . وقد كان ميكلانجلو شاعراً لا يأس به .

أما بقية صداقات ميكلانجلو فكانت كلها مع الذكور ، ولاسيما الشبان من أهل الوسام ، مثل النبيل الشاب توماسو كافالييري وجيرهاردو بيريني وغيرهما . وكانت له في توماسو كافالييري قصائد عديدة تتمنح بجماله .. شبيهة بسونويات سكسيبير التي كان يتمدح فيها بجمال إيل ساوثرهامبتون . ويلاحظ أن الأخوة بوناروتي الخمسة .. وفيهم ميكلانجلو .. لم يتزوج منهم إلا واحد فقط .

•••

إذا تكلمنا عن عصر الرئيسيانس لم يكن هناك مناص من الكلام عن عشرات من الفنانين التشكيليين من مصوريين ومثالين ومعماريين في كل بلد من بلاد أوروبا .. وعلى قمتهن ليوناردو دافنشي ورفائيل وميكلانجلو . جددوا بالخط واللون والحجر ذلك النفس الجبار الذي شاع في حضارتي اليونان والروماني وفي سائر الحضارات القديمة منذ أن كان الدين مصدر الهام عظيم لكافة الفنون .. فتجددت بالفنون الجميلة نهضة أوروبا على أساس التوفيق بين مجد الله ومجد الإنسان ، دونما خشية من العودة إلى الوثنية .

وكان من أكبر انتصارات المذهب الإنساني أو الهيومانيزم أن الكنيسة الكاثوليكية نفسها أصبحت منذ جيوتو ( ١٢٦٦ - ١٣٣٧ ) حتى ميكلانجلو أكبر راع للفنون الجميلة في أوروبا بعد أن ظل العالم المسيحي نحو ألف عام يرتعد خوفاً أمام الصورة والإيمان وكل تجسيد بالبعد الثالث باعتباره أحياء

لوثنية القدماء . فذيلت الفنون الجميلة ولم يبق منها الا فن الزخرفة البلياء  
التي تستهلك مواهب الانسان التشكيلية والموسيقية في امشاق او انساق  
او انماط مكررة عقيمة من الجمل اللونية والموسيقية المجردة من كل مضمون  
يعبر تعبيرا خلائقا عن الدين او الدنيا . وغدت الزهرة المسطحة او ورقة  
الشجر او الخطوط الهندسية الجوفاء او حروف الابجدية اهم من الانسان  
ومن قصص الانبياء .

● ● ●

# إرازموس

ERASMUS

١٤٦٩-١٥٣٦



لم يكن عصر النهضة الأوروبية مجرد انفجار ثقافي ومكري وعملي غير معالم الحياة في أوروبا ومقاييسها وقيمها في جيل واحد أو قرن واحد ، بل كان عصر النهضة الأوروبية مجموعة من الحركات الثقافية والفكريّة والعلمية التي استغرقت نحو ثلاثة قرون بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠ ميلادية على وجه التقريب على مساحة أوروبا كلها ، أو فلنقل بين دانتي ( ١٢٦٥ - ١٣٢١ ) في إيطاليا إلى شكسبير ( ١٥٦٤ - ١٦١٦ ) في إنجلترا .

وقد شهدت هذه القرون الثلاثة تغيرات جوهرية في الحياة الأوروبية غالبة في الخطورة كان من أهمها :

- ١ - تبلور اللغات والأداب القومية الحديثة في أوروبا .
- ٢ - تبلور حركات الاستقلال القومي والوحدة القومية فيها .
- ٣ - تبلور السكنايس القومية وانسلاخها من الكنيسة الجامعية ( الكاثوليكية ) وتقلص سلطة الخلافة الرسولية المعروفة بالبابوية ، وما تبع ذلك من سيادة الدولة على الدين بدلاً من سيادة الدين على الدولة .
- ٤ - تبلور فكرة الحق الطبيعي وحلوها محل فكرة الحق الالهي ، وما ترتب على ذلك من حلول القانون الوضعي وحقوق الإنسان محل القانون السماوي .
- ٥ - انهيار النظام الاقطاعي نتيجة لحركات الوحدة القومية وظهور الملكية المطلقة ثم الملكية المقيدة ثم الديمقراطيات الحديثة .
- ٦ - حركات الاصلاح الديني باعادة فتح باب الاجتهاد في الدين على اساس احلال العقل محل النقل ، والغاء احتكار النعمة والسلطة كمفسرين للوحى والغاء دور الاولياء كوسطاء بين الناس والله .

٧ — الایمان بأن للانسان قيمة في ذاته وأن الانسان سيد مصيره وأن  
لحياة الانسان وعلومه وفنونه وأدابه وفلسفاته ومساعيه قيمة في ذاتها  
لا تغنى عنها علوم الدين ولا نسخ الرهبان ولا اعتبار الحياة الدنيا مجرد  
معبر للأخرة وأضمحلال الأديرة وتحولها الى جامعات .

٨ — احياء التراث الوثنى السابق على المسيحية ( اليونانى  
والروماني ) — بوصفه جزءا لا يتجزأ من تراث الانسانية وازدهار الابداع  
الأدبى والفكري نتيجة لذلك .

٩ — حلول الطباعة محل النسخ اليدوى منذ اختراع جوتبرج ( ١٣٩٤ )  
١٤٦٨ ) المطبعة وطبع اول كتاب في تاريخ النشر وهو الكتاب المقدس في  
١٤٥٠ ، بعد أن نقل الأوروبيون عن الصينيين صناعة الورق .

١٠ — اكتشاف أمريكا في ١٤٩٢ وغيرها من بقاع العالم المجهولة وببداية  
عصر الاستعمار الاستيطانى .

هذه كانت أهم مقومات عصر النهضة الأوروبية الذي امتد نحو ثلاثة  
قرؤن بين ١٣٠٠ — ١٦٠٠ بعد نحو الف عام من العصور الوسطى منذ  
سقوط روما في يد أتيليا عام ٤٥٢ ، وهذه المقومات هي أسس الحضارة  
الغربيّة الحديثة .. وقد كان ارازموس ( ١٤٦٩ — ١٥٣٦ م ) قطباً بين  
كتاب عصر النهضة وكان معبراً صادقاً عن أكثر هذه المقومات . ومع ذلك  
فرغم اتفاقه مع أكثر كتاب عصره في تمجيد الانسان والحياة الإنسانية وتهكمه  
بالرهبانية والزهد ورفض الحياة الذي كانت تدعو له الكنيسة الكاثوليكية  
وتقاؤها ، فقد انفرد ارازموس في هولندا مع معاصره وصديقه السير توماس  
مور في إنجلترا ( ١٤٧٨ — ١٥٣٥ ) برفض مبدأ تشقق العالم المسيحي إلى  
قوميات متحاربة وكنائس قومية متنبذة متعارضة في ظل كنيسة رسولية  
جامعة واحدة هي عنده الكنيسة الكاثوليكية التابعة للبابوية في روما .

وقد كان من أقوال ارازموس المشهورة : « ان نهر الراين لا ينبغي  
أن يفصل المسيحي عن المسيحي ». أما السير توماس مور فقد دفع حياته  
ثمناً لولاته لوحدة العالم المسيحي في ظل بابوية روما ولو قوفه باصرار ضد  
التيار القومي في الدين والسياسة في زمن هنري الثامن ملك إنجلترا .

كان منطق هذين المفكرين العظيمين : الاصلاح الديني ، نعم . ولكنه  
الاصلاح من الداخل بما لا يفتت وحدة العالم المسيحي . وبهذا الموقف الفريد  
انفرد ارازموس والسير توماس مور بين كافة دعاة الهيومانزم أو المذهب

الإنسانى في عصر النهضة الأوروبية بمحاولة التوفيق بين قيم العصور الوسطى وقيم الرئيسيات، فوضعا أساساً ما يسمى في تاريخ الفكر الأوروبي « بالهيوماتزم المسيحي » وهي صيغة مركبة كانت في زمانه على الأقل ضدّ جري التاريـخ . بل هي في زماننا ضدّ مجرـى المنطق . فقد كان على إرازموس أن يقول بوحدة النوع الإنساني في كل زمان ومكان ، لا بوحدة العالم المسيحي فقط في كل زمان ومكان . كان على إرازموس لا أن يقول إن الراين لا ينبغي أن يفصل المسيحي عن المسيحي ، بل أن يقول إن جبال الأورال أو البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي أو صحراء منغوليا أو الغابات الاستوائية أو حواجز الدين أو اللون أو الجنس أو العنصر أو اللغة أو الطبقة لا ينبغي أن تفصل الإنسان عن الإنسان .

بغير هذا لا تكون هناك إنسانية ولا مذهب إنساني . واتخاذ وحدة الدين أساساً لفهم وحدة الإنسان لا يقل عنجهية ولا تمزيقاً لوحدة البشر وحقهم المتساوـى في الحياة وفي الكرامة وفي السعادة من اتخاذ وحدة العـرق أو القوم أو الوطن الخ . أساساً للأخـاء الإنسـاني .

ومع كل هذا فقد كان إرازموس عند الكثـيرـين يـلـقـبـ بـأـمـيرـ الـإـنـسـانـيـنـ ، بـسـبـبـ قـوـةـ دـعـوـتـهـ لـلـأـخـاءـ إـنـسـانـيـ فـيـ زـمـنـ مـرـقـتـ فـيـ الـخـلـافـاتـ وـالـحـرـوبـ الـدـيـنـيـةـ أـورـوـبـاـ بـأـسـرـهـاـ .

ولد ديزيدير إرازموس بمدينة روتردام بهولندا ، واشتهر بمكان مولده حتى كان يعرف عادة باسم إرازموس الروتردامـيـ . وكان أصغر ابنيـنـ في أسرتهـ . وكانت امهـ ، واسمـهاـ مـرجـيـتـ ، ابـنةـ طـبـيبـ ، وأـبـوهـ ، واسمـهـ جـيـرارـ ، فقد نـزـحـ منـ مـدـيـنـةـ روـتـرـدـامـ عـلـىـ دـلـتـاـ نـهـرـ الـراـيـنـ بـهـوـلـنـدـاـ إـلـىـ روـمـاـ حيثـ اـشـتـفـلـ نـساـخـاـ لـلـمـخـطـوـطـاتـ . وـمـاـ يـذـكـرـ عـنـ إـراـزـمـوسـ أـنـ أـبـاهـ وـأـمـهـ لمـ يـتـزـوـجـاـ قـطـ ، وـقـدـ تـوـفـيـاـ عـنـهـ وـهـوـ بـعـدـ يـافـعـ فـيـ الـخـامـسـةـ عـشـرـةـ مـنـ عـمـرـهـ ، وـتـرـكـاهـ مـعـ أـخـيهـ فـيـ رـعـاـيـةـ أـوـصـيـاءـ .

وقد بدأ إرازموس تعليمه في سن الخامسة في جودا ثم دخل في سن السادسة عشرة كتاب الكنيسة في بلدة ديفنتر الذي أسمـهـ داعـيـةـ لمـذـهـبـ دـيـنـيـ اـسـمـهـ « أـخـوـةـ الـحـيـاـةـ الـمـشـتـرـكـةـ » . وـحـينـ شـبـ إـراـزـمـوسـ أـرـادـ أـنـ يـدـخـلـ معـ أـخـيهـ الجـامـعـةـ ، وـلـكـنـ الـأـوـصـيـاءـ ضـفـطـوـاـ عـلـيـهـمـاـ لـيـدـخـلـاـ سـلـكـ الرـهـبـانـ ، فـدـخـلـ إـراـزـمـوسـ مـدـرـسـةـ دـيـنـيـةـ ثـمـ التـحـقـ بـعـدـ عـامـيـنـ بـدـيـرـ إـيمـاـوسـ بـبـلـدـةـ شـتـايـنـ ، وـرـسـمـ قـسـيسـاـ فـيـ ١٤٩٢ـ أـىـ فـيـ الـثـالـثـةـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ عـمـرـهـ ، عـلـىـ طـرـيقـةـ الـقـدـيسـ أـوـغـسـطـسـ .

وقد جاءته فرصة التحرر من سلك الكهنوت — حين عرض عليه أن يعمل سكرتيراً لاتينياً لهنري برجن أسقف كامبريه الذي كان أهم رجل من رجال الدين في بلاط بورجونيا بفرنسا ، وساعدته هذا الأسقف على دخول جامعة باريس عام ١٤٩٥ ، حيث التحق بكلية مونتاجيو . ولكن لم يسكن كالعادة في الكلية وإنما أقام خارجها في بيت خاص حيث كان يعلم التلاميذ ، وفي ١٤٩٨ حصل على درجة بكالوريوس في اللاهوت . وفي باريس كتب أولى «محاوراته» ، ثم انتقل إلى جامعة لوفان بلجيكا حيث كتب كتابه «دليل الجندي المسيحي» عام ١٥٠٣ .

وقد زار إرازموس إنجلترا لأول مرة في ١٤٩٩ في معية أحد تلاميذه الانجليز وهو اللورد مونتجوى الذى استضافه في داره في جرينتش حيث تعرف إرازموس على السير توماس مور الذى كان وقتئذ يدرس العلوم الإنسانية ويزاول المحاماة في لندن ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وكان عمر إرازموس يومئذ ثلاثين سنة . ومنذ رحلته الأولى إلى إنجلترا تعددت زياراته لها خمس مرات فتركت إنجلترا في تفكيره آثاراً باقية .

وفي زيارته الأولى تعرف أيضاً على الأمير الغلام البرنس هنري ابن الملك هنري السابع ، وهو الذي ارتقى العرش في شبابه (١٥٠٩) باسم العاهل الخطير هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٢٧) ، وكان الأمير يومئذ في التاسعة من عمره . وفي إكسفورد تعرف على العلامة جون كوليت الذي كان أشهر محقق للتراث اليوناني واللاتيني ولا سيما رسائل القديس بولس . في زيارته الثانية تعرف على جون فيشر ، أسقف روشنستير ورئيس جامعة كامبريدج ، ووليم وارهام كبير أساقفة كانتربرى .

وكانت رحلته الثالثة إلى إنجلترا أطول رحلاته فاستغرقت نحو خمس سنوات من ١٥٠٩ و ١٥١٤ . وفي أثناء هذه الاقامة اشتغل إرازموس بتدريس اللغة اليونانية وأدابها بجامعة كامبريدج بنفوذ الأسقف فيشر . ثم قبل كرسى الدراسات اللاهوتية الذي أنشأته اليدى مرجريت تيودور في تلك الجامعة ، وأقام في كلية كوينز . وبعد رحلة إرازموس الإيطالية وعودته إلى إنجلترا في ١٥٠٩ كتب كتابه الشهير «دفاع عن الحماقة» («حرفيانا» في مدح الحماقة») أثناء اقامته بدار السير توماس مور . وفي فترة اقامته بكامبريدج أتم دراسته عن «النص اليوناني للإنجيل» .

وقد أتيح لإرازموس أن يقوم بزيارة إيطاليا بعد رحلته في ١٥٠٦ . ذهب إلى إيطاليا كمُؤدب لأولاد الطبيب الإيطالي الذي كان طبيب هنري السابع ملك إنجلترا . وفي إيطاليا حصل إرازموس على درجة الدكتوراه في اللاهوت

من جامعة تورينو . كما أنه تعلم في جامعة بولونيا ، وقضى عاماً في البندقية ضيفاً على الناشر الشهير الدو مانوتزيو الذي اكتسب شهرته من طبع مخطوطات التراث اليوناني ولا سيما أعمال أسخيلوس . وفي إيطاليا تجول أرازموس بين مدنها الشهيرة بادوا وفيرارا وفلورنسا وسيينا وروما ، وقد نشر له الناشر الدو طبعة أنيقة من كتابه « الأمثال » . ثم عاد أرازموس إلى إنجلترا بدعوة من أصدقائه الانجليز في ١٥٠٩ بعد احتلاء هنري الثامن عرشها ، بأمل أن يجد فيها مزيداً من التقدير بعد أن أصبح علماً من أعلام الدراسات الإنسانية في أوروبا وبالفعل أصبح أرازموس استاذاً لليونانيات في جامعة كامبريدج بضع سنوات .

وبعد أن غادر أرازموس إنجلترا في ١٥١٤ ، استقر أكثر حياته الباقية في حوض نهر الراين حيث ولد وترعرع ، رغم أنه لم يكف عن التنقل في أوروبا ، فنراه استاذاً بجامعة لوفان ببلجيكا التي أقام فيها أربع سنوات بين ١٥١٧ و ١٥٢١ . وكان أكثر مقامه في مدينة بازل بسويسرا حيث أقام أولاً سنتين (١٥١٦ - ١٥١٧) ، ثم ثمانى سنوات (١٥٢١ - ١٥٢٩) ، ثم آخر سنوات في حياته حتى توفي في ١٥٣٦ . كذلك نراه في كونستانتس في سويسرا وبيزانسون بفرنسا وفريبورج ، وبريسلاو بألمانيا ، وهي كلها مدن مجاورة . وكانت بازل على الرأين من أشهر مدن أوروبا بجامعتها العريقة ويتجمع المثقفين والكتاب والفنانين فيها ، وبدار النشر الكبيرة فيها ، وهي دار جون فروين الذي أصبح أرازموس مستشارها الأدبي والمشرف على ما تصدره من مؤلفات ثقافية . وقد نشر فروين ل Arazius دراسته « النص اليوناني للإنجليز » عام ١٥١٦ . وفي بازل كان يقيم الفنان العظيم هانز هولباين وفيها رسم صورة أرازموس الشهير .

وفي أكتوبر ١٥١٧ علق مارتن لوثر ( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ ) بيانه الشهير « خمس وتسعون قضية » احتجاجاً على صكوك الغفران التي كانت تصدرها الكنيسة الكاثوليكية وبابوات روما للمؤمنين الخطة لتنقذهم من نار جهنم وتبعهم قصوراً ومربيعاً في الجنة ، علق بيانه على أبواب كنيسة ويتنبرج بألمانيا ، وبذلك وضع حجر الأساس في المذهب البروتستانتي المنسوب إليه . ولم يكن لوثر وحده في الاحتجاج على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية في زمانه ، بل كان يمثل حلقة هامة فيما يسمى « حركة الاصلاح الديني » . وفي ١٥١٩ بدأ المصلح الديني زوينجل حركة الاصلاح الديني في مدينة زيورخ التي أصبحت مركز الثورة الروحية على بابوية روما .

وكان أرازموس يرقب كل هذه التشنجمات الروحية التي تجتاح أوروبا في عصره ويحاول ما يمكنه لا يدخل دائرة الصراع بين المذاهب المسيحية المنشقة والكنيسة الكاثوليكية الأم .

فقد كان مشفولاً حتى تلك المرحلة بمحاولة احتواء ثورة العديد من المثقفين الأوروبيين من دعوة المذهب الانساني على الدين المسيحي في جملته ، بسبب افتائهم بفلسفات اليونان وآدابهم وفنونهم . وكان شغله الشاغل هو أن يثبت للمثقفين أن روح المسيحية لا تخل عن روح الوثنيات اليونانية والرومانية تمجیداً للحياة الدنيا واعتراضها بقيمة الانسان وحقه في المعرفة والقوة والسعادة على الارض وانها ليست مجرد اعداد للحياة الأخرى . وكان هذا هو الهيومانزم داخل الاطار المسيحي الذي كان يدعو اليه ارازموس ، مستخدماً ترسانته الضخمة من التراث الوثني وترسانته الضخمة من التراث المسيحي .

فلا وجَدَ البيت يتتصدَعُ مِنْ دَاخِلِهِ دَخْلَ المَعرَكَةِ أَمْلَا فِي أَنْ يَكُونَ رَسُولَ سَلَامٍ بَيْنَ الْمُتَحَارِبِينَ .. وقد كان موقف ارازموس موقفاً فريداً بين مفكري عصره ، فقد كان مقتنعاً بصواب دعوة الاصلاح الديني وموضوعية ثورتهم على مناسد الكنيسة الكاثوليكية وتجاوزات رجالها وجمود مفسريها بمثل ما كان مقتنعاً بضرورة الحفاظ على وحدة الكنيسة الجامعة . وكان هذا تقريراً موقفه من دعوة الهيومانزم الثائرين على الدين جملة : ليس من الضروري أن نتخلى عن العلم والمعرفة لنكون متدينين .. هكذا كان يقول للجامدين من المؤمنين . ليس من الضروري أن نتخلى عن الدين لنكون متعلمين .. هكذا كان يقول للملحدين والشكاك .

وبالمثل فقد بدأ ارازموس بمحاولة التوفيق بين لوثر والكنيسة الكاثوليكية . حاول أن يحمي لوثر من الاضطهاد وأن يتبع له فرصة عادلة لكي يشرح آراءه ، فاقتصر تشكيل لجنة تحكيم من الفقهاء المستشرقين المحايدين تستمع للطرفين وتقضى بينهما . وحاول ارازموس نفسه أولاً أن يقف موقف الحياد في هذا الصراع الفكري والروحي ، فلم ينجح إلا في اكتساب عداوة الطرفين .. خسقَتْ بين جمود الجامدين من رجال الكنيسة الكاثوليكية وبين عنف مارتن لوثر وعناده .

وَجَدَ ارازموس نفسه موضع سخط الكاثوليك والبروتستانت جميعاً . وفي ذلك الزمان الذي كانت محاكم التفتيش تحرق فيه المصلحين بتهمة الزندقة وكانت مجتمع البروتستانت تعدم الكاثوليك بتهمة العمالة لروما ، أُوشك ارازموس أن يدفع حياته ثمناً لاعتداله وبفضله للعنف والتطرف . كتب الفنان الشهير دورر في مذكراته يقول : « أى ارازموس الروتردامى : ترى أين يكون مكانك يا فارس المسيح ! أذاهب أنت لتلبس تاج الشهداء ! » .

## دفاع عن الحماقة

□ وعندما الغى دعاة الاصلاح الدينى فى سويسرا القدس وأزالوا الصور والتماثيل المقدسة في كنيسة بازل باعتبارها أوثانا ، غادر ارازموس سويسرا عام ١٥٢٩ وانتقل الى مدينة فرايبورج في الغابة السوداء في جنوب المانيا حيث عاش بقية حياته في هدوء العلماء يدرس في الجامعة . وفي فرايبورج جاءته الانباء من انجلترا في صيف ١٥٣٥ باعدام هنرى الثانى لصديقه السير توماس مور والأسقف فيشر لاعتراضهما على فصل كنيسة انجلترا عن كنيسة روما ، فغادر ارازموس الى بازل حيث أقام نحو عام حتى مات في يوليو ١٥٣٦ . وكان عطر ذكراه لا يزال يملأ أرجاء جامعة بازل فحمل تلاميذه نعشة الى كاتدرائية المدينة بتبعهم أستاذة الجامعة حيث دفنه على الشعائر الكاثوليكية . وشاركت سلطات المدينة في جنازته المهيبة قيل : ولم يتخلف استاذ ولا طالب عن هذا الوداع الأخير .

ماذا كان ارازموس يمثل في زمانه والى يومنا هذا ؟ كان ارازموس يحض أبناء العالم المسيحي على احياء التراث الوثنى القديم عند اليونان والرومان في الفنون والأداب والفلسفة والعلوم الإنسانية بعامة وكان يرى أن البحث عن الحقيقة كان غاية الحضارات والثقافات الوثنية بمثل ما كان غاية الحضارة والثقافة المسيحية ، ولذا فقد انفق كل حياته في تحقيق التراث اليوناني والروماني ونشره وتدريسه والتعليق عليه جنبا الى جنب مع ما كان يتحققه وينشره من نصوص آباء الكنيسة في اليونانية واللاتينية .

كان يرى أن الطرق الى بلوغ الحكمة متعددة ، وان عصره يمكن ان ينتفع من حكمة القدماء لو استطاع ان يهتدى الى جوهر الفكر المسيحي وجوهر الفكر الوثنى على السواء . وكان جوهر الفكر المسيحي عند ارازموس لا يؤدي الى سحق الانسان كما كان ينادي فقهاء الدين الضيقو الأفق ، وإنما يؤدي الى مجد الانسان ، هذا الذى يبهمنا في فلسفات العالم القديم والوثنيات الاولى . فليس من داع لأن يتخلى المسيحي عن مسيحيته حتى يصيب هذه الحكمة ، والمسيحي العاقل يستطيع أن يجد في دينه كل ما يجده عند اليونان والرومان من شرف الحياة الدنيا ومن كرامة الإنسان على الأرض وحثه في الحرية والسعادة وزينة الحياة .

اما اهم اعماله فهو « دليل الجندي المسيحي » الذى نشر في انتويرب عام ١٥٠٣ ، و « دفاع عن الحماقة » الذى نشر في باريس عام ١٥١١ ، و « محاورات ملوفة » الذى نشر عام ١٥١٨ ، وكلها مكتوبة في لاتينية صافية رشيقه تفيض بالدعابة والتهكم الشديد . نعم ، الدعابة والتهكم الشديد من جهل الجهل وخرف المخرفين ونطاعة الجامدين من فقهاء الدين ونفاق القساوسة والرهبان وحذقة المجدفين من عبدة الآداب الوثنية .

كان الاحتكام الى العقل عند ارازموس هو الطريق الى الدين والطريق الى حكمة الاولين على حد سواء . كذلك ترك ارازموس نحو ٣٠٠ خطاب نشر اكثراها في مجموعات اثناء حياته وكلها مكتوبة باللاتينية ، وتعتبر بحق سجلا هاما للصراعات الفكرية التي شغلت المثقفين في عصر الرئيسيانس وحركة الاصلاح الدينى .

كان ارازموس مثل كافة دعاة الهيومانزم في عصره يبحث عن الانسان ولا يكتفى بالبحث عن الله ، وكان يدعو لاكتشاف الدنيا ولا يكتفى باكتشاف الآخرة ، ومع ذلك فقد تميز ادبه بظاهرتين فريديتين في عصره : هما أنه كتب كل ما كتب باللغة العالمية في العصور الوسطى الا وهى اللغة اللاتينية بدلا من أن يكتب بأحدى اللغات القومية كالهولندية او الالمانية او الايطالية ، وأنه كان من دعاة التمسك بالكنيسة العالمية الجامعة (الكاثوليكية ) ، رافضا لمبدأ قيام الكنائس القومية المستقلة التي فتتت بها المذاهب البروتستانتية المختلفة وحدة العالم المسيحي .

بعباره اخري ، فقد كان ارازموس من القلة القليلة بين مفكري الرئيسيانس الرافضين للفكرة القومية .. وبهذه النتائج فقد وقف صديقه السير توماس مور في منتصف الطريق بين العصور الوسطى وعصر النهضة الاوربية .

أهدى ارازموس كتابه « دفاع عن الحماقة » او على الاصح « في مدح الحماقة » الى صديقه السير توماس مور بنوع من الدعابة قائلا ان اسم « مور » باللاتينية يذكره بالحماقة (مورياتي ) فكأنه في الواقع يكتب كتابا في مدح توماس مور لا في مدح الحماقة !

بهذه الدعابة يبدأ ارازموس كلامه مستخلصا أن نهجه اذن هو اصلاح اخطاء البشر وحمقاتهم بالتهكم والسخرية التي مهما كانت لاذعة لا ينبعى ان تكون جارحة . فاذا ختح الناس من اخطائهم كان هذا بداية الاصلاح :

« هناك مثل المسرفون في التدين الى درجة تدعوا الى السخرية : هؤلاء نجدهم على استعداد لاحتمال اي تعريض مهما كان قاسيا بال المسيح نفسه على الا تمي شعرا من رأس البابا او الامير ، ولا سيما اذا كان هذا النقد ينتقص من مكاسبهم . فمن انتقد حياة الناس على هذا النحو دون ان يخصص بالاسم احدا ، فهل يقال عنه انه يجرح ويهدى أم يقال عنه انه يعلم ويعظ ؟ وبناء عليه فلو قال أحد انه المقصود بهذا النقد فهو المريب الذى يفصح زلله بنفسه ويقول خذوني .

والحمامة تداعع عن نفسها بأنها رغم سوء سمعتها الوحيدة التي يضحك منها الآلهة والبشر ، فما أن تقف لتحدث في أي مجمع حتى تنفجر أسارير الناس ابتهاجا وكأنهم مجمع الآلهة في هوميروس وقد انتشت بقطر الندى ، بعد أن كانوا يجلسون عابسين وكأنهم لتوهم عائدون من استخارة ولئن يقرأ الغيب . ومواعظ العالم كله وخطب البلوغاء الملة لا تهدي العقل المضطرب بقدر ما تهديه رؤية الحمامقة ولو لحظة واحدة . المهم الا يستمع الناس لكلام الحمامقة بنفس الأذان التي يستمعون بها لكلام القسيس في الكنيسة ، ولكن بالأذان التي يستمعون بها الى المهرجين والبهلوانات والحواء .

و « الحمامقة » تقول عن نفسها أنها ربة كربات اليونان ، وهي ليست كغيرها ، ليست كالآلهة هوميروس وهسيود ، بنت جوبيرت ابى الآلهة والناس ، بل بنت بلوتو رب المال والثراء ومسكنه ليس في السماء ولكن تحت الأرض ، وهو لم يخلقها كما خلق جوبيرت الربة اثينا من رأسه ، ولكن بلوتو خلقها من معاشرة الحورية التي يسمونها « هيلا ربة الشباب » زينة الحور .

ومادمنا نتحدث عن البنين والبنات وعن الانجاح ، فهل هناك الله او انسان لا يحتاج الى « الحمامقة » لكي ينجذب ؟ . . . حتى الفلاسفة الرواقيون الذين يخلون أنفسهم في المقام التالي للآلهة ، نجد أن الواحد منهم حين يعاشر زوجته يخلع لحيته رمز وقاره وحكمته ، فان احتفظ بها أصبحت عليه كلحية التيس رمز الاخصاب ، ولكنه على كل حال ملزم بأن يتنازل عن وقاره وغضره ومبادئه الصارمة في الرزهد والعنفة ان اراد ان ينسدل ولدا . . . نعم . . . ان الحكماء أنفسهم بحاجة الى « الحمامقة » في غراش الزوجية . ثم منذ البدايةليس كل رجل بحاجة الى « الحمامقة » لكي يضع حول عنقه حبل الزوجية ؟ ثم اية امرأة في كامل عقلها تتقبل مخاطر الحمل وعنة تربية الأطفال ، فتسعى مشوقة الى حمامقة الزواج . ان فينوس نفسها ربة الحب ، تعرف ان كل جهودها تضيع سدى بغير مساعدة مني انا ،

ربة الحماقة : « فمن هذه اللعبة المضحكة ، لعبة الربيع ، ولد الفلسفة المتعلون الذين حل محلهم ذلك النوع من البشر الذى يسميه العالم الرهبان والكرادلة والقساوسة والبابوات المقدسين ، » كما يقول ارازموس في « دفاع عن الحماقة » .

الناس اذن تلتمس النصح عند ربة « الحماقة » فتنصحهم بالزواج فهو رغم حماقتها ممتع ولذيد ، وهو يدمث خشونة الرجال بمحماقة النساء . وأفلاطون نفسه لم يكن يعرف كيف يصنف المرأة : ايضعاها في فصيلة الانسان أم في فصيلة الحيوان . وكانت اليونان تقول : « القرد هو القرد ولو ليس أحمر في أحمر » . كذلك المرأة هي المرأة تحت اي قناع ثلبيس .

والمرأة يجب أن تعترف بفضل الحماقة عليها فهناك أولاً جمالها الذي يجعلها تطغى على أعمى الطغاة . أما الرجال فيدركهم مرض الحكمة فيتغاضن جبينهم ويخشوشن جلدهم ويتطول لحاظهم ويظهر عليهم الهرم . أما النساء مخدودهن دائماً ممتثلة وناعمة وأصواتهن دائماً ناعمة عليهن الشباب الدائم . ثم أنه لا عمل لهن في الحياة الا ارضاء الرجال ، والا ما معنى التفتن في الثياب والاستحمام المستمر وتصفييف الشعر والعطور وتزييج الواجه وتطريه الجلد ، كل هذا في النهاية طلباً للذلة . وهذه الحماقة نفسها هي مصدر سعادة الرجل . فمن لم تهتم بزيتها اهتمت بالطبع وهذا ايضاً مصدر سعادة الرجل .

تقول « الحماقة » دفاعاً عن نفسها : أنا أجعل الرجل يقبل عنق عشيقته رغم أنه مكسو بالنمش ، أو يقبل الكيس الدهنى النامى على أنها ، وأجعل الوالد يقسم أن ابنه الأحول هو أجمل مخلوق في الدنيا ، وأجعل عين الرضا عن كل عيب كليلة ، ومع ذلك فهذه الحماقة هي التي تقيم الود وتبعشه بين الناس وبغيرها ما امتدت صداقات ولا دامت زواجات .

وكم من طلاق — بل ما هو أفعع — كان يمكن أن يحدث يومياً لو لا أن حديث الزوجين قائم على الملق والرقة والجهل واخفاء الحقائق . ولو دق كل زوج في الاعيب زوجته الجميلة المحشمة قبل الزواج لما تم زواج ، ولو لا جهل الأزواج أو غفلتهم عن كثير من تصرفات الزوجات بعد الزواج لما أبقى الطلاق على زواج . والناس تسخر من الرجل الذي يلعق دموع زوجته ، ومع ذلك فالزوج المخدوع اسعد من الزوج الذي تنهشه الغيرة . كل هذه السعادة لا تبقى بغير الحماقة والفنلة .

لولا الحماقة لما احتملت الشعوب حكامها ولا احتمل الحكم شعوبهم  
ولما احتمل الخادم سيده ولا السيد خادمه ، ولا الطالب أستاذه ولا الأستاذ  
تلبيذه ، ولا الجندي قائده ولا القائد جنوده .. لولا الحماقة لما احتمل صديق  
صديقه ولا زوج زوجته ..

الليست هي الحماقة التي تجعل كل عطايا إمنا الطبيعة وجمالها تنتهي  
إلى فساد وزوال ؟ فما نفع الجمال ، وهو نعمة السماء الأولى ، اذا خامره  
التكلف . وما جدوى الشباب اذا كان الفريسة المحققة للشيخوخة القاسية ؟  
وما قيمة اي عمل في الحياة مادامت الانانية او حب الذات يدخل كل عمل .  
وبعد ، ليست الانانية اختى ، اخت الحماقة ؟ اليس من الحماقة ان يخصص  
كل منا حياته للأعجاب بنفسه ؟ ومع ذلك فلولا هذا الاعجاب بالنفس لما  
خطب خطيب ولا عزفت موسيقى ، ولو لا حب الاطراء لصغر الجمهور للممثل  
ليخلو عن المسرح ولا تستخف الناس شعر الشعراء وفن الفنانين بل  
ولا عرضوا عن طب الأطباء . لو لا حب النفس والاعجاب بالنفس لما أتقن  
أحد شيئا . لكي يرضى الناس عن عملنا يجب أن نرضى نحن عنه أولا .

ما أسعد كل منا بشخصه ومواهبه وخلاله : هاتوا لي رجالا يخجل  
من وجهه ، او من عقله ، او من نسبه ، او من بيته او من أسلوبه في العيشة  
او من وطنه او من أمه ، فلا الجبلى يرضى بأن يكون ايطاليا ولا الطراقي  
يررضى بأن يكون أثينا ولا الريفي يرضى بأن يكون ابن المدينة ولا البدوى  
يررضى بأن يكون حضريا . كل سعيد بذاته وصفاته والقرد في عين أمه غزال .  
ليست هذه حماقة ؟ ومن أين لنا بهذا النعيم بغير حماقة حب الذات والرضا  
عن الذات ؟ .

من المتفق عليه أن كل شهواتنا نابعة من الحماقة ، ومن كان بغير  
شهوات او مسيطرًا تماما على شهواته فهو أعقل العقلاء ، وهو الحكيم  
الأكمل الذي حدثنا عنه الحكيم الروائى سينيكا . ومثل هذا الرجل ،  
لو وجد ، لكان من طينة الآلهة لا من طينة البشر ، ولما وجد بين الناس  
من يشابهه او يشاركه صفاته او يفهمه ، بل لخاف الناس وفروا من هذا  
الرجل الفريد الذي لا يشتراك مع أحد في مشاعره ولكن مكانه الاوحد  
هو على رأس جمهورية أفلاطون او مدینته الفاضلة .. هذا الانسان  
الكامل لا مكان له بين البشر . مثل هذا الانسان الكامل لو رشح نفسه  
للانتخاب ، فائية مدينة تختاره حاكما عليها ، وأى جيش يقبله قائدا له ، وأية  
زوجة ترضى به بعلا لها ؟

مثل هذا الانسان الكامل ذى العقل البارد ، لو وجد ، سوف  
يعيش معزولا في برج عاجي ، بلا أصحاب ولا اتباع . الامر اذن بحاجة

إلى درجة من درجات الحماقة ليعيش المرء سعيداً مع زوجة تشاشه حماقته وأصدقاؤه يتحامقون معه ورؤسائهم ورؤوسهن يذوقون معه طعم الحماقة ، فلو كان جميعاً حكماء لكنه من طينة غير هذه الطينة ولكن الفخار الذي صنعنا منه خيراً من هذا الفخار .

أما هبتي الخاصة لهؤلاء الشيوخ الحكماء فهي أنني أبلغ بهم في شيخوختهم الطاعنة مبلغاً يردهم إلى طفولتهم السعيدة ، فيصيرون سعداء رغم مشيبيهم ، وصلعهم ، وتهتهتهم ، وفأفاناتهم لأنهم غدوا بلا أسنان ، وهرفهم ، لأنهم أرتدوا إلى الطفولة الثانية ، وضمور أجسادهم حتى أصبحوا جلداً على عظم ، ولا ينقصهم إلا الحلمة ليرضعنوا منها كما وصفهم أرسطوفانيس ، ومع ذلك فهم سعداء بالحياة حريصون على أن يبدوا ثباتاً في عيون الآخرين .. فتراهم يصبغون شعرهم أن بقى لهم شعر ، أما من أصحابهم الصالح فهم يلبسون الباروكة ومن فقد أسنانه نراه يلبس طقم أسنان ليخفى درده ، وترى الواحد منهم يتيم صباية ببنت شابة ولا يخجل أن يطاردها أكثر مما يطاردها شاب في سن أحفاده .

فما أكثر ما نرى أمثال هؤلاء العجائز الطاعنين في السن برجل في الدنيا ورجل في القبر يتزوجون من صبايا مماثلات الأجسام حتى لنحسب أن هذه الزيجات « موصوفة » للعجزاء — وأدعى للضحك من هذا أن نرى النساء العجائز الناحلات كالهياكل العظمية يرددون دائماً قولهن : « ما أحلى الحياة » ، ويضعن الأصباغ يومياً على وجوههن ، ولا يغيب بصرهن عن المرأة ويرقصن ويكتبن الرسائل الفرامية ويخضن في أعراض الناس .. ورغم أن سلوك العجائز موضع تفكير الناس إلا أن أصحابه سعداء به أيما سعادة بفضل ما و heißtهم من حماقة . ومع ذلك فانى أسأل : أيهما أفضل : سعادة الحمقى هذه أم أن « يشنقوا أنفسهم بحبلى غليظ كما يوصيهم المثل السائير » .

● ● ●

والحمقى هم أسعد الناس طرا . فهم أولاً لا يهابون الموت لأنهم لا يفكرون فيه . وهم ثانياً لا يعذبهم ضمير ولا ادراك لمعنى الشر ، وهم لا يخشون الجن ولا الأرواح ولا الأشباح ، وهم يعيشون بغير خوف ولا أمل في المستقبل ولا تزعجهم هموم الحياة الكثيرة ، وهم لا يعرفون التواضع أو الطموح أو الحسد أو الحب ، ولأنهم في جهل العجماءات فهم لا يعرفون الخطيئة .

هؤلاء الحمقى هم المهرجون والمفسكون والبهلوانات . ولذا نجد الملوك والأمراء يقربونهم منهم أكثر مما يقربون مستشاريهم العقلاة من رجال الدولة ، فتراهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يسمرون إلا ومعهم مفسكون ومهرجوهم .. لماذا ؟ لأن الحكماء من رجال الدولة لا يحدثون الملوك والأمراء إلا في الأمور الجادة الخطيرة المثيرة للهموم ، وهم استنادا إلى علمهم وحكمتهم لا يخشون خدش مسامع سادتهم ببعض الحقائق المرأة ، أما المفسكون والمهرجون فكل كلامهم هزل ولغو في لغو .

● ● ●

# جورданو برونو

## GIORDANO BRUNO

١٥٤٨ - ١٦٠٠



□ بعد مائة عام من احراق سافونارولا في فلورنسا سنة ١٤٩٩ . احرقت الكنيسة الكاثوليكية جورданو برونو في « ميدان الازهار » ( كامبودى فيورى ) بروما في ١٧ فبراير ١٦٠٠ .

وقد كانت التهم الموجهة الى سافونارولا تهمها واضحة ومحددة ، وهى : قلب نظام الحكم .. والتخابر مع دول أجنبية لقلب اليابوبية .. وادعاء النبوة . أما التهم التى وجهت الى جورданو برونو فلا نعرفها على وجه التحديد .. لأن محاضر محاكمته في روما ضاعت بعد نقلها الى باريس بأمر نابوليون ثم بيعت بعد سقوط نابوليون كورق دشت .. ولم يبق للمؤرخين الا محاضر محاكمته التمهيدية أمام محكمة التفتيش في البندقية .

ومع ذلك فيمكن بعد تحليل ما لدينا من وثائق ومن كتابات جورданو برونو ان نلخص التهم التى وجهت الى جورданو برونو على الوجه الآتى :

١ — الزنقة والردة والطعن في العقيدة المسيحية .

٢ — الدعوة لنظرية كوبرنيك ( ١٤٧٣ - ١٥٤٣ ) في الفلك ، وهى النظرية القائلة بان الأرض ليست مركز الكون وبيان الكواكب تدور حول محورها وحول الشمس معا ، وهو ما يتنافى مع الجغرافيا والفلك كما استخلصتها الكنيسة من الكتاب المقدس ومن أعمال أرسطو ( ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م ) وبطليموس الجغرافي ( ق ٢ للميلاد ) .. صاحب « المخطى » وكتاب « الجغرافيا » .

٣ — الاشتغال بالسحر . ويدخل في هذا الباب الدعوة للعلم للسيطرة على الطبيعة .

٤ — التواصل مع بعض ملوك الدول الأجنبية الذين يهددون الكنيسة الكاثوليكية بدعوى « الاصلاح الدينى » .

ويعض هذه التهم غامض كالكلام عن «الزنقة» و «الردة» و «الطعن في العقيدة المسيحية» . وهى تهم كانت صحيحة يومئذ باعتبار انه لم يكن للمسيحية في أوروبا الا تفسير واحد . تاريخاً وعقيدة . هو ما كانت تملكه الكنيسة الكاثوليكية في تلك الأيام . أما اليوم فنحن نرى الأبعاد التراجيدية بأكملها في مأساة جورданو برونو كما نراها في مأساة الحلاج وابن عربى والنفرى وابن الراوندى والسمهورى المقتول وعامة المتصوفة الذين دعوا لنظرية الطلول ولوحدة الوجود . ومنهم فى عالمنا من دفع حياته او حريته ثمنا لدعوته .

ولكن كل هذه البشاعات التي ارتجحتها السلطة الروحية والسلطة الدينية في العصور الوسطى كانت الثمن الذي دفعته الإنسانية في سبيل حرية الفكر والتعبير والعقيدة والبحث العلمي . وفي سبيل اقرار حق الاختلاف بين الناس .. بل وحق الخطأ وفي سبيل حل المناقضات بالحوار بدلا من القهر وسفك الدماء .

ولولا ما وجده جورданو برونو .. وکوبرنیک ( ۱۴۷۳ - ۱۵۴۳ )  
وکبلر ( ۱۵۷۱ - ۱۶۲۰ ) وجالیلیو ( ۱۵۶۴ - ۱۶۴۲ ) من عنت نحو  
۱۶۰۰ لما امکن تحقيق شيء من فتوحات العلم الحديث . ولولا انتصار أكثر  
نظرياتهم بحيث أصبحت من بدوييات العلم الحديث لظل الاوربيون ينظرون  
إلى الكتاب المقدس .. كما كانوا يفعلون .. على أنه كتاب في الفلك وفي  
الفيزياء وفي الجيولوجيا وفي التاريخ الطبيعي وفي البيولوجيا وفي الطب .  
بل وفي التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والقانون والعلوم السياسية ،  
لا يفرط في شيء من علوم الأرض أو السماء .

• • •

ولد جورданو برونو عام ١٥٤٨ في بلدة نولا بالقرب من نابولي على سفح جبل فيزوف حيث البركان الشائر الشهير .. وقد دخل دير الدومينikan عام ١٥٦٣ وهو في سن الخامسة عشرة . وهو الدير الكبير الذي دفن فيه القديس توماس الأكونيني . وبعد أن أقام جورданو برونو في الدير ثلاث عشرة سنة ، واجه المتاعب في ١٥٧٦ لاتهامه بالزنقة . فهرب من الدير وهو في الثامنة والعشرين من عمره .. وخلع مسوح الرهبـان . وذهب يطوف بلدان أوروبا : فقصد أولا إلى جنيف ولكنـه لم يأنـس إلى حـكومتها الشـيـوـقـراـطـية (الـدـيـنـيـة) وـلـمـ تـأـنـسـ إـلـيـهـ حـكـوـمـتـهاـ الشـيـوـقـراـطـيةـ التـىـ أـسـسـهـاـ المـصـلـحـ الـدـيـنـيـ كـالـفـنـ (١٥٠٩ - ١٥٦٤) . فـانتـقلـ جـورـدانـوـ بـرونـوـ إـلـىـ تـولـوزـ بـفـرـنـسـاـ حـيثـ حـاضـرـ نـحـوـ سـتـتـينـ فـيـ عـلـمـ الـفـلـكـ الـقـلـيـدـيـ القـائـمـ عـلـىـ الـأـبـراجـ

السماوية والشبيهة بمعارف النجمين . وفي أواخر ١٥٨١ انتقل جورданو برونو إلى باريس وهو في سن الثالثة والثلاثين .

وفي باريس التقى جورданو برونو محاضرات عديدة كان أهمها محاضراته الثلاثين عن صفات الله الثلاثين .. فاسترعى نظر هنري الثالث ملك فرنسا .. وفي باريس أيضاً نشر كتابين عن « فن الذاكرة » ربطاً اسمه بالاشتغال بالسحر .. وهذان هما كتاب « ظلال المثل » أو « ظلال الأفكار » الذي نشر في ١٥٨٢ .. وكتاب « أغنية كيركيه » ( اسم الحورية الساحرة في « أوديسا » هوميروس التي أعطت لبخار أوليس شرابة سحرياً جعلهم يتحولون إلى خنازير ) .

والإشارة في « ظلال الأفكار » هي لظلال « المثل » ( جمع مثل ) الأفلاطونية .. وهي النماذج العليا المجردة التي كانت موجودة في عقل الله قبل أن تتعكس ظلالها في موجودات الكون المادي .. وهي تمثل كل ما في الوجود في جوهره الحقيقي النوراني الكامل قبل أن يلقى بظلاله في العالم المادي . فما الكون المادي عند أفلاطون إلا محضر ظل للحقائق المثالية العليا الموجودة في ذهن الله . ولهذا كان من الأصوب أن نترجم عنوان كتاب جورданو برونو اللاتيني « ظلال المثل » ، أي الحقائق المجردة العليا وليس « ظلال الأفكار » .

أما الكتاب الأول فهو كتاب في « فن الذاكرة » ، ولذا يعالج دارسو جورданو برونو على أنه امتداد لتلك التقاليد والقواعد التي تركها شيشرون الخطيب وكويينتيان علم البلاغة الرومانى لتعليم فن الخطابة بتدريب الخطيب على تذكر ما ينبغي أن يقوله بحفظ سلسلة من الأسماء والألفاظ تذكره بالأفكار التي ينبغي أن يتناولها في خطابه . وقد استمرت هذه التقاليد والقواعد من العصر الرومانى عبر العصور الوسطى ، وتبناها بعض مفكري الكنيسة غالباً لتدريب الوعاظ على الوعظ .

ولكن عنوان الكتاب وموضوعه يدلان على أن المقصود ليس « فن الذاكرة » ولكن « علم الذكريات » . والذكريات هنا هي « الذكريات الأفلاطونية » . فنحن نعرف أن « المعرفة » و « الادراك العقلى » هما عند أفلاطون عملية استحضار عقل الإنسان لذكرياته الموجلة في القدم .. ذكرياته عن وجوده الأول قبل ميلاده حين كان عقل الإنسان أو روحه جزءاً من عقل الله أو روحه ، في كماله النوراني الأول ، أي قبل أن يخامره النسيان بسقوطه في ظلال المادة .

فالعودة الى الله اذن عملية تذكر للمثال او المثل التي كان عليها الانسان في كماله الأول . و « فن التذكر » الذى يحدثنا عنه جورданو برونو ليس من تذكر الالفاظ او المعانى عند الخطباء والوعاظ .. ولكن فن تذكر المثل او الحقائق الالهية العليا التى نسيها الانسان منذ عاش فى ظلال الافكار اى فى وجوده المادى . وأسلوب جورданو برونو فى هذا الكتاب يقوم على النهم الموجع بالنهاة وبأساته الخطابة والبلاغة .

وكتاب « ظلال المثل » عبارة عن محاورات بين ثلاثة اشخاص هم هرميز وفليوشيموس ولوجيفر . وهرميز هو قطب الاقطاب فى هذه المحاورات لأنه كان رسول الآلهة الى البشر كما كانت اليونان تقول — وكان كاتب الآلهة واله الكتاب . وهو المرادف عند قدماء اليونان للإله تحت او جحوثى او توت عند قدماء المصريين فى عصورهم المختلفة . فهو اذن الله الحكمة وملهم الحكماء وهو ترجمان السماء لاهل الأرض . ومن هنا فقد اتخذه الهرمازه ، اى اتباع ديانة هرميز ، نبيا لهم وينبوا للحكمة فى كل تلك المتون المقدسة التى دونها الاولون فى القرون القليلة السابقة على ميلاد المسيح وعرفت فى تاريخ الاديان بمتون « هرميز المثل العظيمات » وكانت أقرب شىء فى الوثنيات الاولى لدعوة التوحيد .

كانت الهرمية العبادة الخاصة لفلسفه والمتفلسفين والنساك وتلك الجماعات التى عرفت فى العالم القديم باسم « الغنوصيين » او « العارفين بالله » وصحتها « النوسيون » ، ومنها اشتقت كلمة « النسك » و « النساك » . وقد ازدهرت هذه الديانة بتأثير تداخل الثقافة اليونانية والثقافة المصرية القديمة فى مدرسة الاسكندرية ، وادت الى ظهور الافلاطونية الحديثة التى اسسها افلاطون ( ٢٠٥ - ٢٧٠ ) وتلميذه بورفريوس ( ٢٣٤ - ٢٦٥ ) فى جامعة الاسكندرية وحاولا فيها التوفيق بين مثالية افلاطون والمثالية المسيحية .

وشخصية لوجيفر ( اى حامل المنطق او صاحب المنطق ) ، يعرف كل ما قاله الجهابذة عن « فن التذكر » ويستشهد بما قاله نطس الاطباء عن أنواع الاطعمة وأساليب الصيام والافطر التى تتعش الذكرة . اما هرميز فيشرح لصاحبيه أن قوة الذكرة لا تكون الا بدراسة الابراج السماوية ومدارات الانماك ، وعنه أن « شمس المعرفة » هي التى تسحق كائنات الظلم وتبزز كائنات الضياء .

والمعنى الباطنى فى كلام جورданو برونو اننا لا نقترب من ذكر الله بالصوم كما يقول الاطباء ، ولا نحيى ذكريات الكمال الاول فىنا باكل الزيت

او مقاطعة هذا النوع من الطعام او ذاك ، ولكننا نقترب من ذكر الله ونحيي ذكريات الكمال الأول فيما بالمعference ودراسة الكون وحركة الأفلاك ، ولا سيما الشمس .

وبالفعل ، عندما انتقل جورданو برونو الى إنجلترا كتب كثيرا عن نظريات كوبرنيك التي طرحتها في كتابه : « في دوران الأفلاك السماوية » الذي صدر في ١٥٤٣ شهورا قليلا قبل وفاته ، ولم تنتبه له الكنيسة وقت ظهوره لأنه كان كتابا مليئا بالمعادلات الرياضية التي لا يفهمها الا الرياضيون . ولكن حين شرح جورданو برونو نظرية كوبرنيك في الفلك تنبهت الكنيسة الى تعارضها مع ما جاء عن خلق الكون في الكتاب المقدس ، ومع اجتهادات القدماء ورجال الدين في علم الفلك فحرمت تلك النظريات وأخذت تطارد كل من يروج لها . وهذه النظريات لم تخرج عن قول كوبرنيك ان الشمس لا تدور حول الأرض وإن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، وإن الأرض ليست ثابتة ولكنها تدور حول محورها ، وإن ما يصدق على الأرض يصدق على بقية الكواكب السيارة ، وإن الأرض ليست في مركز الكون بل في ركن مهم من أركانه .

ولكن مشكلة جورданو برونو هي أنه خلط دعوته للنظريات العلمية في الفلك بتعاليم السحر التي أخذها عن ديانة الهرامزة وفلسفتهم ، وذهب يدعو لها باعتبار أن كل ما في عالم الظلال أو العالم المادي هو مجرد صورة باهتة لعالم المثل الكامل في الكون أو في السماء .

وقد عرفت أوروبا ديانة هرميز وفلسفته « هرميز المثل العظيمات » منذ نحو ١٤٦٠ حين وصل الى فلورنسا من مقدونيا راهب كان يعمل مع عديد من أمثاله في خدمة البنكي كوسينيو دي مدیتشی في جمع المخطوطات اليونانية واللاتينية بعد استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية ، وصل حاملا نسخة مما يسمى « متون الهرامزة » او « النصوص الهرمزية ». وكانت النسخة ناقصة لأنها كانت تشتمل على ٤١ من ١٥ نصا من المحاورات فلم يكن ينقصها إلا نص واحد هو النص الأخير .

وكان المثقفون الأوروبيون يعرفون بوجود نصوص « هرميز المثل العظيمات » من كتابات فقهاء المسيحية الأولين ، ولا سيما من كتابات القديس كلمونت السكندرى . . . بابا الاسكندرية من ٨٨ الى ٩٧ ميلادية ، الذي ذكر في وصف مواكب الكهنة المصريين في اواخر ایام مصر الفرعونية الوثنية ان « المنشد » على رأس الموكب كان يحمل كتابين من الموسيقى والمزامير او التراويل من تأليف هرميز ، وأن « المترجم » كان يحمل اربعة كتب من وحي

هرمیز او تأیفه عن موضوع النجوم البازغة والغاربة ووقت المواليد وعلاقاتها بالسعادة والنحس . وقد ذكر كلمات السکندری في هذا الوصف ان هناك ٤٢ كتابا من وحي هرمیز المثلث العظمات او من تأیفه .. منها ٣٦ كتابا تشتمل على كل حکمة المصريين ، أما الستة الباقيه فھي في الطب . وكان المثقفون في عصر النھضة يعتقدون أن من بين بين صحف هرمیز كتاب « اسکولیب » او « اسکولیب » الشهير بين النصوص الھرمیزية .

كذلك عرف المثقفون الأوربيون بأمر ديانة هرمیز من كتابات لاكتانس ( ٢٥٠ - ٣٢٥ م ) ، وهو من آباء الكنيسة ودعاته ، ولا سيما من كتابه « المدونة » ، ومن كتابات القديس اوغسطين ( ٣٥٤ - ٤٣٠ م ) ، ولاسيما من كتابه « مدينة الله » . وفي جميع الأحوال كان هؤلاء الفقهاء يصفون هرمیز بأنه حکيم عظيم « أعطى المصريين آدابهم وقوانينهم » في غابر الزمان كما يقول لاكتانس ، وأن له وجودا حقيقيا وأنه تحدث عن الله « الأوحد » ، وهذا يضعونه في موضع النبي او الرسول كما نقول كما نقول نحن ، رغم أننا نعلم الآن من تاريخ الأديان أن هرمیز هذا لم يكن الا الاسم اليوناني للله تحت أو تحت الله الحکمة عند قدماء المصريين .. ولا كتانس يصفه في مقاله عن « الغضب الالهي » بأنه سابق على أفلاطون وفيثاغورس . وهو يترجم اسم كتاب هرمیز المسما باليونانية « اسکولیب » بعبارة « الكلمة الكاملة » في اللاتينية . وبينما نجد اوغسطين يمتدح هرمیز ويستشهد به على صحة الدين المسيحي ، نجد أن اوغسطين يندد به على أنه رمز لوثنية المصريين واشتغالهم بالسحر وكلفهم بالخرافات .

كانت مخطوطات أعمال أفلاطون في أصلها اليوناني قد جمعت في فلورنسا أيام كوسيمو دي مدیتشی ، وكان المتفق أن يتفرغ الفيلسوف فیتشینو لترجمتها إلى اللاتينية ، ولكن ما أن وصلت نصوص « هرمیز المثلث العظمات » إلى فلورنسا نحو عام ١٤٦٠ حتى طلب كوسيمو دي مدیتشی من طبيبه الفيلسوف فیتشینو أن يؤجل ترجمتها وأن يتفرغ لترجمة نصوص هرمیز بدلا منها ثم يتوجه إلى ترجمة أفلاطون بعد أن يفرغ منها ، وقد كان .

حکمة المصريين قبل حکمة أفلاطون : هكذا كان الأوربيون في عصر النھضة يفكرون في تلك الأيام .. ولم يكن لديهم من « نصوص هرمیز » إلا ترجمة لاتينية قديمة لسفر « اسکولیب » ، فأتم فیتشینو ترجمة بقية الاسفار في بضعة شهور .. وفي المقدمة ذكر أن هرمیز كان معاصرًا لموسى وأنه أسس مدينة هرموبوليس ، أي مدينة هرمیز كما يسميها اليونان وهذه هي تونا الجبل والأشمونيين . وبهذا نقترب من مدينة اختيارتون التي بناتها

اخناتون لتكون عاصمة لملكه ولتكون صورة من الجنة على الأرض ، وقد كانت الأئمدونين في الدولة الحديثة مركز عبادة الإله تحوت ( جحوتى ) أو تحت ( توت ) كبير « الثامون » أو الآلهة الثمانية التي كانت تحكم مصر غالباً منذ أن اكتشفت مصر الإله الواحد أيام أخناتون ( ١٣٧٢ - ١٣٥٤ ) . وكانت نموذجاً للمدينة الفاضلة أو لجنة عدن ، وكان اسمها في النصوص الهرمزية « أدوكتين » وهي مدينة « الأئمدونين » .

وقد سمي فيتشيني ترجمته للنصوص الهرمزية باسم « بيماندر » ، وشاع أمرها فكانت هناك منها نسخ وفيرة ، وطبعت عام ١٤٧١ لأول مرة وصدرت منها ١٦ طبعة حتى نهاية القرن السادس عشر .. كذلك ترجمت إلى الإيطالية ونشرت في ١٥٤٨ . وقد دل شيوخها على اهتمام المثقفين بها .

وفي كتاب « ظلال الأفكار » أو « ظلال المثل » يقول برونو على لسان فيليوسيوس أو فيلوتيو أو تيفيلي ( أي محب الله ) إن معلمه هو هرميز المثل العظيم ، وإن هرميز هو الذي سلمه كتاب « ظلال المثل » ، فهو من صحف هرميز ، وموضوعه هو السحر الشمسي ، ليس سحر الشمس الظاهرة للعين ، فديانة قدماء المصريين هي كما يقول ديانة العقل ونور الفكر .. وبحسب ما يقول القديس أوغسطين ان المسيحيين هم الذين صادروا هذه الديانة وحرمواها بموجب القانون ، فكانت هذه هي الضربة القاضية لحضارة مصر القديمة الوثنية .

وجوهر كتاب « ظلال المثل » هو أن كل ما على الأرض ظلال أما حقائق هذه الظلال فهي المثل الكائنة في السماء في العقل الإلهي .. وعملية « المعرفة » ليست إلا عملية « تذكر » لهذه المثل . وما على الإنسان لكي يبلغ الحكمة إلا أن يستوعب صورة الكون الأعلى في عقله باستيعاب الأبراج السماوية ومنازل القمر وكل ما كان في النجوم والكواكب متحكماً في حياة الإنسان ، وهذا ما أدخل جورданو برونو في عالم السحر .

اما الكتاب الثاني الذي صدر في باريس في نفس العام ، وهو « نشيد الساحرة كيركيه » ( ١٥٨٢ ) ، فهو عبارة عن نشيد تغنيه هذه الحورية كتعويذة للشمس ، ثم تعقبها أغاني أخرى كالتعاويذ موجهة إلى الكواكب السيارة : إلى القمر وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد .. والقصد من هذه التعاويذ هو كالعادة اقتراب « المثل » من عقل الإنسان حتى يدركها أو يتذكرها ويعيش فيها .

ويبدو أن جورданو برونو كان يعارض بكتابه « نشيد كيركيه » عرضاً موسيقياً راقصاً رأه عام ١٥٨١ في البلاط الفرنسي أو سمع به أو قرأ

نصه المنشور في ١٥٨٢ ، وهو يدور حول تعاويذ الساحرة كيركيه التي حولت بالسحر الاسود البشر الى قطيع من الخنازير فقاموا بالذبح الدينية وبحرب الأديان التي نشبت بين الكاثوليك والبروتستانت حتى وضع هنري الثالث ملك فرنسا حدا لها بقسوة السحر الأبيض . وبالمثل فان أناشيد كيركيه في جورданو برونو كانت « أسرارا بربيرية » أطلقت الشر من عقاله وجعلت مخلوقات الضياء تقر أمام مخلوقات الظلام .. ولكن كيركيه لا تثبت أن توجيه بشيدها الى الشمس وهي تحرق البخور الزكية وتقاوه في صلاتها على اختفاء « أستريا » ، رمز العدالة في العصر الذهبي ، وهنا تتجلى قسوة السحر الأبيض المتمثل في ضياء الشمس وتنجلى الظلمة ويفنى ديك الصباح . وقد فهم يومئذ أن الشمس هو ملك فرنسا وقد كفأه الملك بتعيينه استاذًا في الجامعة .

والمفهوم في رمزيه جورданو برونو أن اشراق الصباح يمثل اشراق الاصلاح الديني وانقشع ظلام عصور التتعصب والجمود . ولكن مشكلة جورданو برونو هي أنه كان يلennis الاصلاح الديني من خارج اطار العقيدة المسيحية السائدة في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت .. كان يدعو لاحياء ديانة مصر القديمة .

• • •

## أكاديمى بلا أكاديمية

□ غادر جورданو برونو فرنسا وقصد إلى إنجلترا حاملا خطاب توصية من هنري الثالث ملك فرنسا إلى ميشيل دي كاستلنو دي موسيسيير سفير فرنسا في إنجلترا الذي استضاف برونو في داره طيلة إقامته في إنجلترا ، وهو أمر ثابت تاريخيا ، وثبت كذلك أن سفير فرنسا في إنجلترا تكفل أيضا بحماية برونو من الشعب الذي شارب بسبب ما نشره من كتب هناك هيجت عليه الخواطر وبسبب مسلكه الذي أثار عليه حفيظة الكثرين .

وقد أتيح لجورданو برونو أثناء إقامته في إنجلترا أن ينشر أفكاراً لو نشرها كاتب إنجليزي في عصر إليزابيث لوحكم أو أودع السجن أو صودرت كتاباته ، كما حدث للشاعر المسرحي الكبير كريستوفر مارلو ( ١٥٦٤ - ١٥٩٣ ) وللشاعر المسرحي الأعظم وليم شكسبير ( ١٥٦٤ - ١٦١٦ ) ، فقد كانت الرقابة على المسرح والأدب والفنون محكمة في عصر إليزابيث .

ومن هنا يفترض مترجمو سيرة جورданو برونو أنه كان يتمتع بنوع من الحصانة التي جاءته من ملك فرنسا . ولم تكن أفكار برونو غريبة على الإنجليز حتى قبل وصوله إلى إنجلترا ، فقد كتب هنري كوبهام ، سفير إنجلترا في فرنسا إلى فرانسيس والسينجهام ، رجل البلاط اليقظ المقرب من إليزابيث ، منها أيامه إلى قرب وصول « الدكتور جورданو برونو النولاني » ، استاذ الفلسفة الذي ينوي المجيء إلى إنجلترا ، وهو رجل لا يستطيع أن أذكي عقيدته الدينية » . ويلاحظ هنا أن السفير لا يشير إلى فلسفة جورданو برونو ولكن يشير إلى « عقيدته الدينية » .

وبدأ جورданو برونو دعوته الفكرية في إنجلترا بأصدار كتاب باللاتينية عام ١٥٨٣ يشتمل على ثلاثة أجزاء : جزء هو « فن الذاكرة » الذي سبق نشره في باريس ضمن « نشيد الساحرة كيركيه » ، وجزء اسمه « تفسير الاختام الثلاثين » ( باللاتينية ) ، وجزء اسمه « خاتم الاختام » ( باللاتينية ) .

وفي ١٥٨٣ زار إنجلترا أمير بولندي يدعى البرت الأسكوني ، ويناء على توجيه إليزابيث أعدد لاستقباله برنامج حافل من الولائم والمحاضرات في

جامعة اكسفورد ، وكذلك من العروض المسرحية والشعرية والفنائية ، وكان في بعثة الشرف المرافقة لهذا الأمير بأمر الملكة الكاتب الكبير السير فيليب سيدنى . وقد شارك جورданو برونو في المناظرات الفلسفية التي عقدت في اكسفورد لهذه المناسبة .

ومن الأدب الانجليزى في عصر البیزابیث نستطيع أن نستخلص أن جامعة اكسفورد لم تكن سعيدة بآراء جورданو برونو ولا بواقعته وغطرسته في التعامل مع الأساتذة ، ومن كتاب صدر في ١٦٠٤ للأسقف جورج أبوت الذى أصبح فيما بعد رئيس أساقفة كانتربرى ، نعلم أن برونو جاء اكسفورد في حاشية الأمير الاسکو في ١٥٨٣ ، وأن هذا « الحاوی الایطالی » قام بطرح أفكار عديدة من بينها دفاعه عن نظرية كوبرنیك « القائلة بأن الأرض تدور وأن السماء ثابتة » ، بينما في الواقع الأمر أن رأسه هو الذى يدور وأن مخه هو غير الثابت » ، وأن أحد الأساتذة اكتشف أن محاضرته الأولى والثانية منقولتان حرفيًا تقريبًا من كتاب الفیلسوف الایطالی فیتشینو « مقارنة الحياة السماوية » .

والغريب أن هذا التهم الموجع جاء في معرض مهاجمة الأسقف للكاثوليك والبابوية من وجهة نظر بروتستانية ، أما انطباع جوردانو برونو عن الحياة الأكاديمية في اكسفورد فهو أن أساتذتها كانوا مجموعة من النحاة المتذللين في اليونانية واللاتينية ، وقد سجل هذا الرأى في كتابه الذى أصدره في لندن عام ١٥٨٤ « عشاء أريياء الرماد » ، وهو عبارة عن محاورات باللغة الایطالية مهداة إلى سفير فرنسا في لندن . وقد عاد برونو إلى هجاء أساتذة اكسفورد في كتابه التالي « في العلة والبدا والواحد » ( ١٥٨٤ ) وهو أيضاً مهدى إلى السفير ، ويبدو أن الشفب الفكرى الذى حدث بين أساتذة اكسفورد وجوردانو برونو كانت له أصداء واسعة في الحياة الفكرية والأدبية الانجليزية في عصر البیزابیث ، لأننا نجد أصداء له في مسرحية كريستوفر مارلو « الدكتور غالوست » وفي مسرحية روبرت جرين « الراهب بيكون والراهب بنجي » ( ١٥٨٧ ) ، وربما في « خاتم سعى العشاق » لشكسبير . وكان برونو يسمى نفسه « أكاديمى بلا أكاديمية » .

وفي السنة نفسها ( ١٥٨٤ ) أصدر جوردانو برونو محاوراته الایطالية المسماة « الكون اللانهائي » ومحاوراته الایطالية المسماة « طرد الوحش المنتصر » ( قيل إنه يقصد بالوحش بابوية روما وبداية الاصلاح الدينى ) ، وفي هذا الكتاب دعماً لاحياء ديانة قدماء المصريين في مرحلتها الهرمزية القائمة على وحدة الوجود وعلى نظرية الحلول ، والكتاب مهدى إلى السير فيليب سيدنى . وفي ١٥٨٥ أصدر جورданو برونو كتابه « الجنون البطولى » ، وهو مجموعة قصائد في الحب الصوف ، و « سحر براق

الشعر » ( ١٥٨٥ ) ، وقد طبع على هذا أنه صدر في باريس والحقيقة أنه صدر في لندن .

وفي أكتوبر ١٥٨٥ استدعى السفير موفيسير إلى بلاده فعاد من إنجلترا إلى فرنسا ومعه جورданو برونو في حاشيته . . وفي أثناء عبور المانش هاجم القرصان السفينية التي كانت تحملها وسلبوها . . وعند وصولهما إلى باريس كان الجو ملبداً ينذر بالحرب الدينية . . فقد عبأ الدوق دي جيز قواته بمساعدة الأسبان لغرض الهيمنة الكاثوليكية في فرنسا وسحق الهيجونوت ، أي استئصال البروتستانتية ، مستعيناً بالحلف الكاثوليكي ( المقدس ) بتوجيهه من البابا ، الذي كان يناصر أسبانيا في تسابقها الاستعماري مع إنجلترا للسيطرة على الدنيا الجديدة ( الأمريكتين ) .

خلال اقع أن أهم أهداف الصراعات الدينية في أوروبا كان التسابق الاستعماري للسيطرة على الدنيا الجديدة ونهب ثرواتها بين دول جنوب أوروبا بقيادة أسبانيا ودول شمال أوروبا بقيادة إنجلترا منذ أن اكتشف كولومبوس الأمريكتين في ١٤٩٢ — وهذا الصراع الاقتصادي يفسر ضراوة الكاثوليك في البلاد الكاثوليكية في اضطهاد البروتستانت وضراوة البروتستانت في البلاد البروتستانتية في اضطهاد الكاثوليك . فالتهمة المعلنة كانت دائماً الزندقة أو الهرطقة الدينية ، ولكن التهمة الحقيقة كانت التعاون أو التعاطف مع أعداء الوطن السياسيين والاقتصاديين .

ومنذ أن ترك برونو إنجلترا لم يكتب شيئاً بالإيطالية وإنما كانت كل كتبه باللاتينية ، وبعد عودة برونو إلى باريس طبع له كتابه « تصوير الفيزيقا لارسطو » ( ١٥٨٦ ) ، ومحاورتان عن « فابريتييو موردانتي » ( ١٥٨٦ ) ، ومحاورتان آخريان إحداهما بعنوان « الأبله منتصراً » والثانية بعنوان « تفسير الأحلام » ( ١٥٨٦ ) .

وقد كانت لفابريتييو موردانتي قصة طريفة مع جورданو برونو . فقد كان موردانتي مهندساً رياضياً إيطالياً بارعاً يقيم في باريس ، وقد اخترع بوصلة تحمس لها برونو حماساً شديداً ، وكان يصف مخترعها بأنه « الله بين علماء الهندسة » . ولما كان موردانتي يجهل اللغة اللاتينية ، فقد أعاده برونو بأن شرح اختراعه في كتاب باللاتينية نيابة عنه . وبالفعل كتب برونو أربع محاورات عن بوصلة موردانتي ، ولكنه انتهز هذه المناسبة ليقول أن موردانتي لم يكن يدرك حقيقة أبعاد اختراعه العظيم وإن الفضل يعود إلى برونو نفسه لأنه كشف عن هذه الأبعاد .

وكان هذا تكرارا لما سبق ان فعله جورданو برونو حين كان في إنجلترا . فهو في كتابه « عشاء أربيعاء الرماد » قد تصدى لشرح نظرية كوبيرنيك في دوران الأرض والجامعة الشمسيّة حول محورها وحول الشمس ، ولكن شخصيته المقدّة وامتناعه بنفسه جعله يقول أن كوبيرنيك لم يكن الا عبقريا عالما بالرياضيات ، ولذا فانه اكتشف اكتشافا عبقريا ولكنه لم يدرك معناه تماما . أما هو – جورданو برونو – فقد اكتشف بهذا الاكتشاف سر الأسرار ، وهو وحدة الله والكون وتجلی الله الشامل في الطبيعة ، وهو ما خفي على فقهاء اكسفورد المتحذلقين الذين لم يدرکوا أن ديانة مصر القديمة قد وعث كل هذه الأسرار الالهية والطبيعية .

كان طبيعياً اذن أن يغضب موردانتي لما كتبه عنه برونو من أنه اخترع شيئاً عظيماً لم يدرك أهميته وبدأ يقاتل برونو عن طريق الدين ، فانضم إلى حزب الدوق دي جيز قائد التيار الكاثوليكي المتعصب في فرنسا وعدو هنري الثالث وكل دعامة الاصلاح الديني . وحين مساء مركز هنري الثالث أمام الدوق دي جيز الذي كان يزحف على باريس وأنصاره المسلحون في باريس في كل مكان ، أصبح جورданو برونو بلا حماية وتخلّى عنه الملك في مصالحاته المتقطعة مع الحلف الكاثوليكي ، فترك برونو فرنسا وذهب إلى ألمانيا في ١٥٨٦ .

وكان آخر ما فعله جورданو برونو في باريس انه نشر في ١٥٨٦ كتابا صغيرا اسمه « مائة وعشرون وصية للرد على المشائين » ( باللاتينية ) باسم تلميذه يدعى جان هنريkan ، والكتاب كله هدم لفلسفه الارسطاطاليسيّة ، وهو مهدى إلى هنري الثالث ملك فرنسا . ثم نظم برونو مناظرة لمناقشة هذا الكتاب ، أو على الأصح المحاضرتين اللتين القاهما هنريkan بدلاً من برونو في كلية كامبريه يومي ٢٩ ، ٢٨ من مايو ١٥٨٦ ، بينما جلس برونو نفسه بجوار باب القاعة يرقب أثر المحاضرتين في السامعين ( والمشاعون هم تلامذة أرسطو ، لأن أرسطو كان يعلم وهو يمشي ) .

ولم يكن في المحاضرتين جديد : كانت فكرتهما تقوم على نظرية تشابه العالم المادي مع الكهف الأفلاطوني . نحن نعيش سجناء في سجن مظلم ومن هذا السجن لا نرى الا نجوم السماء على بعد بعيد . أما الآن فقد أطلق سراحنا بعد ثورة كوبيرنيك في علم الفلك باكتشاف دوران الكواكب في الجامعة الشمسيّة ، فنحن نعرف الآن أنه ليست هناك الا سماء أثيرية واحدة تتحرك فيها كل الأجرام السماوية المتأججة النيران ، وهذا ما يعلن لنا عن عظمة الله وجلاله . وهذا يدفعنا إلى أن نتأمل لانهائيّة

العلة الأولى ( الله ) وراء هذا المعلول اللانهائي ( الكون ) . وهو يجعلنا نرى أن الذات الإلهية ليست بعيدة عنا ولكن فيينا لأن مركزها في كل مكان ، في عالمنا كما هي في العالم الآخر . والكون اللانهائي تصور أقرب إلى عظمة الله من الكون المحدود ( كان أرسطو يعلم أن الكون محدود بالسموات السبع حيث الكواكب السيارة ومن بعدها الخلاء التام ) .

وفي نهاية الكلام وقف برونو ليسائل أن كان هناك من يعقب . فبرز له محام يدعى رودولف كاليريوس ودافع عن أرسطو وندد بجورданو برونو في قسوة باللغة . وأراد برونو الانصراف ولكن الطلبة أحاطوا به وأصرروا على الاستماع لدفاعه . فوعدهم برونو بالحضور في اليوم التالي ، ولكنه لم يفعل ، بل اختفى نهائياً من بازيس بعد شهور .

وانطلق برونو إلى ويتبرج في المانيا حيث أقام سنتين بين ١٥٨٦ و ١٥٨٨ — أستاذًا في الجامعة التي تعلم فيها مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية . ويبدو من غزاره انتاجه في هذه الفترة أنه كان مستقراً ، وعلى علاقات طيبة مع بيئته الجديدة ، ولكن يبدو أيضاً أن أكثر مؤلفات هذه الفترة كان من مذكرات محاضراته . ومن هذه المؤلفات كتاب عن « فلسفة ريموند لوبي » ، وكتاب عن « تقدم المنطق » ، وكتاب عن « كتاب الفيزيقا لارسطو » ، وهذه طبعت في أعمال جورданو برونو باللاتينية . كذلك هناك كتاب عن « صناعة الخطابة » طبع في ١٦١٢ بعد اعدام برونو . وهناك كتابه الهام عن الكائن الأعظم : « اللا محدود واللامحدود » ، وقد نشر في المانيا عام ١٥٩١ ، كما أن هناك كتابه « في السحر » وكتابه « حلقات السلسلة » ، وهما من مؤلفات ١٥٩٠ — ١٥٩١ ، ولكنهما لم ينشرا إلا في أواخر القرن التاسع عشر .

ومن مؤلفات تلك الفترة كتاب « التمايل الثلاثون » الذي أكمل به شرحه لديانة الهرامة أو العارفين بالله أو الغنوسيين .. فهو قد بدأ « بالظلال الثلاثين » في كتابه « ظلال المثل » أيام باريس الأولى ، ثم كتب وهو في إنجلترا « الاختام الثلاثون » ، وكتب في المانيا « الحلقات الثلاثون » و « التمايل الثلاثون » ، كل ذلك لتوضيح تجلی الذات الإلهية في كل كائنات الوجود .

ثم تغيرت الأحوال في جامعة ويتبرج ، فيبعد أن كان يسيطر عليها أساتذة مشايرون للمصلح الدينى مارتن لوثر ، سيطر عليها أساتذة مشايرون للمصلح الدينى كالفن ، ومن كان جورданو برونو يرميهم في باريس بالزنقة أو الهرطقة . وهكذا أدرك برونو أنه بلغ نهاية المطاف في جامعة ويتبرج . مالقى في الأساتذة « خطبة الوداع » وسافر إلى براج في ١٥٨٨ حيث أقام

نحو ستة شهور . وكان الامبراطور رودولف الثاني يجمع في بلاطه الفلكيين والنجميين والمشتغلين بالكمياء والسيمياء ويسط عليهم رعايته لি�ساعدوه على العثور على حجر الفلسفة . فوضع جورданو برونو مؤلفاً بعنوان « الرد على الرياضيين » وأهداه للأمبراطور ، وهو كتاب لم يطبع إلا في ١٨٨٩ بين أعمال برونو اللاتينية .

ومن المصادرات الغريبة أن فابريتييو موردانى ، مخترع البوصلة في باريس ، كان يشغل وظيفة « الفلكي الامبراطوري » في بلاط رودولف الثاني وقت أن كان جورданو برونو في براج . فليس مصادفة أذن أن الامبراطور منح برونو مكافأة على كتابه ولكنه لم يعينه في منصب ما .

وبعد ذلك انتقل جورданو برونو إلى هيلمشتاد حيث كانت الجامعة فيها منشأة حديثاً . وفيها ألقى « خطبة العزاء » بمناسبة وفاة منشئها يوليوس دوق برانسويج الذي كان حاكماً بروتنستانيا ، فامتدحه مدحًا أخذته عليه فيما بعد محكمة التفتيش التي حاكمته في روما وأدانته ، مثلاً أخذت عليه امتداحه لليزابيث ملكة إنجلترا البروتستانتية بعبارات مثل « اليزابيث الإلهية » ، ومثل تمجيده لهنري الثالث ملك فرنسا المتعاطف مع البروتستان ، ولدوق نافار البروتستانى الذي أصبح فيما بعد هنري الرابع ملك فرنسا ( ١٥٩٣ - ١٦١٠ ) . وقد كان هنري الثالث وهنري الرابع معاديين للحلف الكاثوليكي المقدس الذي كان يعاون إسبانيا في صراعها الضارى مع إنجلترا للسيطرة على البحار والمحيطات والعالم الجديد والقديم .

لقد كانت تهمة العمالة للدول البروتستانتية في تلك الأيام أشبه شيء في العالم الكاثوليكي بتهمة « الخيانة الوطنية » في العصر الحديث ، تهمة تجر على صاحبها عقوبة الاعدام . أما طريقة الاعدام ، فبسيف الجلاد أو بالشنق أو بالحرق أو بالمصللة الخ . فهذه كانت مسألة تفصيلية يحددها اختلاف العصور .

وانطلق جورданو برونو نحو منتصف ١٥٩٠ إلى فرانكونيا حيث طبع بعض الأشعار اللاتينية . ثم قضى شهوراً قليلة في سويسرا ، ثم عاد إلى فرانكونيا . وفي سويسرا كتب برونو كتاباً اسمه « في تركيب الخيال والاشارة والأفكار » ونشره في فرانكونيا عام ١٥٩١ . والارجح أن هذه هي الفترة التي كتب فيها برونو كتابه « في السحر » وكتابه عن « حلقات السلسلة » .

ثم عاد جورданو برونو إلى إيطاليا في أغسطس ١٥٩١ ليواجه سنوات

مديدة من السجن في البندقية ثم محكمة التفتيش والاعدام حرقا في روما  
عام ١٦٠٠ .

ولا أحد يعرف بالضبط كيف التي جورданو برونو بيديه إلى التهلكة بهذه البساطة وكأنه رجل خلا تماما من كل احساس بالخطر . لعله كان يتوهם وهو حول الأربعين من عمره أن موعد رسالته قد حان وأنه عائد إلى موطنه للتبشير بدينه الجديد . لقد كان طوال طوافه بفرنسا وإنجلترا والمانيا يحلم بتأسيس دين عالى يزيل حزارات التعصب بين البشر ويضع حدا للمذايق والحرروب الدينية ، وكان هذا الدين العالى عنده هو أحياء الديانة المصرية القديمة في مرحلة عناقها مع الفيثاغورية والفلاطونية والأفلاطونية الحديثة ، وهى ديانة « هرميز المثلث العظمات » ، ديانة ( العارفين بالله ) أو المتصوفة من الغنوسيين المؤمنين بحلول الله في الكون وبوحدة الوجود .

قيل بل كانت له مهمة سياسية موالية لفرنسا بعد أن جلس على عرشهما هنرى الرابع البروتستانتى عام ١٥٨٩ وهزم أنصار الحلف الكاثوليكى عام ١٥٩٠ وتأهب لاقتحام باريس .

أيا كان الأمر فالذى حدث هو الآتى :

كان هناك وراق ( كتبى ) في البندقية اسمه تشيوتو يعرف جورданو برونو منذ التقى به في سوق الكتاب في مدينة فرانكفورت . وكان يتربدد على هذا الوراق زبون اسمه زوان موتشننجو ، كان ينتمى لأسرة نبيلة عريقة في البندقية ، وكان يشتري بعض كتب برونو من هذا الوراق . وأعرب موتشننجو عن رغبته في استضافة جورданو برونو ليتعلم منه « أسرار الذاكرة » . وحمل الوراق هذه الدعوة إلى برونو في فرانكفورت فقبلها ، وبالفعل وصل إلى البندقية ونزل ضيفا على موتشننجو . ولكن برونو لم ينزل ضيفا على موتشننجو الا بعد شهور من عودته إلى إيطاليا ، وقد أقام ثلاثة شهور في بادوا قبل انتقاله إلى البندقية في مارس ١٥٩٢ . وحين انتقل إلى البندقية عاش في مسكن مستقل مفتر ، وكان يتربدد على الوراق وعلى المنتديات العلمية قبل انتقاله إلى دار موتشننجو . وكل هذا يثبت ان دافع جورданو برونو إلى العودة إلى إيطاليا لم يكن مجرد الاستجابة للدعوة التي تلقاها من موتشننجو .

كانت دعوة موتشننجو هي الفخ الذى نصب لجورданو برونو . فقد كان موتشننجو يكتب التقارير بانتظام لسلطات التفتيش في البندقية بكل

ما يسمعه من جورданو برونو أثناء اقامته في داره نحو شهرین . وكان برونو يعد كتابا عن «الفنون الحرة السبعة» بنشاط محموم بغية طبعه في فرانكفورت واهدائه الى البابا كليمنت الثامن عسى ان يكون بداية طيبة لاسترضاء البابا . ويبدو ان برونو قد بدأ يشتبه في نواياه مضيئه فأعاد العدة للسفر الى فرانكفورت ، ولكن موتشينجو منعه بالقوة من مغادرة داره بأن حبسه في احدى غرف الدار ، ومنها نقل الى سجن محكمة التفتيش في البندقية في ٢٦ مايو ١٥٩٢ . وبقي في السجن ثماني سنوات حتى اعدامه .

وبعد ان فرغت محكمة التفتيش في البندقية من استجواب جورданو برونو تراجع عن كل ما كان يدعو اليه وأعلن توبته وطلب الرحمة من المحكمة . وبموجب القانون كان لابد من عرض قضيته على محكمة التفتيش في روما حيث مركز البابوية .

وطالت المحاكمة . وفي ١٥٩٩ لخص قس جزویتی مشهور يدعى روبرتو بيلارمين نقاط الزندقة في كتابات جورданو برونو في ثمانى قضایا ، وطلب الى برونو ان يتراجع عنها فأبدى استعداده لذلك . ولكنه بعد ذلك سحب كل تراجعته وأصر على أنه ليس<sup>٢</sup> في كتاباته ولا في أقواله أى شيء ينطوى على الزندقة ، واتهم كهنة الفاتيكان باساءة تأويل آرائه . فصدر عليه الحكم بالکفر ، وسلمته الكنيسة للسلطات المدنية لاعدامه ، فأحرق حيـا في ميدان کامبو دي فيورى في ١٧ فبراير ١٦٠٠ .

● ● ●

## عاشق الالام

□ هناك طريقتان يمكن أن نعرف بها ما إذا أعدم جورданو برونو بتهمة الكفر أو الزندقة : أحدهما أن ننظر في أعماله لنعرف ماذا قال .. والآخر أن ندرس ملف قضيته لنعرف التهم الموجهة إليه أو الثابتة عليه . وخير من هذه وتلك أن نلجم إلى الطريقتين معا .

لعل أهم ما قاله جورданو برونو في مؤلفاته وأهم ما نسب إليه من تهم فكرية هو قوله بنظرية وحدة الوجود أو نظرية الحلول ، أي حلول الله في الكون أو العالم المادي والروحاني . وهذه النظرية تنتهي في النهاية إلى اعتبار الإنسان هو « الميكروكوزم » أي « العالم الأصغر » ، واعتبار « الميكروكوزم » صورة مصغرة من « الماكروكوزم » أو « العالم الأكبر » . وقد عبر المتصوفة العرب عن ذلك بقولهم عن الإنسان :

« وتحسب أنك جرم صغير  
وفيك التقى العالم الأكبر »

وحين كان الحلاج يقول : « ما في الجبة غير الله » ، إنما كان يعبر عن الفلسفة المتصوفية الثالثة بأن الله لا وجود له خارج الكون ، فهو الروح الأعظم المنتجلى في الكون وكل ما يحتويه .

وقد جرى العرف على اعتبار نظرية الطول ووحدة الوجود خارج إطار الفكر الدينى القويم الذى يقوم على أن الله يتتجاوز الكون وليس متواحدا معه ، فهو سابق للكون في الوجود وهو العلة الأولى في كينونة الكون بمعنى أنه خالق العالم وهو لامتناه في الزمان وفي المكان وفي الصفات بينما الكون متناه في الزمان والمكان والصفات ، وهكذا دواليك . وحين تخذل المتصوفة العرب عن نظرية « التجاوز » الذى يفترض بطبيعة الحال ازدواج الله والعالم ، والروح والمسادة .. الخ .. وقالوا بنظرية « الحلول » أو « وحدة الوجود » لأنفوا من العنف في العالم الاسلامي ما لاقاه جورданو برونو في العالم المسيحي ، ومن لم ينته منهم نهاية حزينة عاش حياته مطاردا من السلطات الدينية والدينية .

وبوجه عام نستطيع أن نرد بدايات وحدة الوجود أو الحلول إلى فلسفة أفلوطين والأفلاطونية الحديثة التي كانت ذاتها تطويراً للفيسياغورية والأفلاطونية ، وهما في ذاتهما تطوير لأسسasيات المثالية في الديانة المصرية القديمة التي تعلمها اليونان من المصريين وفلسفوها وحولوها إلى مقولات تخضع للمنطق والجدلية .

وازدواجية المثل ( جميع مثال ) والظلال في أفلاطون أقوى منها في تاسوع أفلوطين ، الذي يقول أن الله هو بمثابة نافورة النور في المركز الذي يعشى ضياؤه الأبصار ، وكلما ابتعدت دوائر الوجود وال الموجودات عن المركز النوراني خامر الظلام النور أكثر فأكثر حتى نصل إلى دائرة العالم المادي حيث كثافة المادة تكاد تحول دون ابصار نور الذات الإلهية .

وبالرياضة الصوفية أو بالتأمل يقترب الحكماء من نافورة الضياء ويحاولون التوحد مع الذات الإلهية . وهؤلاء هم العارفون بالله . هذا ما وصلت إليه مدرسة الإسكندرية في تلك القرون الرهيبة التي فصلت ما بين وثنية القدماء والتوحيد المسيحي .

وقد حاول بعض فقهاء المسيحية الأوائل أن يوفقاً بين الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة من جهة وبين العقيدة المسيحية من جهة أخرى . فقد كانت الصفوـة المشفقة تنظر إلى المسيحية على أنها دين الموت والحياة الأخرى ولا تليق إلا بالعبد والبسطاء والمعذبين في الأرض ، وعلى أنها ديانة معادية للثقافة والحضارة والفكر والفنون والأداب وكل نشاط دنيوي .. فاتجهت الصفوـة المشفقة إلى ابتكار عقائد توقف بين الأخلاق المسيحية وثقافة الـقدماء، وكان أهم هذه العقائد الرواقية والأفلاطونية المسيحية والفنوسية أو مذهب العارفـين بالله .

والمشكلة في مذهبـ الحلول ، وفي الاعتقـاد بأن الله ليس خارجـ الكون ولكن داخلـه وملازـمـ له ، هي أنه ينتهيـ بالاعتقـادـ بالـلوهـيةـ الانـسانـ بالـفعـلـ أوـ بالـقوـةـ (ـ أيـ بـالـامـكـانـ )ـ ، وبـالـلوـهـيـةـ الكـونـ ،ـ وهوـ ماـ مـكـنـ بـرـونـوـ منـ أنـ يـتـحدـثـ عنـ «ـ اللهـ (ـ أوـ )ـ الطـبـيعـةـ »ـ .ـ وهوـ يـسمـيـ اللهـ «ـ رـوحـ الـأـروـاحـ »ـ وـ «ـ حـيـاةـ الـحـيـوـاتـ »ـ وـ «ـ جـوـهـرـ الـجـواـهـرـ »ـ ،ـ ولـكـتهـ يـرـفـضـ مـبـداـ الـخـلـقـ مـنـ الـعـدـمـ ،ـ ويـذـهـبـ إـلـىـ أـنـ الـذـاتـ إـلـهـيـةـ تـنـجـلـيـ بـذـاتـهـ فـيـ الـكـونـ وـكـائـنـاتـهـ ،ـ أوـ كـمـاـ يـقـولـ فـيـ «ـ عـشـاءـ أـرـبـيـعـاءـ الرـمـادـ »ـ :ـ «ـ وـنـحنـ نـقـرـ الـمـبـداـ الـقـائـلـ بـعـدـ الـبـحـثـ عـنـ الـالـوهـيـةـ بـعـيـداـ عـنـاـ .ـ لـأـنـنـاـ نـهـلـيـكـهـاـ بـالـقـرـبـ مـنـاـ ،ـ بـلـ نـمـلـكـهـاـ فـيـ دـاخـلـنـاـ »ـ .ـ وـهـوـ فـيـ «ـ الـكـائـنـ الـأـعـظـمـ :ـ الـلـامـعـدـوـدـ وـالـلـامـحـدـوـدـ »ـ يـذـكـرـنـاـ بـأـنـ هـرـمـيـزـ الـمـلـثـ الـعـظـمـاتـ وـصـفـ الـإـنـسـانـ بـأـنـهـ «ـ الـمـعـجزـةـ الـكـبـرىـ »ـ ،ـ وـلـأـنـ أـصـلـ الـإـنـسـانـ الـهـيـ فـيـ

استطاعته أن يعود لها كما كان . وهذا جوهر الروح الفاوسية التي تفشت في عصر الرئيسيانس فلم يقف الأمر عند استرداد كرامة الإنسان ومجد الإنسان ، بل تجاوز ذلك إلى ثالثة الإنسان . وكان هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي تناولها أدب الرئيسيانس تناولاً مأسوباً .

كان جورданو برونو يلقب نفسه في محاوراته باسم « فيلوتيو » أو « تيفيلو » بمعنى « عاشق الله » . وهذا يدل على أنه لم يكن ينظر إلى نفسه على أنه ملحد ، بل كان مثل عامة المتصوفة يحاول أن يصل إلى ذات الله أو يتواصل معها « بالعشق الإلهي » كما يقول المتصوفة . وحين شرح في « عشاء أربعاء الرماد » نظرية كوبرنيك في دوران الأرض والأفلak ، أضاف إليها من عنده شيئاً لم يردا في كوبرنيك وهمماً أولاً أن الأفلak تدور بقوة الحب الإلهي . وثانياً أن الكون لانهائي في الزمان والمكان وليس محدوداً كما جاء في فلسفة أرسطو أو تلك بطليموس الجغرافي أو في تصور فقهاء الدين المسيحي الكاثوليكي في ذلك الزمان : فالأرض عند برونو ليست مركز الكون ولكنها في ركن مهمل منه ، وروح الله هي التي تدفع الأجرام السماوية في حركتها الدائبة والكون لانهائي أقدر بعظمة الله من الكون المحدود . وقد كانت الكنيسة والعرف العام والعلم المتوارث عن القدماء قبل كوبرنيك تتقول كلها بان الأرض ثابتة في مركز الكون وبأن الشمس هي التي تدور حول الأرض ، وكانت تحكم بالكثر على من يقول غير ذلك .

أما مصطلحات الصوفية ، مثل « العشق الإلهي » ، فقد بدأت تعرف بين المتفقين الأوروبيين منذ أن ترجم فيتشينو « توسيع » أو « تاسوعات » أفلوطين ، ونصول « هرميز المثلث العظمات » قبل برونو بنحو قرن ونصف قرن . وقد عرفت المسيحية الكاثوليكية مبدأ « الحب الإلهي » ولكنها كان شيئاً مختلفاً عن « العشق الإلهي » ، لأن « الحب الإلهي » هو حب الله للبشر (« هكذا أحب الله العالم .. الخ ») أما « العشق الإلهي » فهو عشق البشر لله كما نعرف من كتابات الصوفية وأشعارهم .

لهذا نجد أن جورданو برونو ببناء فلسفته على الهرمزية أو الغنوصية كان يفكر خارج الأطار المسيحي التقليدي ، وقيل انه يوم احراقه عرض عليه الصليب ليقبله ، على عادة الكاثوليكي اذا حضرتهم الوفاة ، فأشباح عنده بوجهه . لقد تحولت العقيدة المسيحية في وجده إلى مجموعة من الرموز الفلسفية التي لا تتمشى مع الفكر الديني التقليدي .

قال برونو لحكمة التقنيش في البنديكتية ان الكون لا نهائى لأن القوة الإلهية التي خلقته لا نهائية ، واللامحدود لا يخلق وكما قال فيشافورس

الارض كوكب كالقمر ، وبقية الكواكب والعالم الاخرى نجوم بلا عدد . وفي هذا الكون اللانهائي عنایة الہیة تجعل كل شئ يحيا ويتحرك ، وهذه الطبيعة الكونية ظل للالوهية او لله الذى لا يمكن ادراكه او تفسيره .

اما صفات الالوهية فهو يتافق فيها مع فقهاء الدين واقطب الفلسفه ، وهي القوة والحكمة والخير ، وهذه الصفات مرادفة للذهن والعقل والحب . وهذه تقابل في اللاهوت « الآب والابن والروح القدس » ، كما يقول جورданو برونو . فالحكمة هي بنت الذهن ، وهي ما يسميه فقهاء اللاهوت « الكلمة » ويسميها الفلسفه « العقل » ، أما « الحب » فهو مرادف لما كان قدماه يسمونه « روح العالم » .

. ويقرر جورданو برونو امام محكمة التفتيش في البندقية ان رأيه في « الآب » او « الذهن » يتمشى مع المذهب الكاثوليكي ، وأن رأيه في « الروح القدس » او « روح العالم » او « الحب » يتافق مع آراء الكثرين من فلاسفة الأفلوطينية المسيحية . ولكن المشكلة عنده هي أنه لا يستطيع ان يقنع تماما بما يقوله اللاهوت المسيحي من ان « الابن » او « الكلمة » تجسد في اللحم او في شخص انساني . وهو لهذا يفضل العودة الى الديانة المصرية الهرمزية فيما يتصل بتصورها « لابن الله » ، وهذه عند برونو لا تمثل الارهاسات الاولى للديانة المسيحية كما كان يقول علماء اللاهوت ولاكتناس ، بل تمثل الديانة الصادقة .

وقد شهد أحد السجناء مع جورданو برونو أنه سمعه يقول ان « الصليب في حقيقته رمز مقدس عند قدماه المصريين ، وان الصليب الذي صلب عليه المسيح شيء مغاير للصليب الذي نراه على المذبح في الكنائس ، فهذا الذي نراه هو في حقيقته الصليب المنحوت أو المنقوش على صدر الربة ايزيس في مصر القديمة ، ولكن المسيحيين « سرقوه » من المصريين .. » وحين سالت محكمة التفتيش جورданو برونو في ذلك أيد هذا القول ، وقال : « اظن أنني قرأت في مارسيليو فيتشنينو أن فضيلة هذه العلامة وقداستها ( يقصد الصليب ) أقدم بكثير من زمن تجسد المسيح ، وأنها كانت معروفة في زمن ازدهار الديانة المصرية نحو زمن موسى ، وان هذه العلامة كانت تربط على صدر سرابيس ( او زيريس ابيس ) » .

وقد كان جورданو برونو صادقا فيما ذكر لأن هذا الكلام وارد بالفعل في كتاب فيتشنينو « مقارنة الحياة بالسماء » . غير أن فيتشنينو لم يقل ان المسيحيين « سرقوا » علامة الصليب من قدماه المصريين وإنما قال ان الصليب المصري القديم كان بمثابة تنبؤ بمجيء المسيح .

والصلب المصرى القديم الذى يتحدث عنه جورданو برونو هو عالمة « العنخ » أو « مفتاح الحياة » كما يسمونه . ونحن الآن لا نجد موضعًا للتکفیر في هذا الكلام وإنما نجد فيه مجرد سوء أدب من جورданو برونو ، أو ربما حماسة في غير موضعها . فنحن لا نقول إن المسيحيين « سرقوا » عالمة الصليب من عالمة « العنخ » أو « مفتاح الحياة » ، وإنما نقول إن عالمة « الصليب » تطورت من عالمة « العنخ » ، على الأقل في مصر ، كما أثبت علماء الآثار بما بقى من نقوش وصور باقية من القرون الأولى لدخول المسيحية في مصر .

فمن يزور المتحف القبطي يرى من آثار مصر المسيحية ، على الأقل خلال القرون الأربع الأولى بعد الميلاد ، أن المصريين حين اعتنقا الدين المسيحى لم يعرفوا في بادئ الأمر الصليب برسمه المسيحى المعروف الآن ، وإنما كان صليبيهم هو عالمة العنخ أو مفتاح الحياة كما نرى في النقوش والصور المحفوظة في المتحف القبطي ، ودرجة درجة وضعوا الصليب المألف داخل رأس العنخ ، أى داخل « الخية » العليا ، ثم درجة درجة رسموا الصليب المألف حول أضلاع العنخ ، وأخيراً اختفى العنخ تماماً وحلت محله صورة الصليب المألف .

نجوم الكنيسة الكاثوليكية في ذلك العصر وخوفها من كل جديد جعلها اذن تجرم هذه الحقيقة الثابتة في تاريخ الأديان ، وهى أن المصريين قدسوا العنخ أو مفتاح الحياة قبل أن يقدسوا الصليب بعد دخولهم المسيحية فيما يسمى العصر القبطي ، وأن الصليب ، على الأقل في مصر صورة متطرفة من العنخ أو مفتاح الحياة .

وبالمثل فإن جمود الكنيسة في ذلك العصر وخوفها من كل جديد هو الذي دفعها اذن لترجم نظرية كوبرنيك في دوران الأرض وكواكب المجموعة الشمسية حول محورها حول الشمس ، ومن بعد كوبرنيك قوانين كبلر ( ١٥٧١ - ١٦٣٠ )، وأهمها أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية ( ١٦٠٩ ) وليس دائيرية وأن مربع زمن دوران الكواكب يتتناسب مع مكعب المحور الأكبر للمدار ( ١٦١٩ ) ، وقوانين جاليليو ( ١٥٦٤ - ١٦٤٢ ) في الأجسام الساقطة وفي الحركة وفي القصور الذاتي ، وأثباتاته لقوانين كوبرنيك « الكافرة » في ثبات دوران الأرض والمجموعة الشمسية حول الشمس ( ١٦٣٢ ) .. وقد كانت الكنيسة تكتفى في معارفها الفلكية بنصوص سفر التكوين وغيره في الكتاب المقدس وتعلم الفلك كما ورثته عن أرسطو وعن بطليموس الجغرافي .

كل هذه القوانين والنظريات الفلكية التي أصبحت في العالم الحديث من بديهييات العلم كانت في مخاض ولادة الحضارة الحديثة من حضارة العصور الوسطى تهمها بالكفر ترج بأصحابها في غياهب السجون وتنتهي بهم إلى الإعدام بعد الهرمان الكنسى . وقد ظلت نظرية كوبيرنيك في الفلك مجرد معادلات رياضية استغلقت على رجال الدين حتى مجر جورданو برونو مغزاها أولاً بشرح معنى هذه المعادلات ثم بما استخرجه منها من نظريات بلانهائية الكون وبيان وراء عالمنا الفلكي عوالم وعوالم بلا عدد ولا حدود ، بما ززع الاعتقاد الديني في أوروبا بأن الأرض هي مركز الكون وبيان الإنسان هو القصد من الخليقة .

بل ان جورданو برونو ذهب في تخریجاته الى ان هناك عوالم مأهولة غير عالمنا ، وان الكون اللانهائي يتصف باللوهية لأن «روح العالم» التي تحرك كل شيء وتنبت كل شيء وتتجدد كل شيء وترقى كل شيء ليست الا «روح القدس» او روح الله الحالة في كل موجودات الوجود . الله والعالم عند جورданو برونو هوية واحدة بعلة وحدة الوجود او ما يسميه الفلسفة «المونزم» .

وهنا يدخل جورданو برونو دائرة المحظورات لانه ينتهي الى القول بالوهية الانسان ، ذلك القول الذي اودى بكثيرين من المتصوفة الى التهلكة ، وهو الذى جعل الحلاج يقول : «لو ان ذرة من قلبي سقطت على الجحيم لاطفاتها ، ولو ان ذرة من قلبي سقطت على الجنة لأنارتها» . والوهية الانسان ليست الوهية بالفعل ولكن الوهية بالقوة ، اي بالامكان ، بحسب درجة قربه او بعده من الفيض النوراني النابع من نافورة الضياء الالهى . وبغية الحكام ينبعى ان تكون تكثيف هذا الفيض النوراني في أنفسهم حتى يقتربوا من التوحد مع ذات الله .

هذا التوحد لا يتم «بالذكر» ولكن «بالذكرة» او باسترجاع ذكريات وجودنا النوراني الكامل قبل ان نبعد عن مركز الضياء . وهذا معنى دراسات جورданو برونو العديدة في «فن التذكر» . وهى دراسات خامرها الكثير من دراسة «السحر» ، «السحر الطبيعي» لا سحر السحرة والمشعوذين . والسحر عند جورданو برونو هو السيطرة على الكون بغض مغاليق الكون وتسخير الطبيعة باستثناء اسرار الطبيعة ، المعرفة او الحكمة هي السحر الابيض ، وهو للخير ، أما سحر السحرة فهو السحر الاسود ، وهو للشر ،

اما وقد ضاع ملف قضية جورданو برونو فلم يبق امامنا الا «موجز محاكمة جورданو برونو» الذى وجده الكاردينال انجلو مركاتى عام ١٩٤٢

في الأرشيف الخاص بالبابا بيوس التاسع (البابا من ١٨٤٦ إلى ١٨٧٨) ، وما جاء في هذا الموجز أن برونو أدين لقوله في كتاباته أن لانهائية الله (في الأزلية والابدية والطبيعة) تتضمن لانهائية الكون ، وبسبب آرائه في طريقة خلق روح الإنسان ، ولقوله بدوران الأرض ، ولقوله أن النجوم ملائكة ، ولقوله بأن في الأرض روحًا حساسة وعاقلة ، ولقوله بأن في الكون عوالم متعددة .

وفي شهادة رجل يدعى جاسبار شوبيو كان حاضراً إثناء اعدام برونو، ولعله سمع الاتهام والحكم يتلى أمامه ، أن برونو أدين لأنّه قال إن في الكون عوالم بلا عدد ، وأن السحر شيء نافع ومشروع ، وإن « الروح القدس » هو « روح العالم » ، وإن موسى كان ساحراً يصنع المعجزات بسحره وإن سحره غالب سحر سحرة فرعون لأنّه كان أكفاء منهم ، وإن المسيح كان ساحراً . ونحن لا نعرف أن كانت هذه القائمة تمثل التهم التي لفقتها له محكمة التفتيش في روما أم أنها من صلب اقراراته التي رفض في النهاية أن يسحبها أو يتراجع عنها . وعلى كل فالقضية كلها يحوطها الغموض لأن « الموجز » يذكر رأي برونو في أن الصليب مصرى في المنشأ استناداً إلى أقوال أحد السجناء الذين سمعوا برونو يقول هذا الكلام . وهذا معناه أن محكمة التفتيش كانت تبني أحكامها على الدليل الفقلي أو على شهادة الجوايس .

ولكن إذا جاز لنا أن نبني على ما نعرفه عن محاكمة جورданو برونو في البندقية ، فقد كانت التهمتان الرئيسيتان الموجهتان إلى برونو هما : أنه أولاً كان يريد أن يؤسس ديناً عالياً جديداً يضع حداً للتعصب والتقاتل الديني بين البشر ، وأنه ثانياً كان على صلة بهنرى الرابع ملك نافار البروتستانتى الذى تحول إلى الكاثوليكية ليصبح ملك فرنسا ، وأنه كان يأمل منه أن يقوم باصلاح الكنيسة وبيان يجعله « كابيتانو » ، أى يجعله « رئيساً » .

فقد ذكر الكتبى تشيغتو أن رئيس دير الكرمل الذى كان يقيم فيه برونو إثناء إقامته في فرانكفورت أبلغه « إن برونو كان دائماً مشغولاً بالكتابة وبالاحلام والتنبؤات بأشياء جديدة ، وأنه كان يقول إنه يعرف أكثر مما كان يعرفه حواريو المسيح ، وأن في استطاعته لو أراد أن يجعل كل العالم يتبع ديناً واحداً » .

اما تقرير مضيقه موتشينجو في ١٢ مايو ١٥٩٢ الذى أبلغ عنه سلطات البندقية فقد ورد فيه أن برونو قال له :

« ان المنهج الذى تستخدمه الكنيسة اليوم ليس المنهج الذى استخدمه الرسل ، لأن الرسل حولوا عقيدة الناس بالوعظ وبالقدوة الحسنة في حياتهم . أما الآن فكل من أراد أن يخرج على الكاثوليكية فلابد له من تحمل القصاص واللام . فالكنيسة الآن تستعمل العنف في الاقناع ولا تستعمل المحبة . والعالم لا يمكن أن يستمر على هذا النحو ، فليس فيه سوى الجهل ولا صلاح في أي مذهب ديني . كذلك قال إن العقيدة الكاثوليكية أحب إلى نفسه من آية عقيدة أخرى ، ولكن هذه العقيدة بحاجة أيضاً إلى إصلاح كبير .. فهى فاسدة في وضعها الحالى ، ولكن العالم سوف يشهد عما قريب إصلاحاً شاملـاً ، فمن الحال استمرار هذا الفساد . وهو يعلق آمالاً كبيرة على ملك نافار ( هنرى الرابع ) ، ولهذا فهو ينوى الارتفاع بنشر كتبه لكي ينال بها الحظوة . فحين يجيء الحين فهو يحب أن يصبح كابيتانو ( أي رئيساً ) وان فقره لن يدوم لأنه سوف ينعم بثروات الغير » .

ومن المحتمل أن يكون برونون قد قال لمضيفه جوهر هذا الكلام ولكن مضيفه بنى عليه تخريجاته الشخصية ، فمن المستبعد أن يكون برونون من الففلة بحيث يصرح بأنه سينهب أموال الآخرين حين يصبح « كابيتانو » . وعلى كل فقد أنكر جورданو برونون أنه يعرف هنرى الرابع أو التقى به أو بأحد وزرائه . ولكنه نفى عنه « الزندقة البروتستانتية » ونسبها إلى ضرورات الحكم في أن يساير معتقدات شعبه من أهل نافار . أما عن المنافع الخاصة التي كان يرجوها فقد ذكر برونون أنها لا تتجاوز أن يتبع له هنرى الرابع ما أتاحه له هنرى الثالث من التدريس في الجامعة والقاء المحاضرات العامة .

ولا يسع أي دارس لسيرة جورданو برونون إلا أن يحس بأن الخلفية السياسية كانت هي العامل الفاصل في نهايته التراجيدية أكثر من الخلافات الفكرية والفلسفية ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية في أيامه تعيش في ذعر من تصاعد أعمال العنف ضد الكاثوليك في الدول البروتستانتية ومن تقسيخ سلطان الكنيسة « الجامعة » وازدهار الكنائس القومية بازدهار الروح القومية في كل مكان .

• • •

## العارف بالله

□ « سوف يأتي زمان يسبّين فيه أن تمجيد المصريين للذات الالهية بنقوى الفكر وبالمواظبة على الشعائر قد ضاع هباءً منثوراً . فسوف تصبح عبادتهم المقدسة بلا جدوى .. وسوف تغادر الآلهة الأرض وتعود إلى السماء . ولسوف تهجر الآلهة مصر .. هذه الأرض التي كانت في الماضي وطن الدين سوف تحرم من آلهتها وتعيش في عوز . سوف يملاً الأجانب هذه البلاد . ولن يقف الأمر عند حد اهمال الشعائر الدينية ، ولكن سيحدث ما هو أنكى .. وهو أن يفرض على الناس بقوة القوانين المزعومة وتحت رهبة العقوبات أن يحجم الجميع عن أعمال التقوى وعن عبادة الآلهة ، وعندئذ سوف تغطى هذه الأرض المقدسة ، موطن المعابد والماريب .. بالقبور وبجثث الموتى .. آه يا مصر .. يا مصر .. لن يبقى من ديانتك إلا الأساطير ، لأن بنيك لن يصدقوا مستقبلاً معتقداتك . لن يبقى فيك إلا كلمات منقوشة على الحجر لتحدث عن أعمالك التقبية . سيأتي القوقازى أو الهندي أو غيرهما من جيرانك المقربين ويستوطنون في مصر . هيا أنظروا ! إن الالوهية تصعد إلى السماء ، وهي تتخلّى عن الناس فيموتون جميعاً . وحين تخلو مصر من الآلهة ومن الناس سوف تصبح مجرد صحراء جرداء ..

« وفيم البكاء يا أسكلبي؟! لسوف تتعرض مصر لأشياء أشد بشاعة من هذا .. فسوف تلوثها جرائم أخطر وأنكى .. فهي حتى اليوم لا تزال أقدس مكان .. وهي تتفاني في حب الآلهة ، وهي في الأرض البلد الأوحد الذي اختارته الآلهة موطنًا لها لقاء تقانها في حبها ، وهي التي علمت البشر القدسية والتقوى .. مصر هذه سوف تصبح مضرب المثل في أبغض الوان القدسية وعندئذ لن يجد الناس أن للحياة قيمة تستحق الاعجاب أو الاحترام .. فهذا ( الكل ) ، وهو الخير ، خير ما يرى في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل .. سوف يتهدّه الضياع ، وسوف يعتبره الناس عبئاً ثقيلاً عليهم ، ومن بعد ذلك سوف يزدرون هذا الكون في كلّيته .. وهو الابداع الالهي الذي لا نظير له .. ولن يحملوا أى حب لهذا البناء الجيد .. لهذه الخليقة العظيمة المؤلّفة من أشكال مختلفة بلا نهاية .. هي ارادة الله الذي يسبّغ نعمه على كل ما خلق دون أن يغار من خلائقه التي اجتمعت في كل

واحد يقوم على الاختلاف المنسجم وعلى كل ما نراه جديرا بالاحترام والحب والثناء .. عنده سوف يفضل الناس الظلام على النور ويؤثرون الموت على الحياة . ولن يرفع أحد بصره صوب السماء . عنده سوف يعتبر الفاصل مجنونا والمسافل عاقلا . وسوف يظن المنهوس شجاعا وبعد أخطر الجرمين رجلا صالحا . عنده سوف يسخر الناس من الروح وكل ما يتصل بها من معتقدات بخلود الروح بحكم طبيعتها أو بقدرة الروح على اكتساب الخلود كما علمتك . سوف يظن الناس كل هذا مجرد هراء . وصدقني حين أقول لك أن الإيمان بدين العقل سوف يعد جريمة عظيمة في نظر القانون . وسوف يستجد نظام جديد للعدالة وتتسن لها قوانين جديدة . ولن يتحدث أحد في شيء مقدس أو قائم على التقوى أو خلائق بالسماء أو بالآلهة التي تسكن السماء ، ولن يصدق أحد بوجود الروح .

« وسوف تتفصل الآلهة عن بني البشر . ويما بئس هذا الانفصال . ولن يبقى إلا ملائكة الشر وهم أصل الشقاء الذين سوف يختلطون بالناس ويدفعونهم تسرا إلى الاسراف في كل اجتراء على الاجرام .. فيورطونهم في الحروب وفي اللصوصية وفي أعمال الغش وفي كل ما هو مناف لطبيعة الروح . عنده سوف يختل ميزان الأرض ويصبح البحر مهلكة للملاحين وتأفل أكثر النجوم . وتتوقف النجوم عن مسارها في السماء . وسوف يسكت الناس كل صوت الهوى فتصمت . وسوف تذوي خيرات الأرض وتفقد التربية خصبها ويُنقل الهواء برکود داميس .

« هذه سوف تكون شيخوخة العالم : ضياع الدين ، والفسوضى ، واضطراب كل الخيرات . وحين يقع كل ذلك .. أي اسكليپ .. ايتها الكلمة الكاملة .. فان المولى والأب ، الله الأقوى ، الله الواحد الخالق بعد أن يتذرع بهذه الفعل وهذه الجرائم الاختيارية ، سوف يعمل بارادته الالهية على سد السبيل إلى الرذائل وإلى الفساد الشامل وعلى تصحيح كل هذه الأخطاء ، بأن يمحق كل الشرور أما باغرائها في طوفان وأما باحرارها بالنار وأما بتدميرها بالأوبئة التي ينشرها في كل مكان . عنده سوف يعيد العالم إلى بهائه الأول ، حتى يعود العالم كما كان جديرا بالاحترام والاعجاب ، وحتى يمجد الناس الله خالق هذا الكون العظيم ومجدده . وعنده يعيش الناس في تسبیح دائم وبركات لا تنتقطع . هكذا سيكون الميلاد الجديد للعالم ممثلا في تجديد كل الخيرات . واعادة قدسية جادة للطبيعة إلى ما كانت عليه بقوة تفرضها اراده الله عندما يأتي الاوان » . « اسكليپ »، او « الكلمة الكاملة » ، عن ترجمة فرانسیس بیتس لترجمة فیتشینو في ١٤٦٣ لنصوص « هرمیز المثلث العظمات » بعنوان « بیماندر » والمنشورة عام ١٤٧١ .

هذه كانت فكرة العارفين بالله في مدرسة الاسكندرية عن نهاية مصر القديمة وعن نهاية العالم بصفة عامة ، وهى شبهاه بفكرة اديان التوحيد عن قيام الساعة . والنصوص الباقيه من كتاب الهرامزه المقدس تنتهي الى القرون الاولى القليلة بعد الميلاد . وهى القرون العصيبة التي عاصرت ذلكصراع الرهيب بين الوثنية والتوجه في العالم القديم ، ولذا فان نصوص العارفين بالله تحمل آثارا من تعدد الآلهة . وهى بمثابة زواج بين الديانة المصرية القديمة والديانة اليونانية القديمة ، ولكن على مستوى فلسفة الصفوة ولاهوتها وليس على مستوى بسطاء الناس .

هذه هي « الديانة المصرية » التي دعا جورданو برونو الى احلالها محل الديانة المسيحية في اواخر القرن السادس عشر . فاستنزل على نفسه غضب الكنيسة وانتهى أمره الى المحرقه بعد ان عدل عن توبته عن هذه الزندقة .

وقد خف من وثنية ديانة هرميز أو ديانة العارفين بالله أن الآلهة تحولت فيها الى بشر من أشباه الانبياء والرسل . وأكثر المحاورات فيها تدور بين هرميز المثلث العظمات وأسكلبيب وتوت أو تحوت وهامون .. الذي يبدو أنه بقية من أمون وايزيس وحورييس وموموس .. الخ . هؤلاء يلتقيون في معبد من المعابد المصرية التي لا يدخلها الا الحكماء ويدور بينهم الحوار حول الله والعالم والانسان .. وحول الروح والمسادة .. الخ .. وهناك « العقل » يتحدث الى هرميز قائلا ان الكون كله انعكاس في « العقل » .. قال « العقل » لهرميس المثلث العظمات :

« تأمل الكون من خلالي وأنظر الى بهائه .. انظر الى تدرج السموات السبع والى نظامها ، قر كل شيء ممتئا بالنور .. وأنظر الى الأرض مستقرة وسط ( الكل ) ، وهى المرضع التي تغذى كل مخلوقات الأرض .. ( الكل ) مفعم بالروح . وكل الكائنات في حركة . من خلق هذه الأشياء .. أنه الإله الواحد .. لأن الله واحد . وأنت ترى أن العالم دائما واحد : الشمس واحدة والقمر واحد والنشاط الالهى واحد . وكذلك فان الله واحد .. وبما أن كل شيء حى والحياة واحدة فان الله دون شك واحد ، وكل شيء يخلق بفعل .. والموت ليس تدميرا للعناصر المجتمعة في الجسم ، ولكنه مجرد تفكك لاتحادها . وهذا التغيير يسمى الموت لأن الجسم ينحل ، ولكنني أعلن عليك ، أيها العزيز هرميز ، أن الكائنات التي تحمل على هذا النحو لا تنتهي ولكن تحول .

« كل ما هو موجود موجود في الله .. لا بمعنى أنه موضوع في موضع ، لأن الكائنات ليست موضوعة على هذا النحو في مملكة التمثيل اللاتجسدي . ولتحكم بهذا من تجربتك الخاصة : مر روحك أن تنطلق إلى الهند أو أن تعبر المحيط .. وسوف يحدث هذا في لمح البصر . مرها أن تطير إلى السماء ولن تحتاج روحك إلى اجنحة لتعل ذلك ، ولن يعوقها شيء عن ذلك . ولو شئت أن تخترق قبة الكون وتتأمل ما وراءها — ان كان وراءها شيء — فلن يمنعك شيء من ذلك .

« تأمل مدى ما تملك من قوة ومدى ما تملك من سرعة . وقس على هذا تصورك لله . فهو الكل في الكل : هو كل ما هو موجود . وهو يحتوى داخل ذاته ، كما يحتوى الفكر .. على العالم وعلى ذاته وعلى ( الكل ) . وبناء عليه فلن تستطيع أن تفهم الله الا اذا جعلت من نفسك كائنا لله ، فلن يدرك النظير الا النظير . اجعل ذاتك تتوازى بلا حدود . وحرر ذاتك بوثنية من الجسد . ارفع ذاتك فوق كل زمان وكن سرمديا . وعندها سوف تفهم الله . اعتقاد بأنه لا شيء يستحيل عليك . وتصور ذاتك خالدا وقادرا على فهم كل شيء ، كل الفنون وكل العلوم وطبيعة كل كائن حي . اصعد أعلى من أعلى عليين . وأنزل أسفل من أسفل سافلين . امتص في داخل نفسك كل أحاسيس كافة المخلوقات ، النار والماء والجفاف والرطوبة . متصورا أنك في كل مكان : على الأرض وفي البحر وفي السماء . وأنك لم تولد بعد . وأنك لا تزال في رحم أمك . وأنك يافع وشبيخ . وأنك ميت وفيما بعد الموت . فلو استطعت أن تصنم داخل فكرك دفعة واحدة كل الأشياء والأزمنة والأمكنة والماهيات والصفات والكميات ، امكانك أن تفهم الله .

« فلا تقل اذن ان الله غير مرئى .. لا تقل ذلك فليس هناك ما هو أشد ظهورا من الله . فهو قد خلق كل شيء حتى يمكنك أن ترى هذا الكل من خلال الكائنات . بهذه قدرة الله المعجزة . أن يظهر نفسه من خلال جميع الكائنات .. فليس في الوجود شيء غير مرئى . حتى الكائنات غير الجسدانية ظاهرة الوجود . العقل يظهر نفسه بالتفكير والله يظهر ذاته بالخلق » . ( « نصوص هرميز المثلث العظمات » ) .

من السهل علينا بعد قراءة هذا النص وأمثاله في النصوص الهرمزية أن نفهم سبب انتزاع أديان التوحيد من هذه الديانة المصرية القديمة التي قد تلتقي بأديان التوحيد في قولها ان الله واحد وأنه ليس كمثله شيء وأنه يظهر أو يتجلى في خلائقه ( الكون .. العالم .. الإنسان .. الخ ) ، ولكنها تختلف عن أديان التوحيد من حيث أنها تقول ان فكر الحكماء العارفين بالله

يمكن أن يستوعب الذات الالهية بقدرات الانسان اللانهائية في الفكر والمعرفة والتوحيد مع ذات الله بالتأله .

وهذا في حقيقته لا يخرج عن كونه التعبير الفلسفى عن الشخصية الفاوضية المتمثلة في تأله الانسان ومحاولته بالرياضة الروحية أو العقلية أن يتوحد مع ذات الله ، وهى شخصية كانت شائعة بين الاوربيين ربما الى حد النمطية في عصر الرنيسانس ، وربما كانت في مجملها متمثلة في حضارة العصر الحديث منذ حركة الرنيسانس حتى اليوم .

ولا شك أن أديان التوحيد متفقة على أن الله خلق الانسان على صورته وأن روح الانسان قبس من روح الله ، ولكنها لا تتطاول الى جد الزعم بأن الجزء يمكن أن يستوعب الكل أو أن يكافئه أو يضاهيه أو أن يطابقه في الهوية ولو بالأمكان .

وبمنطق المارفين بالله نقرأ قول هرميز في « نصوص الغنوسيين » :

« وبناء عليه ، أى اسكليب ، الانسان هو ( المعجزة الكبرى ) ، وهو كائن خلائق بالاحترام والتكرير ، لأنه يرقى الى شخصية الله وكأنه بالفعل الله ، وهو يالف معاشرة الجن لأنه يعلم أن أصله وأصلهم واحد . وهو يحتقر ذلك الجانب من طبيعته المحدودة ببشريته لأنه يطبع في الوهية جانبه الآخر .

« والانسان يتحد بالآلهة بموجب ما فيه من جانب الهي وهو عقله ، أما كل المخلوقات الأخرى فهي مرتبطة بالانسان بموجب المخطط السماوى وهو يربطها به بعمرى الحب . وهذا الاتحاد الذى يقوم بين الآلهة والبشر ليس مفتوحا لكل الناس ، وإنما هو مقصور على أولئك الذين يتمتعون بملكية العقل .. وبهذا يكون الانسان هو الوحيدة بين المخلوقات المزدوجة الطبيعة، نجزء منه يشبه الله ، والجزء الآخر مكون من العناصر » .

وجوهر هذا الكلام أن مدرسة المارفين بالله كانت تؤمن بنوع من الاستقراطية الروحية حيث معرفة الله والاتحاد بالله مقصوران على الحكماء أو الصنوة المثقفة ، أما الجهل والطبقات الدنيا الناقصة في العقل فهى عاجزة عن معرفة الله . وهذا ما جعل الغنوسيه أو الهرمزية دين السادة والمتقين ، يتعالى على المسيحية المناسبة أيام نشأتها بوصفها دين الرعاع وببساطة العقول . وهذا طبيعى في آية ديانة فلسفية نابعة من الأفلاطونية الحديثة . وتعتمد على نظرية الفيض الالهى النابع من نافورة الضياء

في قلب الوجود أو عقله لينير الكون وكائناته بالنور الداخلى ، بما يجعل نصيب الصفة من القبس الالهى أضعاف أضعاف نصيب بساطة الناس .

كذلك نستطيع أن نفهم انزعاج الكنيسة من نظرية برونو القائلة بلانهائية الكون أو العالم ، لأن اللانهائية صفة لا تطلق في أديان التوحيد الا على الله ، ولأن خلق الله للعالم يجعل الكون حادثا لا قدما و يجعل الكون محدودا في الزمان والمكان . وما كان محدودا له بداية ونهاية . فالقول بلانهائية العالم هو المرادف عند برونو لما كان يعرف عند بعض فلاسفة العرب «بقدم العالم» وهو رأى الدهريين ، وهو ينقض وصف أرسطو وأتباعه لله بأنه «العلة الأولى» .. و «المحرك الأول» . فالخلق اذن عند برونو ليس فعلا حدث في زمن ما داخل مكان ما ولكن حلة أزلية أبدية ولا متناهية في المكان . وتقسيمه عند برونو هو وحدة الوجود أو وحدة الله والعالم .

الله عنده نور العالم ، والعالم عنده ظل النور ، أو النور الذي تخامر درجات من الظلمة بمقدار ما يبتعد عن نافورة الضياء وفقا لتناسوعات أقطار .

هذه هي الحرب العوان التي اعلنها جورданو برونو على أرسطو والارسطاطاليسيه ، وعلى أستاذة جامعة أكسفورد والسوريون وعلى علماء اللاهوت من المدرسة الاسكولائية ، أتباع أرسطو . ومنذ كتابه الأول «ظلال المثل» أو «ظلال الأفكار» ( ١٥٨٢ ) كان واضحا أن برونو كان يبحث عن «المثل» الأفلاطونية و «الذكريات» الأفلاطونية التي يولد بها الإنسان ويقضى حياته محاولا استرجاع حقائق حياته التي كان يعيش بها في عالم المثل قبل مولده ، أى قبل أن يدخل عالم الظلال .

كان واضحا منذ الكتاب الأول أن جورданو برونو الذي استتر تحت اسم شخصية «فيلوبيوس» ، أى «عاشق الله» إنما كان يطرح التفسير الأفلاطوني للوجود وللحياة ، في مواجهة شخصية «لوجيفر» ، أى «حامل المنطق» .. وهذا ليس الا أرسطو أبو المنطق ، وحوارهما يدور مع «هرميز» (تحوت) معلم الحكمة لجماعة «العارفين بالله» . ونفس الأمر بالنسبة لكتابه الثاني «تشيد الساحرة كيركيه» .

وفي كتب جورданو برونو التي أصدرها في إنجلترا وأهمها : «طرد الوحش المنتصر» ( ١٥٨٤ ) ، و «عشاء أربعاء الرماد» ( ١٥٨٤ ) ، يتتجزء تمجيد

برونو لديانة قدماء المصريين من جهة ، وتفجر دعوة برونو لفلسفة الحلول او وحدة الوجود من جهة أخرى .

ففي كتاب « طرد الوحش المنتصر » يبحث برونو أمر حرب العقائد الدينية والأوضاع الاجتماعية والسياسية وعلاقة الفرد بالدولة . ويقول ان الناس في حاجة الى الدين لكي يسلس قيادها ، والعاقل من يقبل عادات البلد الذى يقيم فيه .. ولكن في الوقت نفسه لابد من التسامح ومن حرية التعبير . والوحش المنتصر عند برونو هو أسطو وعيده من أساتذة المنطق الصورى وفقهاء اللاهوت المسيحي الذين جمدوا الفكر الدينى المسيحى بعقلانية المعلم الأول وبتعاليمه . والحل عنده هو العودة الى الديانة المصرية القديمة .

وفي هذه المحاورات يحمل برونو حملة شعواء على التعصب الدينى والحروب الدينية ، ولاسيما ضراوة الكاثوليك فى اضطهاد البروتستانت ، وضراوة البروتستانت فى اضطهاد الكاثوليك .. وهو يدافع عن مبدأ الدولة القومية .. واستقلالها عن سلطان الكنيسة الرومانية الجامعة .. بما يوحى بأن مجاز « طرد الوحش المنتصر » كان يتضمن أيضاً عند برونو طرد البابوات الفاسدين ومن ظاهرهم من ملوك إسبانيا المتعصبين الذين خلطوا الحماس للكاثوليك بالحماس للتوسيع الامبرىالي .

وقد حاول جورданو برونو في محاورات « طرد الوحش المنتصر » أن يدعو إلى مقاييس جديدة في الأخلاق الاجتماعية لاصلاح حال المجتمع . فالهدف من القانون عنده ليس البحث عن الحقيقة المطلقة ولكن تحقيق الخير العام لجميع المواطنين . والقانون عنده سند النظام وضمان خير المجموع . وهو يرى احياء الفضائل الرومانية القديمة كروح الخدمة العامة واهمال الفضائل غير النافعة كالعنفة مثلاً . والقيم الحقيقية عنده مرتبطة بنفعها الاجتماعي ، والفضائل الخاصة تأتي في المقام الثاني ، أما الفضائل التي تخدم الجماعة فهى تستحق التكريم وبها يخلد الانسان . ومن هنا فيبرونو يرى أن طلب المجد ليس رذيلة كما يقول الدين ، بل فضيلة محققة . وبالمثل فإن هروب المثقفين والرهبان من خدمة المجتمع ومن آلام الدنيا واعتکافهم في برج عاجي مجرد البحث أو التأمل امر عقيم .

وكتاب « عشاء أربعاء الرماد » (١٥٨٤) يحمل هذا الاسم الغريب لأن أربعاء الرماد هو في الطقوس الكاثوليكية اللاتينية بداية الصيام في اليوم التالي لعيد الكرنفال مباشرة . وعيد الكرنفال هو عيد البهجة الجماعية

وانطلاق الحواس والسكر والرقص الجماعي والموسيقى والفناء ومواكب الزهور والاقنعة وكل ما نسميه « الماسخة » أو « الماسكرا » وفيه تباح الموبقات وأفراح الحياة باعتبار أن الحياة لحظة قصيرة يجب اهتمامها . ويليه « أربيعاء الرماد » الذي يذكر الناس بالموت ( « من الرماد وإلى الرماد تعود » ) ، ويبدأ الصوم والتفكير في الموت تكفيراً عن حب الحياة . وما أبعد الفرق بين عشاء الصائمين وعشاء الكرنفال .

في « عشاء أربيعاء الرماد » يهاجم برونو أرسطو ومدرسته ويشرح نظريته في لانهائي الكون . هذا من جهة . ومن جهة أخرى نجده يهاجم دعاء الفهم الحرف للكتاب المقدس الذين يعلمون الناس أن الشمس هي التي تدور حول الأرض وليس العكس كما جاء في كتاب كوبيرنيك في علم الفلك . قالت حكمة التقىش لجوردانو برونو : فليكن كما تقول أن الأرض تدور حول الشمس وأن الكون لا متناه في الزمان وفي المكان ، ولكن ماذا نفعل بما قاله « سفر التكوين » عن خلق العالم ؟ .

وكان رد برونو في كل كتبه أن الاعتقاد بوحدة الوجود ، أى وحدة الله والكون ، أو بحلول الله في الكون ، وبوحدة المادة والصورة ، أى وحدة المادة والشكل ، هي الإجابة على هذا السؤال . كان رد برونو في كل كتبه هو الوهية الكون وبأن الله كائن في الكون ، لا بمعنى الحلول المكانى ، ولكن بمعنى الفيض الذاتى . فعلاقته بالعالم المادى هي علاقة النور المثالى بالظلال التى نسميتها المادة .

ووجد جوردانو برونو أن فهم الدين القائم على ازدواجية الله والكون ، والروح والمادة ، ازدواجية مطلقة فهم خاطئ . ولذا لجأ إلى أحياء ديانة مصر القديمة أيام العارفين بالله حيث التواصل مستمر بين الله والعالم وحيث كان يمكن للإنسان أن يخرج من دائرة الظل ويقترب من المثل النورانية حتى يتحد بنافورة الضياء .

هذا الاعتقاد في إمكان التواصل بين الطبيعة وما وراء الطبيعة ملا عالم جوردانو برونو بالمثل والأرواح والجان ، وجعل في فلسفته الدينية مكاناً عظيماً للسحر ليتمكن الإنسان من الارتقاء بالسيطرة على ظلال العالم المادى . وكان يسمى هذا « السحر الطبيعي » وليس سحر السحرة . وهو عنده مرادف للسيطرة على الطبيعة باكتشاف قوانينها .. فكان هذا أيضاً مما أورده موادر التهلكة في محكم التقىش .

# جاليليو

## GALILEO

١٥٦٤ - ١٦٤٩



### ثورة الفلك

كانوا ثلاثة وكلهم رياضيون وفلكيون هم الذين وضعوا أساس علم الفلك الحديث وأنقذوا الإنسانية من خرافات القدماء حول تكوين الكون القريب فيما يسمى بالمجموعة الشمسية .

وكان أولهم بولنديا هو كوبرنيك ( ١٤٧٣ - ١٥٤٣ ) الذي اكتشف الحركة المزدوجة للكواكب حول نفسها وحول الشمس . وكان ثانיהם ايطاليا ، وهو جاليليو ( ١٥٦٤ - ١٥٧١ ) الذي اكتشف قانون تذبذب الأجسام وقانون الأجسام الساقطة ووضع أساس قانون القصور الذاتي واكتشف البقع الشمسية وقوانين المد والجزر واكتشف بعض التوابع غير المعروفة للقدماء وأخترع التلسكوب والميكروسكلوب وقضى حياته يدافع عن نظرية كوبرنيك في دوران الأرض حول الشمس ولقى في ذلك عنتا شديدا أمام محكم التفتيش . أما الثالث فكان مانيا وهو كيلر ( ١٥٣٠ - ١٥٧١ ) الذي اكتشف أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية ووضع بدايات قانون الجاذبية الذي بنى نيوتن عليه أهم نظرياته .

وأوسع هؤلاء الثلاثة شهرة هو جاليليو بسبب كفاحه المديد العنيد لما يسمى التوفيق بين العلم والدين . وهو في حقيقته كفاح مرير ليجعل الكنيسة الكاثوليكية تتقبل نظريات العلم الحديث ومنهج العلم الحديث . وقد خسر جاليليو معركته أثناء حياته ولكن جهاده توج بعد وفاته بفتح الكنيسة درجة درجة للعلم الحديث في نظرياته ومنهجه .

وقد ولد جاليليو جاليلي في بيزا في ١٥ فبراير ١٥٦٤ لأب يدعى فنشنتريو جاليلي كان يعمل موسيقيا ولكنه جمع بين الفن والنجارة بسبب قلة موارده من الفن . وكان أصلا من فلورنسا وينتمي إلى عائلة مرموقه ، فكان منهم الوزير في القرن الرابع عشر وكان منهم الطبيب الشهير في القرن الخامس عشر ، ولا تزال قبورهم هناك في كنيسة سانتا كروتشي ، حيث مثوى

جاليليو نفسه . وكان الأب بارعا في العزف على العود ضليعا في نظريات الموسيقى وفي الرياضيات وفي الآداب اليونانية واللاتينية . ولكنه كان محافظا في الموسيقى ، فكان يعادى البوليفونية ( تعدد الأصوات ) والتجديف الموسيقى الواردين من البنديمية ويدعو للعودة الى الميلودية ، وله في هذا مؤلفات .

وكان جاليليو هو الابن الاكبر على سنة ابناء آخرين ، منهم ابن ويتنان اختفى ذكرهم تماما ، أما الباقيون ، وهم فرجيتا وليفيا وميكلانجلو فقد كان لهم دور هام في حياة جاليليو ، وقد عاشت أسرة فنتشنتزيو جاليلي في بيزا حتى عام ١٥٧٤ ثم انتقلت الى فلورنسا . ودخل جاليليو في صباح ديرا حيث تعلم مبادئ المنطق ولكنه لم يستمر ، بل التحق في ١٥٨١ ، اي وهو في السادسة عشرة من عمره ، بجامعة بيزا بقسم « الفنون الحرة » بوصفه طالب طب بتوجيه من أبيه ، ولكنه لم يجد اي اهتمام بدراسة الطب ، ثم عاد الى فلورنسا في ١٥٨٥ دون اتمام دراسته ولم يحصل من الجامعة على درجة علمية في الطب او في غير الطب .

وقد بدأ جاليليو يدرس مبادئ الرياضيات سرا دون علم أبيه عام ١٥٨٣ . وكان معلمه صديقا للأسرة اسمه أوستيليو ريتتشي . وسُطعَتْ موهبة جاليليو في الرياضيات الى درجة اذهلت معلمه ريتتشي ، فاستأند ريتتشي أباه في أن يواصل تعليمه فوافق الأب مشترطا الا يجور ذلك على دراسة الطب التي اختارها الأب لابنه لأنها مهنة مجرية .

ولعل أهم ما أخذه جاليليو عن ريتتشي أن ريتتشي كان يعلم الرياضيات بعقلية مهندس ، اي على أساس أن مبادئ الرياضيات قابلة للتطبيق العملي ، وكان تدرِّيس الرياضيات مهملا في جامعة بيزا كما كان تعلم الفيزياء مهملا فيها ، ولذا احتاج جاليليو الى استاذ آخر من فلورنسا ليعلمها الفيزياء ، وهو الاستاذ بوناميكيو . ولكن مشكلة بوناميكيو أنه كان يتبع مدرسة ارسطو التقليدية ، مدرسة المشائين ، وكانت ملتزمة بالفيزياء الارسطاطاليسية ، وكان له كتاب فيها اسمه « في الحركة » في عشرة أبواب نشر في ١٥٨٤ وتأثر به جاليليو الشاب كما تأثر بمحاضراته في جامعة بيزا ، ويظهر ذلك في كتابات شبابه . ولم تكن الفيزياء الارسطاطاليسية مثل الفيزياء اليوم ، بل كانت خليطا من الميتافيزيقا والتجربة العملية او نوعا من علم الكون المستخدم في تفسير ظواهر محددة او قوانين مادية محددة .

اما ريتتشي فكان على العكس من ذلك يدعو جاليليو الى التخلص عن هذه الفيزياء الارسطاطاليسية القديمة والى الاتجاه الى الفيزياء « الباريسية » ، وبالفعل نجح ريتتشي في التأثير على جاليليو .

وفي ١٥٨٣ اكتشف غاليليو نظرية تساوى الزمن في ذبذبات البندول ، والمتداول أنه وصل الى نتائجه من ملاحظة الحركة البندولية لمصباح معلق في كاتدرائية بيزا . كذلك طبق غاليليو نظرية التساوى الزمنى في الذبابات البصفيرة على ضربات النبض وعلى ضربات القلب . وهذا نموذج من اهتمامه الدائم بأن يجد تطبيقات عملية لنظرياته الرياضية .

وفي ١٥٨٥ عاد غاليليو الى فلورنسا وأقام في أسرته اربع سنوات لا يعمل شيئا الا الالتمام الثقافي للآداب والعلوم . وأقبل على الكلاسيكيات فدرس فرجيل وهوراس وأوفيد وستينيكا . وفي هذه الفترة تداخل الشعر والعلم في وجده حتى أنه قدم لأكاديمية فلورنسا بحثا في ١٥٨٨ عنوانه « دروس في شكل جحيم دانتي ومكانه وحجمه » ، وبذلك حول « جحيم » دانتي الى مجموعة من المشكلات الرياضية .

وفي ١٥٨٦ اخترع غاليليو الميزان الهيدروستاتيكي لتحديد الوزن النوعي للأجسام ، وكتب في ذلك بحثا اسمه « الميزان » نشر بعد موته . وفي ١٥٨٦ - ١٥٨٧ كتب غاليليو كتابا عن مركز الثقل في الأجسام ولم ينشره الا عام ١٦٣٨ .

وكان غاليليو طوال هذه الفترة يرتفق من تدريس الرياضيات في فلورنسا . وكان ينصحه الاستقرار المادى فبحث عن منصب للتدريس الجامعى فجرب جامعة بولونيا ولكنها فضلت عليه استاذًا آخر ، غير أنه عينأخيرا في كرسى الرياضيات بجامعة بيزا بمرتب ضئيل هو ٦٠ أسكودى سنويًا ، بينما كان استاذ الطب يتتقاضى ٢٠٠٠ أسكودى سنويًا .

وقضى غاليليو في بيزا ثلاثة سنوات استاذًا للرياضيات كان خلالها يعلم هندسة أفليديس وفلك بطليموس الفاتحين على أن الأرض هي مركز الكون . كان يعلم الهندسة التقليدية والفلك التقليدي بين ١٥٨٩ - ١٥٩٢ ، بحيث لا يستطيع أحد أن يجزم اذا كان غاليليو في هذه المرحلة مؤمنا بهما أم أنه كان يفعل ذلك من باب « أكل العيش » . وفي رأى الاستاذ كويريه أن فترة جامعة بيزا كانت بداية قبول غاليليو ثورة كوبيرنيك في علم الفلك وبداية الديناميكا الجديدة التي وضع غاليليو أساسها . فلما انتقل غاليليو الى جامعة بادوا شاع عنه أنه كان يعلم فلك بطليموس علينا ويدافع سرا عن فلك كوبيرنيك .

وفي ١٥٩١ مات أبوه ، فكان على غاليليو أن يعول أسرته الكبيرة المكونة من امه وأخوته وأخواته . وانتهى عقده مع جامعة بيزا فساعدته

أحد رعاته من النبلاء على التعاقد في ديسمبر ١٥٩٢ مع جامعة بادوا لشغل كرسى الرياضيات لمدة أربع سنوات قابلة للمدد سنتين آخرين بموافقة دوق البندقية ، فقد كانت جامعة بادوا تابعة للبندقية . غير أن مرتبه ظل ضئيلاً (١٨٠ فلورين سنوياً) ، فلم يخفف هذا من ضنكه المالي .

وبداً اعراض جاليليو عن نظرية ارسطو في الحركة ، وهى أن الحركة نتيجة لتأثير الغلاف الذى تتحرك فيه الأشياء كثوة الماء والهواء ، منذ فترة تدريس جاليليو في جامعة بيزا . كذلك أعرض جاليليو عن نظرية « الدافع » التي كانت شائعة في جامعة باريس ، وأعرض عن الرياضيات الفيثاغورية ورياضيات الأفلاطونية الحديثة التي كانت تقرأ في الأرقام خصائص ميتافيزيقية معينة وترتبط ربطاً سحرياً بين الأرقام وبين بعض ظواهر الطبيعة .

وظهر اتجاه جاليليو إلى ربط الرياضيات بالتطبيقات العملية . بل ظهر اعراضه عن الرياضة البختة جملة وهي الرياضة الأفلاطونية ، فقد كان علم الرياضيات عند أفلاطون علماً نظرياً صرفاً لا ملاقاة له بالواقع ، علماً مثالياً يمثل الحقائق العليا الس الكاملة المجردة ، حتى لقد كتب أفلاطون على باب الأكاديمية التي أسسها خارج أثينا شاعر : « لا يدخلها إلا الرياضيون » . ومنذ فترة بيزا أيضاً اتجه جاليليو إلى تكامل المعرفة فكان يكتب عن الشاعر الإيطالي الملحمي تاسو وعن الشاعر الإيطالي الملحمي أريوسسطو كما سبق له أن كتب عن جحيم دانتي ، وتجلت في كتاباته وحدة الثقافة العلمية والثقافة الأدبية . وكان يسرخ في كتاباته من علماء البرج العاجى المنفصلين عن الحياة ويتهمهم بالخذلقة . وقد عبر عن ذلك في هجائه للأرواب الجامعية وهي رداء العلماء .

وعلى الجملة فقد كان جو جامعة بيزا خانقاً لجاليليو ، فلما انتقل إلى جامعة بادوا وجد الجو العلمي فيها دافعاً بروح الرماللة الحقيقية والاستاذية الصادقة وبحرية البحث العلمي التامة التي ضمنتها حكومة البندقية . واشتغل جاليليو في جامعة بادوا ثمانى عشرة سنة وصفها فيما بعد ، عام ١٦٤٠ ، بأنها كانت أجمل سنوات عمره . وبداً مرتبه في بادوا بمبلغ ١٨٠ فلورينا سنوياً ، ثم ارتفع في ١٥٩٨ إلى ٣٢٠ فلورينا سنوياً ، ثم ارتفع في ١٦٠٦ إلى ٥٢٠ فلورينا سنوياً ، ثم ارتفع في ١٦٠٩ إلى ١٠٠٠ فلورين سنوياً . ومع ذلك فقد ظل جاليليو في ارتباك مالى مزمن بسبب كفالته لأسرته . فقد جهز أخته فرجينيا للزواج ثم جهز أخته ليفيا أيضاً للزواج ، وكان ينفق على أخيه الموسيقى الموهوب المتلاط ميكلانجلو وعلى زواجه وعلى أولاده الكثرين .

ويبدو أن هذه التبعات العائلية قد جعلت غاليليو يزهد في الزواج أو يخاف من مسئوليات الزواج . ومع ذلك نجده قد أنشأ لنفسه أسرة غير شرعية ، فعاشر امرأة من البندقية تدعى مارينا جامبا عشر سنوات ، وانتقلت مارينا اليه في بادوا وأنجبت منه بنتين هما جينيا في ١٦٠٠ وليفيا في ١٦٠١ ثم غلاما هو فنشنتريو في ١٦٠٦ . ولم تكن مارينا تقيم مع غاليليو تحت سقف واحد بل كانت تقيم في منزل مستقل ، ربما مراعاة للتقاليد وربما طلبا للهدوء . ثم انفصل غاليليو ومارينا عند انتقال غاليليو إلى فلورنسا عام ١٦١٠ ، وكان انفصalam على موعد فترك في كنفها ابنه الصغير فنشنتريو لتربيته حتى بعد زواجهما من أحد معارفه ، أما البتان فقد أدخلهما غاليليو الدير ، وهو لون من القسوة الفظيعة التي لجأ إليها غاليليو لعلمه بأن بنته لا أمل لها في الزواج من أحد في مثل طبقة الاجتماعية .

وبسبب هذه الضائقة المالية المنصلة التي كان يعيش فيها غاليليو في بادوا كان يستكمل دخله باعطاء دروس خصوصية لطلبة الجامعة ، فتحول بيته إلى ما يشبه النزل أو الفندق ، فكان يقيم فيه نحو عشرين طالبا جاءوا من مختلف أرجاء أوروبا ، بعضهم بسبب شهرة جامعة بادوا وبعضهم بسبب شهرة غاليليو نفسه ، وكان جلهم من أبناء البيوتات .

ووجد غاليليو وهو في بادوا أن مشكلته الحقيقة هي أنه كان يضيع أكثر وقته على الدروس الخصوصية بدلاً من تخصيصه للبحث العلمي أو للنشاط الثقافي ، فقرر أن ينهي علاقته بجامعة بادوا وأن يدخل في خدمة راع ينفق عليه حبا في العلم وطلب المجد . وبعد مفاوضات دخل بلاط الغراندوق كوسيمو الثاني دي ميديتشي أمير توسكانيا الذي كان أحد طلبه في بادوا ومن أشد المعجبين به ، وترك له كوسيمو مطلق الحرية في البحث والتفكير والدعوة لما يعتقد من نظريات . وقد ساءت عاقبة هذا الاختيار ولكنه بدأ يومئذ لغاليليو أنه أفضل اختيار ممكن .

وفي فترة التدريس بجامعة بادوا لم يؤلف غاليليو كتاباً ذات بال ، ولكنه اكتشف بعض قوانين الميكانيكا الهامة مثل قوانين تزايد سرعة الأجسام الساقطة تزايداً طبيعياً . والغريب أن غاليليو وضع كتابه المسمى : «رسالة عن الكرة الأرضية أو عن خريطة الكون» ، وليس فيه إشارة واحدة إلى كوبيرنيك أو اعتراض واحد على تصور بطليموس أن الأرض هي مركز الكون ، ومع ذلك ففي تلك السنة نفسها كان غاليليو يعلن لأول مرة دفاعه عن نيك كوبيرنيك في خطاب بتاريخ ٣٠ مايو ١٥٩٧ إلى أستاذ الفلسفة بجامعة بيزا يدعى ماتزونى ، وفي خطاب بتاريخ ٤ أغسطس ١٥٩٧ إلى

العلامة كبلر . وكان كبلر أستاذاً للفلك والرياضيات بجامعة توبنجن بألمانيا، ونشر في ١٥٩٦ كتابه « مقدمة رسائل في شرح سر خريطة الكون بخمسة اشكال هندسية » . ويقول غاليليو في خطابه لـ كبلر انه اعتنق نظرية كوبرنيك في الفلك لسنوات مضت وبها استطاع تفسير عديد من ظواهر الطبيعة .

وإذا كان غاليليو باعتقاده قد اعتنق نظريات كوبرنيك الفلكية ، على الأقل منذ أوائل التسعينيات من القرن السادس عشر وهو يعمل في جامعة بادوا ، فلا شك أنه كان يتبع في صمت أولاً بأول محنّة جورданو برونو أمام محكمة التفتيش في البندقية ثم في روما حتى اعدامه على المحرقة بتهمة الزندقة . وقد كان من الاتهامات الأساسية التي جرت الكارثة على برونو دعوته لثورة كوبرنيك في الفلك ورفضه نظرية أرسطو وبطليموس في أن الأرض هي مركز الكون وأنها ثابتة تدور حولها الشمس والكواكب السيارة السبعة فيما يسمى السموات السبع .

وإذن فالأرجح أن غاليليو أدرك أن ما كان يجري لجورданو برونو كان بمثابة إنذار لكل علماء عصره . وقد طلب كبلر من غاليليو نشر الأدلة التي توصل إليها لآيات صحة نظرية كوبرنيك ولكن غاليليو لم يستجب ، والأرجح أن الحذر كان وراء تكتم غاليليو العلمي في هذه الفترة من حياته ، وليس تناقض الشخصية ، كما ذهب بعض مؤرخي الفكر . فاذا ذكرنا عبودية غاليليو المالية لأسرته خلال فترة عمله في جامعة بادوا ، أدركنا سر حرصه الشديد لا يزوج بنفسه في متابعته تعرضه وتعرضه ذويه للتشرد في هذه الفترة من حياته .

أما صمته التام عن مأساة جورданو برونو فالأرجح ان سببه ان برونو كان يستخرج من ذلك كوبرنيك فلسفة روحانية خارج الإطار المسيحي تصل إلى حدود الزندقة الصارخة ، بينما كان غاليليو يعلن دائماً أنه صادق الإيمان مخلص للكنيسة الكاثوليكية ، وأن قصارى أمله هو أن يكسب رجال الدين ، وعلى رأسهم البابا والكرادلة ، إلى صفات العلم والمنهج العلمي .

وكانت أول إشارة معلنة من غاليليو إلى نظرية كوبرنيك في الفلك عام ١٦٠٤ . ففي ٣٠ سبتمبر ١٦٠٤ أبلغه راهب يدعى التوبيلي أنه رأى نجماً جديداً في السماء ، وقد أيد هذه الرؤية عالم في ميلان يدعى كابرا الذي أبلغ غاليليو أن هذا النجم استمر في السماء لمدة ١٨ شهراً وأن حجمه

تضاعف تدريجيا خلال هذه الفترة ، والذى جاليليو ثلث محاضرات في هذا الموضوع حضرها جمهور كبير ، وكان رأى جاليليو ان ظهور هذا النجم يثبت بوضوح صحة نظرية كوبيرنيك في الفلك .

وفي أثناء فترة بادوا أنشأ جاليليو في منزله ورشة يصنع فيها الموازين والمقاييس والعدسات والتليسكوبات ويجمع الأدوات المفناطيسية . واخترع مسطرة حاسبة كان يسميها « البرجل الهندسى الحربى » ، وقد شاع استعمالها في حساب اللوغاريمات . واخترع مقياسا للحرارة هو في حقيقته ترمومتربارومتر لأنه يتتأثر بالحرارة وبالضغط الجوى . وفي ١٦٠٩ صنع نموذجا لتليسكوبه المشهور . كانت الثورة الثقافية تعنى عند جاليليو التعايش بين العلم والدين لا أكثر من هذا .

وفي ١٦٠٤ كتب جاليليو خطابا الى راهب يدعى باولو ساربى يشرح فيه نظريته حول قانون الاجسام الساقطة ، ملاحظا زيادة سرعة الاجسام الساقطة بنسبة ابعادها عن نقطة السقوط ، وكانت هذه بداية البحث في الجاذبية ، ثم نفع نظريته أخيرا بقوله ان زيادة سرعة الاجسام الساقطة مطردة مع بعدها عن « لحظة » السقوط وليس مع بعدها عن « نقطة » السقوط .

وتحتل قوانين الميكانيكا ركنا هاما في أعمال جاليليو ، فقد وجه جاليليو كل اهتمامه لدراسة قوانين الميكانيكا وتدریسها بين ١٦٠٢ و ١٦٠٩ . وكان منذ ١٥٩٨ يخصص محاضراته لشرح الظواهر الميكانيكية بدءا بـميكانيكا أرسطو التي كانت فرعا من فروع الفيزياء ، ولكنه لم ينشر شيئا في هذا الموضوع في تلك الفترة . والراجح أن تجاربه وملحوظاته ودراساته في تلك الفترة كانت الخاممة التي بنى عليها كتابه العظيم الذي صدر في ١٦٣٨ ، وهو « حوار العلوم الحديثة » ، وربما أيضا نص كتابه « رسالة في الميكانيكا » الذي نشر في باريس عام ١٦٣٤ في ترجمته الفرنسية قبل نشره بالإيطالية في ١٦٤٩ بعد وفاة جاليليو .

• • •

## العاشرة الأولى

□ في كتاب « الطبيعة » (« الفيزيقا » أو « الفيزياء ») لارسطو تحدث ارسطو عن الميكانيكا فقسم الحركة الطبيعية إلى نوعين : حركة هابطة ، وهذه هي حركة الأرض والماء ، وحركة صاعدة ، وهذه هي حركة الهواء والنار .

اما جاليليو فقال ان الحركة الطبيعية حركة واحدة ، وهى الحركة الهابطة . بمعنى آخر ، كل جسم عند جاليليو له وزن ، وبناء عليه فهو يتوجه طبيعياً بحكم وزنه إلى مركز الأرض .

فإذا كانت هناك أجسام ذات حركة صاعدة فذلك لأنها تندفع في مجال ذى وزن نوعى أكبر من وزنها ، وهذا يدفعها إلى أعلى كما اكتشف أرشميدس . حتى الهواء والنار ، اذا لم يوجدا في مجال ذى وزن نوعى أكبر من وزنهم ، فان اتجاه حركتهما الطبيعية يكون إلى أسفل . وقد تجاوز جاليليو أرشميدس في أن أرشميدس كان يطبق الرياضيات على الأشياء الاستاتيكية ، اي وهي في حالة ثبات ، أما جاليليو فكان يطبقها على الأشياء الديناميكية ، اي وهي في حالة حركة .

وبعد أن اكتشف جاليليو قانونه بأن الأجسام الساقطة تزداد سرعتها زيادة مطردة مع ابتعادها عن نقطة السقوط في المكان ، عدل نظريته وقال ان الأجسام الساقطة تزداد سرعتها زيادة مطردة مع ابتعادها عن لحظة السقوط في الزمان وليس عن نقطة السقوط في المكان .

وقد كان هناك اجماع بين مؤرخي العلم على أن جاليليو كان أول من اهتدى إلى قانون القصور الذاتي ، ولكن مؤرخ الفكر العلامة كويريه حاول إثبات أن صاحب الفضل في اكتشاف هذا القانون كان ديكارت .

وكانت أهم آلة اخترعها جاليليو هي « التليسكوب » ، وهو المنظار المقرب للأشياء البعيدة بحيث تبدو أكبر حجماً وأشد وضوحاً مما هي للعين المجردة . وقد سبقه إلى هذا الاختراع آخرون بعضهم من صناع عدسات الابصار في هولندا وغيرها . وكان كبلر وجيونفانى باتيستا ديللا بورتا قد

توصلا في ١٥٨٩ و ١٥٩٣ و ١٦٠٤ ، وكانا من المختصين في البصريات ، إلى دراسة طبيعة العدسات ، ولكن دراستهما وقفت عند الحد النظري . كذلك اخترع أسطى نظاراتي هولندي المنظار المقرب وعرضه على بعض الامراء للأغراض الحربية ولكن لم يحفل به كثيرون وفشل تجاريا . وكان هذا النظاراتي الهولندي لا يعرف شيئاً عن نظرية البصريات والعدسات ، فتجاهله كيلر وديلا بورتا تماماً . وفي الطرف المقابل اهتمي كيلر نظرياً في ١٦١١ إلى نظرية التلسكوب ، ولكنه لم يصنع منظاراً ولا نظارات .

صنع جاليليو التلسكوب ونسب اختراعه لنفسه وتقديمه لجمهوريّة البندقية في ٢٥ أغسطس ١٦٠٩ فأثار فيها حماساً عظيماً ، وكافأته البندقية بأن عرضت عليه مد عقده في جامعة بادوا مدى الحياة وزيادة مرتبه من ٥٠٠ فلورين إلى ١٠٠٠ فلورين سنوياً . وكثُرت الحملات عليه بسبب اعلانه أنه صاحب هذا الاختراع ، فخاض معاركه مع كيلر وديلا بورتا بسبب هذا الادعاء ولم يسلم من تهجم عشرات من نظاراتية أوروبا الذين كانت حرفتهم صناعة العدسات .. ومع ذلك فمن المؤكد أن جاليليو ، سواء أكان المخترع الحقيقي للتلسكوب أم كان أول من صنع تلسكوباً متقدماً ، كان أول من استخدم التلسكوب في رصد الكواكب ونجوم السماء .

استعمل جاليليو المنظار في دراسة نجوم السماء بانتظام . وفي يناير ١٦١٠ أعلن بعض النتائج الهمة . وإحدى هذه النتائج أن سطح القمر شبيه بسطح الأرض وفيه جبال أعلى بكثير من جبال الأرض . كذلك اكتشف جاليليو أن نهر المجرة يبدو « كمجموعة مكدة من النجوم الصغيرة » ، كما اكتشف أن كوكب « جوبير » ( المشترى ) له ثلاثة أقمار تابعة له ، ثم اكتشف أن عدد هذه الأقمار أربعة وليس ثلاثة ، وقد أطلق جاليليو عليها اسم « أقمار مدیتشي » أو « كوكبة مدیتشي » ، وأرسل إلى كوسيمو دي مدیتشي الثاني عاشر فلورنسا منظاراً مقرضاً بصفة هدية ووعده بمناظر أفضل . وفي آخر يناير ١٦١٠ طبع جاليليو نتائج أبحاثه في كتاب صغير باللاتينية في البندقية ، أرده في ١٢ مارس ١٦١٠ بكتابه اللاتيني الشهير « رسول النجوم » ، فأهداه كوسيمو الثاني قلادة من ذهب وميدالية .

وفي ٥ يونيو ١٦١٠ أرسل سكرتير كوسيمو الثاني إلى جاليليو خطاباً يقول فيه ان الغراندوق كوسيمو قرر تعيينه الرياضي الأول في جامعة بيزا وفليسوف الغراندوق السامي ، مع إعفائه من واجبات التدريس في جامعة بيزا مع الإقامة في هذه المدينة بمرتب قدره ١٠٠٠ جنيه سنوياً

من عملة فلورنسا . ووافق غاليليو على هذا العرض ووقع العقد في ١٠ مايو ١٦١٠ . وكان هذا بالضبط ما يصبو غاليليو إليه ، أن يحصل على منحة تفرغ تمكنه من الانقطاع للبحث العلمي وللتعمير الثقافي . وقد غضبت سلطات البندقية وبادوا من هذا الانتصار المفاجئ ، ولاسيما بعد كل ما غمرت به غاليليو من مظاهر التكريم .

وقبيل انتقاله المفاجئ من بادوا إلى فلورنسا اكتشف غاليليو بعض البقع الشمسية التي سبق أن تحدث عنها شاعر الرومان الأعظم فرجيل في ديوانه « أغاني الفلاحين » ( « الجورجيك » ) ، وكذلك اكتشف أن الكوكب ساتورن ( زحل ) ، وهو أبعد الكواكب السيارة ، مكون من ثلاثة نجوم . وبمجرد وصول غاليليو إلى فلورنسا اكتشف أن منازل كوكب الزهرة تشبه تماماً منازل القمر .

وكان لهذه الاكتشافات رد فعل قوي في أوروبا كلها بالإيجاب والسلب معاً ، وأدعى عالم اسمه سيمون مير أنه اكتشف توابع جوبيرت قبل غاليليو بأيام . ومن نقاد غاليليو عالم اسمه سيزار كريمونيني كان زميلاً لغاليليو في بادوا ، وقد أدعى أن تليسكوب غاليليو أداة لا تؤدي إلى كشف صحيحة ، وكان أرسطاطاليسيا متمسكاً بالنظرية التقليدية وهي أن الكواكب السيارة السبعة ، وهي القمر والزهرة وعطارد والمريخ والمشترى وزحل والشمس في ظن القدماء ، كلها تدور حول الأرض ، وأن الأرض هي مركز الكون . ولم يهتم كريمونيني حتى أن ينظر إلى السماء بمنظار غاليليو ، ونشر هجومه على غاليليو في كتاب أصدره في البندقية عام ١٦١٣ .

وكان أخطر اعتراض هو اعتراض أنطونيو ماجيني ، استاذ الرياضيات بجامعة بولونيا ، الذي زعم أن عدسة مظمار غاليليو تجعل الرؤية مزدوجة . وكان غاليليو مهتماً باقتناعه فسابر إليه بمنظاره ، ولكن جمود فكر ماجيني جعله يصر على أن هذه الرؤية المزدوجة تجعل غاليليو يتوهם رؤية أربعة توابع لا وجود لها . غير أن ماجيني بعد طول دراسة للسماء بمنظار غاليليو عاد واقتنع بصحة مشاهدات غاليليو ، فتراجع ماجيني واعتذر اعتذاراً كريماً .

وهو نفس ما سبق أن حدث للإيطاليوس ، استاذ الرياضيات بجامعة روما ، الذي ظن في أكتوبر ١٦١٠ أن عدسة مظمار غاليليو تؤدي إلى الخداع الحسي ، ولكن بعد طول دراسة للسماء بهذا المنظار اقتنع في ديسمبر ١٦١٠ بصحة كشف غاليليو لثريا مدیتشی .

وبالمثل كان كبلر أولاً من المعارضين ، ولكنه تحول إلى الاشادة باكتشاف جاليليو في خطابه إليه المؤرخ ١٩ أبريل ١٦١٠ . ومع ذلك فقد لام كبلر جاليليو لأنّه أغفل ذكر من سبقوه في صناعة المنظار أو في الاهتمام إلى نظريته ، من أمثل دليلًا بورتا وكبلر نفسه . وبين ٣٠ أغسطس و ٩ سبتمبر ١٦١٠ عكف كبلر على دراسة السماء بمنظار متقد كان جاليليو قد أرسله إلى أمير كولونيا ، وأعلن كبلر تأكده من وجود كوكبة مدیتشي على الأقل . وأعلن ذلك على الملأ في بحث نشره عام ١٦١١ في فرانكفورت قال فيه « لقد انتصرت يا جاليليو » ..

وكان على جاليليو أن يقنع علماء روما ، فانتقل إلى روما في أول أبريل ١٦١١ ، واستقبله عديد من الكرادلة بحفاوة بالغة . ثم استقبله البابا بول الخامس نفسه وسمح له أن ينهض في حضرته بدلاً من الركوع كما كان يقتضي البروتوكول ، وكان معه الأمير فرديريكو تشيزى ، مؤسس « أكاديمية ليتشى » للرياضيات والفيزياء والتاريخ الطبيعي وأدخل الأمير جاليليو عضواً بالأكاديمية .

وكان للأباء الجزوiet في الفاتيكان سطوة عظيمة ، وكانوا من أوسع رجال الدين في ذلك العصر معرفة بالعلوم والرياضيات .

واستقبل الآباء الجزوiet جاليليو أولاً بحفاوة بالغة ، واعترفوا بوجود شرياً مدیتشي حول كوكب جوبیتر بعد دراسة مركزة بالمنظار استغرقت نحو شهرين ، وأعلنوا هذا في احتفال رسمي بحضور جاليليو في مايو ١٦١١ . ولكن الجزوiet كانوا متحفظين بالنسبة لبقية استنتاجات جاليليو .

وكان الجزوiet رغم سعة معرفتهم بالرياضيات والعلوم من أشد الطوائف محافظة على العقيدة الكاثوليكية التقليدية ، وكانوا يخشون أن يزعزع العلم الحديث هذه العقيدة التقليدية .. وكان زعيم هؤلاء المحافظين الكاردينال بلارمين رئيس محكمة التفتيش الذي سبق أن رأيناه يجري التحقيق مع جورданو برونو ويدينه في ١٦٠٠ . وما فتئ بلارمين يبدى المخاوف من النظريات الفلكية الحديثة حتى قرر مجمع الكرادلة في الفاتيكان في ١٦ مايو ١٦١١ الاستعلام عما إذا كان اسم جاليليو قد ورد في قضية كريمونيني أمام محكمة التفتيش . ورغم أن كريمونيني كان من أتباع أرسسطو فقد أتهم بالزنقة ودافعت عنه جمهورية البندقية حتى برئ ..

وكانت ا Unterstütـات بعض الجزوiet من أتباع أرسسطو ، مثل الأب كلافيوس ، تقوم على أن وجود جبال في القمر يتلـلـ من كروية القمر الكاملة .

نأجاب جاليليو بأن الكروية الكاملة ليست سوى مجرد افتراض تقليدي ، وفي العلم لا ينبع التعميل إلا على ما هو ثابت أو قابل للاثبات . كذلك أجاب بأن حواسنا قد تنضي إلى الخطأ ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخلى عن حواسنا كأدوات للمعرفة ونعتمد على أدوات غيبية أو خفية . المشاهدة والتجربة هما أساس المنهج العلمي ، وفضل جاليليو على المنهج العلمي كبير . وكانت مشكلة جاليليو بين ١٦١٠ و ١٦١٥ هي بنتهاء الكجرى فرجينيا والصغرى ليفيا ، فأخذلهم دير سان ماتيو في نهاية ١٦١٣ ، وكانت الأولى في سن ١٣ والثانية في سن ١٢ ، ولذا استحال أن تلبسا الحجاب فورا ، ولكنها دخلتا عهد الرهبنة في ١٦١٦ ، وكانت الكجرى مستسلمة أما الصغرى فكانت متبردة . وكانت هذه طريقة جاليليو الأنانية في التخلص من مسئولية الفتاتين حتى يتفرغ للعلم ، فقد كان يائسا من زواج بنتيه غير الشرعيتين من رجلين في مكانته الاجتماعية .

وبين ١٦١١ و ١٦١٥ تفرغ جاليليو لبحث مشكلة الأجسام الطافية ومشكلة البقع الشمسية . وفي هذه الفترة نشر كتابيه « حديث في الأجسام الطافية » (١٦١٢) و « رسائل شمسية » ، وكانت هناك مناظرة ودية في قصر الغراندوق كوسيمو الثاني عام ١٦١١ حول قانون الأجسام الطافية شارك فيها عدد من العلماء وال فلاسفه المدعوهين ، ودافع فيها جاليليو عن نظرية أرشميدس ، وانحاز له الكاردينال بربيريلى الذى غدا فيما بعد البابا أوربيان الثامن . وفي الطرف الآخر كان هناك عالم أرسطاطاليسى من فلورنسا يدعى ديللا كولومبيه يؤيد الكاردينال جونزاجا واتباع أرسطو المعادين لنظرية كوبرنيك .

كان أرسطو ينسب طفو الأجسام على الماء إلى أن الأجسام الطافية يتخللها الهواء لأن الهواء نازع للصعود . أما أرشميدس ففسر طفو الأجسام بقلة وزنها النوعى عن وزن الماء النوعى ، وانحاز جاليليو لأرشميدس .

أما بالنسبة للبقع الشمسية فقد ثار جدل فظيع حولها بين جاليليو وملكي يدعى شاييرن . وكان جاليليو قد أعلن عن وجودها في مناقشاته وأحاديثه الخاصة ولكنه لم ينشر عنها شيئا ، فإذا بشاييرن يفاجئه بنسبة هذا الاكتشاف إلى نفسه . وكان تفسير شاييرن للبقع الشمسية أنها نتيجة لتكدد النجوم أو السدم حول الشمس كطروdd النحل وقرر أنها منفصلة عن الشمس . أما جاليليو فقال أنها أشبه بالسحب والأبخرة منها بالسدم أو النجوم وانها من مادة حم سائلة غير منفصلة عن الشمس وإنما هي موجودة على سطحها ، وفسر ما يبدو من دوران البقع حول الشمس بأنه

دليل على أن الشمس نفسها تدور حول محورها ، ووُجِد في هذا تأييدها جديداً لنظرية كوبيرنيك القائلة بأن هناك علاقة بين دوران الشمس حول نفسها ودوران المجموعة الشمسية حول الشمس .

وقد قضى غاليليو عشرين عاماً يدعو لنظرية كوبيرنيك عرف فيها ماراة الهزيمة في ١٦٢٢ ثم اثنول أمام محكمة التفتيش والسجن في ١٦٣٣ . وكان غاليليو يعرف النتائج الخطيرة المترتبة على نظرية كوبيرنيك في الفلك ، إلا وهي زعزعة العقيدة الدينية ، ولكنه في الوقت نفسه كان يدرك خطورة الكنيسة لو وقفت حائلاً في طريق العلم الحديث ، لذا فقد قامت دعوته على أن نظرية كوبيرنيك لا تتعارض مع العقيدة الدينية . وكان مهتماً باقتناع كبار رجال الدين بالكونيكية لكي يحصل على تأييد الكنيسة .

كان يقول إن أقوال الكتاب المقدس في الفلك صحيحة ، وأنّ أقوال كوبيرنيك صحيحة . ولم يحاول مثل الفلكل الدنماركي تيكو براهي أن يجري تنازلات في العلم للتوفيق بينه وبين الدين . فرفض غاليليو كل الحلول الوسط لارضاء أصحاب القديم ، ولكنه في الوقت نفسه رفض كل تصحيح للعقيدة يمكن أن يضع العلم خارج العقيدة .

وكان تفسيره للتناقض بين العلم والدين أنه تناقض ظاهري فقط ناشئ من مشكلة التعبير اللغوي . فالعلم يتعامل مع حقائق الطبيعة والكتاب المقدس يستخدم لغة تقرب حقائق الطبيعة من أفهمها عامة الناس . وهذا التعبير المجازى التقريري لا يغير حقيقة الطبيعة ولا يغير قوانينها الحقيقية لأن الطبيعة أو الخليقة هي « الفعل » الإلهي . ولغة العلم واضحة ودقيقة لا مجال فيها للغموض والتؤولات ، أما اللغة المألوفة فهي مرنّة وغير محددة ، الألفاظ فيها قد تحمل أكثر من معنى . وكان غاليليو يفضل الكتابة بالإيطالية من دون اللاتينية لينشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق ممكن .

وقد حاول غاليليو أن يشرك معه في دعوة التنوير العلمي غيره من العلماء ولكنهم أحجموا عن المجازفة . حتى كبلر كان يرى أن العلماء لا ينبغي أن يخاطبوا إلا العلماء وأن نظرية كوبيرنيك في دوران الأرض والكواكب حول الشمس لا يصح تداولها بين عامة الناس . بل لقد حمل كبلر غاليليو مسؤولية مصادر الكنيسة لكتاب كوبيرنيك وتحريم قراءته على المؤمنين بعد أن ظلت قراءته مباحة مدى ثمانين سنة ، لأن غاليليو علم الناس أن الأرض ليست مركز الكون وأنها تدور حول محورها وحول الشمس لا أن الشمس تدور حول الأرض .

وقد بدأت متابعة جاليليو التي انتهت بمحاكمته الأولى في 1616 عندما التقى راهب من الدومينيكان يدعى نيكولو لوريني في أول ديسمبر 1612 موعده في كنيسة دير سان ماتيو بفلورنسا هاجم فيها جاليليو وعلم الفلك الجديد الذي وضع كوبرنيك أساسه . ثم ما لبث هذا الراهب الجاهل أن كتب خطاباً لجاليليو معتقداً بأنه لم يقصد مهاجمته شخصياً وإنما قصد مهاجمة « رأي ابيرنانيكو » المعارض مع نصوص الكتاب المقدس . وكان جهل هذا الراهب موضوعاً لتفكه المثقفين .

اما الهجوم الثاني فجاء في 1614 من راهب دومينيكانى آخر يدعى كانشيني في خطبة الأحد في كنيسة سانتا ماريا نوفيلا بفلورنسا ، وفيها ندد كانشيني بعلم الرياضيات « الشيطانى » وبعلم الفلك « الشيطانى » ، واتهم جاليليو بالزندقة لأنّه كان يتخصص السماء بمنظاره في حين أنّ أنجيل لوقا استنكر في أهل الجليل الشخص إلى السماء وقت صعود المسيح .

وبعد أسابيع عاد الراهب لوريني إلى مهاجمة جاليليو فأرسل إلى أحد الكرادلة بالقرن البابوى نسخة من رسالة جاليليو إلى راهب عالم يدعى كاستيللى ، واتهم جاليليو باسم كل رهبان دير سان مارك بالمروق عن الدين ونسب إليه قوله « إن الأرض تتحرك بينما السماء ثابتة » وقوله « إن بعض آيات الكتاب المقدس لا تطابق الحقائق العلمية » ، وقوله « إنه في مناقشة الظواهر الطبيعية لا ينبغي الرجوع إلى الكتاب المقدس إلا في آخر الأمر » . وطلب الراهب لوريني الكاردينال باتخاذ إجراء لحماية العقيدة وقمع الفتنة في مدهما .

وهكذا قرر الفاتيكان بناء على هذه الشكوى اجراء تحقيق في سرية تامة ، وكلف كبير أساقفة بيزا ورئيس لجنة التقييس بها بالحصول « بطريقـة ماهرة » على أصل رسالة جاليليو إلى كاستيللى بخط جاليليو نفسه وأحال الموضوع إلى أحد مستشاريه .

وكانت هذه هي العاصفة الأولى .

• • •

## سنوات الصمت .

□ تناول التحقيق الرسالة الموجهة من جاليليو الى كاستيللى واتهامات الزندقة الموجهة الى جاليليو ومدرسته ، وأسفر بعد فحص الرسالة ان الاتهام زوبعة في فنجان .

قال تقرير مستشار الفاتيكان ، الذى كلف بفحص رسالة جاليليو الى كاستيللى ؛ انه لم يجد في هذه الرسالة الا ثلاثة عبارات سيئة التعبير ، منها مثلا قوله ان الكتاب المقدس به كثير من التعبيرات « الخطأة » لو اخذت بمعناها الحرف . غير ذلك فقد شهد التقرير بأن رسالة جاليليو « لم تحرف عن التعبير الكاثوليكي » .

وكان هناك اتجاه لحفظ الموضوع لولا ان الأب كاتشينى حضر بشخصه الى روما متطوعا للشهادة ضد جاليليو في ٢٠ مارس ١٦١٥ . واستشهد ب الرجلين أحدهما هو الأب خمینز والآخر هو الأب التفافانتى ، ولكن الرجلين شهدا في صالح جاليليو . قال التفافانتى : « أنا ما سمعت قط السيد جاليليو يتفوّه بأقوال معارضة لكتاب المقدس أو لعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة ، غير أنني في النطاقين الفلسفى ، والرياضي ، سمعت السيد المذكور يقول وفقاً لما ذهب كوبيرنิก ان الأرض تدور حول نفسها وإنها تتحرك أيضاً حول الشمس ، وأن الشمس كذلك تدور حول نفسها ولكنها لا تتحرك في مجال شيء ، كما يتضح من بعض رسائله التي نشرها في روما بعنوان « البقع الشمسية » والتي أوقفه عليها جملة وتفصيلاً .

وفي ٢٥ نوفمبر ١٦١٥ قرئت الشهادتان في جلسة المجلس البابوى وقرر المجلس الا يتتخذ اجراءات أخرى سوى دراسة كتاب « البقع الشمسية » ، وعنوانه الحقيقى « رسائل شمسية » ، لمعرفة أبعاد المشكلة .

وفي أوائل ديسمبر ١٦١٥ انتقل جاليليو متطوعاً من فلورنسا الى روما ليشرح قضيته بنفسه أمام كرادلة الفاتيكان وأمام البابا . . . وأمر كوسيمو دي مدیتشى الثانى جيتشاردینى ، سفير توسكانيا في روما ، أن يخصص له جناحاً ممتازاً في السفارة وسكرتيرا وخداماً خاصاً وبغلة يركبها في

تنقلاته ، كما كتب الى عدد من الكرادلة يوصيهم خيرا بجاليليو ، كذلك كان جاليليو معارف عديدة بين الكرادلة المثقفين . وكان جاليليو عظيم التفاؤل بكسبه قضيته ولكن ما مر أسبوعان حتى صدر قرار المجلس البابوى بتحريم نظرية كوبرنيك . أما السفير جيتشياردينى فكان منذ البداية شديد التشاوئ لأنه كان أعرف بمراكز القوى المحافظة داخل الفاتيكان . وقد كتب منذ البداية الى فلورنسا محذرا من مجىء جاليليو الى روما .

وقد كان الأمر بالفعل اكبر من جاليليو وقضيته : كان في الكنيسة حزبان كبيران حزب تقدمي يطالب بفتح الكنيسة على العلوم والآداب الحديثة ، وحزب رجعى يخشى أن تزلزل العلوم والآداب الحديثة كيان الكنيسة وتزعزع العقيدة الدينية . وكان بين الفريقين صراع خفى ضار على السلطة داخل الفاتيكان ، ولم تكن شكاوى الراهبين الا مجرد واجهة لهذا الصراع .

وكان زعيم المترمدين الكاردينال بلارمين الذى سبق أن رأى انه محقق محكمة التفتيش الذى استجوب جورданو برونو عام ١٦٠٠ . وكان بلارمين يترصد لجاليليو منذ زيارته السابقة لروما في ١٦١١ . نعرف هذا من رسالة ارسلها السفير جيتشياردينى في ٥ ديسمبر ١٦١٥ لاحد الوزراء في فلورنسا . قال جيتشياردينى ان نظريات جاليليو لم ترق لمجمع الكرادلة الى حد أن بلارمين هدد بأنه لو طالت اقامته في روما فمن الممكن مساعدته على أقواله .. وكان السفير غير مرتاح لزيارة جاليليو لروما للدفاع عن نظرياته او نظريات كوبرنيك . وقد أثبتت الأيام صحة هواجسه ، لأن الكرادلة الجزوiet تخلوا عن جاليليو بعد أن بدا ميلهم الى تأييده .

وفي ١٥ مايو ١٦١٥ كتب الكاردينال ديني لصديقته جاليليو : « أنا أعلم أن الكثرين من الجزوiet متفقون معك في الرأى في السر ولكنهم يسكنون عن الحق في العلن » . وقد انتهى أمرهم بالانسحاب من هذا الخلاف خوفا من أن انصار نظرية كوبرنيك قد يهدم فلسفة ارسطو ، وهذا ما جعل جاليليو يحمل لهم البعض بعد ١٦١٦ . ولكن غير واضح ان كان تدهور الموقف نتيجة لعدوانية الرهبان الدومينikan أو نتيجة لصمت الجزوiet .

وفي ١٩ فبراير ١٦١٦ قدم المجلس البابوى الى علماء اللاهوت قضيتين للبت فيما .

« (١) ان الشمس هي مركز الكون وبناء عليه فهي لا تتحرك .

(ب) ان الأرض ليست مركز الكون وانها ليست ثابتة بل تدور حول نفسها وان هذا الدوران حركة يومية » .

وفي ٢٤ فبراير أعلن علماء اللاهوت بالاجماع أن القضية الأولى سقيمة وتجافي العقل من الناحية الفلسفية ، وأنها تنطوى على كفر صريح من حيث تعارضها مع الأفكار الواردة في الكتاب المقدس بمعناها الحرفي وكما فهمها آباء الكنيسة وفقهاء الدين . أما القضية الثانية فهي أيضا خاطئة من الناحية الفلسفية ، أما من الناحية اللاهوتية فهي على الأقل خاطئة من وجهة نظر العقيدة الدينية . وفي اليوم التالي قرئ هذا القرار على مجمع الكرادلة في اجتماعه العام .

ومن المهم أن نذكر أنه لا القضية الأولى ولا القضية الثانية لها أي ذكر بالنص الحرفي في كتابات غاليليو أو كوبيرنيك ، وأنهما مجرد ترديد لاتهامات كاتشيني . فجاليليو لم يقل إن الشمس ثابتة لا تتحرك . ولكن كان واضحاً أن ادانة هاتين القضيتيين هي ادانة عامة لنظام كوبيرنيك الكوني . وبعد أيام أبلغ الأمر البابوي بتحريم نظرية كوبيرنيك إلى مجلس المصادرة . ففي ٥ مارس ١٦١٦ نشر المجلس قرار ادانة من ثلاثة نقاط :

١ - سحب كتب كوبيرنيك ودييجو دي زوتيفيا من التداول حتى يتم « تصحيحها » .

٢ - ادانة كتب الأب فوسكاريني وتحريمهما على وجه الاطلاق .

٣ - عدم ادانة كل الكتب التي تردد هذه النظريات ولكن تحريمهما في مجموعها .

ولم يرد في القرار ذكر لأعمال غاليليو بالذات ولكنها أصبحت ضمناً محремة . ولم يرد في القرار ادانة لرسائل غاليليو إلى الأب كاستيللي والكاردينال ديني وكريستين دي لورين زوجة كوسيمو دي ميديتشي الثاني باعتبار أنها رسائل شخصية رغم أنها كانت تنسخ لتقرأ على نطاق واسع . كذلك لم تصدر ادانة لكتاب غاليليو « رسائل شمسية » رغم أن المجلس البابوي نظر في أمرها في جلسة ٢٥ نوفمبر ١٦١٥ . والمؤرخون يفسرون هذا التغاضي بعدم رغبة الفاتيكان في أغضاب آل ميديتشي سادة فلورنسا أو إرهاق عالم كبير .

ومع ذلك ففي ٢٥ فبراير ١٦١٦ كلف البابا بول الخامس الكاردينال بلالمين باستدعاء غاليليو وخطاره بضرورة التخلص عن النظريات التي

ادانها الفاتيكان ، وفي حالة رفضه الانصياع لهذا الاخطر فقد كلف البابا الكاردينال بلالرمين بأن « يحذر » في حضور موثق وشهود أن يكف عن تعلم هذه النظريات المدانة او ان يحاول اثباتها عمليا ، اى باستخدام التلسكوب .

وفي ٢٦ فبراير ١٦١٦ استدعى بلالرمين جاليليو ، وفي حضور القوميسير البابوى طالبه في محضر بالتخلى عن نظرياته ، ثم أمره بعدها مباشرة بالامتناع عن تعلم او تعليم او عرض هذه النظريات شفاهة او كتابة « بأية صورة من الصور » . ويقول المحضر ان جاليليو وافق ووعد بالامتناع عن كل ما حرم عليه من أفكار ، وبالتالي لم يكن هناك مجال للإشارة الى عقوبة السجن اذا خالف التحذير .

كان هذا المحضر محضرا خطيرا رغم انه غير موقع ، لانه كان الاساس الذى بنيت عليه محاكمة جاليليو في ١٦٣٣ . وهناك من يقول بأنه محضر ملفق في ١٦٣٣ اثناء المحاكمة وليس المحضر الاصلى المدون في ١٦١٦ ، لأن فيه خروجا على القرار البابوى الذى لا يذكر « التحذير » من تعليم نظريات الفلك الجديدة الا في حالة رفض جاليليو « التخلى » عن هذه النظريات . ثم ان القرار البابوى لم ترد فيه عبارة « بأية صورة من الصور » التى يتضمن فيها التزييد بقصد التصديق . ولكن نحص الوثائق بالأشعة فوق البنفسجية قد أثبتت الآن ان المحضر مدون على ورق من نفس أوراق قضية ١٦١٦ . ومع ذلك فهذا لا ينفي ان الكاردينال بلالرمين المتخصص فى صيد الزنادقة او سواه سحب المحضر الاصلى فى تلك الفترة نفسها ووضع مكانه هذا المحضر الغريب الذى لا يحمل توقيعا بقصد استخدامه مستقبلا كدليل على عصيان جاليليو للأمر البابوى .. والمعنى الحقيقى لقرار البابا هو ان جاليليو لو شاء التمسك بنظرية كوبيرنيك فالكنيسة تتذرع ان يحتفظ بآفكاره لنفسه ولا ينشرها بين الناس . « فالتحذير » ينصب على حالة واحدة وهى الترويج لنظريات الفلك الجديدة .

والمفهوم من المحضر ان جاليليو وعد باطاعة امر الكنيسة او البابا فيما يمس تعليم الفلك الجديد لا ان جاليليو تراجع عن معتقداته . ومع ذلك فقد اتخذ اعداء جاليليو من هذا المحضر وسيلة للتشهير به ، مذهبوا يشيعون في كل مكان ان جاليليو تراجع عن كل نظرياته السابقة امام الكاردينال بلالرمين لاثبات ضعفه الخلقي او زيفه العلمي ، حتى اضطر جاليليو ان يحصل على شهادة من الكاردينال بلالرمين تبرئه « السنين جاليليو من التراجع عن

آرائه أو نظرياته أمامنا أو أيام الغير ، في روما أو في غيرها ، في حدود علمنا » ، وتشهد بأن :

« كل ما حدث هو أنه أبلغ بقرار البابا الذي أعلنه مجلس التحرير المقدس ، وهو القرار الذي جاء فيه أن النظرية المنسوبة إلى كوبيرنيك والقائلة بأن الأرض تدور حول الشمس بينما الشمس ثابتة في مركز الكون دون أن تتحرك من الشرق إلى الغرب ، نظرية منافية لكتاب المقدس وبناء عليه لا يجوز الدفاع عنها ولا اعتناقها ». .

والشهادة مؤرخة ٢٦ مايو ١٦١٦ وتقول ان الغرض منها تبرئة غاليليو ازاء المشهرين به .

عاد غاليليو إلى فلورنسا في يونيو ١٦١٦ ، وتلت عودته سنوات من الصمت .. كان في ١٦١٦ قد نشر كتابه « حديث عن المد والجزر » . وعاد غاليليو إلى دراساته الفلكية ، فأخذ يتعقب في رصد توابع جوبيتر بالتلسكوب ورصدكسوفها وخسوفها ومحاقها وتنبأ بها وتقاطعها للاعتماد عليها في تحديد خطوط الطول والعرض بدلاً من الاعتماد على كسوف الشمس وهو نادر الوجود .

وفي نوفمبر ١٦١٨ ظهرت ثلاثة مذنبات .. والقى غاليليو أمام أكاديمية فلورنسا بحثاً اسمه « حديث المذنبات » رأى فيه أنها مجرد ظواهر بصرية مثل قوس قزح أو الهالات ، ثم تبين فساد رأيه .

وفي ١٦٢١ مات راعيه كوسيني دى مدیتشی الثاني فراندوق توسكانيا، وفي ١٦٢٣ انتخب صديقه الكاردينال بربيني بابا ، واتخذ اسم أوربان الثامن وذلك بعد وفاة بول الخامس . وفي ١٦٢٣ نشرت أكاديمية روما لجاليليو كتابه عن المذنبات بعنوان « المجتهد » وأهدته للبابا الجديد ، وهو كتاب مليء بالأخطاء . ولكن أعداء غاليليو كانوا عن أيذائه بسبب صداقته للبابا الجديد .

وقرر غاليليو أن يزور البابا أوربان الثامن شخصياً بعد تهنته ، فوصل روما في ٢٣ أبريل ١٦٢٤ ، وحاول غاليليو أن يجعل البابا يعدل موقف الكنيسة من نظرية كوبيرنيك ، ولكنه لم يستطع أن يستخلص منه تصريحًا واحدًا في هذا الاتجاه رغم أن البابا استقبله ست مرات خلال شهر ونصف . وكان أوربان الثامن يقول : حتى ولو أشارت دلائل عديدة إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، فإنه من الممكن نظرياً للقدرة الإلهية المطلقة أن تعكس الأبر بمعجزة وتصل إلى نفس النتائج فتجعل الشمس تدور

حول الأرض كما يقول الكتاب المقدس . و اشتهرت نظرية « المعجزة الالهية » في تاريخ الفلك بأنها نظرية أوريان الثامن .

وأعلن الكاردينال زولر : « أن الكنيسة المقدسة لم تحكم بادانة نظرية مركزية الشمس ولم تفكر في تحريمها بوصفها هرطقة ، وإنما أدانتها مجرد كونها اجتراء .. ومع ذلك فهناك ما يدل على أنه يمكن لأحد أن يثبت صحة هذه النظرية صحة قاطعة ». وبذا أمل يراود غاليليو بامكان تعديل موقف الكنيسة .

وفي هذه الآثناء اخترع غاليليو микروسكلوب عام ١٦٢٤ .

ومنذ أزمة ١٦١٦ كان فرانشيسكو أنجولي ، وهو من أشد أعداء الكوبرنيكية .. قد نشر هجوما ضاريا على الفلك الجديد . وبعد تولى أوريان الثامن كتب غاليليو « الرد على أنجولي » ، وهو رسالة مطولة في الدفاع عن الكوبرنيكية لم تطبع ولم يرسلها غاليليو إلى أنجولي ، ولكن يبدو أنها كانت موجهة إلى البابا وأنها كانت تتداول في الأوساط العلمية . وقد عاد فيها غاليليو إلى الدفاع عن الفلك الجديد ولكن بلغة أشد احتياطا عن ذى قبل ومع عدم التعرض لللاهوت .

وفي ١٦٢٧ بدأت تتكاثر عليه المشاكل العائلية ، فعاد أخوه ميكلانجلو بأسرته الكبيرة المكونة من زوجة وسبعة أبناء ، وعاش عبئا على غاليليو ، ثم مات ميكلانجلو في يناير ١٦٣١ فازداد العبء .. وفي ١٦٢٨ حصل ابنه فنشنتزيو على ليسانس الحقوق في جامعة بيزا وتزوج في ١٦٢٩ . وفي ١٦٣١ أجر غاليليو فييلا اسمها « الجوهرة » بجوار دير سان ماتيو ليكون على مقربة من بنته الراهبتيين .. وهي الفيلا التي حددت الكنيسة اقامته فيها في ديسمبر ١٦٣٣ بأمر البابا .

وفي يناير ١٦٣٠ أتم غاليليو كتابه عن « المد والجزر » بعد ست سنوات من العمل ، وهو في صورة حوار . وسمع غاليليو أن أوريان الثامن استقبل كامبانيللا وقال له عن تحريم كوبيرنيك : « ان مثل هذه الفكرة لم تدخل في نوایانا .. ولو كان الأمر يتوقف علينا لما صدر هذا القرار » .

وفي أواخر مارس ١٦٣٠ ذهب غاليليو إلى روما ليعرض مخطوطه على السلطات الكنسية بقصد أن تقر نشره . وكان متقدما أن تنشره أكاديمية روما ولكن موت مؤسسها الأمير تشيزي فجأة جعل الأكاديمية تتخلص من نشر الكتاب رغم أن غاليليو حصل على موافقة مبدئية من الكنيسة على هذا النشر . واقتضى غاليليو بنشر كتابه في فلورنسا حيث كان من السهل عليه الحصول على ختم الرقيب المدني ، انتظارا للرأى كنيسة روما النهائي .

وهنا تحرك أعداء غاليليو فطلبت روما نص الكتاب لتفحصه من

جديد . وحاف جاليليو واقتراح أن يعرض النص على ممثل التقنيش الكنسي في فلورنسا ، فوافقت روما بشرط أن يعرض عليها نص المقدمة والخاتمة .

وتلقت روما في مراجعة الكتاب ، ولكنها فرغت أخيرا من ملاحظاتها وتعديلاتها بضغط شديد من سفير توسكانيا في روما واسمه نيكوليني ، واشترطت عدم ذكر « المد والجزر » في عنوان الكتاب ، وأبلغت كل ذلك إلى مندوب التقنيش في فلورنسا في يوليو ١٦٣١ ، بل وكتبت للكتاب مسودة مقدمة لا يخرج جاليليو عن معانها . وأخيرا صدر الكتاب في ٢١ فبراير ١٦٣٢ في فلورنسا بعنوان : « حوار النظامين العظيمين ، البطلمي والكونيكي » .

وفي هذا الحوار تشرك ثلاثة شخصيات منها شخصيتان حقيقيتان ، هما نبيل من فلورنسا اسمه فيليبو سالفيني ( ١٥٨٣ - ١٦١٤ ) كان جاليليو قد أهدى إليه كتابه « رسائل شمسية » ، ونبيل من البندقية اسمه ساجريدو ( ١٥٧١ - ١٦٢٠ ) ، أما الشخصية الثالثة فهي شخصية وهمية اسمها « سمبليتشيو » بمعنى « الساذج » وهو نموذج للمفكر الأرسطاطاليسي المتحجر . ويدور الحوار بينهم لمدة اربعة أيام في قصر ساجريدو .

وفي اليوم الأول يبدأ الحوار ب النقد نظرية كمال بعض الأرقام عند الم世人ين من أتباع أرسطو وعند فيثاغورس وأتباعه ، مثل العدد ٣ . ويتناول نقد الفيزياء الأرسطاطالية القائمة على التمييز بين الأرض والسماء ومحاولة أرسطو إثبات أن مركز الأرض هو مركز الكون . أما اليومان الثاني والثالث فالحوار فيما يدور حول دوران الأرض اليومي حول محورها ودورانها السنوي حول الشمس . وفيه تسفيه لارسطو وبطليموس وتبيكوا برائيه وانتصار لكوبيرنيك . وكذلك يدور حول حركة الكواكب السيارة وتوابعها . أما حوار اليوم الرابع فقد كان يدور حول المد والجزر . وفيه يهاجم جاليليو نظرية كبلر في جذب القمر لياه الأرض . وكان جاليليو يرى أن المد والجزر نتيجتان ميكانيكيتان لدورتي الأرض . . وهو رأي خاطئ طبعا .

ولم يكن هذا الحوار عملا فلكيا ولا فيزيائيا موجها للعلماء بقدر ما كان عرضا أدبيا تعليميا تنويريا رائعا موجها للمثقفين العاديين . وقد كتب باللغة الإيطالية الدارجة وليس باللاتينية ليكون في متناول افهام الجميع .

وكان لجاليليو هدفان من كتابه « حوار النظامين العظيمين » : أولهما هو نشر نظريات ذلك الحديث بين المثقفين حتى يتخلوا عن الخرافات الفلكية التي ورثوها عن العصور الوسطى وعن العالم القديم . أما الهدف الثاني فقد كان تحذير الكنيسة من خطورة الجمود والاستمرار في تبني النظريات الخاطئة وعارضته العلم الحديث . . وقد حقق جاليليو هدفه الأول . أما هدفه الثاني فقد جاء بنتيجة عكسية .

## مأساة عالم

□ بمجرد أن طبع جاليليو كتابه الشهير « حوار النظاريين العظيمين : نظام بطليموس ونظام كوبرنيك » بدت المؤشرات تحاك من حوله يغطيها الأب شايفر وأعداء جاليليو من الآباء والكرادلة الجزوiet المتهمن بالفلك القديم والجديد . وافتعل الدساتر البابا أن جاليليو فصل شخصية « الساذج » في محاوراته على سنته ، بسبب نظرية أوريان الثامن بأن القدرة الإلهية جعلت الشمس تدور حول الأرض وغيرت دورة الأفلاك على سبيل المعجزة لتثبت قدرة الله على خرق قوانين الطبيعة .

بل أكثر من هذا . فقد راحت شائعة تقول إن صدور الكتاب عن « دار المركات الثلاث » في فلورنسا كان فيه تعريض باطنى بالبابا لأن فيه إشارة رمزية إلى أولاد أخيه الثلاثة الذين كان يحابيهم البابا وينهب لهم أملاك الكنيسة لكي يثروا . وكان البابا أوريان الثامن مشهوراً بأنه واسع الثراء وبالفعل بدأ الفاتيكان يتحرى عما في هذا الرمز من معنى .

وهكذا غضب البابا على جاليليو رغم أنه كان من أصدقائه . ولكن الاكتفاء بهذه التفسيرات الشخصية تبسيط للأمور . فقد كانت الصورة أعتقد من كل ذلك لأن فيها جانبًا سياسيًا حرض البابا لاذلال غراندوين توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا .. فقد كان البابا يتبع سياسة موالية لفرنسا ومعادية لحلف أسرة هابسبورج ولأسبانيا ، وفي ١٦٣٢ تجرأ الكاردينال جاسبار بورجيا سفير إسبانيا وأتهم البابا أوريان الثامن علينا في اجتماع عام بأنه يحمي الكفار وأنه ناقص في غيرته « الرسولية » وأنه ليس أهلاً للبابوية كما كان سلفه . وكان أوريان الثامن مسؤولاً عن السمعة على المستوى الشعبي بسبب الفساد والتکالب على الماديات ومحاباة أقربائه .

كان البابا في موقف خطر فأخذ يستأنس في وجهه من كان يدخلهم في عداد الأعداء .. وقد كان غراندوين توستانيا يدخل في عداد الأعداء بهذا المقياس لأنه كان من أنصار التحالف مع المانيا وأسبانيا لا مع فرنسا ، قائدة الحركة الإنسانية في أوروبا في القرن السادس عشر . وكانت وسيلة البابا في ذلك هي اذلال غراندوين توستانيا بأداء الصرامة في معاملة أكبر عالم يرباه الغراندوين في بلاطه .. لا وهو جاليليو .

وبدأ الردع بخطاب كتبه الاب ريكاردى الى قوميسير التفتيش في فلورنسا ، ويدعى ايجيدى ، يقول ريكاردى فيه ان كتاب جاليليو وصل وهو يشتمل على أشياء عديدة لا يرضى عنها « سادتنا » ، وهم على كل حال يرغبون في اجراء تعديلات في الكتاب : « وبناء عليه فهذا امر من البابا المعظم ، ان يصدر هذا الكتاب ، وأن يمنع من التداول حتى يخطرك المقر البابوى بمواطن التصويب . وأهم من هذا وذاك الا يسمح للكتاب بالخروج من فلورنسا . هذا امر البابا ولكن لا تذكر الا اسمى في هذا الشأن ، على أن تتفاهم مع القاصد الرسولى في فلورنسا وأن تتصرف بمنتهى الليين حتى تصل الى الغرض المقصود » . لقد كانت صداقته جاليليو للبابا تستدعي هذا اللين .

وفي ٧ أغسطس ١٦٣٢ أرسل الاب ريكاردى خطابا آخر مؤكدا ضرورة استعمال منتهى الليين مع الاستفسار عن عدد النسخ المطبوعة وعن مكانها حتى يمكن جمعها . واحتج غراندولق توسكانيا على هذه المصادر واعتبرها عدواً علينا عليه ، فكتب أحد وزرائه الى سفير توسكانيا في روما في ٢٤ أغسطس ١٦٣٢ يقول ان كتاب جاليليو قدمه مؤلفه بنفسه الى السلطات الدينية والكتاب يحمل كل اختام المانفحة المطلوبة للنشر ، ويذكر ان الكتاب قرئ ثم أعيدت قرائته وتم تصحيحه وتعديلاته بالحذف والاضافة بمنتهى العناية ، بل ان المؤلف نفسه هو الذى كان يلح في اجراء التصويبات والتعديلات اللازمة ، ولذا فإن قرار المصادر قرار غير مفهوم .

وكانت أول خطوة اتخذها الفاتيكان احالة الكتاب الى لجنة خبراء لتقرر اذا ما كان الكتاب يحذى الكوبرنيكية فعلاً كما يدعى خصوم جاليليو ، برغم المقدمة والخاتمة اللتين تدينان الكوبرنيكية ، وهما من اضافات رجال الكنيسة في روما ، وقد قبلهما جاليليو تفاديًا لكل سوء ظن .

ويعرض رأى الخبراء على المجلس البابوى بذات محاكمة جاليليو التي انتهت في ١٦٣٣ بسجنه وهو في سن السبعين ثم بتحديد اقامته مدى الحياة .

وفي ٢٥ سبتمبر ١٦٣٢ كتب الكاردينال أنطونيو بربيريلى ، أخو البابا ، الى مفوض التفتيش في فلورنسا ، يأمره باستدعاء جاليليو الى مكان فيه شهود وموثق ، دون أن يوضح له سبب حضور الشهود ، ثم ابلاغه بأمر حضوره الى روما في خلال شهر اكتوبر ليكون تحت تصرف القوميسير العام للمقر البابوى . وقد تم هذا الاستدعاء في أول اكتوبر ١٦٣٢ ، ودون جاليليو علمه بهذا الاستدعاء ووعد بالثول بنفس راضية .

وكان نفسي جاليليو راضية إلى حد أنه كتب الرسائل لكل أصدقائه الأقواء يطلب منهم التوسط لتأجيل سفره إلى روما بسبب اعتقال صحته وشيخوخته وانتشار الطاعون في الطريق من فلورنسا إلى روما . كل هذا لم يجد شيئاً . كذلك عبنا توسط السفير نيكوليني أن يتم الاستجواب في فلورنسا بدلاً من روما .

وفي أول يناير ١٦٣٣ أرسل الكاردينال أنطونيو بربيري إلى قوميسير التقىش في فلورنسا يستثنى أن يحسم الأمر ، قائلاً :

« ان مجعنا البابوى المقدس لا يقر عصيان جاليليو جاليلى للأمر الصادر اليه بالحضور إلى روما على وجه السرعة ، ولا ينبغي له ان يتخلل بقسوة الشتاء لأنه المسئول عن اضطراره للسفر الآن . فان هو حاول ان يتستر للعصيان بدعوى المرض فانهسوف يسوء التصرف . ان قداسة البابا ونيابة الكرادلة الذين اتحدث باسمهم لا يريدون التسامح مع هذه الادعاءات بأى حال من الاحوال . وبناء عليه ففيجب على نيافتك ابلاغ جاليليو انه اذا لم يصعد بالأمر فوراً ، فسوف نرسل الى فلورنسا أطباء ليقبضوا عليه ويقودوه مكلاً بالأغلال الى سجون هذه المحكمة العليا ، لأننا نرى أنه حتى الان قد أساء استغلال طيبة مجعنا الذى سيتكلف بكلفة نفقات هذه القضية . فتقضوا بالعمل بما هو محدد في هذا الأمر وابلاغنا بتنفيذه » .

وحاول جاليليو التسويف مرة أخرى ، وهرع إلى غراندوخ توسكانيا ل Bernstein به ، ولكن الغراندوخ تملص بلياقة ووعد جاليليو بأن يضع تحت تصرفه مركبة من مركباته وسائلها يتصف بالتكلتم . ثم أن سمو الغراندوخ يود أن ينزل جاليليو ضيفاً على السفير نيكوليني لمدة شهر حتى تنتهي قضيته . ما بعد الفرق بين هذا الغراندوخ الجديد والغراندوخ كوسيمودي مدتيتشي الثاني الذي كان يحمي جاليليو في بلاطه .

وهكذا سافر جاليليو إلى روما في ٢٠ يناير ١٦٣٣ في زمهرير الشتاء ، فوصلها في ١٣ فبراير وهو في غاية الاجهاد . ولكنه وجد عند السفير وزوجته حفاوة بالغة ودفناً عظيماً . وحين انقضى شهر الضيافة على نفقة الغراندوخ أصر السفير وزوجته أن يكون جاليليو ضيفهما الشخصى .

وبعد مشقة سمحت الكنيسة لجاليليو بالإقامة في دار السفير نيكوليني بدلاً من اعتقاله على الفور واحتجازه في سجن الفاتيكان ، ولكنها اشترطت عليه الا يغادر المكان او يستقبل أصدقاءه . وبقي هناك نحو شهرين

دون أن يستجد شيء ما . وأرسل له الفاتيكان كاردينالاً في الظاهر ليواسيه ، ولكن في الواقع ليتجسس عليه ، حتى يعرف منه خطط دفاعه فيليب الفاتيكان النهم المناسبة .

كان كل شيء يدور في تكميل كامل .. وحاول السفير نيكوليني أن يعرف الموضوع بوسائله الخاصة ، وأخيراً عرف أن الاتهام يدور حول خرق التعهد الذي قطعه غاليليو على نفسه عام ١٦١٦ في المواجهة بينه وبين الكاردينال بيلارمين بأمر البابا إلا يدعوا لنظرية كوبيرنيك في الفلك أو يدافع عنها ، كما يدور حول تجاهله في كتابه الأخير « حوار النظاميين العظيمين » للتحذير البابوي المثبت في محضر ١٦١٦ وهو المحضر الخالي من التوقيعات . وأبلغ السفير نيكوليني غراندوق توسكانيا بذلك .

ولما علم غاليليو بهذا استهان بالأمر وظن أنه بآمن . وهذا ما دفع البعض إلى الاعتقاد أن محضر التحذير محضر مزيف سواء في ١٦١٦ أو في ١٦٣٣ لاضطهاد غاليليو بتهمة الاستخفاف بالتحذير البابوي .

بل لقد بلغ من سذاجة غاليليو أنه أخذ يتصور أن هذه سوف تكون فرصة مواتية له للدفاع عن قضية دوران الأرض ولاقناع الكرادلة بالتخلّى عن آرائهم الجامدة ، واقناع القضاة بأنه ضحية مؤامرة حاكها له أعداؤه من العلماء الجزوئيين مثل الأب شاینر ، الذين كانوا يسرقون أفكاره قبل تدوينها وينسبونها إلى أنفسهم .

أما السفير نيكوليني فقد صارح غاليليو بالخطر المحدق به ، ونصحه بـلا يتكلّم في دفاعه عن نظرية كوبيرنيك ودوران الأرض أو أن يداعع عن آرائه العلمية ، بل أن يقلل كل هذه الآبواب المفتوحة وأن يوافق الكنيسة على كل ما تقوله . بل إن السفير نفسه ، رغم صداقته لغاليليو ، لم يفهم سر اصرار غاليليو على « اعطاء أهمية خاصة لموضوع دوران الأرض » . وكان أحياناً يراه غاية في الاكتئاب إلى حد يدفعه للقلق على حياته .

وفي أوائل أبريل عرف نيكوليني أن غاليليو سوف يستدعى وشيكاً إلى المقر البابوي حيث يبقى متحفظاً عليه ل أيام عدها غير معروفة ، وحذر هذا السفير الواقعى العليم بباطن الأمور هذا العالم المثالى الجليل الذى لم يكن له إلا حلم واحد هو إزالة الحواجز بين العلم والدين واقناع الكنيسة بقبول العلم الحديث ، حذر من أي كلام قد يزيد الموقف التهاباً .

وفي ١٢ أبريل ١٦٣٣ قدم غاليليو نفسه للمقر البابوى ، ولم يكن يعلم أنه سيختجز هناك إلى آخر الشهر . ولم تكن هناك مناقشات

علمية أو فلسفية بل كانت هناك مناورات ماكرا للايقاع بجاليليو في فخ الكفر والخروج عن طاعة الكنيسة والحدث بالعهد ، ومناورات ساذجة من جانب جاليليو المسكين للفرار من هذا الفخ .

كانت مشكلة الكنيسة هي أن كتاب « حوار النظامين العظيمين » قد صدر بكل الموافقات التي اقتضتها الكنيسة وبكل الشروط التي فرضتها ، وكان اهتمام جاليليو بالحصول على تلك الموافقات وقبول كل تلك التعديلات أن ذلك سوف يعني اعطاء الضوء الأخضر للعلماء المهتمين بالفلك الجديد وأن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لن تتعرض لهم بالمنع في المستقبل .

ولم تجد الكنيسة حلا الا استغلال حضر ٢٦ فبراير ١٦١٦ بين جاليليو والكاردينال بيلارمين ، واتهام جاليليو بخرق نصوصه بأنه قد اعمدا متعمدا عدم ابلاغ الآب ريكاردى رقيب الفاتيكان بوجود هذا التحذير السابق (!) وكانت الصعوبة هي أن جاليليو لم يوقع هذا الحضر كما ان الشاهد البابوى لم يوتعه ، فكان الایقاع يتراكم في استخلاص اعتراف شفوي من جاليليو في ١٦٣٣ بوجود هذا الحظر والتحذير في ١٦١٦ وبعلميه بهما وقبوله لهما . وانكر جاليليو وجود هذا « التحذير » ، وسماه « ابلاغا » بقرار البابا ، وأنكر وجود شهود ، وانما قال انه كان هناك رهبان كثيرون يرددون ويغيثون في القاعة . ولكنه اعترف بوجود القرار البابوى . ومنذما سئل : لماذا لم يبلغ ذلك للأب ريكاردى حين سلمه المخطوط لراقبته والحصول على تأشيرة « لا مانع من النشر » ، اجاب جاليليو بأنه لم ير ضرورة لذلك ، ثم ان كتابه يقول ان ادلة كوبرنيك غير دامنة . وبهذه العبارة الأخيرة افسد جاليليو دفاعه .

وكانت جلسة الاستجواب الثانية في ٣٠ ابريل ١٦٣٣ . وظل جاليليو سجينًا لا في سجن الفاتيكان ، ولكن في جناح الكاردينال المحقق ، وقد كان جناحاً مريحاً . وفي جلسة ٣٠ ابريل اعترف جاليليو بأن في كتابه اتجاهات كوبرنيكية ونسب إلى نفسه غرور العلماء وحبهم للمuhan ولو على حساب الحقيقة . وحين أقر جاليليو بهذا الاعتراف أُمرَّج عنه على أن يلزم دار السفير لا يبارحها .

وفي ١٠ مايو استدعى جاليليو من جديد للمقر البابوى ليقدم دفاما مكتوبا خلال ثمانية أيام وكان قد أعد مذكرة في ذلك قدمها للمحكمة وأضاف : « وكل ما بقى لى أن أقوله هو أنني تركت نفسي في كل شيء لعدالة المحكمة واسمع نفسى تحت رحمتها المعروفة للجميع » .

وهكذا اكتملت أدلة ادانة غاليليو باعترافه بمحضر ٢٦ فبراير ١٦١٦ . ومر شهر آخر للبحث في « نوايا غاليليو » قبل صدور الحكم . وفي ٢٠ يونيو استدعى لاستجوابه في « معتقداته » ، وفي ٢١ يونيو تعرض لما يسمى « الامتحان الصعب » ، وكان هذا الامتحان يتيح تعذيب المتهمن ليقروا بالحقيقة كاملة ، ولكن غير ثابت أن غاليليو تعرض لهذا التعذيب ، وكانت كل اجابات غاليليو انكارية ، قال : « أنا لا اشارك في رأي كوبيرنيك » ولم اشارك فيه منذ أن أبلغت رسميا بوجوب التخلص منه . ولم يبقى إلا أنى هنا بين أيديكم فأفعلنوا بي ما تشاءون » .

بعد هذا لم يفرج عن غاليليو بل احتجز في أحد سجون البابوية . ومن هناك نقل في ٢٢ يونيو إلى القاعة الكبرى في دير الدومينikan في سانتا ماريا ديللا مينوفا . وأمام المجمع المقدس قرئ عليه الحكم : وهو يتضمن مصادرة كتاب « حوار النظامين العظيمين » والحكم بالسجن على مؤلفه رهن رغبة البابا ، كما حكم على غاليليو أن يقرأ مرة كل أسبوع مزامير التوبية السبعة لمدة ثلاثة شهور ، واحتفظ البابا لنفسه بحق تخفيف الحكم أو تعديله أو الفائه جملة .

ويحسب تقاليد ذلك الزمان ، جثا غاليليو على ركبتيه وأعلن الاستنكار التالي :

« أنا غاليليو بن فنتشنطريو غاليلي من فلورنسا ، البالغ من العمر سبعين عاما ، الحاضر أمامكم والجاثي في حضرتكم ، يا نيانة الكراولة وقضاة التفتيش العاملين باسم كل العالم المسيحي ضد كل انحرافات الزندقة ، وأمام عيني الانجيل المقدس الذي أمسكه بكلتا يدي ، أقسم بأنني كنت دائماً أؤمن ، وبأنني الآن أؤمن ، وبمعونة الله سوف أؤمن دائماً بكل ما تقبله الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة ، وبكل ما تعظم به ، وبكل ما تعلمته .

« وهذا المجمع البابوى نفسه سبق أن وجه إلى رسميا وقانونيا أمراً بالتخلي تماماً عن الرأى الزائف القائل بإن الشمس هي مركز العالم وإنها لا تنتقل من مكانها . وحظر على تصديق هذا المذهب الزائف أو الدفاع عنه أو تعليميه بأية صورة من الصور ، شفافها أو كتابة ..

« ورغبة مني في أن اقتلل من أذهان نيافتكم ومن أذهان كل المسيحيين المؤمنين بهذه الريبة القوية في عقيدتى ، وهى ريبة فى موضعها ، خانى بقلب صادق وبنية خالصة تماماً ، استنكر هذه الأخطاء والزنقات المذكورة ،

وبوجه عام كل الأخطاء والزندقات والمعتقدات المتعارضة مع الكنيسة المقدسة ... الخ . تحرر هذا في دير مينفيا في ٢٢ يونيو ١٦٣٣ » .

وهناك قول شائع ولكنه غير موثق بأن جاليليو ما أن فرغ من تلاوة هذا الاستنكار حتى نهض واقفاً وضرب الأرض بقدمه صائحاً « أيبور سى مووى » ، ومعناها « ومع ذلك فهي تدور » ، وهي من أشهر العبارات التي دخلت الفولكلور العلمي .

وبمجرد صدور هذا الحكم خففه على الفور الكاردinal بربيري إلى تحديد اقامة جاليليو في حديقة ترينيتيه دى مون حيث نقله نيكوليني سفير توسكانيا . وفي ٣٠ يونيو وافق البابا على طلب السفير أن تحدد اقامة جاليليو لا في روما ولكن في توسكانيا حيث ينزل ضيفاً سجيناً على كبير أساقفة مدينة سينينا وهو من أصدقاء جاليليو . وهكذا رحل جاليليو عن روما في ٦ يوليو ١٦٣٣ ووصل سينينا بعد ثلاثة أيام . وقد مكّنه هذا الترتيب من رعاية مصالحه في توسكانيا ومن الحياة بالقرب من أبنائه الراهبتيين .

وهكذا اقتربنا من النهاية ، فقد قضى جاليليوًّا السنوات التسع الأخيرة من حياته في عزلة نسبية عاكفاً على بحوثه العلمية النظرية بعد أن تخلى تماماً عن كل محاولة لتنوير الناس وزيادةوعيهم بالفلك الجديد ( فقد توفي في بيته ببلدة ارشيتري في ٨ يناير ١٦٤٢ بعد أن أصيب بالعمى في أواخر عمره ) .

بدأ جاليليو حياته الجديدة في سينينا يملأه الشعور بالاحباط والماراة ، ولكن صديقه الكريم ، اسكانيو بيكولوميني كبير أساقفة سينينا ، سرعان ما جعله يحس بأن القصر الأسقفي لم يكن معتقلاً بل جامعة حرة . فأخذ ينظم له « زيارات مستمرة » يقوم بها صفوة الناس لجاليليو ليستقرروا منه عن المشكلات العلمية . فإذا بجناح جاليليو يتحول إلى ندوة علمية دائمة . واسترد جاليليو ثقته في نفسه لكثره ما رأى من تمجيل الناس له فزال عنه الاكتئاب — وأقبل على البحث العلمي من جديد .

وعاد أعداء جاليليو للكيد له وكثرت شكاواهم للفاتيكان تتهمه وتقهم كبر الأساقفة بنشر الزندقة في سينينا ، ولكنها كانت شكاوى من مجهولين . ولم يستطع الفاتيكان تجاهل هذا اللفط فوجد الحل في ابعاد جاليليو عن سينينا . وفي أول ديسمبر ١٦٣٣ قرر البابا اجابة جاليليو إلى مطلبـه ، وهو أن تحدد اقامته في بيته في فيلا ارشيتري بجوار فلورنسا حيث يمكن لابنته

الراهبين أن تزوراه يومياً . وعرفت نفس جاليليو السكون ولكنه سرعان ما رزىء في ربىع ١٦٣٤ بوفاة ابنته الكبرى التي كانت تحبّطه برعايتها . فعاد إلى عزلته المريرة لأن ابنته الصغرى كانت من التفاهة بحيث لم تكن تبدى اكتراناً لـا كان يجري لأبيها العظيم .

وكان الحصار المضروب حول جاليليو حصاراً جدياً . حتى تلامذته القدامى عجزوا عن زيارته إلا بأذن من روما وفي حضور مندوب عن الكنيسة ، تحسباً لتجدد مدرسة جاليليو . ومع ذلك فقد نجح في زيارته عديد من العلماء الأجانب ما بين ١٦٣٤ و ١٦٣٨ وانشغل جاليليو في أكاداس من المراسلات مع العلماء والمتجمين والناشرين خارج إيطاليا (في فرنسا وهولندا وألمانيا) . وفي ١٦٣٨ صدر في لايدن كتاب جاليليو المعروف « حوار العلوم الحديثة » (في الميكانيكا) .

وانطفأ نور عينه اليمنى ثم لم يلبث أن فقد الإبصار تماماً . وفي ١٦٣٩ سمح الكنيسة لعالم شاب اسمه فيفياني أن يرافق جاليليو في أيامه الأخيرة ويذودون ما يلقيه من ملاحظات ونظريات علمية . وفي أكتوبر ١٦٤١ سمح الكنيسة لعالم شاب آخر ، هو العلامة الشهير توريتشيللى أن يلازم جاليليو أيضاً في أيامه الأخيرة . وقد حفظ لنا هذان العمالان الشابان كثيراً مما أملأه جاليليو في ختام حياته .

ولم يرتفع غضب الكنيسة عن جاليليو حتى بعد وفاته ، فرفضت أن تقام له مقبرة تذكارية في فلورنسا ، فلم تقم هذه المقبرة إلا عام ١٧٣٧ ، أي بعد وفاته بمائة عام .

أما غضب الكنيسة على أفكار جاليليو فقد استمر حتى ١٧٥٧ ، وهو تاريخ سحب قرار تحريم الأعمال التي تعلم الناس نظرية دوران الأرض حول الشمس .

● ● ●

# كامبانيلا

CAMPANELLA  
١٥٦٨ - ١٦٣٩



## المدينة الفاضلة

□ في عصر النهضة الأوروبية شاع بين المثقفين نوع من الأدب الاجتماعي والسياسي والأخلاقي هو أدب « المدينة الفاضلة » ، وهو تصور أدبي فلسفى لقيام الجمهورية المثلى التى يتحقق فيها للإنسان أقصى الرقى والسعادة وسلام النفس ، قياسا على تجربة أفلاطون فى « الجمهورية » ، وعلى تجربة القديس أوغسطين فى « مدينة الله » ، وعلى تجربة الفارابى فى « المدينة الفاضلة » ، وربما تجربة ابن طفيل فى « حى بن يقطان » ، وعلى تجربة توماس مور فى « المدينة الفاضلة » ( يوتوبيا أو الطوبى ) ، وعلى تجربة فرانسيس بيكون فى « اطلنطيس الجديدة » ، وغيرها .

وقد أضاف كامبانيلا تجربته الهامة فى « مدينة الشمس » إلى أحلام الفلسفه فى تصور نظام اجتماعى يقيم الجنة على الأرض أو يحقق الفردوس الأرضى كما يقولون .

ولد جيوفانى دومينيكو كامبانيلا عام ١٥٦٨ فى بلدة ستيلىو من أعمال اقلتيم كالابرية فى جنوب ايطاليا . وكان غلاما معجزة ، ففى سن الثالثة عشرة كان قد قرأ أكثر أعمال التراث اللاتيني فى عصره الكلاسيكى باللاتينية وفي ١٥٨٢ دخل فى سن الرابعة عشرة دير بلاكتينيكا والتحق بسلك الرهبان الدومينikan بعد عام وسمى نفسه الفرير ( الاخ ) توماسو كامبانيلا ، تيمنا باسم الفقيه الدينى الشهير القديس توماس الأکوينى .

درس كامبانيلا العلوم والفلسفة فى مدرسة الفقيه تيليسيو فى مورجنتيا ، كما درس اللاهوت فى كوزنتزا بعد أن ترك ديره عام ١٥٨٨ ، أى وهو فى سن العشرين . وفي معهد كوزنتزا كان الرهبان يتداولون الكتب المحرمة ، وعندهم قرأ كامبانيلا أعمال الفقيه تيليسيو ، وهو معلم كبير الشأن فى جنوب ايطاليا كان مولده فى بلدة كوزنتزا . وكانت أهمية تيليسيو انه كان ينادى باستخلاص الحقيقة من « طبيعة الأشياء » ، وليس

من العنونة او اقوال الثقات ولا بمجرد الدليل النظري . وكان هذا من بدايات المنهج العلمي الحديث القائم على المشاهدة والتجربة كما نجد في المنهج الاميريكى الذى وضعه فرانسيس بيكون . وكان كامبانيلا تلميذ تيليسيو الروحى رغم انه لم يلتقط به ابدا .

ومنذ شبابه الأول كان كامبانيلا ، مثل جورданو برونو وفرانسيس بيكون ، يرى أن أرسطو كان بمثابة الوحوش في عالم الفكر أو بمثابة الثنين الذي يحتاج إلى مار جرجس جديد ليخلص العالم منه ، وأنه سيطر بعقريته الفذة على الفكر الدينى والفلسفى والأدبى والعلمى في الطبيعة والتاريخ الطبيعي والفلك وكل وجه من وجوه الفكر . وهكذا رکز كامبانيلا هجومه على أرسطو وعلى أتباعه . فلما اشتقت حملاته على المعلم الأول وعلى التابعين له من رجال الدين والدنيا ، انذروه في الدير عام ١٥٨٨ بسوء المصير لو استمر في غلوائه في الهجوم على أرسطو .

وشدد أتباع أرسطو النكير على كامبانيلا فترك أديرة كالابريا دون اذن من رؤسائه وانتقل إلى حلقات عالم روحانى في نابولى يدعى جان باثيستا ديللا بورتا . وفي ١٥٩١ أصدر كامبانيلا كتابه « شرح فلسفة الحواس » ، وكان عمره يومئذ ثلاثة وعشرين سنة . وفي هذا الكتاب هاجم أرسطو وانحاز لافتلاطون وتيليسيو . فأرسطو أقام تصوره للعالم ولكل شيء على ازدواجية المادة والصورة ، أما افلاطون فقد أقامه على ثلاثة الجسم والعقل والروح .

وقد ظل كامبانيلا حتى هذه المرحلة داخل حظيرة الایمان المسيحي التقليدى ، يقبل مبدأ الخلق من العدم ومبدا سقوط الإنسان وخلاصه بالسيح ، ويقبل بكاره مريم العذراء وصدق الكتاب المقدس وسلطة الكنيسة . ولكنه كان يفصل العلم عن الدين ويقول ان العلوم الطبيعية لا تدخل في نطاق العقيدة ولا شأن للكنيسة بها . وعندئذ أن العلم يعتمد على المعرفة الحسية الاستقرائية ( الملاحظة والتجربة ) وليس على الاستنتاج العقلى المجرد ، ورغم أنه هاجم التجنيد ، فإنه شاع عنه التعامل مع الأرواح . كذلك أشبع عنه بمارسة الشذوذ الجنسي مع ديللا بورتا ومع شاب يهودى كان يعلم السحر واليازوجة أو « الكابلاه » .

وقيض على كامبانيلا في ١٥٩٢ ، وأودع سجن القاصد الرسولي ( مثل البابا ) في نابولى بوشالية من أحد الرهبان الذى اتهمه بأن له « أخا من الجن » يعلمه كل هذا العلم الغزير الذى يتجلى في مناقشاته وفى كتاباته .

وحاكمته في نابولي محكمة من الرهبان الدومينيكان وأثارت هذه المحكمة اهتمام الناس حتى أن سفير توسكانيا في نابولي وصف كامبانييلا بأنه « من اندر العقريات » في ايطاليا . كذلك أصبح كامبانييلا موضع رعاية بعض المثقفين الآثرياء . واستطاع كامبانييلا أن يرد الاتهامات الموجهة اليه . ولكن السؤال الحائز ظل حائرا بين الرهبان الذين ظلوا يتساءلون كيف اتيح لهذا الشاب ابن الاسكافي الفقير أن يعرف كل هذه الاشياء عن الفلسفة والقدماء دون أن يتعلم في الجامعة . وقد كان كامبانييلا وقحا في الرد على قضايه حين سأله هذا السؤال ، فأجابهم بقوله انه كان يحرق من الزيت في سراحه أكثر مما يشربون من النبيذ .

وصدر على كامبانييلا حكم مخفف بالعودة الى الدير في كالابريرا حيث يتلو صلوات التوبة وصلوة الموتى ثلاث مرات في يوم السبت .

وفي نابولي أيضا أصدر كامبانييلا كتابا اسمه « في الاحلام » وكتابا آخر اسمه « كرة اريستارخوس » يقارن فيه نظريات نياثاغورس بنظريات كوبرنيك الخاصة بالكرة الأرضية .

وبدلا من أن ينفذ الحكم ويذهب الى كالابريرا ، ذهب كامبانييلا الى روما ثم فلورنسا ثم بولونيا ثم بادوا . وفي بولونيا سرق منه بعض الرهبان المزيفين مخطوطات كتبه ، وفي بادوا التقى بجاليليو وغيره من العلماء . وفي بادوا حوكم بتهمة الفسق ولكنه برعء .

و قضى سنة من الهدوء النسبي ثم استولت الكنيسة هناك على مخطوطات كتبه وقدمته للمحاكمة عام 1594 أمام محكمة التفتيش بتهمة التشيع لفلسفة الفيلسوف اليوناني ديمقريط ( ٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م ) أول من تصور الكائنات مكونة من ذرات لا نهاية في عددها ، كما اتهمته بكتابة منشور الحادى ، ولكنه برعء من التهمتين ، غير أن الموضوع أحيل الى روما لمزيد من التحقيق . وفي روما عذب كامبانييلا وحكم عليه في 1596 بأن يستتر علينا آراء الزندقة المنسوبة اليه . وبعد سنة سجن مرة أخرى بتهمة الزندقة ، ولكن أفرج عنه بشرط أن يحدد رؤساؤه اقامته في الدير . وفي أغسطس 1598 أعيد الى كالابريرا .

ومنذ 1593 اشتهر كامبانييلا بدعوته لتنظيم عالمي للمجتمع تحت قيادة بابوية جديدة في كتابه « ملكية المسيحيين » وكتابه « في نظام الكنيسة »، وكانت هذه بدايات حلمه بالمدينة الفاضلة للانسانية كلها وبصلاح الكنيسة ويعودة البشر الى حالة البراءة الاولى .

كذلك كان كامبانيلا معاذياً للحكم الأسباني في كالابريا ، ولكنه كان يحتقر الفلاحين والطبقات الشعبية ويعتبرها في عداد البهائم أو في حكم الوحش . وكان البديل عنده هو حكم « الفيلسوف الملك » على نهج أفلاطون في « الجمهورية » أو « البابا ملكا » الذي يجمع في يديه حكم العالم روحياً وزمنياً .

وفي ٦ سبتمبر ١٥٩٩ قبض على كامبانيلا في كالابريا لاشتراكه في مؤامرة لطرد المحتلين الأسبان وتأسيس جمهورية ايطالية في كالابريا ، وحوكم في نابولي بتهمة الزندقة وبتهمة اثارة الفتنة . وكان شركاؤه خليطاً من الوطنيين والرهبان الاباحيين وأنصار الحرية والنبلاء المفسدين الذين لا تكاد تميزهم من قطاع الطرق . ولكن كامبانيلا كان يحلم باقامة جمهورية عالمية هي جمهورية الشمس حيث الدين كامل النقاء .

وتحت وطأة التعذيب اعترف كامبانيلا بالتهمتين ، ولكن ينجو من الاعدام ادعى الجنون طوال فترة التحقيق مع التعذيب التي امتدت ستة وثلاثين ساعة . وأنتهت المحاكمة في ١٦٠٢ بالسجن مدى الحياة بعد أن اقتنع المحققون بجنونه . واستمر كامبانيلا في ادعاء الجنون بين زملائه المسجونين وأمام الحراس حتى ظنوه بالفعل مجنوناً . غير أن مثل الادعاء الموجد من قبل نائب ملك إسبانيا دس عليه الجواسيس في الزنزارين المجاورة ، وكان يحادث أحدهم باللاتينية فبدا كامبانيلا له عاقلاً ، وقد ظل سجيناً ٢٧ سنة من ١٥٩٩ حتى ١٦٢٦ ، حين أفرج عنه بوساطة البابا أوريان الثامن ، وفكان عمر كامبانيلا يومئذ ٥٨ سنة .

وفي السجن كتب كامبانيلا مؤلفات عديدة كان أهمها « مدينة الشمس » الذي وضعه في ١٦٠٢ في سجنه بفالباريا ، ولكنه لم ينشر إلا في ١٦٢٣ في مدينة فرانكفورت ثلاث سنوات قبل اطلاق سراحه في ١٦٢٦ .

ثم سجن كامبانيلا مرة أخرى في روما وأفرج عنه في ١٦٢٩ ، فقد شاع عنه أنه مشارك في مؤامرة قام بها أحد مربيه . وكانت حياته في خطر فاعتكف في دير فراسكتاني ، ثم فر إلى باريس في ١٦٣٤ بنصيحة البابا وبمساعدة سفير فرنسا في روما . وفي باريس بسط عليه الكاردينال ريشليو رعايته وأجرى عليه ملك فرنسا معاشًا ، فقضى السنوات الخمس الأخيرة من حياته في هدوء حتى مات في ١٦٣٩ . ولكن ديكارت وغيره من فلاسفة فرنسا ومفكريها وأدبائها كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى رجل مثالى مجذوب من بقايا عصر مضى وانتفى ، وهو عصر

الرنسانس ، عصر ما قبل العقلانية، عصر المغامرة بالفکر وبالخيال وبالأسفار في عوالم لم يألفها الإنسان .

وقد لوحظ على كامبانيلا أثناء سجنه في كالابريا أنه حافظ على تحديه الفكري جملة سنوات . ولكن كتاباته منذ ١٦٠٦ اتسمت بمشاعية العقيدة الكاثوليكية وقبول السلطة البابوية . ولا أحد يعلم على وجه اليقين أن كان ذلك يمثل تحولاً حقيقياً في أفكار كامبانيلا أم أنه كان مجرد تراجع تكتيكي لتجنب التعذيب بالخداع .

وكان كامبانيلا منذ شبابه قد اتخذ لنفسه شعاراً هو : « لن أصمت أبداً » وكان يقول عن نفسه : « إنما ولدت لأقاتل ثلاثة شرور ، هي الطغيان والفسحة والنفاق » . وقد كتب خلال حياته ٨٨ كتاباً لم يعد أحد يقرأ منها إلا أربعاً هي : « مدينة الشمس » (١٦٠٢) ، وهي المدينة الفاضلة ، و « في الملكية الإسبانية » (١٦٠٢) ، وهو كتاب يهاجم الاستبداد السياسي ، و « الحس بالأشياء » (١٦٢٠) ، وهو كتاب يدافع عن علم الفسيولوجيا ، أي وظائف الأعضاء ، كما كان معروفاً في زمانه ، و « دفاع عن جاليليو » (١٦٢٢) ، وهو دفاع مجيد عن العلم رغم أنه لم يخرج عن إطار الأفلاطونى ويقوم على قبول حياة الرهبانية .

كان كامبانيلا يصف فلسفة أرسطو وأرسطاطاليسيية العصور الوسطى بأنها مجرد معارك كلامية ، وقد حاول بناء الميتافيزيقا أو علم ما وراء الطبيعة على العلوم الطبيعية . وكان معبد العلم عنده متحفاً ضخماً للتاريخ الطبيعي يشتمل على صور لكل ما في السماء وما على الأرض ، وكان أطفال مدینته الفاضلة يتلعلون مبادئ الجغرافيا والفلك والبيولوجيا وعلم التشريح بالاطلاع على هذه الصور . أما الدراسات اللغوية فقد كانت عند كامبانيلا مجرد تحصيل يعتمد على الذاكرة ، وكذلك فقد أهدر كامبانيلا الدراسات الإنسانية التي كان يدعوا إليها دعامة الهيومانزم أو المذهب الإنساني ، وأهدر أحياء التراث الفكري الذي تركه القدماء ، وكان يرى أن أساس الفلسفة هو العلوم وليس الآداب .

وكان الانجليز في القرن السابع عشر يسمون كامبانيلا « مكيافيلي الثاني » ، لدوره في حركة التحرير الوطني في جنوب إيطاليا ومقاومة الحكم الإسباني ولاعتباره أن الغايات تبرر الوسائل — ولدعوته القائلة بسيادة الكنيسة على الدولة ، مما أفسح لكامبانيلا مكاناً في تاريخ النظريات السياسية بوصفه من وأضعى أساس نظرية السيادة ، وقد خصص له هيجل صفحات في كتابه « فلسفة التاريخ » بمثل ما خصص لجورданو

برونو . وقد استحق كامبانييلا بسبب رؤياه التى صور فيها المدينة الفاضلة أن ينقش اسمه على مسلة في الميدان الأحمر في موسكو بين أسماء من يعدهم الروس آباء الثورة الروسية .

وقد لاحظ بعض مؤرخى الفكر أن التهم التى وجهت إلى كامبانييلا في ١٥٩٩ أيام مؤامرة تحرير كالابريا من الأسپان كانت كافية للحكم عليه بالاعدام شنقاً وحرقاً بمنطق ذلك الزمان لو ثبتت عليه . فبين التهم الدينية: انكار وجود الله والجنة والنار والجن والشياطين ، والقول بأن الأسرار المقدسة كسر الفريبان المقدس لا قيمة لها ، وإنما هي وسائل لتوطيد سلطة الكنيسة أو توطيد سلطة الدولة عن طريق الكنيسة ، كذلك انكاره لمعجزات الأنبياء وقوله أنها ظواهر طبيعية وقوله بأن الثالوث فكرة فاسدة . أما التهم السياسية فأهمها أنه كان ينوى الانضمام إلى الاتراك الذين كانوا يحاولون غزو كالابريا والاستيلاء عليها من الأسپان ، وأنه كان ينوى إقامة جمهورية في كالابريا .

وقد كان بين شهود الأثبات شهود زور من بين الرهبان وزملاء في مؤامرة كالابريا اعترفوا بما يخالف الحقيقة تحت وطأة التعذيب . . . ومن بين هؤلاء قاطعوا طريق من النبلاء المتآمرين المشتركين في الثورة على الحكم الأسپانى ، وقد اعترف أحدهما ، وهو موريتسيو دى رينالدو قبل أن يصعد إلى المشنقة أن كامبانييلا لم يكن على علم بالمفاوضات التي كانت تجرى مع رجال أسطول سيكالا قائد البحرية التركى . ولم يعترف كامبانييلا نفسه إلا بوضعه مشروعًا لإقامة جمهورية مسيحية في كالابريا ثم في إيطاليا ، بعد تحريرها من الأسپان ، ثم في العالم كله .

ويفسر بعض المؤرخين الاكتفاء بسجن كامبانييلا دون اعدامه بأنه تعبر عن التناقض بين السلطات الروحية والزمنية أو بين السلطات الإيطالية والسلطات الأسپانية ، باعتبار أن كامبانييلا رغم تجديفه – أو على الأقل رغم آرائه غير المألوفة – كل بطل تحرير قومي . وعلى كل من المهم أن نذكر أن كامبانييلا نفسه كان يعدل من مخطوطاتكتبه أو يعيد صياغة مطبع منها مع اختلافات واضحة في المضمون بقصد انتقاء شر أعدائه الذين أبقوه في السجن سبعاً وعشرين سنة ، أو بقصد تضليلهم عن مراميه الحقيقية . وقد حوله السجن المديد والتعذيب إلى انسان ماكر مراوغ يظهر مالاً يبطن . حتى كتابه « مدينة الشمس » الذى يعد حجر الزاوية في فلسنته عرف بعض التعديلات في طبعاته المختلفة .

وقد أتم كامبانيلا «مدينة الشمس» في ١٦٠٢ أثناء سجنه في كالابريا باللغة الإيطالية . ثم ترجمها إلى اللاتينية وصدرت في طبعتها اللاتينية في فرانكفورت عام ١٦٢٣ ، وهو لازال مسجونا ، ثم في باريس عام ١٦٣٧ أثناء اقامته فيها قبل وفاته بعامين ، ثم في أوتريخت عام ١٦٤٣ بعد وفاته بأربعة اعوام ، وفي كل هذه تعديلات ملحوظة ، كما كان هناك عديد من المخطوطة التي جرى عليها التعديل، ولكن الجوهر واحد بطبيعة الحال .

واهم ما تمثله «مدينة الشمس» لكمبانيلا امران : اولهما أنها تعد اكبر قاعدة في علم المعرفة لفلسفة العلوم التي قامت عليها الحضارة الأوربية الحديثة ، ولاسيما العلوم الطبيعية . ومن مؤرخي الفكر من يذهب إلى أن فرانسيس بيكون ، مؤسس المنهج العلمي التجاري في الحضارة الأوربية الحديثة ، ربما قد اطلع على «مدينة الشمس» في طبعة فرانكفورت عام ١٦٢٣ ، قبل أن يكتب مدینته الفاضلة الشهيرة «بأطلنطيس الجديدة» . فنحن لا نعرف على وجه التحديد متى فرغ بيكون من تدوين كتابه هذا .

وقد كانت عبادة العلم من مؤلف الأشياء التي تميز بها فكر أنصار الجديد في عصر النهضة الأوربية رغم مقاومة الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تستند تعاليمها في الفلك وفي الطبيعة وفي التاريخ الطبيعي وفي التاريخ وفي الجغرافيا الخ .. من الكتاب المقدس ومن كتب أرسطو وبطليموس الجغرافي ، وتوقف موقعا معاديا لكل منهج علمي أو مقولات علمية تتعارض مع هذه الموروثات بالدليل النقلی . بل لقد كانت هناك «ثقافتان» متميزتان : ثقافة العلماء والمنقفين التي تقوم بتحولات العلم الحديث وتحاول أن تحل المشاكل الفكرية والدينية على الأساس العلماني ، وثقافة فقهاء الدين التي لا تعرف بوجود هذا البرزخ الذي يصل الدين بالدنيا ويجعل للعالم مكانا وسط كل هذه الالهيات .

ولكن الأمر الثاني في «مدينة الشمس» الذي كان بمثابة صدمة فكرية لمعاصري كامبانيلا ، كان دعوة كامبانيلا لالغاء الملكية الفردية واللغاء نظام الاسرة . وقد قرأ مكسيم جوركى «مدينة الشمس» وهو في ايطاليا وحدث عنها لوناتشسارسكي ولينين . وكان اكثر ما لفت انتظار مؤسسى الشيوعية الروسية هو طريقة تعليم العلوم بالصور ، وقد صدرت بعد الثورة الروسية توجيهات ثورية بوضع الفن في خدمة العلم .

• • •

## مدينة الشمس

□ و « مدينة الشمس » هي المدينة الفاضلة . كما يسمىها كامبانيلا .  
ونستطيع أن نلحظ فيها تأثيرات من جمهورية أفلاطون ، والنحى نفسه قائم على حوار بين رجلين ، هما قائد من قواد « فرسان القديس يوحنا » وقبطان من ميناء جنوا كان ينزل ضيفا عليه .

ويطلب القائد من القبطان أن يروي عليه ما جرى له خلال ترحاله .

قال القبطان انه طاف بالعالم كله ، وفي اسفاره وصل الى مكان اسمه تايروبان ، وأضطر أن يرموه هناك ، ولكنه اختبأ في غابة خوفا من السكان الأصليين . وحين خرج من الغابة وجد نفسه على سهل تحت خط الاستواء مباشرة ووجد نفسه بين عدد غفير من الرجال وبين نسوة يحملن السلاح وأكثرهم كان لا يفهم لغة وطنه .

وعلى الفور قادوه الى مدينة الشمس وهي فردوسهم الارضى ..  
ووجد المدينة مبنية في هيئة دوائر قطرها ميلان ومحيطها سبعة أميال . وهي مقامة على تل مرتفع يحيط به سهل متسع .

وكانت المدينة مقسمة الى سبع دوائر واسعة ، الدائرة ضمن الأخرى ، سميت على أسماء الكواكب السيارة وكأنها صورة مصغرة من النظام الفلكي كما كانوا يتصورونه في العصور الوسطى ، وهذه الدوائر متصلة فيما بينها بأربع بوابات مفتوحة على الجهات الأربع الأصلية .

وقد صممت المدينة بطريقة تجعل غزوها غالية في الصعوبة : فإذا غزت الدائرة الأولى وسقطت فالغزاة يحتاجون الى ضعف عدتهم من الرجال والعتاد والجهد لاقتحام الدائرة الثانية . وهكذا فلابد من مضاعفة الهجوم كلما اقترب الغزاة من مركز الدائرة او مركز مدينة الشمس حيث المعد قائم في مأمن من كل يد عادية . قال القبطان : وفي رأيي ان مناعة أسوار الدائرة الأولى ذاتها تجعل اقتحام نطاقها الاول امرا مستحيلا .

واستطرد القبطان قائلا : وأخذوني لاجتياز البوابة الشمالية ، فرأيت مسافة متساوية عرضها سبعون خطوة ما بين السورين الأول والثاني . ومن

هناك أبصرت قصورا فسيحة كلها متلاصقة ، ظهرها مستند الى دائرة السور الثاني بطول الدائرة حتى لقد حسبت أنها قصر واحد . وفي واجهتها بوابات ترتفع الى منتصف القصر بطول الدائرة . وعلى هذه البوابات طرق للنرفة ترتكز على أعمدة ضخمة جميلة متسقة ، فكأنما البوابات أقباء دير جبيل .

وبين كل سور دائري وسور دائري آخر هناك سهل خصيب . وفي مركز هذه الدوائر السبع سهل عظيم في أعلى التل ، يتوسطه معبد عظيم يصل اليه القاصد بدرج خفيف التدرج لا مشقة في ارتقائه حتى بلوغ هذا المعبد المركزي في قمة التل ، وهذا الدرج يمتد من السور الخارجي حتى آخر سور في الداخل .

أما المعبد فهو دائري الشكل في بنائه ولا تحيط به أسوار ، وإنما يقوم على أعمدة غلاظ شامخة منسقة في بهاء . وفي أعلى المعبد قبة ترتفع من قبة ، وهي نوق المذبح مباشرة ، ومن حول المذبح أعمدة . والمعبد نفسه على رقعة طولها ٣٥٠ خطوة ، ومحاط بالبوابات القائمة على أعمدة ترتفع فوقها حلقة أخرى من الأعمدة ، وكل هذه البوابات تحتها ممرات أو طرقات رصفها آية في الجمال ، وفيها آرائك ثابتة بين الأعمدة . وهناك كراسى تنقل باليد وهى تحف عظيمة البهاء . وليس على المذبح الا كرة جسمية نقشت عليها نجوم السماء ، وككرة أخرى تمثل الأرض ، وعلى النجوم أسماؤها ووصف لتأثيرها على كائنات الأرض . ورصيف المعبد لامع ومطعم بالأحجار الكريمة ، وفيه سبعة مصابيح ذهبية دائمة الاشتعال ، وهي مسماة على أسماء الكواكب السارية .

وهناك في أعلى المعبد عدد من الصوامع الجميلة التي تحيط بالقبة الصغرى ، كما أن هناك صفوفا من الصوامع تحت الأقباء أو البوابات في الداخل والخارج ، وهى في أحجام مختلفة ، وفيها يقيم كهنة المعبد وعددهم تسعة وأربعون كاهنا ، وعلى القبة الصغرى يرفرف علم يلف في اتجاه الريح ويبيّن للكهنة مسار الرياح ، ومنه يعرفون الطقس وأنواع السنوات في البر والبحر . وتحت القبة كتاب منقوش بحروف من ذهب .

وحين يسأل القائد عن نوع الحكومة القائمة في هذه المدينة الفاضلة ، يجيب القبطان قائلا : يحكم « مدينة الشمس » كاهن اسمى اسمه « هوه » ( تنطق على وزن « خوخ » بالعربية العالمية ) ، ولكن يجب علينا ان نسميه « ميتانيزينا » ( أي ما وراء الطبيعة ) . ومعنى هذا ان كامبانيللا يقول لنا

أن رئيس هذه الدولة ، أو هذه المدينة الفاضلة ، هو أعلم حبر في أمور الالهيات أو في أمور الغيب — وهو أرفع الكهنة شأنًا وأقوىهم سلطة كما أنه يقتضى في كل الأمور الروحية والمادية .

ويعلون « هوه » في ممارسة سلطاته ثلاثة أمراء : أحدهم يدعى « بون » ( ينطق على وزن « بن » القهوة ولكن ببناء ثانية ) ، وهو « أمير القوة » ، والثاني يدعى « سن » ( وينطق على وزن « سن » مفرد « أسنان » ) ، وهو « أمير الحكمة » ، والثالث يدعى « مور » ( وينطق على وزن « مر » ، عكس « حلو » ) ، وهو « أمير الحب » ،

وتتبع « أمير القوة » شئون الحرب والسلم ، وهو يتحكم في الجيش وفي القادة العسكريين ، وتتبعه الذخيرة والتحصينات والأسلحة والعتاد والحدادون وصناعة السلاح .

أما « أمير الحكمة » فتتبعه الفنون الحرفة والفنون الميكانيكية وكافة العلوم ، إنما يدخل تحت ولايته العلماء والفقهاء . ومن العلماء التابعين له عالم اسمه « الفلكي » ، وأخر اسمه « عالم الفضاء » ، وثالث اسمه « عالم الرياضيات » ، ورابع اسمه « المهندس » ، وخامس اسمه « المؤرخ » ، وسادس اسمه « الشاعر » ، وسابع اسمه « المنطيق » ، وثامن اسمه « عالم البلاغة » ، وتاسع اسمه « النحوى » ، وعاشر اسمه « الطبيب » ، وحادي عشر اسمه « الفسيولوجي » ، وثاني عشر اسمه « الأخلاق » . ولمؤلاء العلماء كتاب واحد يسمونه « كتاب الحكمة » ، وقد سطرت فيه كافة العلوم بدقة متناهية وبأسلوب متدقق ، وهم يقرعون هذا الكتاب على الناس على طريقة الفيثاغوريين ، وهذه « الحكمة » هي التي تزين أسوار « مدينة الشمس » العليا والسفلى ، من الداخل ومن الخارج بالصور الرائعة ، وهى التى ترسم فى هذه الصور توضيحات كل العلوم وعلى جدران المعبد وعلى القبة رسمت صور النجوم بحسب جرم كل منها وما فيه من حركة ومآلها من تأثير .

على سور الدائرى الأول من الداخل رسمت مبادىء الرياضيات ، كل الأرقام والمعادلات الرياضية ومعها تفسيراتها وحلولها مبلورة فى قصائد صغيرة جميلة ، وهذه هي الطريقة الفيثاغورية فى التعليم . أما من الخارج فقد رسمت الأرض كلها وكل قطر من قطراتها أى مبادىء علم الجغرافيا ، مع توضيح عاداتها العامة والخاصة وتوازيتها ومتناها سكانها ، أى مبادىء علم الاجتماع ، كل الشعوب موضحة فوق أبجدية « مدينة الشمس » .

وعلى السور الدائري الثاني من الداخل هناك صور لكل الأحجار الكريمة وغير الكريمة والمعادن وخصائص كل حجر ومعدن ملخصة في بيتهن من الشعر ، فهي تصور مبادئ الجيولوجيا . أما من الخارج فقد صورت كافة البحار والبحيرات والأنهار وكل ما في الأرض من سوائل ، كما كانت هناك رسوم للرعد والبرق والثلج والعواصف . وهذا استكمال للجغرافيا وللأرصاد الجوية .

وعلى السور الدائري الثالث من الداخل رسمت مبادئ علم النبات : كل أنواع الأشجار والنباتات مع بيان طبيعة كل منها . أما من الخارج فقد رسمت كل أنواع الأسماك والمخوقات البرية مع بيان خصائصها ، وبذلك وضعت أساس علم « الأحياء المائية » .

وعلى الدائرة الرابعة من الداخل رسمت كل أنواع الطيور مع بيان طبائعها وخصائصها وعاداتها . وسكن « مدينة الشمس » وحدهم يملكون العنقاء الوحيدة في العالم . أما من الخارج فقد رسمت كل أنواع الزواحف والحشرات ، الخ ..

وعلى الدائرة الخامسة من الداخل رسمت حيوانات الأرض الجسيمة ، وهي ألف مرة أكثر مما نعرف ، ومن الداخل رسمت فصائل هذه الحيوانات ، فكانت من الحسان وحده مائة فصيلة .

وفي الدائرة السادسة رسمت كل الفنون الميكانيكية مع أدواتها وبيان طرق استعمالها ومخترعاتها . أما من الخارج فقد رسمت صور كل المخترعين والمكتشفين في العلوم وفي فن الحرب وصور المشرعين . أما المشرعون عند كامبانيللا فقد كانوا أوزيريس وجوبير وهرميز وليكورجوس وفيثاغورس وصولون من عصور الوثنية ، وموسى والمسيح ومحمد من عصور التوحيد . أما عظماء التاريخ فقد رأى القبطان منهم صور الاسكندر ويوليوس قيصر وبيروس وهانيبال .

وقيل للقططان ان أهل « مدينة الشمس » يعرفون كل لغات العالم ويوفدون المكتشفين والسفراء الى كل البلاد ، ومن هنا معرفتهم بتاريخ كل بلد وبعادات كل شعب ، ومنهم عرف القبطان أن أهل الصين عرفوا المدفع والمطبعة قبل أن تعرفهما أوروبا ، والأطفال في « مدينة الشمس » يتعلمون كل شيء من الصور دون عناء .

قال القبطان :

في « مدينة الشمس » نجد الرجال والنساء متحابين ولذا فهم ينسرون احسن النسل . وهم يعجبون منا لأننا نهتم بسلامات الخيل والكلاب بينما نهمل سلامات البشر . ولذا فما تعلم الأطفال عندهم من اختصاص « أمير الحب » .

وحين استفسر قائد فرسان القديس يوحنا عن نظام الحكم في « مدينة الشمس » ، ان كان ملكيا أم جمهوريا أم استقراطيا ، أجاب قبطان جنوا أن أهل « مدينة الشمس » جاعوا أصلاً من الهند فراراً من سيفون المجروس ومن الطغاة النهايين ، وقرر أن يعيشوا معاً في أخاء الحكماء وال فلاسفة فجعلوا كل شيء متساوياً بينهم : المعرفة والمجد واللذات والمال . كل شيء عندهم على المعاش ، حتى الزوجات . وهي يقولون إن الملكية الفردية إنما تكتسب وتتنمية بسبب نظام الأسرة ، وهذا يؤدي إلى حب الذات . فإذا ألغى نظام الأسرة لم يبق إلا حب الدولة .

صاحب قائد فرسان القديس يوحنا : هذا ما يقوله أفلاطون في « الجمهورية » ، وقد رد عليه أرسطو بقوله إن هذا سيفري الفاسد بالتوابل والانصراف عن العمل ليعيشوا على ثمار عمل الغير . فأجاب قبطان جنوا قائلاً أنه لاحظ أن أهل « مدينة الشمس » من أكثر الشعوب تقليداً في حب وطنهم ، ومن يمت دفاعاً عن الوطن لا يقيم وزناً للمال . ولو أن الرهبان أظهروا مثل زهدهم في المال لجعلوا الدنيا مكاناً لحياة أرقى .

قال القائد : اذن فالصداقات بينهم لا معنى لها عندهم لأنهم لا يتبادلون الهدايا والعطايا . فأجاب القبطان بأن العطايا عندهم ممنوعة ، فكل منهم يحصل فقط على ما يأتيه من الجماعة . والحكام يحظرن أن يأخذ أي منهم أكثر مما يستحق أو يحتاج إليه ، ولكنهم يضمنون الضروريات للجميع . أما الصداقات عندهم فتتجلى عند المرض وفي الحرب وبتبادل التعليم ، وابناء كل جيل يسمون بعضهم بعضاً « الاخ » فلان . وليس بينهم سرقة ولاقتل عمد ولا زنا ولا تدنيس الحرام ولا انحلال خلقي كالذى نجده فيما بيننا . والقضاة يسهرون على ذلك .

وكل شيء في الحياة مشترك في قاعات الطعام أو في غابات النوم . والرجال يقومون بالأعمال الشاقة ، والنساء يقمن بالصناعات المنزلية وبحلب اللبن وصناعة الجبن وبالغزل والنسيج والخياطة والحلقة وقص الشعر . وهن يتعلمن الموسيقى من دون الطلبة والفنير . والشباب دون الأربعين يخدمون الشيخوخ فوق الأربعين . والسفرجية بنات وصبيان دون العشرين . والرجال يجلسون للطعام في صفين النساء في الصف المواجه ، والطعام

يجري في صمت كما هو الحال في الأديرة . وأثناء الطعام يقرأ شاب كتاباً بصوت مرتل ، وكمبانيللا كان يستعمل كلمة « كومون » بمعنى الحياة المشتركة ، لوصف هذه الحياة الجماعية في « مدينة الشمس » ، وهذا ما جعل له مكاناً خاصاً في تاريخ الفكر الاشتراكي .

وبعد الفطام ترعى النساء الأطفال الإناث ويرعى الرجال الأطفال الذكور .. وبعد سن السادسة يتعلم الأطفال صنعة من الصنائع ، كل بحسب ميوله واستعداده . أما ضعاف العقول فيرسلون إلى الحقول حتى يتم تدريبهم ثم يصبحون مواطنين . والعمل اليدوي شرف في « مدينة الشمس » . وهم يسخرون منا لأننا نحتقر العمل اليدوي ونسمى من لا يتقنون عملاً من الأعمال ويعيشون في بطالة بالوراثة « بالثباء » .

وليس بين أبناء « مدينة الشمس » أحقاد ولا تحاسد على المناصب لأنهم لا يطمعون في حياة الترف : فكل شيء عندهم يدار لصالح الأمة وليس لصالح الأفراد ، فهم يخالفوننا في نظرتنا إلى الأسرة والأطفال . نحن نرى أن النظام الطبيعي هو أن يعترف الإنسان بنسله ويتكلل بتربيتهم ، وينظر إلى زوجته وداره على أنها ملك له . أما هم فيرفضون ذلك ويقولون أن الأطفال يأتون لحفظ النوع لا لتعتننا الخاصة ، وهذا عين ما قاله القديس توماس الإكويبي .

ولما كان أكثر الناس ينجبون النسل بالخطأ ويربون البناء تربية خطأة ، وهذا تخريب للدولة ، فأهل « مدينة الشمس » يعتقدون أن في امكانهم إزالة هذا التخريب لأنهم يعهدون بتربية أولادهم إلى قضاة المدينة لأن الأولاد هم عماد الجمهورية ، وذلك من باب حماية الجمهورية . وهم لهذا ينتظرون أفضل الشباب والشابات ليضمنوا انجاب أفضل نسل ممكن بحسب مبادئ الفلسفة . ويرى أفلاطون أن هذا الاختيار يجب أن يتم في الظاهر بالقرعة حتى لا تثور المحرمات من النساء غير الجميلات على قرارات القضاة . فلا مناص عند أفلاطون من الخداع بحيث تعطى أجمل النساء لأصح الرجال ، أما الرجال المعتلون فيوزع القضاة عليهم ما يستحقون مع ايهامهم أنهم نالوا نصيبيهم .

أما في « مدينة الشمس » فهذا الإيهام لا لزوم له ، لأن أهل المدينة يعتقدون أن الجمال هو الصحة والصحة هي الجمال ، فإذا صنعت المرأة وجهها لتبدو جميلة أو أطلالت كعبتها لتبدو طويلة أو أطلالت ثوبها لتخفى حذاءها العالي حكم عليها بالاعدام .

وليس في « مدينة الشمس » أرقاء لأن كل الناس تعمل أربع ساعات يومياً . (وهنا يقول كامبانيللا على لسان القبطان ان نابولي كان بها ٧٠٠٠ ر.)

نسمة لم يكن يعمل منهم الا ١٥٠٠٠ نسمة أما الباقيون فكانوا يتسلكون في حياة الكسل والشهوات وجمع المال الحرام ويسترقون آلاف الأسرات بسبب فقرها . وبعد ساعات العمل الأربع يقضى أهل «مدينة الشمس» بقية يومهم في الاطلاع والمناظرات والكتابة والرياضية . والألعاب الذهنية محظورة وكذلك الشطرنج ، والألعاب الوحيدة المصرح بها عندهم هي الألعاب الرياضية الاسبرطية .

وعند أهل «مدينة الشمس» أن الفقر الشديد يجعل الناس عديمي القدرة ، ماكرين أنفاظاً متوجهين ، لصوصاً ، صعاليك ، كذابين ، يشهدون بالزور . أما الفن الفاحش فهو يجعل الناس وقحين متقطرسين ، جهالاً أدعية ، خونة غشاشين ، فشاريين يمزقون سمعة الناس دون ضمير ، ناقصين في المودة ، الخ .

وقضاء المدينة فيهم الرجال والنساء ، وهم يلبسون نفس الزي ، إلا أن عباءة النساء أطول من عباءة الرجال ، فهي تحت الركبة .

والرئيس « هو » منتخب مدى الحياة ، وهو عندهم أعلم الناس وأحكامهم وأعرفهم بالأمور الاليمية ، وهو لا ينفرد بالسلطة أبداً بل يعمل في انسجام مستمر مع « أمير القوة » ومع « أمير الحكمة » و « أمير الحب » . وحكمته تعصمه من الاستبداد .

والنساء في « مدينة الشمس » يشترين في القتال مع الرجال . وأهل المدينة لا يهابون الموت لأنهم يؤمنون بخلود الروح ، وهم يتبعون إلى حد ما البراهما وفيثاغورس ولكنهم لا يؤمنون بتناسخ الأرواح . وهم شديدو الاهتمام بفن الحرب ويتدرّبون على القتال يومياً خشية أن تصيبهم الطراوة فيعجزون عن رد العدو اذا نزلت نازلة مفاجئة . وليس في المدينة الا سجن واحد يضعون فيه أعداء الجمهورية والثائرين عليها .

أما عن ديانة « مدينة الشمس » فأهلها يعبدون الله ، وهم يمجدون الشمس والنجوم ولكنهم لا يعبدونها : هم يعبدون الله ويعظمون الشمس . والثلاثون عندهم هو : القوة العليا والحكمة العليا والحب الاعلى وثلاثتها صفات لله الواحد ، وليس لها أسماء مستقلة أو وجود مستقل .

هذا مجمل وصف الحياة في « مدينة الشمس » ، ويلاحظ في تصور المدينة الفاضلة لكامبانيلا أنه بنى على بعض أساس جمهورية أفلاطون ، لأن أفلاطون حصر شيوعية المال والنساء في طبقتين هما الارستقراطية

( الصنفة ) الحاكمة من جهة والجند والطبقات الدنيا من جهة أخرى . أما الطبقات الوسطى فهو لم يطبق عليها نظام الملكية العامة ، لأن حاسة الملكية الفردية لديها بالغة القوة .

ومهما يكن من شيء فإن مدينة كامبانيا لا تمثل عودة للحلم الأفلاطوني معدلاً بأن يحكم الجمهورية الفاضلة « الملك الفيلسوف » أو « الفيلسوف الملك ». وذلك لا يكون إلا إذا اجتمعت القوة والفكر أو العلم في شخص واحد . وهذا وجه التناقض في الفكر الأفلاطوني : الغزل الدائم بين الفكر والسيف ، إن أصحاب « مدينة الشمس » وجدوا أن أعلم الناس اقدرهم على الحكم ، وهم يرون أن نظامهم أفضل من نظامنا ، لأننا نضع في السلطة الجهال ونرضى بهم مجرد أنهم من أبناء البيوتات أو من محاسيب القوى السياسية والاقتصادية .

و « هو » ، رئيس « مدينة الشمس » ، هو الوحيد الذي تأته حكمته من الحياة ومن الطبيعة . أما بقية حكماء المدينة ، فكل حكمتهم تأته من بطون الكتب شأن قراءة أرسطو وغيره ، وهم لا يعرفون شيئاً عن الحياة ، فكل علومهم نقيلة من الذاكرة .

« المؤثرات الاسبرطية » واضحة في « مدينة الشمس » كما هي واضحة في « جمهورية » أفلاطون ، وأهمها الشسف بالرياضة البدنية وعبادة « الصحة » والتقييف الدائم والاستعداد الدائم للحرب والقتسوة على الضعفاء إلى حد تعريضهم عرايا لثوج الشتاء وعواصفه حتى لا ينجو من الأطفال إلا من يصلح حقاً للحياة . كذلك من المؤثرات الاسبرطية نظرية تحسين النسل بالانتخاب الصناعي أي بتزويع أصح الفتيان لأجمل الفتيات ، وكأننا في مزرعة خيول أصيلة .

و ظاهر الأمر يوحى بأن كامبانيا لا كان مطلعاً على قصة السندباد البحري وربما قصة « حي بن يقطان » لابن طفيل وربما قصة « الأسراء والمعراج » لابن عباس في ترجماتها اللاتينية أو في نصوصها العربية ، ولكن أهم ما في « مدينة الشمس » هو أنها كانت متحفاً عظيماً للعلوم وللمعارف الإنسان فهي بمثابة البداية الحقيقية لحضارة العلم الحديث .

● ● ●

**مطبوعات  
مركز الأهرام للترجمة والنشر**

□ كتب للأطفال والنشء  
في مجال العلوم

- ( ترجمة د . محمد أمين سليمان )
- ( ترجمة د . أيمن الدسوقي )
- ( ترجمة د . أحمد فؤاد باشا )

- الموسوعة العلمية الأولى للأطفال
- طرائف والت ديزنى بالكمبيوتر
- ميكى يسأل ويجيب

□ سلسلة علماء العرب

- ابن النفيس ( مكتشف الدورة الدموية الصغرى ) .

- ابن الهيثم ( عالم البصريات )

- البيروني ( عالم الجغرافيا الفلكية )

- جابر بن حيان ( أبو الكيمياء )

- ابن البيطار ( عالم النبات )

- ابن بطوطة ( رحلة الإسلام )

( سليمان فياض )

□ في مجال التربية البدنية والرياضية

- موسوعة جو في الرياضية

- السباحة والغطس

- الألعاب الأوليمبية

- العاب الأطفال

( ترجمة : نجيب المستكاوى ) .

□ في مجال ترقية المهارات والخيال

- اللوان اللوان

- اللوان اللوان - حيوانات الغابة

- اللوان اللوان - حول العالم

- اللوان اللوان - حيوانات أليفة

- تعال نصنع

- رحلة صيد

- حكايات أعجبتني

- حكايات عربية واسلامية ( جزئين )

( عليه توفيق - رسوم : كمال درويش )

□ في مجال التربية الفكرية

(أحمد بهجت)

● حوار بين طفل ساذج وقط مثقف

□ كتب الابداع الأدبي

- طرائف دبلوماسية
- عرابى زعيم الفلاحين
- كانت صعبة ومغرورة
- المجانين لا يركبون القطار
- مسافر على الرصيف
- (السفير جمال بركات)
- (عبد الرحمن الشرقاوى)
- (احسان عبد القدوس)
- (لطفى الخولي)
- (محمود السعدنى)

□ كتب في الابداع الفكرى

- سرقة ملك مصر
- معجم الأمثال العالمية مع كتاف موضوعى (أحمد تيمور باشا)
- انطباعات مستقرة
- مذكرات صائم
- ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوروبية
- (محسن محمد)
- (د . يوسف ادريس)
- (أحمد بهجت)
- (د . لويس عوض)

□ كتب دينية

- قراءة في وثائق البهائية
- القرآن مأدبة الله للعالين
- معانى القرآن بين الرواية والدراءة
- الله في العقيدة الإسلامية
- الفاروق عمر بن الخطاب
- نحل العسل في القرآن والطب
- التدين المنقوص
- (د . بنت الشاطئ)
- (الشيخ احمد حسن الباقدرى)
- (الشيخ احمد حسن الباقدرى)
- (أحمد بهجت)
- (عبد الرحمن الشرقاوى)
- (د . محمد البنبى)
- (فهمى هويدى)

□ كتب سياسية وفكيرية

- ملفات السويس
- محاربون ومقاومون
- نحن والعالم ونحن وانفسنا
- المأزق العربى
- شهود العصر الاهرام ١١٠ مقالات و ١١٠ اعوام
- (محمد حسين هيكيل)
- (كمال حسن على)
- (ابراهيم نافع)
- (لطفى الخولي)

كتاب علمية وطنية □

لذ ای

( د . محمد صادق صبور )

مرض نقص المذاعة المكتسب

□ معاجم وموسوعات

## ● معجم مصطلحات الحاسوب الالكترونية

● الموسوعة المصورة للشباب

( مركز الأهرام للترجمة والنشر )

( ترجمة د . محمد أمين سليمان )

( ترجمة د . أحمد فؤاد باشا )

2

رقم الایداع بدار الكتب

١٩٨٧ / ٢٤٧٣

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر

من أهم اهتمامات الاستاذ الدكتور لويس عوض - بعد النقد الادبي - تاريخ الفكر . وقد صدرت له حتى الآن خمسة مجلدات في تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر اسماعيل ، ومن عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ .

وهو الآن يقدم دراسته الأولى عن تاريخ الفكر الأوروبي الحديث في عصر الرنسانس المعروف بعصر النهضة الأوربية ، ليبين لنا الارتباط الوثيق بين ثورة الفكر الأوروبي ونشأة الحضارة الغربية الحديثة . وقد بدأ بأعلام الأدب والفن والعلم والاستكشاف في إيطاليا من ماركتوبولو إلى جاليليو .

والأعلام الذين يتناولهم هذا الكتاب هم :

- |                       |                             |
|-----------------------|-----------------------------|
| ( ٩ ) ليوناردو دافنشي | ( ١ ) ماركتوبولو            |
| ( ١٠ ) رفائيل         | ( ٢ ) دانتي اليجيري         |
| ( ١١ ) ميكلانجلو      | ( ٣ ) بترارك                |
| ( ١٢ ) إرازموس        | ( ٤ ) بوكاشيو               |
| ( ١٣ ) جورданو برونو  | ( ٥ ) مكيافيلي              |
| ( ١٤ ) جاليليو        | ( ٦ ) لورنزو دي مدичي       |
| ( ١٥ ) كامبانيللا     | ( ٧ ) سافونارولا            |
|                       | ( ٨ ) بيكتو ديللا ميراندولا |

مركز الأهرام للترجمة والنشر  
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع  
ش الجلاء - القاهرة